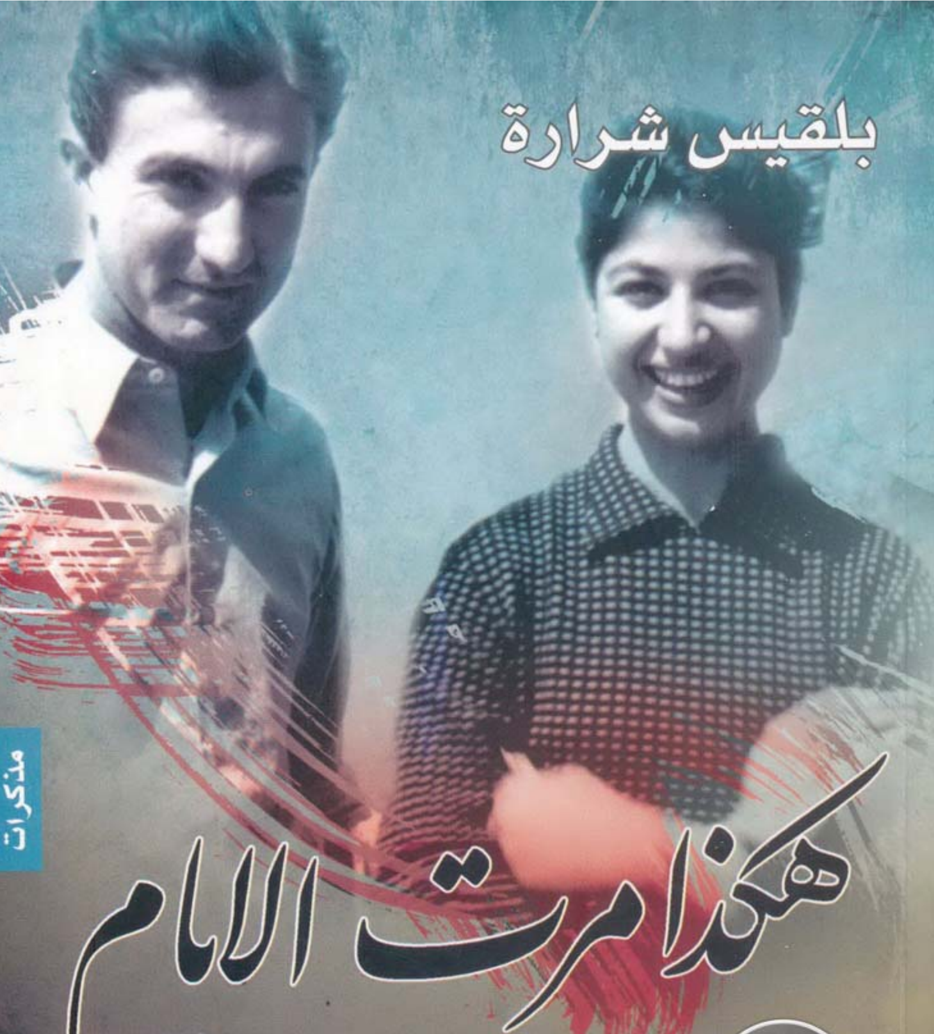

هكذا مرت الايام

بلقيس شرارة

مذكرات

@ketab_n
Follow Me
9.4.2016

بلقيس شرارة

هكذا مرت الايام

Twitter: @ketab_n

هكذا مرت الايام

Twitter: @ketab_n

مذكرات

المؤلف: بلقيس شرارة

عنوان الكتاب: هكذا مرت الايام

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

الناشر: دار المدى

الطبعة الاولى: 2015

جميع الحقوق محفوظة

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول

info@daralmada.com

+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

al-madahouse@net.sy

ص.ب: 8272

+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.

Twitter: @ketab_n

الإهداء

إلى رفعة، رفيق العمر، الذي لولاه لما دوّنت هذا الكتاب

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

شكر

ليس من المفروض أن يقــدم الناشر شخصياً على تصحيح ما يرد له مــن كتــب، إلا ان ما تربطنا به من علاقــات، جعلته يصرّ على تحرير الكتاب. فشكري له لأنــه الناشر أولاً ولأنه استنفد جهداً كبيراً في تحرير الكتاب. وشكري مضاعف لأنه الصديق فخري كريم.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الشكر

أقدم الشكر للأستاذ حبيب إبراهيم صادق على ما قام به من تنظيم صور الكتاب

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المحتويات

المقدمة ١٧

لماذا كتبت هذا الكتاب ١٧

الفصل الأول ٢١

حي العمارة في النجف ٢١

النشأة ٢٢

مدينة الناصرية ٣٦

موت الملك غازي المفاجئ ٣٩

مدينة الحلة ٤١

سينما بابل في مدينة الحلة ٤٥

السفر إلى لبنان بالقطار ٤٨

زيارة الوصي والملك فيصل الثاني إلى الحلة ٥٤

المآتم والأفراح ٥٦

تقنين المواد الغذائية ٦٠

الفصل الثاني ٦٦

الانتقال إلى بغداد ٦٦

الرستمية ٦٦

حي الأعظمية – بغداد ٧٣

Twitter: @ketab_n

حي الكرادة الشرقية – بغداد ٧٩
معاهدة بورتسموث ١٩٤٨ .... ٨٥
رابطة المرأة العراقية ٨٨
كلية الآداب ٩٢
حي الوزيرية – بغداد ٩٥
انتفاضة ١٩٥٢ .... ١٠٤
القاء القبض عليّ من قبل مديرية التحقيقات الجنائية ١٠٧
الفصل الثالث ١١٢
زيارة الدكتورة سميرة بابان ١١٢
زيارة دار كامل الجادرجي ١١٦
عائلة الجادرجي ١٢٠
إعلان الخطبة ١٢٥
عقد القِران وقاموس أوكسفورد ١٢٩
شهر العسل في كردستان – العراق ١٣٦
تصميم الدار ١٤٢
القبول ١٤٦
المعرفة الجديدة ١٥٠
لقاء الفنانين في دارنا ١٥٤
المكتبة ١٦٢
عام ١٩٥٦ وسجن كامل الجادرجي ١٦٦
إطلاق سراح أبو رفعة من السجن ١٦٨

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع ١٧١
ثورة ١٤ تموز ١٧١
تهيئة الظرف لخلق الدكتاتور ١٧٣
زيارة الاتحاد السوفيتي تشرين ثاني عام ١٩٥٨ .... ١٧٣
نصب الجندي المجهول والرابع عشر تموز والحرية ١٨٣
وفاة رؤوف الجادرجي ١٨٦
جبرا إبراهيم جبرا وزوجته لميعة ١٨٨
جواد سليم في فلورنس ١٩٠
مصارعة الثيران في أسبانيا ١٩٢
وفاة الفنان جواد سليم ١٩٤
زيارة شقيقتي حياة ١٩٦
الفصل الخامس ٢٠٠
انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ .... ٢٠٠
الحرس القومي ٢٠٢
في قلب اللعبة السياسية ثانية ٢٠٣
النقلة المعمارية في تصاميم رفعة ٢١٣
تصميم الأثاث ومحل "أيا" ٢١٧
السفر إلى غانا والإنقلاب على الرئيس نكروما ٢١٨
عام ١٩٦٧ وخسارة فلسطين ٢٢٨
وفاة كامل الجادرجي ٢٢٩
الفصل السادس ٢٣٧

Twitter: @ketab_n

انقلاب ١٩٦٨ وقتل حارث ناجي شوكت ٢٣٧
عودة والدي وشقيقتي حياة إلى بغداد ١٩٦٨ .... ٢٤١
هدم بناية بستان الفحامة ٢٤٢
صالح مهدي عماش والمني جوب ٢٥١
مسابقة البرلمان الكويتي ٢٥٥
وفاة والدتي ٢٥٦
الدوبة/العّوامة ٢٦٠
أبو طبر والرعب الذي عم بغداد.................. ٢٦٢
حمام الرجال في مدينة حلب ٢٦٤
صدور تعليمات بالتخلي عن لقب العائلة............. ٢٦٧
صدام حسين رئيساً للجمهورية ٢٦٩
رفعة في السجن ٢٧٣
انتخابات ١٩٨٠ .... ٢٧٥
الحرب الإيرانية ١٩٨٠ .... ٢٧٧
تعيين رفعة مستشاراً لأمانة العاصمة ٢٧٨
الخوف من آلة التصوير ٢٨٤
هدية الرئيس وهدم نصب الجندي المجهول ٢٨٨
الفصل السابع **٢٩٦**
السفر إلى الولايات المتحدة ٢٩٦
عودتنا إلى بغداد لمدة اسبوع ١٩٨٣ .... ٢٩٩
وفاة أم رفعة ٣٠٢

Twitter: @ketab_n

انتهاء الحرب العراقية الإيرانية ٠٢٣
أوجاع الظهر ٣٢٣
حرب الخليج ١٩٩١ .... ٣٢٧
عيد ميلاد صدام وبناء القصور والجوامع.......... ٣٣٣
مدينة كيمبرج – ماساشوست ٣٣٨
الفصل الثامن **٣٤١**
الإنتقال إلى لندن ٣٤١
جواز السفر العراقي ٣٤٤
لندن ٣٤٩
وفاة الأصدقاء................................. ٣٥١
انتحار حياة وابنتها مها........................ ٣٥٤
فقدان مها في ريعان صباها ٣٥٦
اللقاء بالشاعرة لميعة عباس عمارة.............. ٣٦٦
الخسارة المالية................................ ٣٦٨
الفصل التاسع **٣٧٣**
الحرب الأمريكية على العراق ٢٠٠٣ .... ٣٧٣
فكرة الكتابة عن والدي.......................... ٣٨٠
جائزة الجادرجي التي تأسست ١٩٩٩ .... ٣٨٤
الملاحق...................................... **٣٨٧**
زيارة جبال الهملايا ٣٨٧
السفر إلى اليمن واغتيال رئيس الجمهورية إبراهيم الحمدي ٣٩٣

Twitter: @ketab_n

السفر إلى اليابان/ الموقف من المرأة ٣٩٨
الرحلة إلى افغانستان وباكستان..................... ٤٠٢
الرحلة إلى صحراء الجزائر ٤٠٤

Twitter: @ketab_n

المقدمة

لماذا كتبت هذا الكتاب

مرت السنون بعجلتها التي سحقت بدورانها طفولتي وشبابي و لم يبق أمامي إلا الشيخوخة. فقد انقضت ثمانية عقود من حياتي، رافقتُ رفعة ستة منها. إنها رفقة طويلة، غنية بالفكر والعاطفة والانتاج، رفقة مليئة بحب الحياة، التي عصرنا رحيقها سوية.

بدأت الأمراض البسيطة تتمكن منا، وضعفت المناعة، لكننا صمدنا في اصرارنا على السير سوية، حتى يوم ١٦ تشرين الثاني ٢٠١٣، عندما اصيب رفعة بنوبة، نقل على أثرها إلى المستشفى. لكن النوبات توالت خلال ذلك الأسبوع حتى شلت جانبه الأيسر.

و انغمرتُ في دوامة القلق على صحته ومصيره، كنت أقضي معظم وقتي في المستشفى، أعود للدار متعبة، مرهقة من وطأة القلق والشك الذي بدأ يساورني على حياته، لكن وجود نصير ويقظان[1]، شقيقيّ رفعة، خففا عني العبء الذي كنت أرزح تحته. وبالرغم من وجودهما ومرافقتهما لي، صار الأرق المتواصل يهيمن عليّ في الليل فيبعدني عن النوم، ويبعدني القلق عن الراحة في النهار.

١- كما زارني شقيقي إبراهيم الذي جاء من بيروت وقضى معنا عشرة أيام، وجاء سليمان نصير الجادرجي من كندا وبقي اسبوعاً واحداً.

Twitter: @ketab_n

سافر شقيقيّ رفعة بعد مدة وجيزة من الزمن، فعدت إلى العيش وحدي. تحددت حياتي بين المستشفى والبيت. أفتح بوابة الدار ليلاً، لا أسمع إلا خطواتي، اتجه نحو المطبخ لكي أتناول بعض الطعام، لكن لا شهية لي على الأكل، ولا قدرة لي على النوم.

بدأتْ بين الحين والحين تظهر غمامة اليأس أمامي وتزيح الدفء من حولي، والطمأنينة من داخلي، اعيش الأيام العصيبة من يوم إلى يوم، لا أدري متى ستنقشع الغمامة التي جثت على صدري، والوحدة التي شلتْني! فقد هبت الكآبة الراكدة في أعماقي، لتنتعش الأحزان النائمة خلال تلك الأيام!

في مثل هذه الأجواء التي حاصرتني، صممتُ أن أبتعد عن الحاضر الذي أعيشه وعن الأحزان التي تراكمت كالخيمة في أعماقي خوفاً من الغد الكئيب، أغور في ضباب الماضي، لعلي أجد راحة من خلاله يعينني ويعيدني إلى العيش في الحاضر. لذا قررت أن أكتب مذكراتي. لم افكر في يوم من الأيام في أن اكتب مذكرات، لكن وجدتُ البدء في كتابة المذكرات بلسماً لي في معالجة سيكولوجية الذات المتعبة. وشعرتُ أثناء الكتابة بالانعتاق من القلق الذي هيمن عليّ، وبالحرية والتفاؤل. حرية الخوض في الماضي البعيد.

تجولت الذكريات في رأسي، ووجدت نفسي محملة بحقائب من الذكريات، ذكريات المتعة والفرح، ذكريات المعاناة، وذكريات الألم والغبن، وليس هنالك تشّخص إلا في تلك الذكريات. إنها ذكريات تحوم وتقبع في تلافيف دماغ كل منا، وتجعلنا نختلف عن الآخر، فليس هنالك ذكريات نحملها تشبه ذكريات الآخر. إنها حقائب ذات ألوان مختلفة بألوان مزاج وتجربة أصحابها.

وحقيبة المسافر تختلف عن حقيبة الذكريات، لأن في الاولى أشياء

Twitter: @ketab_n

ملموسة تسافر معه، لكن حقيبة الذكريات غير ملموسة، تذوب وتختفي مع الزمن بانتهاء حياة الإنسان. وهذه المذكرات هي إحدى هذه الحقائب التي رافقتني وعاشت قابعة في الذاكرة، لأن بعضها قد انمحى. ووجدت أن كتابتها قد اعانتني وأعادتني إلى تقبل الواقع والعيش في الحاضر ثانية.

بدأ رفعة يتعافى ببطء، وعاد إلى الدار بعد شهرين تقريباً. ورغم جميع المصاعب الصحية التي عانى منها، فقد أنهى كتابه الأخير، وسلمه إلى الناشر.[٢] وزال العبء الجاثم علينا. بعد بضعة أشهر قدمتُ لرفعة مذكراتي ليقرأها - كالمعتاد - ويبدي رأيه بها، إذ يطلع كل منا على ما يكتبه الآخر، ونبحث ونناقش نصوص الكتب التي يكتبها كل منا، لذا نتحدث أحياناً نفس اللغة.

وكما ذكرت في البداية، كان سبب كتابة هذه المذكرات إنعتاق الذات من الأزمة التي مرت عليّ، وهكذا انبعثت هذه الذكريات من مكامنها لتصبح كتاباً.

بلقيس شرارة

---

٢ – صدر كتاب رفعة بعنوان: "دور المعمار في حضارة الإنسان" في منتصف تشرين الأول، عن مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٤

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الأول

حي العمارة في النجف

كان حي العمارة من الأحياء القديمة في مدينة النجف. وكان أهالي الحي كتلة متماسكة من الناس، في إقامة الأفراح والأحزان. لهم معرفة تامة في التفاصيل الصغيرة والكبيرة التي تدور في الحي ويدركون أهميتها، فكل شيء مشترك، وليس هنالك سر يغيب عن أبناء الحي. لم يكن لمحمد شرارة أقارب أو عائلة عندما وصل النجف في سن الرابعة عشرة من عمره، وإنما سكن مع الطلبة اللبنانيين الذين قدموا مثله من لبنان. لكن عندما تزوج بعد عقد، وعاد من لبنان إلى النجف ثانية، سكن في حي العمارة، فأصبح الحي هو العائلة والأقارب والعشيرة.

كانت النسوة في حي العمارة يقمن بزيارة زوجته، اللبنانية الغريبة عن النجف وأجوائها وعاداتها وتقاليدها، فقد تربت في أحضان عائلة كبيرة، كانت تؤلف عائلتها جزءاً كبيراً من الضيعة. وإذا بها في مدينة لا تعرف أحد فيها، ولا تعرف حتى لهجة سكنتها.

لكنها حالما تأقلمت في أجوائها، أحيطت بحنان الجيران والاصدقاء الذي عوّضها عن حنان وطنها وأهلها. فقد أصبح أهالي حي العمارة هم الأهل والأقارب والأصدقاء، وصار العديد من العائلات المعروفة في النجف أصدقاء للعائلة، كعائلة الخليلي وكاشف الغطاء وعوائل أخرى، كما توطدت علاقتها بالجالية اللبنانية أيضاً.

Twitter: @ketab_n

في مثل هذه الأجواء ولدتُ، و لم يحدث أي اعتراض من قبل نساء الحي لأنني بنت، وبنت ثانية، بل إلتزمت نساء الحي الصمت دون تقريع والدتي، لأنها أنجبت بنتاً ثانية، وربما كان لتقاطيع وألوان وجه المولودة، السر وراء هذا الصمت، وعدم إزعاج والدتي بالنقد المقذع الذي تعرضتْ له في ولادة أبنتها الأولى، لما تشكله ولادة الطفل الأول من أهمية في حفظ أسم العائلة واستمرارها.

×××

النشأة

لم أكن طفلة هادئة كشقيقتي مريم، وإنما كان صراخي يتعالى في صمت الليل عندما كان عمري لا يتجاوز الستة أشهر. يتبرم الجيران من هذا الصراخ الممتزج بتوسلات الأم التي تحاول إسكاتي وإعادتي إلى النوم، إذ كانت الجدران التي تفصل السطوح لا يزيد ارتفاعها عن مترين. ويهب عندئذ نسيم الهدوء والسكون فيكتنف الليل ويلفه، ويستغرق الناس في السبات ثانية. كنتُ مصدر إزعاج متواصل للجيران، وإحراج وقلق مستمرين لوالدتي التي حرمتها من نوم الليل في فصل الصيف عندما كانوا ينامون فوق سطح الدار. كان نومي قلقاً متقطعاً، أفتح عينيّ يقظة من غفوتي، على خطوات عطشان يشرب ماء من المشربية «ألتُنكه» أو قفزة قطة على «التيغة»[٣]. فأجهش في بكاء يتحول إلى صراخ متواصل، يتردد صداه في الحي الهادئ، ترتبك والدتي، لا تدري ما تقوم به لتهدئتي، وتتخلص من صراخي في صمت الليل، بوضع حلمة نهدها في فمي، أغمض عينيّ في غفوة هانئة، فتسحب والدتي حلمة نهدها ببطء وتأني، ويعم الصمت مدة، ليعود البكاء ثانية، فتمتد الأعناق فوق حافة «سور/تيغة» السطح، مطالبة

٣- "التيغة": هي القسم الأعلى من الجدار الفاصل بين السطحين.

Twitter: @ketab_n

والدتي بصوت يشوبه التأنيب والعتاب: « ما تسكتين هاي الطفلة، خاف جوعانه، خاف مالها كيف/ «أي مريضة!»». يتثاءب الفجر، ويتفجر عن سيمفونية متشابكة من الأصوات. فيتعالى صياح الديكة المتنافس مع آذان المؤذن الممتزج بصراخي، ليوقظ الجميع من غفوتهم، وينفض الناس السبات عن أعينهم، لتدب الحياة من جديد بنبض قوي، وتبدأ حركة النهار، لتعود فتتكرر ثانية في الليل الطويل![٤]

كان العام الذي ولدتُ فيه عام ١٩٣٣، هو العام الذي تقلد فيه هتلر منصب رئاسة الحزب النازي في ألمانيا، والذي أدى إلى صراع دام، وجرّ دول العالم إلى الدمار الذي خلفته الحرب العالمية الثانية، وهو العام الذي توفي فيه الملك فيصل الأول في العراق، وأدت وفاته إلى هيمنة نوري السعيد[٥] تدريجياً على السلطة التي أدت إلى صراع دامٍ في المجتمع العراقي.

×××

٤- هذه المعلومات مستقاة من والدتي، التي كانت دائماً تقارن بيني وبين هدوء شقيقتي مريم في طفولتها.

٥- نوري السعيد: ١٨٨٨- ١٩٥٨، ولد في بغداد، درس في الاستانة، تخرج من الأكاديمية العسكرية التركية وخدم في الجيش العثماني. شغل منصب رئاسة الوزراء في المملكة العراقية ١٤ مرة بدءاً من عام ١٩٣٠ حتى آخر وزارة عام ١٩٥٨. ساهم في الثورة العربية وانضم إلى الأمير فيصل في سوريا. غادر إلى العراق وساهم في تأسيس المملكة العراقية وبناء الجيش العراقي. كان نوري السعيد شخصية سياسية كثر الجدل والآراء المتضاربة عنه. اضطر إلى الهروب مرتين من العراق بسبب الانقلابات التي حيكت ضده.

كان نوري السعيد دبلوماسيا، يتحدث الإنكليزية، وكان يبدو في مظهره جاداً وحازماً بل وقاسياً عند الضرورة، حاد الطبع، عصبي المزاج، سريع الغضب، وهي الصفات التي لازمته طيلة حياته السياسية، حتى قيل عنه أنه كثيراً ما كان يشترك في المشاجرات والمشاحنات. كان نوري مناوراً، يعرف كيف يستغل الظروف والمتغيرات ويكرّسها لخدمة أهدافه. قتل في ١٥ تموز ١٩٥٨.

Twitter: @ketab_n

اخُتزِلتْ مدينة النجف في ذاكرتي في الغرفة التي حُبست فيها عندما أصبت بمرض الجدري. كان وباء الجدري من الأوبئة المنتشرة في العراق آنذاك. إذ لم تكن المياه المعقمة والصالحة للشرب متوفرة في البلد. وكان المرض عندما ينتشر يقضي في كل مرة على العديد من الناس وبخاصة الأطفال. وإن نجى البعض منهم من الموت فلن ينجوا من التشوهات المخيفة المرتبطة بالمرض.

أصر والدي تفادياً لهذا الوباء، على تلقيح بناته الثلاث بلقاح الجدري. فجاء الدكتور إلى دارنا ولقح جميع من كان فيه. ويظهر أن الدكتور لم يضبط كمية اللقاح التي لقح بها الأطفال، فبعد يومين طفح مرض الجدري بفقاقيعه وبثوره الكريهة على جسدينا البضين، وعزلت مع شقيقتي حياة في غرفة، ولم يسمح والدي لأحد بدخولها سوى والدتي.

لم أكن قد تجاوزت الثالثة من عمري، ولم تكن حياة قد تجاوزت السنة من العمر. فظلت فقاعات الجدري الكبيرة التي شوهت يديّ الصغيرتين ماثلة في ذاكرتي. وحرصاً من والدتي على حماية أجسادنا وخاصة وجوهنا من التشوه، شدت أيدينا بشرائط، لمنعنا من حك وجوهنا، وبذلك نجونا - حياة وأنا - من تشويهات ذلك المرض الخبيث.

كنتُ حبيسة جدران تلك الغرفة التي تتطلع عيني إلى سقفها الخشبي وسجادتها المزخرفة بنقوش هندسية. كانت يديّ الصغيرتان الطريتان مربوطتين بمشد، حاولت مرات عديدة الإفلات من القيد لكي أنهش تلك الفقاعات، نجحت في نهش إحداها، فتدحرج سائل لزج، هرعت والدتي بربطة جديدة بيدو مرهم أبيض بيد أخرى، وأعادت ربط يدي بربطة محكمة،

Twitter: @ketab_n

وعادت عيناي تجولان بين سقف الغرفة الخشبي وسجادتها يوماً بعد يوم.

كسبنا مناعة دائمة ضد مرض الجدري أنا وشقيقتي حياة. ولكن عندما دخلتُ المدرسة لم أستطع أن أقنع معلماتي أو المضمد الذي كان يقوم بعملية التلقيح السنوي في المدارس من أنني مصابة بمرض الجدري. كان منهم من يضحك أو يهز رأسه وهو ينغز جلدي الرقيق ويشطبه بلقاح الجدري، أدير وجهي لكي لا تقع عيني على المكروبات التي كانت تزرق في جسدي ويتراءى أمامي سقف غرفة النجف وسجادتها.

كان بعضهم يقول لي وهو ينظر إلى وجهي الصافي: «آني اللي يباوعني يكول عني بي جدري مو أنتِ/ أي: الذي ينظر إلى وجهي، يقول أنا المصاب بمرض الجدري وليس أنت!»، وظل لقاح الجدري يسري في عروقي كل عام، حتى المرحلة الجامعية، حين وجدت أن لي الحرية في أن أرفض إدخال هذه المكروبات التي تشبع جسدي بها، من غير فائدة.

×××

أنجبت والدتي صبياً وهي في لبنان بعد ثلاثة بنات، فكان الاهتمام به كبيراً، من قبل جميع أفراد عائلة والدتي، إذ ثّبت مركزها، مما أثار هذا الاهتمام الغيرة فينا، بالرغم من صغر سننا. كان يُطلب منا أحيانا – مريم وأنا – أن نهز «كاروكه/ سريره» إن بكى، وكنا نهزه أحياناً بسرعة، فينقلب الكاروك، ويسقط إبراهيم تحته ولم يبلغ بعد سوى بضعة أشهر من العمر، فيخترق صراخه المتواصل، آذان والدتي وخالتي وجدتي، ولم يكن لنا القدرة البدنية على إرجاع

Twitter: @ketab_n

«الكاروك»[٦] إلى وضعه الصحيح، فكنا بدل من أن نستنجد بوالدتي أو خالتي لإنقاذه، نهرب بسرعة، خوفاً من العقاب الذي ستنزله بنا، ونختفي في الدار البرّاني[٧]، ولا نعود قبل أن يبدأ التفتيش عنا، وبذلك نتخلص من العقاب.

قضينا عاماً كاملاً في لبنان، كان الشتاء فيها قارساً، فالثلوج غطت البراري وسطوح الدور. كنا نمسك الثلج بأيدينا، نكوره على شكل كرة ونرميه على بعضنا، فتتعالى ضحكاتنا عندما يصاب أحدنا بها. كانت حياتنا اليومية مفعمة بالسعادة والمتعة والبهجة، غافلة عن أحداث الدهر ومشاكل الحياة. لا نشعر بتعب، ونحن نقضي الوقت بالمرح والعبث في بناء قلاع وبيوت ثلجية، لا نحزن إن عصفت بها الريح ودمرتها، إذ سرعان ما نعيد بناء ما تهدم منها في اليوم التالي! ولم نكن ندخل الدار إلا على صوت والدتي أو منادة خالتي معلنة موعد الغداء. فنقفز داخل الغرفة، مادين أيدينا الصغيرة الجامدة من البرد نحو دفء النار قرب «الصوبة»[٨] والمنقلة.

كانت خالتي سكينة تغمرنا بحنانها، وتأسرنا بدفء عاطفتها التي تغدقها علينا. كنا ننتظر الليل لتقص علينا قصصها عن الجن والملائكة والعفاريت. كانت تقص علينا قصصاً وحكايات موغلة في الخرافة، نصغي لها بانتباه، حتى يهيمن علينا النعاس، فتتركنا نحلم بما سردته علينا من الأقاصيص التي تنقلنا بين عوالم الجن والسعالي والعفاريت.

---

٦ – الكاروك: هو سرير خشبي صغير متحرك.

٧– البراني: هو القسم المتصل بالخارج من الدار، حيث يستقبل به الزوار من الرجال.

٨– الصوبة: "المدفأة" وهي وسيلة توليد الحرارة للتدفئة بالاعتماد على الخشب المحترق فيها.

Twitter: @ketab_n

خالتي، سكينة الزين

... تلك الحكايات كانت تنقلنا وتسافر بنا إلى عوالم بعيدة، فنعيش معها في عالمنا الوهمي الصغير. تتلكأ أحياناً في سرد القصة، وتتوقف لتستجمع أفكارها، فيهيمن علينا صمت مطبق، نحس بالضيق من توقفها ونود أن تستمر، فتعود ثانية لتنسج لنا تكملة الحكاية التي بدأتها بشكل آخر مختلف عما حكتها لنا في ليلة البارحة. فنذكرها بالتفاصيل التي تجاوزتها وبنهاية القصة التي لا تتطابق مع حكايتها الأولى! أصبحت حكايات خالتي عن الجن والعفاريت والشياطين، تروي وتغذي عقولنا! و لم تكن هذه الخرافات خارج معتقدات النساء كلياً آنذاك.

حلّ شهر رمضان، واجتمع أعضاء الأسرة الصائمون للفطور، كان جدي[٩] لا يفطر مع النساء، ولكنه يتسحر بصحبتهن. نفيق أحياناً على صوت الملاعق والصحون، فنشاركهم في الطعام. أجد جدي

٩- توفي جدي في شهر حزيران عام ١٩٤١، عندما كنا نعيش في مدينة أربيل، و لم يعلن والدي الخبر أمام والدتي، لأنها كانت قد ولدت قبل بضعة أيام أخي جهاد، وفضّل أن تسمع الخبر عند وصولها دار والدها. لذا كان جميع أعضاء عائلة الزين يحيطون والدتي بالعطف والحنان.

Twitter: @ketab_n

جالساً على مسند، نازعاً العمامة، بلحيته البيضاء وشعره الأبيض القصير، محني الظهر، نحيف البدن، غائر العينين، يسعل أحياناً ويبصق في مبصقة يضعها بجانبه. كنا نحترمه ولا نخافه، فلم يكن يكلمنا أو يداعبنا خلال إقامتنا في داره طيلة اشهر الشتاء والصيف، يقضي معظم أوقاته في غرفته في الطابق الثاني، فنتجنب حتى الدرج المؤدي لها!

×××

كانت الدور في الضيعة/القرية تتألف من عدة دور، وذلك لجمع شمل العائلة الكبيرة، المكونة من الأولاد المتزوجين، الذين ينفرد كل منهم بدار، أو بعضهم ينفرد في غرفة نوم واسعة. كانت داز جدي تتألف من ثلاثة دور. القسم البراني، الذي يستقبل فيه جدي ضيوفه وتحول إلى دار لخالي الأصغر بعد زواجه. أما القسم الوسطي الذي يشرف على حديقة الدار، فكانت تقطنه جدتي وخالتي. خصصت الدار الرئيسة لتخزين مؤونة الشتاء، أما الدار الثالثة فكان يسكنها خالي الشيخ محمد حسين وعائلته.

في الصباح تفتحِ باب الدار، ولا تغلق حتى يأوي جميع من في الدار إلى النوم ليلاً. وكانت النسوة يأتين لزيارة جدتي، والفتيات لمساعدة خالتي.

في فصل الصيف كنا نرافق خالتي صباحاً إلى «الجبل»، واقامتنا كانت أحد البساتين التابعة لممتلكات جدي. وفي رحلة الصيف إلى الجبل يرافقنا عدد من أولاد خالي. كنا نصل «الجبل» قبل بزوغ الشمس، فنجد العمال والعاملات منشغلين بقطف التين والعنب. كان نسيم الفجر البارد يلفح وجوهنا، نشعر بارتخاء لذيذ برطوبته. نقضي وقتاً طويلاً بين الأشجار، نتسلقها لقطف التين المعسول، نتنافس مع العصافير على التينة الناضجة التي يسيل عصيرها الحلو

Twitter: @ketab_n

وعلى عنقود العنب الذهبي الذي لفحته حرارة الشمس. نجلب معنا بعد الانتهاء من القطف سلتين كبيرتين من التين والعنب ونجد جميع أفراد الأسرة بانتظارنا لتناول الفطور معهم. كنا نحاول التهرب، فقد كان فطورنا عرانيس الذرة المشوية والتين والعنب الذي كنا نشارك القاطفين بقطفه.

ألذ الفعاليات لنا في الربيع، حين ينضج المشمش، ويُقطفْ ويصنع منه «قمر الدين». فنصعد خفية عن أنظار والدتي وجدتي على درجات السلم إلى السطح، نشاهد أمامنا «قمر الدين» المفروش في السطح، نحاول أن نقطتع شريحة صغيرة منه، كي لا يكتشف أحد أننا ذقناه. كنت أضع قطعة قمر الدين في فمي، أمسك رأسها بيدي وأمصها ببطء، فتذوب وتتلاشى تدريجياً، ويسيل لعابي الممزوج بحموضتها وحلاوتها على جانبي شفتي، أمسحها بجانب يدي، كي لا تكتشف والدتي السر، عندما أجلس لتناول وجبة الطعام بلا شهية.

كما كنا نرافق خالتي أحياناً عندما تقوم بفحص «معجون الطماطة»، فنصعد الدرج خلفها بخفة حتى نصل السطح، تفتح غطاء الطست الأول المليء بعصير الطماطة، وتبدأ عملية تنظيفه من حشرة أو فراشة أو ذبابة ضلت طريقها، ثم تنتقل للطست الثاني، وتعيد العملية.

كانت المآكل وحفظها تتغير مع الفصول. فتقضي نسوة الضيعة معظم أوقاتهن في الطبخ وأعداد مآكل مختلفة لخزنها لفصل الشتاء، حيث تشح أنواع كثيرة من الخضروات والفاكهة. ولم يكن تحضير مواد الطعام يقتصر على فصل الشتاء في لبنان فقط، وإنما شمل هذا التقليد في تحضير المواد الغذائية، ربما معظم أقطار العالم آنذاك.

كان ضرورياً تحضير مؤن الشتاء في الصيف، فيتسارع نبض الحياة في الدار بصورة خاصة مع نهاية الصيف. وتبدأ حركة متواصلة كخلية

Twitter: @ketab_n

النحل في الصباح الباكر وتنتهي عند غروب الشمس. تتجمع فتيات الضيعة في دار جدي، لجرش البرغل، وكبس الزيتون وعصر الزيت في ساحة الدار. كانت صبايا القرية يتناوبن على المجرشة، يُطعمنها حفنة بعد حفنة من القمح، ويرتفع الغناء والأحاديث التي يتخللها المزاح والضحك ممزوجة برتابة صوت المجرشة. فكل شيء مشترك في الضيعة، وجميع أخبار الضيعة مشاعة، ليس فيها أسرار، وإنما تتناقل الفتيات آخر أخبار الزواج والولادة والمآتم، بتفاصيل دقيقة كأخبار صحيفة يومية محلية! وبعد انتهاء العمل اليومي، تعزل الفتيات البرغل وتقسمه حسب نعومته، والوظيفة التي سيتخذ من اجلها، وتخزنه في غرف النوم المحاطة «بكواير» ذات أبواب خشبية، مشبكة من الأعلى لغرض التهوية.

×××

كنا أطفالاً نعيش في عيد متواصل، نتنقل بين أكوام الحنطة، نختبئ خلفها، نذريها أحياناً بأقدامنا الصغيرة، ونعاقب أحياناً. فيعلو صوت والدتي أو خالتي بالتأنيب لنا بين الفينة والفينة، ونختفي فجأة مبتعدين عن أكوام القمح، بانتظار أول فرصة للعودة.

أصبحت غرفة خزن المؤن المظلمة، الباردة الجدران، السجن الذي تنفذ فيها أحكام العقاب من قبل والدتي وخالتي بحقنا! نجلس على مصطبتها الباردة بلا فراش أو مسند بجانب البصل، والبطاطة المنشورة بقربنا، تختلط رائحة البصل والزيت والزيتون فتزكم أنوفنا برائحتها القوية، التي أصبحت مرادفة للعقاب.

لم يكن يهمنا العقاب عندما يكون عقاباً جماعياً، ولكن كنت أشعر بصرامة العقاب عندما يكون العقاب منفرداً. كنت أغمض عيني كي لا أرى أشباح الجن التي تؤم الغرفة، رائحة الخوف تشع

Twitter: @ketab_n

من زواياها وجدرانها المعتمة، يهيمن عليها هدوء مخيف كهدوء القبر. أفكر في كيفية الهرب من العقاب! فأتحرك بمهارة بين البصل والبطاطة وخابية الزيتون والكبيس، أفتح عيني، أمد رأسي نحو النور المتسرب من الباب محاولة الإفلات من العتمة، أشاهد والدتي وجدتي في قيلولة، فأتسلل ببطء من دون حركة على رؤوس أصابعي، حاملة حذائي بيدي، فتفتح والدتي عينيها عندما تحس بالحركة وتغمضها ثانية. أفتح باب الغرفة على مهل، فأسمع صريره يصل مسمعي، أقفز العتبة، ألبس الحذاء وأتجه للمشاركة باللعب.

كانت العتمة هي ذريعة والدتي في فرض مثل هذا النوع من العقاب، و لم تعتمد في تلك المرحلة تهديدنا بالوالد، الذي كان غائباً في العراق، و لم تكن تذكرنا بالله كمرجع للعقاب في تلك المرحلة، إذ لم نكن بعمر نعي فيه معنى غضب الله، فمن الطبيعي أن يخاف الطفل من العتمة، خاصة عندما تصبح ملازمة للعقاب! ولكن هذا العقاب حصنني من الخوف من العتمة وظلام الليل مقارنة بالأطفال الآخرين!

×××

كانت فريحه، شابة جميلة لا تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها عندما تزوجت خالي جعفر، ذات عينين سوداوين واسعتين، وشعر أسود يطوق عنقها الرخامي الطويل، بيضاء اللون، طويلة القامة، نحيفة القد، سيقانها متناسقة طويلة. ترتدي معطفاً من الحرير الأسود عندما تخرج من الدار، واضعة برقعاً أسوداً شفافاً، يضفي جمالاً وسحراً على تقاطيع وجهها. تنحدر فريحة من الجناح الغني لعائلة الزين، إذ كان والدها، يوسف بيك، إقطاعي كبير، ظل نائباً طيلة حياته، فالنيابة في تلك المناطق وراثية[١٠] ولو يطلق عليها كلمة انتخاب! فينشط أفراد

---

١٠ – وأصبح ثلاثة من أولاده نواباً في المجلس النيابي في لبنان، وهم عزت الزين

Twitter: @ketab_n

العائلة أثناء الإنتخابات، يقرعون أبواب الدور، وكان للنساء دور مهم في عملية جذب الأصوات. مقابل ذلك قام يوسف بيك في تنفيذ الوعود التي التزم بها في تنفيذ برنامجه النيابي، في مدّ الكهرباء والماء إلى مدينة النبطية.

فريحة يوسف الزين

فريحة كانت تجبرنا على تناول وجبة الفطور وتصر على أكل قطع من الكبد النيء[11]، فأحاول التهرب أحياناً من ذلك الطقس اليومي، لاشمئزازي من منظر الدم. وانطبعت شفاه الأطفال الملوثة بدم الكبدة النية كالوشم في ذاكرتي، وكرهت اللحم النيئ والكبة النية، أكلة اللبنانيين المفضلة. وهذا ما جعلني امتنع عن تذوق أكلة «السوشي Sushi» السمك النيء، المشهورة في اليابان، عندما زرتها بصحبة رفعة في السبعينيات. فكل شعب له عادته وخصوصياته، والكبة النية أو الكبد النيء هو جزء لا يتجزأ من تقاليد وخصوصيات المجتمع اللبناني.

×××

وعبد اللطيف الزين وعبد الكريم الزين.

١١ – كانوا يعتقدون أن أكل الكبد النيء يقوي الجسم، ويمنع تعرض الأطفال إلى فقر الدم.

Twitter: @ketab_n

تغيرت رتابة الحياة عندما جاء والدي من العراق لقضاء العطلة الصيفية معنا، فقضينا ما تبقى منها في دار جدي الشيخ علي شرارة، في قضاء بنت جبيل، قبل عودتنا إلى العراق.

الحياة في الضيعة/القرية هادئة بطيئة راكدة، ولكن رغم رتابة الحياة فإنها في تجدد مستمر، فالأحداث قليلة ومعروفة، لا تتعدى الزواج والولادة والموت. تتغير رتابة الحياة ويشترك الجميع في أداء طقوس الفرح والحزن.

كانت عملية الطبخ معقدة، كما كان تحضير المؤن، فتستغرق وقتاً طويلاً. ولم يكن هنالك آلات لفرم اللحم أو طحن الخضار أو عصر الفاكهة، وكانت تستغرق العملية أحياناً معظم النهار، فما ينتهين من عملية طبخ الغداء حتى يبدأن في التحضير لوجبة العشاء، بعد راحة بسيطة.

أما جدتي/ والدة أبي، فنادراً ما تشارك في عملية الطبخ اليومي، بل تعتمد على الغير في إنجاز هذه المهمة، بمن فيهم «الضيفة» والدتي. كانت جدتي تجلس في مكانها المعتاد، تصّدر الأوامر، عندما ترغب في طبخ نوع معين من الطعام! يتراكض جميع أفراد الأسرة من الإناث في تلبية طلباتها، ويتحول المطبخ إلى خلية نحل، فعمتي خديجة مشغولة في تقطيع اللحم وغسله، ووالدتي في تقطيع الطماطة وفرم البصل، ولاتنجوا حتى المستطرقات من أقاربها في المشاركة في القيام بهذه العملية. وتعلو أوامرها على ضربات فرم الخضروات والبصل، ودق اللحم، «يا خديجة عطيني الطنجرة/ القدر! ويا أم إبراهيم ناوليني الملح!» ممتزجة بتعليقات عمتي خديجة الملطَفة بالمزاح عندما تتوجه جدتي نحو المطبخ، قائلة: «هه قامت أمي للمطبخ، راح تشّغل كل العيلة!»

×××

Twitter: @ketab_n

كنت أرى جدي والد والدي، خارج غرفته عندما يتوضأ عصراً قبل صلاة العشاء، فيسحب له الماء من البئر في دار جدي. وهو يختلف عن الآبار في البيوت العراقية التي شاهدتها، فقد كان شبيهاً بالسرداب، غرفة واسعة من «الباطون» تحت الأرض، تنظف في نهاية موسم الصيف، ويفرّغ مما تبقى فيه من الماء. وهي عملية تحتاج إلى متخصص بها.

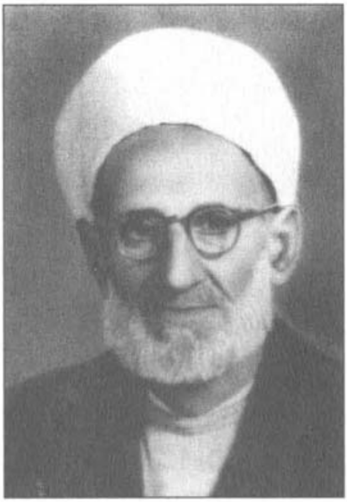

جدي، الشيخ علي شرارة

وعندما يحل وقت تنظيف البئر، تفتح بوابته الصغيرة، ويوضع سلم لهذا الغرض. وتبدأ عملية نقل ما تبقى من الماء الممتزج بالترسبات الطينية، بأوعية عميقة إلى سطح البئر. كان صدى صوت المنظف يتضخم عندما ينادي المسؤول عن التنظيف على مساعده، وكنا نستغل تلك الفرصة فنمد رؤوسنا في فتحة البئر ونصرخ لسماع أصواتنا وانتظار رجع صداها، نكرر الصراخ مرات عديدة وفي كل مرة نسمع أصواتنا المرتطمة بجدران البئر، حتى يتلاشى الصدى ويذوب. لم يكن ذلك النوع من الآبار متوفر في جميع بيوت القرية، فكان

Twitter: @ketab_n

جلب الماء من البركة العامة من قبل فتيات القرية طقس من الطقوس اليومية. يتمايلن بمشيتهن في الصباح والمساء، ليستطعن موازنة الجرار المملوءة بالماء على رؤوسهن، حتى يتفرقن إلى دورهن بين الأحاديث والضحكات التي كانت ترافق ذلك المشهد اليومي.

شعرنا بخيبة الأمل قبل عودتنا بأسبوعين، عندما أصيبت شقيقتي حياة، بمرض التيفوئيد وعزلت في غرفة خاصة لا تقربها إلا والدتي، ولما حان موعد السفر، تركتها عند جدتي، عائدين إلى بغداد. وصلنا دمشق وركبنا الباص الذي يقطع الصحراء بين الشام والعراق.

كان الباص محملاً بالركاب والأطعمة المنوعة، فالرحلة طويلة وشاقة، تتعالى في النهار ذرات الغبار الناعم، وتتكاثف بدوران عجلات السيارة كإعصار دائم في الصحراء الرملية الجرداء الملتهبة بأشعة الشمس. تتلاشى حرارة النهار بغروبها، ويتحول النسيم إلى برودة لاسعة في الليل، ويذوب الأفق الفاصل بين السماء والأرض، فيتساوى كل شيء في عتمة الليل. وتختلط أصوات الركاب بدوي «موطور/محرك» السيارة أحياناً، فيعيقنا عن النوم. يتوقف الباص في محطات كثيرة للراحة أحياناً أو تناول الطعام والشاي أو لتعبئته بالبنزين، فنصل بغداد متعبين، مرهقين من غناء الطريق الطويل الذي قطعناه، تكسو طبقة كثيفة من غبار الصحراء الناعم الملابس. لم تكن تلك الباصات (البُوسطة) مكيفة بالتبريد، و لم تكن إلا باصات شركة «نيرن» مكيفة بالتبريد ومجهزة بمرحاض ومغسلة للمسافرين، ولكن كانت أسعار شركة «نيرن» فوق طاقة والدي المالية، لذا كنا نسافر في الباصات الاعتيادية.

كنت أشعر بفراغ عندما نعود إلى العراق، ونسكن في بيت وحدنا لا يشاركنا فيه أحد نلعب معه، بل كنت أحن إلى دار جدي الواسعة

Twitter: @ketab_n

المكونة من ثلاثة دور، يضم ثلاث عائلات، وإلى الضجيج الدائم الذي كان يثيره الأطفال والطارقات من النسوة والفتيات اللواتي يعملن أو يزرن خالتي وجدتي. لذا كان العيش في العراق، هادئاً بعيداً عن الأقارب. كما كان بعيداً عن النميمة، لا نعرف القيل والقال الذي يدور بين الأقارب، والشائعات التي تطلق أحياناً، بسبب غيرة أو حسد بعضهن. لكننا عوضنا عن الأقارب بالأصدقاء. فنحن نختار الأصدقاء، المشابهين لأفكارنا وأهوائنا ونبتعد عن الذين لا يوجد إنسجام بيننا، وليس علينا روابط مفروضة كما هي بالنسبة للأقارب. مع مرور الزمن وجدت العيش بين الأصدقاء أحب إلى نفسي من العيش بين الأقارب.(١٢)

×××

مدينة الناصرية

نزع والدي العمامة، وارتدى الزي الرسمي المعتاد بالنسبة لموظفي الدولة في ثانوية الناصرية، وقضينا عامين في المدينة بعد أن التحق والدي بسلك التعليم.

سجلني والدي في المدرسة مع شقيقتي مريم. رفضت مديرة المدرسة تسجيلي لصغر سني، فاضطر والدي إلى تغيير دفتر نفوسي، ليضيف إلى عمري عاماً آخر، فوافقت عندئذ المديرة على تسجيلي في الروضة. فتغيير العمر، إلى أصغر أو أكبر عاماً أو عامين شيء طبيعي في عالمنا الإسلامي، ولم أكن الوحيدة في الصف، بل كانت لي رفيقات كثيرات مثلي، وأدى ذلك إلى تفاوت كبير في الأعمار بين الطالبات في الصف الواحد.

١٢- ما زالت تربطني ببعض الاقارب علاقة وثيقة، لكنها علاقة فكرية أكثر منها علاقة عائلية.

Twitter: @ketab_n

والدي، محمد شرارة

كانت المعلمة المسؤولة عن الروضة مسيحية، فسألت ذات يوم، الطالبات عن تاريخ ولادة كل منهن، وعندما جاء دوري، أجبتها أني لا أعلم، فقالت اسألي والدتك. سألت والدتي عن تاريخ ولادتي، فأجابتني: من أنني ولدت في (المربعانية)، حيث كان الجو قارس البرد، ولم أتجاوز السبعة أشهر من العمر عندما توفي الملك فيصل الأول! وهكذا تخلصتْ والدتي من الإجابة كعادتها عندما أعدتُ السؤال عليها عن اليوم والسنة التي ولدت فيها، وحولت مسؤولية الإجابة على عاتق والدي. وعندما وجهتُ السؤال إلى والدي، أجابني أنني ولدت في ٧ شعبان عام ١٩٣٣. في اليوم التالي أخبرت المعلمة بتاريخ ولادتي، فاستغربت من الخلط بين السنة الهجرية والسنة الميلادية!!

فالسنة الهجرية تدور مع دوران القمر، ولذا أصبح عيد ميلادي يدور معها، فأنا ولدت في عزّ الشتاء، ووجدت أن اليوم الذي ولدت فيه يقع في الصيف تارة وفي الربيع تارة أخرى. فانتفت الحاجة إلى

Twitter: @ketab_n

الاحتفال بذلك اليوم، الذي هو أهم يوم في تاريخ حياة الإنسان. وواجهت شقيقتي حياة المشكلة نفسها، فقد سجل والدي تاريخ ولادة بناته الثلاثة في النجف، بالتاريخ الهجري في الصفحة الأولى من قاموس كان يضعه قرب فِراشه. ولكن بتنقلاتنا المستمرة من مدينة إلى أخرى، ضاع القاموس الذي يحُفظ تاريخ أعمارنا فيه، وفقدنا بذلك معه تاريخ اليوم الذي ولدنا فيه! وظلت أعمارنا مرتبطة بذاكرة والدي!

ثم أضاف والدي مشكلة أخرى بتغيير عمر شقيقي إبراهيم[١٣]، وأضافة عام آخر إلى عمره، كما فعل من قبل في تغيير عمري، لكي يرافق شقيقتي حياة في الصف الأول، رغم إن حياة كانت أكبر منه بعامين. كانت معلمتنا المسيحية تستغرب من هذا التلاعب في أعمار تلامذتها، إذ إن الطفل المسيحي متى ما يولد، يسجل في الكنيسة وبذلك تحفظ الكنيسة عمره الحقيقي. ولكن التلاعب بالأعمار عند المسلمين كان طبيعياً في تلك المرحلة، وكان بعض الناس يصغّرون أعمار أولادهم كي لا يلتحقوا بالجيش، أو يكبروا أعمارهم كي يقبلوا في المدارس، لذا كانت الأعمار المتفاوتة في الصف الواحد تصل أحياناً لبضعة أعوام.

×××

١٣- كان والدي يتذكر تاريخ ميلاد شقيقتي مريم لأنها أول طفلة ولدت في ١٩٣١/٨/٢٧. وحصل أخي أبراهيم على تاريخ عيد ميلاده لأنه ولد في لبنان وسجل في السجل بتاريخ ١٩٣٧/١١/١٣. أما أنا وشقيقتي حياة فظل اليوم الذي ولدنا فيه مجهولاً ولا يتذكر إلا السنة، لأن والدي أضاع القاموس الذي سجل فيه تاريخ ولادتنا.

Twitter: @ketab_n

«شنينة» هي الفتاة التي تولت المسؤولية عن أخي إبراهيم، وعن مرافقتنا للمدرسة يومياً، ذهاباً وإياباً. كنت في الروضة آنذاك، أذهب يومياً بصحبة شقيقتي مريم التي كانت في الصف الأول. ذات يوم جاءت «شنينة» مبكرة إلى المدرسة على غير عادتها، فقد بعثتها والدتي لتجلبنا من المدرسة بعد أن علمت بوفاة الملك غازي!

إذ «خرجت المدينة كبارها وصغارها، رجالها ونساؤها إلى الشوارع والأزقة، وخلت البيوت من الناس. بحر من حشود الناس بحت حناجرهم من الهتافات، حشود يلطمون وجوههم وصدورهم. وجدنا أنفسنا في وسط بحر متلاطم، نائح على فقدان ملكهم الحبيب الذي ارتبطت به آمال تلك الجموع من الناس!»[١٤].

قذفنا في وسط الجمهور الهائج، هيمن الخوف علينا، وفزعت شنينة علينا من الضياع، فلفت عباءتها حول خصرها، أعطتني طرف العباءة فمسكتها بكل قواي، وأمسكت شقيقتي مريم طرفها الآخر. حاولنا التخلص وشق طريق لنا، لكن الأمواج البشرية كانت تقذفنا كالكرة من جهة إلى جهة أخرى. علا فجأة صراخ شقيقتي مريم، مرددة «التراشي، التراشي، إذني، إذني»، وإذا بأحد يحاول انتزاع أقراطها الذهبية من أذنيها، وهي ماسكة بيد أذنها، وطرف عباءة شنينة باليد الأخرى، صارخة بأعلا صوتها والدموع تنساب على خديها، ولا ندري هل كان صراخها من الألم أم الخوف!

فالسارق يستغل مثل هذه المناسبات، ليسرق ما استطاع عليه، والسرقة متأصلة في سيكولوجيته، ولا يعتبر شيء معيب. ومصدرها

١٤- محمد شرارة من الايمان إلى حرية الفكر، بلقيس شرارة، دار المدى، ٢٠٠٩، ص- ١٠٨

Twitter: @ketab_n

البداوة التي تؤكد على رجولة الفتى عندما يترك الدار ليلاً ويذهب لسرقة دار جاره.

كانت والدتي بانتظارنا، عندما وصلنا الدار، فقد هيمن القلق عليها من تأخرنا. جلسنا لتناول الغداء، كان والدي متألماً جداً من الحادث، قال: « يعتقد معظم الناس أن الملك غازي قتل عمداً، وليس بحادثة اصطدام سيارته كما ادعت السلطة». لكن المعروف عن الملك غازي ولعه بقيادة السيارة والطائرة، واشتهر بالسرعة الفائقة في قيادة السيارات.

الملك غازي

أعلن الحداد في اليوم التالي على وفاة الملك، لبس الناس اللون الأسود، فقد كان محبوباً من قبل الجماهير، التي شعرت بخسارة مليكها، الممثل لتطلعاتها الوطنية وما تصبوا إليه من آمال في تحقيق استقلال العراق من ربقة الاستعمار البريطاني. فقد كان معروفاً عن الملك غازي مناهضته الإستعمار البريطاني، ويحمل ميولاً عروبية، لأنه شاهد كيف قسمتْ معاهدة سياكس بيكو البدان العربية، التي كانت تحت الحكم العثماني.

خيم اللون الأسود على المدينة، ولم ينج من الحداد حتى أطفال الروضة وعلت مآذن الجوامع بالنواح على الملك المفدى!

Twitter: @ketab_n

كنت أرى باستمرار صورة الملك غازي معلقة في غرفة مديرة المدرسة، تعلمنا معرفته وحبه واحترامه، وكان أمراً طبيعياً بالنسبة لنا، ولكن لم نكن نعرف ما هو الفداء! كنا نصطف صباح كل خميس لتحية العلم في ساحة المدرسة، وننشد أناشيد حماسية، تعلمنا من خلالها أن نفدي أنفسنا للوطن. لم أكن أدرك ما يعني الوطن! هل هو الملك المفدى؟ أم التربة التي ولدنا فوقها؟ كنت أجهل جهلاً تاماً معنى الفداء، وكان فهمه صعباً عليّ، بعيداً عن أجواء الطفولة ومداركها! ولكنني كنت أحفظ تلك الأناشيد الحماسية التي أشارك في إنشادها مع أطفال الصف، التي نجهل معانيها تماماً، مرددين كلماتها كالببغاء على أسماع المعلمات والمديرة صباح كل خميس! واستمر الاصطفاف خميساً بعد خميس في السنوات التي تلت، ننشد بحماس الأناشيد الوطنية نفسها، عن الفداء للوطن.

×××

مدينة الحلة

عين والدي مدرساً في ثانوية الحلة للبنين، وانتقلنا إلى دار ذات ساحة صغيرة، تحيطها الغرف ذات الطابقين، ولم يكن في الساحة أشجار كما كانت عليه دارنا في مدينة الناصرية. لم تعد والدتي معنا إلى الحلة، بل قضت عاماً كاملاً في لبنان. فجاءت عمتي خديجة، لكي تحل محلها.

لم تهتم عمتي في مظهرنا أو دراستنا، وشعرنا بفقدان اهتمام والدتي الخاص بنا. أصبحتُ أعد الأيام والأسابيع والأشهر بانتظار والدتي، وشعرت ببطء دوران عجلة الزمن وثقلها بالرغم من اهتمام عمي مرتضى بنا ومحاولته تسليتنا وإبعادنا عن الملل ومرارة الإحساس بفراق وبُعد أقرب الناس لنا!

Twitter: @ketab_n

كان شعري طويلاً، وليست لي القدرة على غسله، وأصبح قبل انتهاء العام الدراسي، عشاً لتكاثر بيوض القمل، وعبثاً حاولت شقيقتي مريم مساعدتي في تنظيفه، فقد تحول إلى بؤرة ومرتعاً يتكاثر القمل فيه بحرية تامة. كانت أعشاش القمل متماسكة البنيان، متراصة بعضها تتساقط عندما أمشط شعري بسرعة، أو عندما أهاجمه بسكب طاسات من الماء الساخن، فيسقط بعضه تحت قوة الماء، ويطفو القمل الميت في الطست، ويعود رتل من البيض المتشبث والعالق بشعري لبناء أعشاش جديدة، تمص جلدة رأسي. كنت أحلم في اليوم الذي سأتخلص من هذا العبء، فقد شاركني القمل شعري الحريري الملمس، المجدول بجديلتين، تنتهيان بشريطين جميلين.

مّر ذلك العام بشتاء قارس في الحلة، فقد تجمدت المياه في أنابيب البيوت وبجانب أرصفة الشوارع، وكانت المياه المتجمدة في الشوارع وعلى الأرصفة تأز تحت أقدامنا. فذهبت عمتي للسوق واشترت لنا قماشاً كحلي اللون من الصوف الفاخر، وأخذتنا إلى الخياط وانتخبتْ الموديل/ الطراز لنا. واعتبرتنا طفلتين ليست لنا القدرة على التميز والاختيار.

وكردود فعل لا عقلانية من قبلي، ربما للشعور بفقدان والدتي وبُعدها عني من جهة، وعدم اصطحاب عمتي لنا من جهة أخرى، بل اختارت نوع المعطف الذي علينا أن نرتديه، لدرء برد الشتاء، رفضتُ ارتداءه وفضلت الذهاب إلى المدرسة من دونه. وقد لاحظت بعض المعلمات اللواتي كان لمعظمهن معرفة أو صداقة بعمتي، من أنني أرتجف أحياناً من شدة البرد في الصف. فعندما علمت عمتي من أنني رفضت لبس المعطف، وهو نوع من الاحتجاج الصامت، إذ كنا معتادين على صغر سننا مرافقة والدتي إلى السوق في اختيار ملابسنا، وكنا نختار حتى ألوان أقمشة الفساتين التي كانت تخيطها لنا.

Twitter: @ketab_n

فانزعجت عمتي من سلوكي وأخبرت والدي، وتفادياً للمشكلة التي أثارها المعطف بيني وبين عمتي، أخذني والدي إلى السوق واخترت جاكيت من الموهير الوردي اللون، وقتني طيلة فصل الشتاء من البرد.

×××

عمتي خديجة شرارة

جابهتني مشكلة حفظ الآيات القرآنية عن ظهر قلب بصورة صحيحة. لم أكن أجد صعوبة بدرس القراءة ولكن أصبحت مشكلتي واضحة في حفظ «جزء عم». تفاقمت المشكلة وأصبحت أكثر تعقيداً في كون والدي محمد شرارة، أستاذ اللغة العربية في ثانوية الحلة! فكان أي تقصير يتعلق باللغة العربية بغض النظر عن صغر سني، وكأنه انتقاص بحق والدي! لم تكن لي الجرأة على مفاتحة والدي والإقرار بضعفي في حصة الدين، التي لم تكن من الدروس الإجبارية في تلك المرحلة من الدراسة الابتدائية.

Twitter: @ketab_n

كنت أحس بنوع من الحسد عندما تترك حصة الدين التلميذات من اليهود والمسيحيين، فقد أصبحت حصة الدين عائقاً أمامي لا استطع التغلب عليها، وكم تمنيت أن أعفى منها أيضاً. واعتقدت في البداية أنني أستطيع التخلص والتهرب من حفظ درس الدين، ولكنني كنت مخطئة في هذا التصور، فقد أخبرتْ معلمة العربي عمتي عن ضعفي بهذه المادة، ووجدتُ نفسي أمام واقع حرج، إذ أخذ والدي على عاتقه مهمة الإشراف على تدريسي الآيات القرآنية.

كان والدي صارماً جداً، يقرأ الجملة وعليّ إعادتها بلا خطأ، كنت لا أفقه الكلمات والجمل التي أرددها، محفوظات فوق مستوى إدراكي. ولم يكن لوالدي تجربة في تدريس الأطفال، ففقد الصبر وضبط النفس اللذين كان يتحلى بهما، عندما أعدت قراءة مقطع بصورة غير صحيحة.

ارتفعت يد والدي، وانقلبت فجأة أنامله الرشيقة إلى أصابع غليظة متيبسة، دوى صوت الصفعة كانفجار في أذني، هربت إلى غرفتي، حبست الدموع المترقرقة في عيني، خوفاً من أن ينعتني بالضعف! كان والدي يعتبر البكاء نوعاً من الضعف.

نظرتُ بعد لحظات إلى وجهي في المرآة، إلى الصفعة التي خلفت وشماً وردياً من أنامل والدي على وجهي البض، وأطل وجه والدتي البعيد عني، وشعرت بحرقة فراقها، وحاجتي الماسة إليها، للدفاع عني، فقد كانت تأخذ جانب أولادها وتدافع عنهم حتى وإن كانوا مخطئين!

كانت تلك «الصفعة» درساً قاسياً لي، وظل دويها يرن في أذني كلما فتحت (جزء عم)، إذ علمتني أن أكون حذرة متيقظة، حريصة على أداء الواجبات المدرسية بجد. جلست في اليوم الثاني، منكسة

Twitter: @ketab_n

الرأس في حصة الدين، ارتفع صوت معلمة الدين تنادي اسمي. قرأت بصوت هادئ واضح. تعمدت في قراءتي إخراج الجمل منفصلة وبوضوح، وعلمتُ أن المعلمة كانت مرتاحة من أدائي. ولكن ظلت حصة الدين من الحصص الشائكة لجهلي معاني الكلمات، لا أرتاح في أعماق نفسي إلى المُدّرسة، بل أشك دائماً في نواياها تجاهي، لأنني كنت كغيري من الطالبات، أجهل معاني لغة القرآن، لأنها كانت فوق مستوى إدراكي.

×××

سينما بابل في مدينة الحلة

كانت سينما بابل السينما الوحيدة في الحلة، وكان عمي مرتضى صديق أبن صاحب السينما، فيحجز لنا «لوج» مقصورة في السينما ليلة الخميس. كان الإعلان عن الفلم عن طريق عربة تسير في شوارع الحلة الرئيسة عصر الخميس، يجرها حصان واحد، تحمل لافتة كبيرة مزدوجة يراها المارة من الجهتين، عليها أسم الفلم الجديد مع صور الممثلين المهمين، ويجلس بجانب الحوذي شخص يعزف على الطبل، أو يعلن بأعلى صوته أسم الفلم. تطورت العربة بعد ذلك إلى سيارة مع مكبرة للصوت بدل الطبل.

كنت أشاهد معظم الأفلام من دون تمييز إن كانت هندية أو مصرية، وكنا نتغيب عن السينما أيام الامتحانات فقط. كنا نجلس بصحبة عمي في إحدى المقصورات التي تقع عادة في نهاية قاعة السينما نطل منها على الحاضرين. العزل آنذاك كان تاماً بين الرجال والنساء في الحياة الاجتماعية اليومية في مدينة الحلة حتى في السينما. فخصصت أوقاتاً معينة لحضور النساء وأخرى للرجال، فالسينما كانت من وسائل الترفيه القليلة يترقبها الجنسان.

Twitter: @ketab_n

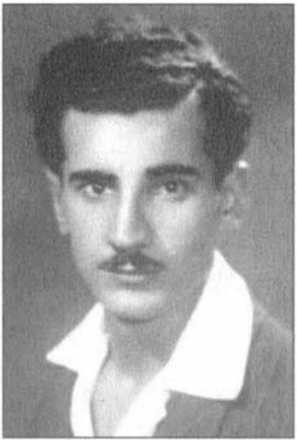

عمي، مرتضى شرارة

بعد انتهاء العرض المسائي المخصص للنساء، تبدأ عملية تنظيف السينما برفع تلال من قشور حَب اللقطين والفستق التي كانت تجلبها النسوة للتسلية أثناء مشاهدة الفلم. كانت عملية التنظيف تستغرق وقتاً طويلاً، يتوقف التنظيف مع بدء عرض الفلم المخصص للرجال، وجلوس المشاهدين في مقاعدهم، فتترك في بعض الأحيان تنظيف المقصورات وتتركز الجهود على تنظيف القاعة، فنسير عندئذ على سجادة من القشور التي تغطي الأرض والكراسي أحياناً.

لم تكن تهمنا قصة الفلم، فلم يكن لنا الإدراك الكافي لفهم مغزى القصة، وكنا نفضل مشاهدة الأفلام المصرية والهندية التي تتخللها فترات طويلة من الغناء، رغم إن القصة لا تحتاج إلى فاصل موسيقي غنائي. كان اختيار معظم الممثلات يرتبط بجمال اشكالهن وأصواتهن وليس لموهبتهن أو قدرتهن على التمثيل.

ما أن يبدأ عرض الفلم، حتى تتركز أنظاري على الشاشة، رغم

Twitter: @ketab_n

الجمهور وتعليقاتهم لإظهار عواطفهم وأحاسيسهم فترتفع صيحاتهم بتعليقات بذيئة على أحداث الفلم، أو مشاركة بطلة الفلم بالغناء، إن كانت لهم معرفة بالأغنية، مكونين كورساً حياً من المغنين. غير أن هذه الأصوات كانت لا تصدر بصورة اعتباطية، وإنما حسب نظام، وأصبحت تقليداً عند رواد السينما. وبين الصفير وردود الفعل الحماسية، كنا نخسر بعض الحوار الذي يعيقنا عن التركيز وعلى ما يجري من مسار القصة وتسلسل أحداث الفلم، خاصة إن كانت يد الرقيب واضحة في بتر جزء منه بسبب قبلة من قبل الحبيبن.

كان عمي مرتضى، يشرح لنا الأفلام الهندية لعدم مقدرتنا على قراءة الترجمة التي كانت تتغير بسرعة. وكنا نشعر بالتعب، من كثرة التلفت يمنة ويسرة. فالترجمة العربية للفيلم الأجنبي تعرض على شاشة صغيره بجانب الشاشة الكبيرة. وظل هذا النهج متبعاً، حتى بدأت الترجمة على شريط الفيلم نفسه في أسفل الصورة، وأراح أعناقنا من كثرة التلفت.

وإن انتهى الفلم نهاية مفجعة، ترى العيون المحمرة والأيادي المرتفعة بالمناديل البيضاء تمسح ما تبقى من الدموع عندما يخرج المشاهدون من صالة العرض.

أثرت تلك الأفلام على خيالنا ووسّعت مداركنا. كنا مريم وأنا، نستعيد قصة الفلم الذي شاهدناه في الليلة الماضية ونتحدث عنه بالتفصيل، كأننا نبحث موضوعاً مهماً. أصبحنا ننتظر مساء الخميس بشوق ولهفة، إذ كان عالمنا صغيراً ومحدوداً. لم يكن هناك أي نوع من التسلية الرياضية للإناث كالسباحة أو لعب الكرة مما كان مسموح به للأطفال من الذكور.

كما كانت تقام كل عام في إطار النشاطات السنوية الثقافية في

Twitter: @ketab_n

مدينة الحلة مسرحية في ثانوية البنين وأخرى في ثانوية البنات. كنا نذهب بصحبة عمتي خديجة لمشاهدة المسرحية التي تعرض في ثانوية البنات، وبصحبة عمي مرتضى لمشاهدة المسرحية التي تقام في ثانوية البنين. كان الممثلون من الذكور، يتقمصون أدوار النساء كما هي الحال في المسرح الياباني «الكابوكي Kaboki ونو Noa» أو كمسرح شكسبير في العصر الاليزابيثي، فتناط الأدوار النسائية بالشباب من أصحاب الوجوه الجميلة، إذ يعتبر من المحرمات إناطة دور نسائي لفتاة من ثانوية البنات.

قام بدور المرأة عن تلك المسرحية يعسوب رفيق وهو من أصدقاء عمي مرتضى، ومن عائلات الحلة المعروفة، وقد التحق فيما بعد بالسلك الدبلوماسي. كان شاباً جميلاً لدرجة من الصعب تصوره رجلاً عندما تقمص دور امرأة، إلا أنني التقيت به مع عمي، وظل جماله الآخاذ مهيمناً عليّ، وأطلت صورته التي حفظتها عنه بمخيلتي عندما التقيت به بصحبة زوجي رفعة، بعد عقد ونصف في نادي المنصور ببغداد حيث صار أباً لثلاث بنات، وأصبح من أصدقائنا المقربين.

×××

السفر إلى لبنان بالقطار

انتهت السنة الدراسية وبدأت العطلة الصيفية التي لم تكن في معظم الحالات منتظمة لأنها خالية من النشاطات الرياضية كالسباحة والركض وغيرها من الفعاليات المناسبة للأطفال، بل أصبحت سلسلة من أيام وأسابيع خالية من هموم التحضير المدرسي يتخللها لعب بريء. لم يكن هنالك فرق بين الأيام حتى وإن تسارع إيقاعها، ليس هنالك بداية أو نهاية لليوم، وإنما كانت جميع الأيام متشابهة تمر ببطء ورتابة

Twitter: @ketab_n

اعتدنا عليها. وتمتد العطلة الصيفية أمام أعيننا من دون أفق يحددها، وكأنها مستمرة إلى الأبد.

لم تكن وسائل التكنولوجيا متقدمة، و لم يكن الراديو أو المذياع الذي يلتقط الأخبار العالمية بصعوبة، جزء من تسليتنا، بل كان أداة لتسلية الكبار، حيث كنا نشاهد والدي إنشَدّت أذناه إلى المذياع كي لا يفوته خبر مهم أو مثير، يتقطع صوت المذياع أحياناً، ترتفع موجة صوته تارة وتنخفض تارة، أو تنقلب إلى صوت مشوش غير مفهوم.

لكن تغيرت رتابة الحياة اليومية في هذه العطلة الصيفية، عندما سافرنا بصحبة والدي وعمي مرتضى وعمتي خديجة إلى لبنان. الهدف الذي كنت انتظره بفارغ الصبر في السفرة المذكورة، هو اللقاء بوالدتي، كنت أتوق لرؤيتها، لأنفض عني برودة فراق عام كامل، عام بعيد عن دفء الأمومة.

سافرنا بالقطار، وهي المرة الأولى التي نسافر بها بالقطار إلى لبنان. ضم القطار عدداً من الغرف، أقامت في جوارنا مدرسات لبنانيات عائدات إلى لبنان أيضاً. كن مرحات لطيفات، تطرز الضحكات أحاديثهن، و لم يمضِ إلا وقت قصير حتى تعززت العلاقة بين الغرفتين بعد أن علمن أن والدي لبناني. وسرعان ما انتظمت الزيارات بيننا وصار التزاور طبيعياً. كانت زيارة المعلمات لمقصورتنا في الصباح، وزيارة والدي وعمتي لهن في المساء. وشمل التبادل حتى الأطعمة التي جلبت من قبل الجانبين للسفرة الطويلة. كانت تتعالى الضحكات والغناء ويستمر الطرب حتى ساعة متأخرة من الليل. كنا أنا وشقيقتي مريم لا نتحرك من أماكننا، نغمض أعيننا محاولين النوم رغم الغناء المختلط بالأحاديث والضحك.

توقف القطار عن الهدير في الليل القاتم بظلامه بين الحدود التركية والسورية، وشعرت بحركة غير طبيعية. خطوات أحذية شرطة الحدود

Twitter: @ketab_n

كالطبول تعلن عن وجودهم بيننا. زرعوا الرعب في الحافلة بأصواتهم الجهورية الغاضبة، ملابس رسمية ووجوه عابسة، وأيدي تتصفح جوازات السفر، محدقين بوجوه الركاب. أخفيت وجهي خلف ظهر عمتي، أنظر بين الفينة والفينة إلى وجوههم العابسة المخيفة من بين كتفيها، حدقوا بي، خفت أن يقتلعوني من مخبئي، ضحك أحدهم محاولاً وضع يده على رأسي، تكورت كالبزاق متمسكة بعمتي، وأغمضت عيني كي أبتعد عنهم، وعن الخوف الذي هيمن عليّ، فتحت عيني ثانية بعدما سمعت هدير القطار.

تثاءب الصباح وبزغت أشعة الشمس وتعالت في الأفق وكست الطبيعة المختالة بنورها. جلست قرب النافذة، وظلت عيوني تتابع ألوان الطبيعة الزاهية، القطار يهدر والمناظر تتبدل وتتغير بسرعة عجيبة، أراض منبسطة، المزروعات مستلقية بخضرتها الداكنة، مساحات واسعة من القمح والذرة المتموجة بألوانها المتناسقة، تداعبها نسمات الصباح الندية. القطار يهدر والمناظر تتغير أمام عيني، تلال وهضاب كستها كروم العنب الهاجعة على منحدراتها والأزهار البرية بألوانها الحمراء والبيضاء تميل لملامسة نسيم الصباح الرقيق لها. تغيرت تربة الأرض، ومالت إلى حمرة غريبة. كما تلاشى اللون الترابي الذي اعتدتُ عليه في مدينة الحلة.

وصلنا بالسيارة من مدينة حلب إلى بيروت ليلاً. كانت عروس البحر تهجع في ظلام دامس، شوارعها وساحاتها مهجورة معتمة، لاتضيئها إلا أنوار السيارات القليلة والترامواي الذي يقطع شوارعها الملتوية. القناديل والشموع الخافتة تنير عتمة الفنادق، الصمت مخيم على الدور في أحيائها. تجوب سيارات الدرك شوارعها وتذكرنا بالحرب الضروس الدائرة في العالم.

×××

Twitter: @ketab_n

وصلنا دار جدي، عانقتُ والدتي، واستنشقت رائحتها بعد طول غياب. رائحة أمي كالمسك بعد فراق عام. فرحتُ بحرارة اللقاء، بعيونها العسلية المغرورقة بدموع الفرح. وشفتيها المؤنبتين عندما اكتشفت أعشاش القمل المنتعش في شعري!!

صعقت والدتي من تدمير القمل لشعري، وكانت جدائلي التي اعتز بها أول ضحية بين فكيّ المقص. أعلنت والدتي منذ اليوم الأول حرباً بلا هوادة على القمل الذي كان آمناً من أي هجوم عليه خلال عام، فقد كانت دوافع القمل الغذاء المتواصل على مص جلدة رأسي، فتنتفخ بطونها الحبلى، وتفقس أعشاشاً تتشابك بيوضها بين خصلات شعري.

بدأت والدتي عملية تنظيف شاقة للقضاء عليه، وشنت حملة منظمة. كنت أجلس بالرغم من ضجري وتأففي، على مسند، أضع رأسي على ركبتيها المغطاة بمنشفة، تسكب قليلاً من النفط على مشط بين يديها، قبل أن تبدأ عملية التنظيف التي حرمتني من اللعب مع الأطفال. كانت والدتي مصممة بعزم أن تربح المعارك في جولاتها اليومية، وكانت موفقة في تلك الجولات، فقد تصدعت أعشاش القمل المتماسك وانهار البنيان المرصوص ببيوضه وبانت بوادر النجاح بعد عدة جولات. استعملت والدتي في الجولات الأخيرة مشط خشبي، ووضعت بين أسنانه خيط لالتقاط ما هرب من بيوض. كان المشط حاد يؤذي جلدة رأسي، رغم أنه مصنوع من الخشب ولكن رؤوسه مدببة حادة. كانت تنطلق من بين شفتيّ كلمة «آخ» متأففة بين الفينة والفنية، فتجيبني والدتي باستياء: «شو هذه، تركتكم عندها حتى تهملكم، ويمتلي راسكم بالقمل؟». كانت مستغربة ومستاءة في الوقت نفسه من عدم اهتمام عمتي بنظافة شعري. لكن

Twitter: @ketab_n

والدتي قبل نهاية العطلة الصيفية قضت على القمل، وانتهت العملية قبل عودتنا لبغداد. تركت عملية التنظيف جانباً سلبياً، تمثل في رائحة النفط ومستحضراته التي كانت تسبب لي الغثيان، وأثرت عليّ نفسياً، أشعر بالدوار عندما أشم رائحة النفط، وبصداع لازمني لمدة طويلة.

×××

اعتادت عائلتنا السفر إلى لبنان لزيارة أهلهم عادة، وكان السفر خارج العراق محدوداً خلال عقد الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي، و لم يكن السفر متاحاً سوى لعدد من العائلات الميسورة التي كانت تقضي الصيف في لبنان أو سوريا أو تركيا.

كانت عودتي من لبنان تفتح مساحات ومنازل سحرية في مخيلتي، أحلق في أرجائها مبتكرة صوراً حية متتالية كشريط سينمائي تعكس أحداث العطلة التي قضيتها في ربوعه. تناديني مدرسة الرسم الست مارسيل، وترفعني لأجلس على الطاولة أمام الطالبات. وتنهال أسئلتهن المتدفقة عن لبنان! عن البلد الغامض الساحر في مخيلتهن الصغيرة الساذجة وعن جمال طبيعته الفاتنة. تتركز اسئلة بعض الطالبات عن لون البحر، وعن حجمه وغضبه. فتنساب مخيلتي في ابتكار الصور الأكثر روعة وحيوية، فيسافرن معي إلى تلك البقاع البعيدة عن مدينة الحلة، وتنساب في مخيلتهن صور البحر المتلاطم بأمواجه. كنت أصف لهن غضب البحر، أمواجه البيضاء المتلاطمة تتقافز أمام عينيّ، متدفقة كحزمة ثلجية متكسرة على منحنيات الصخور، وعيونهن الشاخصات المتتبعة بصمت إلى ما أصفه عن غضب الطبيعة، فأترك السماء المكفهرة بغيومها السوداء الداكنة المنعكسة على ألوان البحر، وانتقل إلى خلجان البحر وخضرتها، إلى زرقته الجميلة الهادئة في يوم مشمس، فتمتزج السماء بالبحر، تاركة الحدود الفاصلة بينهما.

Twitter: @ketab_n

كانت الأسئلة عن الجبال تأتي بالدرجة الثانية في الأهمية، عن سفوحها الخضراء المتنوعة، مرتدية أشجار الصنوبر والغار، مكسوة بكروم العنب وعناقيده الذهبية من لفحة شمس الصيف في لبنان، قاطعات معي منحنيات الطرقات الوعرة التي لا نهاية لها في تلك الجبال الشاهقة الملتصقة بارتفاعها بالسماء. كن منصتات، يستمعن إلى وصف مياه الجبال المنحدرة على منحنيات وفجوات صخورها، منسابة بحزم من شلالات حليبية بيضاء.

وتتوالى اسئلتهن، حتى نصل مدينة بيروت، المختلفة تماماً عن مدينة الحلة!! فالأبنية متعددة الطوابق. يخترق الترام قلب المدينة، بشوارعها الرئيسة المبلطة، بينما يمتد شارعان مبلطان محاذيان لنهر الحلة، أما الأزقة الملتوية في أحشاء مدينة الحلة فمعظمها كانت بلا تبليط.

كما كانت ملابسي تثير الأسئلة أحياناً، إذ كانت والدتي تجلب لنا أقمشة الحرير والكودري من لبنان، تخيطها لنا لكي نرتديها في المناسبات المدرسية. كنت أحس بفرح عميق، فأشعر بالزهو أحياناً، ولكن ما إن كنت أصل الدار، حتى يبدد والدي تلك النشوة، «إذ كان لا يرتاح ولا يستسيغ ذلك النوع من الشعور بالثقة بالنفس لدرجة الغرور، وكان يعتبر الغرور نوعاً من أنواع العمى، حيث تضل الرؤية، ولا يطيق الشعور بالتفاضل على الآخرين، فيحاول دائماً هدم تلك الأسس!!»[١٥]

×××

١٥ – انظر كتاب محمد شرارة من الايمان إلى حرية الفكر، دار المدى، ٢٠٠٩

Twitter: @ketab_n

زيارة الوصي والملك فيصل الثاني إلى الحلة

عدنا إلى الحلة بعد انتهاء العطلة الصيفية، وانتقلنا إلى دار أوسع من الدار التي سكنا فيها مع عمتي خديجة، ورافقتنا عمتي سكنة لإكمال دراستها في العراق مع عمي مرتضى.

عمتي، سكنة شرارة

كانت عمتي سكنة صبية مفعمة بالحيوية، عقدت صداقات واسعة في مدينة الحلة، وشملت معلماتي في المدرسة الابتدائية، وكنت قد عبرتُ عقدة الضعف الذي كنت أعاني منها سابقاً، بعد أن نجحت إلى الصف الرابع الإبتدائي، ولم أعد أهتم بما ينقل لوالدي عن انطباع المعلمات إن كان جيداً أو سيئاً. فوالدتي الآن بجانبي، أتكئ عليها إن كنت بحاجة لسندها.

زار الملك فيصل الثاني وولي العهد عبد الإله مدينة الحلة، وانتخب مدراء المدارس الابتدائية عدداً من الأولاد والبنات لاستقبالهما بصورة

Twitter: @ketab_n

رسمية عندما يصل مركز «المتصرف» أي محافظ المدينة. كنت من بين اللواتي وقع عليهن الاختيار في إلقاء كلمة في استقبال الملك. كان الملك فيصل يصغرني بسنتين.

كتب والدي «الكلمة» وأعجبت بها معلمة اللغة العربية، التي أخذت على عاتقها تدريبي على قراءتها بصورة صحيحة لائقة بمقام الملك. فصرفت ما يقارب الساعة معي، تعيد عليّ اللفظ الصحيح لكل كلمة وجملة، كما قضت والدتي يومها في خياطة فستان أبيض لهذه المناسبة.

اصطفت البنات بصف واحد يقابلهن في الجهة الأخرى صف من الأولاد، تفصلنا سجادة حمراء وضعت لهذه المناسبة. كنا كحمائم بيضاء، بارتدائنا اللون الأبيض الذي شمل الحذاء والجوارب والفستان وشرائط الشعر.

كان الملك فيصل طفلاً صغير الحجم، علت وجهه سحنة سمراء، وعينان سوداوان يغلب عليهما بريق الطفولة. كان مرتدياً بنطلوناً وقميصاً خاكي اللون وحذاءً بنياً. كان منتبهاً لما يدور حوله رغم صغر سنه، واقفاً طيلة المدة بجانب خاله الوصي على عرش العراق، ومدير معارف مدينة الحلة وعدد من المرافقين الواقفين خلفهم على شكل نصف دائرة.

ألقيتُ الكلمة مرحبة بالملك، وغطت الحمرة وجهي التي لا سيطرة لي عليها في هذه الحالات، لدرجة أن مدير المعارف كان خائفاً آلا أستطيع الاستمرار في إكمال ما بدأت به. ولكن علا التصفيق من قبل الجميع تشجيعاً لي، وشعرتُ بالفرح يسري في أعماقي عندما شاهدت الملك فيصل يشارك في التصفيق. فتشوا عني عصر ذلك اليوم، و لم يكن عندنا تلفون في البيت فلم يستطيعوا الاتصال بي، فقد كان المسؤولون

Twitter: @ketab_n

يفتشون عن أطفال لمشاركة الملك باللعب. أحب الناس الملك فيصل الثاني، يعطفون عليه لأنه فقد والده و لم يبلغ الخامسة من العمر.(١٦)

الملك فيصل الثاني

×××

المآتم والأفراح

النسوة في مدينة الحلة، كن يقمن «القراية» في شهر محرم وخلال عاشورا، كنت أرافق أحياناً والدتي، عندما تدعى من قبل الجيران والأصدقاء، لحضور هذه التقاليد والطقوس.

تتصدر المجلس في العادة امرأة «الملاّية»، تقرأ من كتاب بين يديها، قصص تراثية عن بطولة الإمام علي وعن مقتل الحسين وعائلته. كنت

١٦- كتب والدي مقالاً بمناسبة زيارة الوصي والملك مدينة الحلة. وصف التخلف والفوضى التي هيمنت على الحفل الذي أقيم على شرفهما في بلدية الحلة. أنظر كتاب "محمد شرارة من الأيمان إلى حرية الفكر، ص- ١٤٣".

Twitter: @ketab_n

استمع إلى تلك القصص والاساطير المتعلقة بالحياة البطولية والشجاعة الأسطورية لأدوار الأئمة الشيعة المتمثلة بدور الإمام علي وأولاده وأفراد عائلته، فقد كنتُ معتادة على المبالغة في رواية القصص والحكايات التي كانت تقصها علينا خالتي قبل النوم في لبنان. ولكن الاختلاف هنا، أن هذه القصص والشجاعة الأسطورية، موجهة للكبار وليست للأطفال!

تلك القصص سحرتني، لما يتخللها من بطولة وشجاعة فوق طاقة البشر! وكان لأسلوب القراءة أثر كبير في تحويل تلك التراجيدية إلى واقع تتحس النسوة فيه لوعة الفقدان والموت. فكانت «الملاّية» تلعب دوراً مهماً في تلك الإثارة. وكان يتراءى لي شبحها بملابسها السوداء في الكوابيس التي تهمين عليّ، يتردد إيقاع صوتها في أذني، وهي تقف بقامتها الطويلة، تضرب على الكتاب بيديها، وتعيد الجمل في إيقاع بين الغناء والنحيب.

كانت «القراية»[١٧] مفتوحة لجميع نساء الحي، ولكن كانت صاحبة الدار التي تقيم القراية، تدعو صديقاتها وأقرباءها، فيعرضن أزهى وأجمل ملابسهن، يتزين بالحلي من الذهب المرصع بأحجار ثمينة، وبعطور ذات رائحة قوية.

بعضهن يرتدين الملابس التقليدية الزاهية الألوان من «الهاشمي» الرداء العريض الشفاف، الموشى بخيوط القصب الذهبي والفضي، وتحته زبون مفتوح في الوسط ينتهي بكمين طويلين. كما كان البعض منهن، يرتدين «الصاية» من القماش الأسود الشفاف فوق «أتك» من

١٧- القراية: تقام عادة من قبل الشيعة والسنة أحياناً عندما ينوون " نذراً "، ويقرأ آيات من القرآن، وقصص عن بطولات الإمام علي وعن مقتل الإمام الحسين في مدينة كربلاء.

Twitter: @ketab_n

الحرير الملون بألوان زاهية، ويحتذين البابوج الأسود من «الروغان» اللمّاع أو القطيفة. كنت أحبذ هذا النوع من الملابس على النساء ذوات القوام الطويل النحيفات القد.

إقامة «القراية» في الحلة لها دور مهم، كنوع من التنفيس والشعور بالراحة. فمجتمع الحلة مجتمع ذكوري بحت، منغلق بالنسبة للمرأة، حيث العزل التام بين مجتمع الرجال والنساء، الذي يؤدي إلى حرمان يعاني منه الجنسان. يتجلى الحرمان في مظاهر أخرى، لذا كانت تميل بعض الفتيات والنساء إلى التخفيف من الضغط عليهن بإقامة علاقات جنسية بينهن. وكانت كلمة «باجي» كلمة احترام للأخت الكبرى أو المرأة المُسنّة في العمر، من قبل البنات الأخريات في البيت، ولكن كلمة «باجّية» عنت أيضاً علاقة مثلية مع «امرأة أخرى». لكنني لم أكن افرق بين الكلمتين في ذلك العمر.

والدتي كانت تحضر «القراية» وأفراح العرس عندما تدعى إليهما، كما كانت تقوم بتأدية الواجبات في حضور المآتم أيضاً. كنتُ أفضل مرافقة والدتي في حضور الأعراس، وكانت تختلف مظاهر البذخ والصرف على الأعراس باختلاف المنزلة والطبقة التي تمثلها. فلم يكن للفتاة أو الفتى رأي في اختيار رفيقة أو رفيق العمر، وإنما كانت في اختيار العروس أو العريس، تقع المهمة على عاتق العائلة التي تقرر مصير أولادها. فالزيجات عوملت كالبيع والشراء، تقدر بالمبلغ الذي يدفعه أهل الفتى لأهل الفتاة، وكثير من الزيجات كانت تتم بين الأقارب وأولاد العم.

كان العرس حلماً جميلاً في مخيلتي، مشحوناً بصور العروس الجميلة وهي ترتدي فستانها الأبيض الطويل، يعكس نقاوتها وبراءتها وطهارتها وخجلها بتنكيس رأسها، لا ترفعه لكي لا تلتقي نظراتها

Twitter: @ketab_n

القلقة بنظرات الحاضرين التي تغمرها. ولكن تصدعت تلك الصورة الجميلة عن العرس، عندما حضرت مع والدتي عرس فتاة صغيرة لم تزل طفلة، كانت تلعب معي في مدينة الحلة. لم تكن تكبرني إلا ببضعة سنوات، إذ كنت في التاسعة من عمري، حين انقطعت هي فجأة عن اللعب بعد عقد قرانها. ذهبتُ مع والدتي إلى حفلة عرسها.

كانت العروس جميلة بردائها الأبيض، جالسة على كرسي مرتفع، بدلتها البيضاء مفروشة بإتقان كالخيمة حول الكرسي. قوّس الكحل عينيها، وعلت الحمرة خديها وشفتيها، وبدا وجهها قناعاً بلا تعبير، عيناها منكستان، لا تنظر إلى أحد. وجدتها بزينتها أكبر عمراً، إذ أصبحت امرأة و لم تعد طفلة صغيرة!

قريبات العروس كن ينثرن بين حين وآخر، حفنة من القطع النقدية، تليها حفنة من الحلوى «الملبس»، فيهجم الصغار والكبار لجمعها. وتتنافس النسوة في إطلاق الزغاريد و«الهلاهل»، ورفع أصواتهن وإطالة الزغردة، التي تدل على المهارة والإتقان. أما العروس فكانت شاردة لا تتأثر بما يحدث حولها، بل زادت خلجات قلبها سرعة، رأسها الصغير مرتبك، ومشغول بالمصير الذي ينتظرها، والحياة التي ستتوفر لها مع زوج تجهل شكله ووجهه وقامته وملابسه!

خفّتت الأصوات تدريجياً، حتى ساد صمت عميق، صمت يشوبه الترقب، فعلى صوت رجالي مرتفع بقامته وملابسه التقليدية، ينبه النساء في فسح المجال للعريس وصحبه بالمرور. غطت النسوة وجوههن بالعباءة، ينظرن خلسة من خلالها، نظرات يشوبها الفضول، تلاحق نظراتهن العريس الذي سار متجهاً نحو غرفة النوم، تسبقه العروس التي لم تزل بكراً، نقية طاهرة! لم تمر سوى فترى قصيرة، حتى صدحت الزغاريد بين النسوة! إذ ظهرت أم العروس

Twitter: @ketab_n

وهي تلوح بـ «منديل الشرف» الملطخ بالدم... رمز شرف العائلة...!

اصطحبتْ والدة العروس والدتي إلى الطابق الثاني، مسكتُ ذيل عباءتها، خفتُ أن أضيع بين زحمة النساء والأطفال، قفزت الدرجات قفزاً حتى وصلنا غرفة العروس بين الزغاريد والأغاني والضرب على الطبلة. كانت العروس مسجاة على سرير العرس تنتفض كطائر مذبوح، تتلوى من الألم بين الأغطية الحريرية المطرزة بالدم. ترك منظرها المؤلم أثراً عميقاً في نفسي، ونقطة تحول في حياتي! أدت بي هذه الحادثة إلى التفكير في المستقبل، وآلا اتبع تقاليد المجتمع هذه.

×××

تقنين المواد الغذائية

أدت الحرب العالمية الثانية إلى تقنين المواد الغذائية، وكان التجار يتلاعبون بالأسعار وعرض المواد، مما أدى إلى قيام الناس بخزن المواد التي اختفت من الأسواق، وارتفعت أسعار المواد الغذائية الرئيسة، التي استغلها وتلاعب بأسعارها بعض التجار في العراق. فعم تقنين المواد الغذائية في بداية الحرب العالمية، وأصدرت مديرية الإعاشة دفتراً بعدد أفراد العائلة، يقدم شهرياً إلى المديرية لاستلام الشاي والسكر والرز والطحين. كان السكر من أهم المواد التي تستهلك في دارنا، رغم إن والدتي حاولت شراء كميات كبيرة منه قبل التقنين ولكنها نفذت، وكثيراً ما كانت تنتهي الكمية المقننة لنا قبل نهاية الشهر.

لا أدري كيف خطر لوالدتي هذا الدهاء، فقد ابتكرت اسلوباً جديداً لتوفير تلك المادة. وأحرزت نجاحاً باهراً. كانت توزع علينا في وجبة الفطور ثلاثة ملاعق شاي من السكر الأبيض لكل فنجان، فاقترحت علينا تقديم مكافأة لكل منا، إن استطعنا أن نوفر من استهلاك السكر في الشاي الذي نشربه، ونملأ لها كيساً منه في نهاية الشهر. لم

Twitter: @ketab_n

نكن نعرف ما هي المكافئة ولكننا كنا جميعاً نتوق إلى الحصول عليها!

بدأنا -كأطفال- بقيام تجارب على الكمية التي باستطاعتنا أن نختزلها من فنجان الشاي، من دون أن يؤثر على الطعم. فبدأنا بإضافة ملعقتين ونصف، ولكن للشاي الحلو مذاق خاص تعودنا عليه منذ نعومة أظافرنا! نغمس الكعك فيه فيتشرب الشاي الحلو بحلاوة السكر ونرفع الكعكة إلى فمنا، نمص حلاوتها تدريجياً قبل أن نلوكها بأسناننا ونبلعها.

تعلمنا بمرور الأيام الإقلال من كمية السكر تدريجياً، حتى بلغنا استعمال نصف ملعقة من السكر، فقد الشاي في البداية طعمه اللذيذ، ولكن اعتاد الذوق تدريجياً على الطعم القريب من المرارة. بدأت كمية السكر تزيد وترتفع في كيس الورق الأسمر الصغير شهراً بعد شهر حتى أمتلأ، سلمت والدتي الكيس بفخر، وكانت الجائزة، فستان جديد من الحرير الأزرق، اشترته لي والدتي من سوق البزازين وليس من الباعة الجوالين.

تشجع حتى أخي إبراهيم في الإقلال من استعمال السكر وأصبحت والدتي لا تحتاج إلى شراء السكر بأسعار السوق السوداء الباهضة، بل فاضت كمية السكر عن الحاجة التي يستهلكها ضيوف والدي ووالدتي، وتعداه إلى صنع المربى بأنواعه المختلفة، التي أضافتها والدتي إلى وجبتي الفطور والعصرونية.(١٨)

نجحت والدتي في خطتها، وأصبح شرب الشاي بقليل من السكر أو بلا حلاء، عادة ملازمة لنا، فلم تكن والدتي مدركة من أن السكر غير صحي يؤذي أسنان الأطفال، إذ لم تكن المعارف الطبية والثقافة

١٨- العصرونية: هي الوجبة التي كنا نتناولها عصراً مع الشاي، وتحتوي على المربى واللبنة والزعتر والمشاطيح، وهي مصغر للفطور اللبناني في الصباح.

Twitter: @ketab_n

الصحية معروفة آنذاك، اكتشفتها التجارب العلمية التي أجريت على الأطفال بعد عقود من الرخاء الذي مرّ به العالم بعد الحرب العالمية الثانية.

والدتي، زهرة الزين

×××

كانت شوارع وأزقة الحلة تعج بالضجيج المتواصل، الباعة الجوالون ينادون على بضائعهم، والحوذي يضرب بالسوط حصانه والمؤذن يؤذن بأعلى صوته لصلاة الظهر، فتختلط الأصوات وتتردد أصداؤها في الأزقة الضيقة.

أعتادت والدتي أن تشتري أحياناً من الباعة الجوالين، وكان هناك نوع من الاختصاص بينهم، فاليهود متخصصون ببيع الأقمشة، يدفعون أمامهم عربة محملة بها، ينادون بأعلى أصواتهم على بضاعتهم. تنادي والدتي على أحدهم، فيدخل البائع الدار ببضاعته،

Twitter: @ketab_n

ويفتح لها لفائف الأقمشة بألوانها ونقوشها المتنوعة. كنت أعجب بمهارة والدتي «بالعملة»[١٩]، إذ كانت هنالك فجوة كبيرة بالسعر بين ما يطلبه البائع وبين ما تعرض عليه والدتي. وكانت المسرحية تتكرر دائماً أثناء العرض والطلب، يبدأ البائع عادة من أعلى السلم بسعره المرتفع، وتبدأ والدتي من أسفله بسعرها المنخفض، ويلتقي السعران في وسط السلم. ولا يبقى إلا اختلاف ضئيل عندما تتم الصفقة.

وفي حالة عدم التوصل إلى اتفاق أحياناً، تنادي والدتي على البائع وهو يهّم بالتوجه نحو عتبة الباب، لتنفرج أساريره المنتصرة وتشعر والدتي بالغبن وهي تسلمه المبلغ الذي طلبه منها. غير انها كانت تشعر في معظم الأحيان بالانتصار، عندما يعود البائع موافقاً على عرضها قبل أن يعبر عتبة الدار متوجهاً نحو الشارع.

×××

كان أخي وديع في عامه الرابع عندما أصيب بمرض «السحايا»، وعزل عنا، كنت أراقب وجهه الشاحب وعينيه الذابلتين وجسده النحيل، كرّست والدتي وقتها للعناية به، تمسح حبات العرق المنبجسة من جسده الصغير، وتضع المنديل الأبيض المبلل بماء الثلج على جبينه، تعيده ثانية إلى إناء الماء المثلج، تعصره لتضعه ثانية على جبينه. تخف الحرارة فيفتح عينيه ليعود ثانية ويغمضها.

علمنا بوفاته بعد الانتهاء من الامتحانات المدرسية، عدنا ووجدنا الحزن يحيط دارنا من كل صوب، وهيمن الموت بظلاله المعتمة على واحة الطفولة البريئة. والدي حائر قلق، نظرات عينيه الحزينتين تحكي النكبة التي حلت به. دموع والدتي تنساب بصمت، فقدت

---

١٩ – العمْلة: عند عدم وجود سعر محدد للبضاعة، يحاول الزبون أن يتعامل مع البائع على تَخفيض السعر، فهو النقاش الذي يجري بينهما.

Twitter: @ketab_n

ابنها الذي لم يبلغ الرابعة من العمر، تتنهد بحسرة عميقة على فقدانه وتنساب الدموع من عينيها كلما ذكرت أسمه. وكأنها تقول في أعماق نفسها، لماذا ألمّ بي هذا المصاب وأنا مؤمنة وأمارس جميع الطقوس والشعائر الدينية.

كنت أجلس أمامها حزينة لحزنها، لا أفقه آنذاك معاني الحزن والفقدان! أمسك منديلها بيدي التقط دموعها المنسابة على خديها، وأحس بالعجز أمام دموعها. أردد «ماما لا تبكي». كانت دموع والدتي تشعرني بالعجز أمام ظاهرة الموت الجديدة في حياتنا!»[٢٠]

×××

لم يتركنا لقب «اللبنانيين» في الحلة، فاستمرت الحال كما كانت عليه في مدينة الناصرية. كنت أرغب في أن أصبح من أهل الحلة أي «حلاوية» ولكن لقب اللبنانية ظل ملازماً لي، ويتعذر التخلص منه!

كانت هنالك جالية صغيرة من الأطباء والمدرسين اللبنانيين في الحلة، كان معظمهم أصدقاء والدي ووالدتي. إذ لم يكن هنالك عدد كافياً من الأطباء العراقيين، فكانت الحكومة تسد تلك الثغرة باستقدام الأطباء اللبنانيين. زرت ذات يوم بصحبة والدتي دار الدكتور اللبناني يوسف جبور. واستغربت من إحساس بناته بنوع من الزهو والفخر والاعتداد من أنهن لبنانيات! يشعرن بالتعالي على أهل الحلة، فقد أضفت الجنسية اللبنانية هذه الهالة عليهن. لكنني لم أشعر بالتعالي على بنات الحلة أو يستحوذ عليّ هذا الشعور، كنت معتزة بعراقيتي، ولم أحس في يوم من الأيام أنني لبنانية، رغم السفر المتواصل بين البلدين في عطل الصيف. رغم إن العراقيين ظلوا يعتبروني لبنانية وإن

---

٢٠ – كتبت عن موت أخي وديع في كتاب « محمد شرارة من الايمان إلى حرية الفكر» ص– ١٤٩

Twitter: @ketab_n

تساهلوا، قالوا عني: من أصل لبناني! فاشعر بالغيظ والامتعاض! فمن الصعب على العراقي عامة أن يتصور في ذلك المحيط المغلق، من أن الذي يولد في العراق من والدين اجنبيين يصبح عراقياً، وهي نفس الحالة عندما يضطر العراقي أن يترك بلده، يجد من الصعب عليه أن يتأقلم في المجتمع الذي يحل فيه.

×××

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

الانتقال إلى بغداد

الرستمية

كانت الحلة آخر مدينة نعيش فيها، قبلٍ أن يستقر والدي في العاصمة بغداد عام ١٩٤٤. فقد عُين مدرساً في دار المعلمين الريفية في الرستمية.

قضيت الصف الخامس والسادس الإبتدائي في مدرسة إبتدائية في الرستمية . وكانت هدية النجاح من الصف السادس الابتدائي، وانتقالي إلى مرحلة دراسية جديدة، ساعة ذات إطار ذهبي بعقارب سوداء، كانت أجمل هدية تسلمتها في حياتي آنذاك. شعرت بالفخر عندما وضعها والدي حول معصمي، ونظرتُ إلى الوقت من خلال عقاربها المتحركة. فقد تعلمت قراءة الساعة عندما تعلمت جدول الضرب في الصف الثاني الابتدائي، كنت أمد رأسي وأقرأ ساعة عمي، وأحسب الوقت. ولكن لم تكن الثواني أو الدقائق تعني شيئاً لي، بل ارتبط الوقت بشروق الشمس وغروبها، ووجبات الطعام! فالفطور يعلن بداية النهار والعشاء نهايته. ويتلاشى الوقت في العطلة الصيفية وتتوقف عجلة الزمن عن الدوران.

ولكني شعرت أنني انتقلتُ من مرحلة إلى أخرى. غيّرتْ الساعة

Twitter: @ketab_n

أنغام النهار وأوقاته، أنظر إليها بين الفينة والفينة، أصبح الوقت فجأة مهماً! أعد الدقائق بدل الساعات، أحدد أوقات الدرس واللعب والنوم، أقيس المسافات التي أقطعها بالوقت الذي أحتاج إليه في الوصول إلى المدرسة والعودة إلى البيت . أجيب والدتي بدقة عن الوقت، فالوقت بالنسبة لها مرتبط بأوقات الصلاة، عندما يبدأ المؤذن يؤذن من الجوامع في الفجر.

كانت الساعة تحتاج إلى شحن يومي، تجمدت عقاربها ذات مرة وتوقفت عن التكتكة، ارتبكت في البداية، هل توقف الزمن بتوقفها؟ ما الذي حل بهذه الهدية العزيزة؟ رفعتها إلى إذني بقلق، كانت صامتة هامدة، لا صوت ولا حركة! هرعت لعمي قلقة، أخذها مني وشحنها أمام عينيّ، بدأت الحياة تدب فيها ثانية وعادت إلى التكتكة! كانت الساعة لا تفارقني إلا في الحمام، فلم تكن محمية من الماء. أضعها حول معصمي باعتناء بعد أن أنشف جسدي وأرتدي ملابسي. أصبح للوقت مفهوم آخر، وأصبحت لا أعرف العيش بلا النظر إليها! أرى الزمن يذوب أمام عيني، الساعات تتوارى والنهار يغيب، والأسبوع يمضي، تتبعه الأشهر والسنين من خلال دقاتها.

×××

رافقتُ والدي كمكافأة على نجاحي، حضور فلم أمريكي في بغداد. إذ كنت معتادة على الذهاب للسينما في الحلة وحضور معظم الأفلام التي تعرض فيها، وأغلبها كانت عربية أو هندية.

كان أصحاب السينما يستوردون الأفلام الغربية الأوربية منها والأمريكية، ولم يكن هنالك منع إلا على الأفلام الروسية، كما كانت الأفلام العربية (المصرية) مهيمنة على السوق في العراق.

كانت هي المرة الأولى التي اذهب فيها إلى «سينما غازي»، لمشاهدة

Twitter: @ketab_n

فلم أمريكي، للمخرج الإنكليزي ألفرد هتشكوك، كان عنوان الفلم: «المأخوذ Spellbound» تمثيل الممثلة السويدية الأصل «إنغريد برغمان».

كنت في الثانية عشر من عمري، ولا يسمح عادة بمشاهدة مثل هذا الفلم من قبل الصغار في الولايات المتحدة أو أوربا، غير أن العراق كان بلا مثل هذه الرقابة، إذ أقتصرت الرقابة على أفلام الجنس والقبل، دون اعتبار عن ملائمته من حيث الموضوع. أما والدي فلم يقدر أن مثل هذا الفلم لا يناسب الصغار أيضاً! فقد كان ذهابي للسينما معه نوعاً من المكافأة! بينما نجد ان الآباء الآخرين عامة يعيشون بمعزل عن أولادهم.

ومنذ أن شاهدت فيلم «المأخوذ»، حرصت على مشاهدة كل أفلام الممثلة إنغريد بيرغمان، واستحوذت على تفكيري، فقد سحرني جمالها! عيناها الحالمتان، انفها الدقيق الصغير، شفتاها الرقيقتان اللتان تنفرجان عن ابتسامة مذهلة. أصبحت إنغريد في نظري مقياس الجمال المثالي للمرأة. واقتنيت صورها التي كانت تباع في بغداد بحجم ألبوست كارت post card، لكني لم أعلقها على جدار الغرفة كما تفعل الصبايا الآن بصور الممثلين ومغني البوب.

كنت اجلس في الصف، ينساب خيالي في حلم تنقلب فيه معلمة الصف إلى جمال الممثلة إنغريد! ارفع رأسي عندما تناديني المعلمة لأصدم بواقع مخيّب ومناقض لخيالي! فمعلمة الحساب ذات قامة قصيرة رغم حذاء الكعب العالي، نهدين مملوءين نافرين، وردفين مكتنزين بمؤخرة بارزة بلا تناسق. أما معلمة العربي فكتلة لحم ضخمة متحركة. كنت أحاول أن أعود إلى أحلامي، فتقطع إحدى المعلمات انسياب الحلم وتعيدني إلى جدران الصف والسبورة السوداء. رغم التناقض بين الحلم والواقع، كانت نظرتي لمعلماتي نظرة احترام وتبجيل.

لم تطل تلك المدة الساذجة في تقييم النساء من البشر، فقد انتهت

Twitter: @ketab_n

بانتهاء السنة الدراسية، وبدأت العطلة الصيفية وانتقلت إلى المرحلة المتوسطة. وهذا سلوك طبيعي تجتازه الفتيات، والشباب في سن المراهقة.

قضيت العطلة الصيفية بمطالعة الكتب المترجمة من الأدب الإنكليزي والألماني والروسي إلى اللغة العربية. وأستحوذ على لبُي هذه المرة عشقي للشعراء الرومنطقيين من الإنكليز، خاصة شيلي وكيتس وبايرون. وتوارت إنغريد بيرغمان في مخيلتي واختفت صورها من درج خزانة الملابس. لكنني واظبت على حضور أفلامها التي كانت تعرض في بغداد.

×××

انتقلت من مرحلة الدراسة الابتدائية إلى مرحلة المتوسطة، حين كنا نسكن في الرستمية. بدأت مرحلة جديدة في حياتي، وأصبحت أرافق شقيقتي مريم برحلتها اليومية الشاقة إلى مدرسة الثانوية المركزية، في بغداد. أتعبني وأرهقني السفر اليومي بين الرستمية وبغداد. كان الباص يقطع يومياً طريقاً طينياً غير مُزْفت، مليئاً بالحفر والمطبات، يغطس أحياناً في الوحل، فينزل الرجال لدفع السيارة وإخراجها من الوحل. كانت عملية شاقة مرهقة، يشترك بدفعها أحياناً، معظم الموظفين والمدرسين في المدرسة، فيتناثر الوحل على ملابسهم. في الشتاء، ويكسوهم الغبار في الصيف.

كنا نستيقظ- مريم وأنا -في الساعة الخامسة صباحا، نترك الدار في عتمة الليل في الشتاء، في الساعة السادسة صباحاً، لكي يستطيع السائق أن يجلب المدرسين الذين لا يقطنون في الرستمية، فنصل الساعة السابعة وندخل المدرسة مع الفراشين والفراشات، وننتظر ساعة ونصف حتى يبدأ الدوام. ودوام المدرسة ينتهي في الرابعة عصراً. كنا ننتظر أحياناً ساعتين في

Twitter: @ketab_n

المدرسة، ونخرج منها مع الفراشين بعد أن ينتهوا من التنظيف، لنأخذ الباص الخاص الذي يذهب إلى الرستمية، ونصل الدار مرهقتين ومتعبتين. كنت لا أستطيع أن أركز على الدروس المدرسية لشدة تعبي، أحس بحاجة ماسة إلى النوم الذي افتقده دائماً.

كانت مديرة مدرستنا السيدة مائدة الحيدري، تنحدر من عائلة عريقة الأصل، تتقن عدة لغات بما في ذلك اللغة التركية. لها صالون يحضره الكثير من الشخصيات السياسية والثقافية والفنية. وقد ترأست الوفد العراقي عام ١٩٤٦ لحضور المؤتمر العالمي للمرأة في الأمم المتحدة. تميزت بطلعتها البهية، ووجهها مستدير وردي، تنفرج شفتاها عن صفين متراصين من الأسنان البيضاء، وشعر أحمر اللون، يتموج وتتغير ألوانه من الفاتح إلى الغامق بتغير نور النهار. جسمها أبيض بض ناصع كبياض الحليب، تنتشر بقع النمش الخفيفة على معصميها البضين. أنيقة المظهر، ترتدي آخر تقليعات الموضة، ولا ترتدي العباءة وإنما كانت «سافرة». كانت الست مائدة يومذاك تمثل فئة صغيرة من نخبة في المجتمع العراقي بدأت تظهر وتشق طريقها في المجتمع.

كان الانتقال من المدرسة الابتدائية المختلطة في الرستمية إلى الثانوية المركزية حدثاً هاماً، يُشعر الطالب بالهيبة والرهبة التي لا يمكن تفاديها. إذ أنها أقدم متوسطة وثانوية فتحت للبنات في بغداد عام ١٩٣٠، كان من يحظى بالدراسة فيها، كمن يتأهب لدخول الجامعة. فلها هيبة من حيث تاريخها ومستواها العلمي والأدبي. وكانت معظم طالبات المدرسة، من العائلات البغدادية المعروفة، بنات وزراء ومدراء في الدولة، وحكام وقضاة وتجار كبار.

كانت الطالبات يتعجبن من ألوان وجهي الوردية، يعاملنني كطفلة، وأصبح صغر سني سبباً يخولهن في قرص خدي كلما سنحت لهن الفرصة. كان نوع من تحبب سمج كنت أتضايق منه، وأصبح ذلك التطفل سبباً لكرهي للمدرسة، تمنيت أن اقضي وقتي في البيت، العب بين الحدائق

Twitter: @ketab_n

والبساتين التي تحيط دارنا في الرستمية. فالمدرسة حرمتني من تلك المتعة، وذلك للمدة الطويلة التي كنا نقضيها في السفر بين البيت والمدرسة. أهملتُ دراستي، وأصبحت أتجنب الاختلاط بالطالبات، أقف منعزلة في الفرصة إلى جوار أحد جدران ساحة المدرسة أحياناً، أو أظل جالسة في الصف وحدي، أقرأ وأكتب الواجبات المدرسية التي لم يسمح لي الوقت في الليلة الماضية من إنجازها.

كانت النتيجة في نهاية العام فاشلة! لم أكن أعرف ما هو الفشل في الحياة! إذ عندما قرر والدي أن يبعثني للروضة مع شقيقتي مريم رغم صغر سني، لم يكن بسبب عدم نجاحي، وإنما كان بسبب مرضي الذي أدى إلى تركي المدرسة. إنها الصدمة الأولى في حياتي عندما ارتطمت بجدار الفشل! لم أكن متألمة من فشلي وعدم النجاح إلى صف آخر، وإنما كيف سأواجه والدي؟ وصلتُ الدار، متألمة حزينة، أفكر بما سيكون عليه رد فعل والدي، الذي كان يفتخر دائما بتفوق بناته! حاولتْ والدتي تهدئتي.

نجحت مريم في الامتحان إلى الصف الثالث وأصبح الفرق بيننا سنتين وهو طبيعي بالنسبة لفرق العمر الذي كان بيني وبينها، ووجدت الطريقة المجدية في تجنب غضب والدي هو في الابتعاد عن العائلة، والاختباء في غرفة السطح التي كانت توضع بها فرش ووسائد السطح، إذ تمنيت آنذاك، لو تنشق الأرض وتبتلعني في جوفها.

رغم إن والدي لم يؤنبني على خسارة عام دراسي، لكنه أبدى انزعاجه من عدم نجاحي وأصيبَ بخيبة أمل، ولكن وقفت والدتي موقف المدافع عن فشلي، فوالدتي لا تتوانى في مثل هذه الظروف الحرجة، من ان تنتهز الفرصة في الدفاع عن أولادها بحرارة وعزيمة، حتى وإن كانوا مخطئين أو مذنبين أو مقصرين. إنها سنة الأمهات، إذ تغلب عليهن عاطفة الأمومة في مثل هذه الحالات ولا يتقبلن الموضوعية! لأن معظم الأمهات لا يعرفن الموضوعية في التعامل في مختلف أوجه الحياة. لذا ذكّرته والدتي

Twitter: @ketab_n

بالظروف الصعبة التي عشتها وأدت لعدم نجاحي، واصفة الوقت الطويل الذي كنت أقضيه في التنقل بين الرستمية والثانوية المركزية في بغداد، والتعب والإرهاق الذي يصاحب السفر يومياً لطفلة لم تصل بعد سن الرشد. واضعة اللوم والذنب على الآخرين، وليس تقصير أبنتها في عدم المثابرة والكسل!

كانت تلك أصعب أيام مرت عليّ في ذلك الصيف، للفشل الذي عانيت منه، والذي لم استطع أن أواجهه، وشعرت بنوع من الإهانة لكرامتي. إذ كانت الدراسة سلاحنا الوحيد، وكنت أصبو أنا وشقيقتيّ للدراسة خارج العراق. لجأت إلى عمي مرتضى في إرشادي وتوجيهي فيما اقرأ من كتب تناسب سني.

كنت أعلم أن والدي كان حريصاً على أن نكمل تعليمنا الجامعي، الذي وضعه الهدف الأول في حياتنا. وكنت أحس بخيبة أمله فيّ، في ذلك الصيف أحسَ أنني أتحاشى الجلوس والحديث معه كما كنت أفعل في السابق، وطلب مني بعد مدة أن ألتقيه في غرفة الضيوف. جلست أمامه وكنت متوقعة أن يؤنبني على فشلي، لكنه قال لي: «إن الحياة رحلة طويلة، ستتكشف لك خلال الطريق الطويل الذي ستقطعينه. الطريق وعر أحياناً، ومكلل بالفشل أحياناً أخرى، ولكن الهدف في أن نتخطاه ونفكر دائماً في الخطوة التي سنخطوها في المستقبل. لذا فان الفشل في الامتحان هو ليس نهاية المطاف! والعلم بحر لا ينتهي بالحصول على الشهادة المدرسية. وإنما الشهادة المدرسية أو الجامعية هي مفتاح مهم من خلاله تستطيعين خوض معترك الحياة»[٢١].

ومنذ تلك اللحظة علمني والدي إن الحياة سلسلة من المطبات والصعاب، تناوب للنور والظلام. وتعاقب للحكمة في حل الأمور

٢١-المصدر نفسه، ص- ٢٢٢

Twitter: @ketab_n

وتجاوز الصعاب التي نواجهها بدأب ومثابرة للتغلب عليها، والخروج منها، وتقبل الواقع بفهم موضوعي.

بدأ جسدي ينمو خلال العطلة الصيفية، لتتكامل فيه ملامح التحول تدريجياً إلى فتاة يافعة، عينان سوداوان تشعان كعيون القطط، وبشرة وردية صافية، كنت أنظر إلى وجهي في المرآة، فأجد وجهاً متناسقاً جميلاً، فلم تشملني بشاعة التحول البيالوجي في تلك المدة كما شملت بعض صديقاتي. فقد صغرت عيونهن، وكبرت أنوفهن، وظهرت بقع «حب الشباب» مدمرة بشرتهن.

بدأت مرحلة المطالعة، فقد كانت سبباً في صرف الطاقات المتفجرة، التي لم نكن نعرف كيف نصرفها أو نستغلها في مرحلة الطفولة، إلا في لعب «الختيبة» أو «التوكي» أو «النط/ القفز على الحبل»، أمام الدار مع أطفال الحي. لذا أصبحت المطالعة المتنفس الرئيس في حياتنا اليومية، كما أصبح التمشي مساء عند غروب الشمس بصحبة والدي وعمي وشقيقاتي، والاستماع في تلك الأمسيات للأحاديث المختلفة التي كانت غالباً لا تخص الهموم اليومية أو العائلة كما هو معتاد عادة، وإنما تدور حول الأدب والشعر.

×××

حي الأعظمية - بغداد

أعدتُ السنة الأولى في ثانوية الأعظمية للبنات، كانت المديرة حسيبة الشيخ داود[٢٢]، امرأة ضخمة الحجم نقيض الست مائدة الحيدري،

٢٢- حسيبة الشيخ داود: واجهت وزارة المعارف مشكلة توفير كادر للتدريس في المدارس، فقامت عام (١٩٢١) بانشاء صف للمعلمات في مدرسة البنات المركزية في بغداد، ثم تغير اسمه في وقت لاحق الى دار المعلمات الاولية، التي كانت تستقبل خريجات المدارس الابتدائية اللواتي يقضين في الدار سنتين دراسيتين، وضم الرعيل

Twitter: @ketab_n

تدخل المدرسة ملتفة بالعباءة المفتوحة من الأمام، فنشاهد خصل شعرها وملابسها الملونة. تتوقف الطالبات عن اللعب أو الحديث، ويعم الصمت للحظات أو دقائق أحيانا، تسير بخطى وئيدة، تحمل حقيبتها فرّاشة، مساعدة، تقف أحياناً متأملة حديقة المدرسة، تدور بعينيها شمالاً ويميناً، يرتفع صوتها مؤنبة البستاني على إهماله الحديقة، إن شاهدت زهرة ذابلة لآوية عنقها أو عشب أصفر اللون، ثم تتجه نحو الدرج المؤدي إلى مجاز المدرسة، تسير متجهة نحو غرفتها حتى تغيب نهائياً عن أنظارنا، فتدب الحركة ثانية في المدرسة، ويذوب الصمت وترتفع أصوات الطالبات وضحكاتهن فتختلط بدقات الجرس المتتالية المعلنة عن بدء الدرس. نصطف عندئذ، ويتجه كل صف إلى القاعات المخصصة لصفوفهن.

كانت الفتيات بأعمار متفاوتة، ولذا قُسم الصف الأول إلى ثلاثة شُعب حسب الطول وليس حسب العمر أو التفوق في درجات الإمتحانات. كانت شعبة جيم من نصيب الطالبات اللواتي كن أكبر سناً منا، وتخلصن بذلك من التنصت على الأحاديث التي كانت تدور بينهن، حيث يتمازحن فيما بينهن عن الزواج والجنس الغالب على أحاديثهن!

معظم الدروس العلمية أختص بتدريسها مدرسات يهوديات، جميلات أنيقات بمظهرهن. واختفت ذات يوم فجأة مدرسة الرياضيات، كنا نجهل في البداية سبب تغيبها عن المدرسة، ولكن علمنا بعد مدة أنها هاجرت إلى فلسطين، فقد بدأت الجالية اليهودية بترك العراق تدريجياً، ومنذ ذلك الحين أرتبط اختفاء المدرسات المفاجئ بالهجرة إلى فلسطين التي استمرت بعد تأسيس دولة إسرائيل، وحل محلهن مدرسون من الشباب. إذ لم يكن هنالك كادر يكفي من خريجات الجامعة لسد الثغرة التي أحدثتها هجرة المدرسات اليهوديات.

الاول من خريجات هذه الدار، حسيبة الشيخ داود.

Twitter: @ketab_n

كان أستاذ الرياضيات الذي شغل الفراغ وانتدب لإلقاء المحاضرات، شاباً جميل الطلعة، بعينين واسعتين ووجه أبيض يميل إلى الحمرة، يضع منديلاً في جيبه الأعلى، يغيره حسب لون القميص الذي يرتديه. أصبحت الطالبات ينتظرن بفارغ الصبر درس الرياضيات، يتأملن بإمعان أناقة أستاذهن، حيث كن يحلمن بعريس يشبه أستاذ الرياضيات! لم يكن الأستاذ على الملاك الدائم وإنما كان محاضراً، لذا كان يختصر عدد الحصص التي يلقيها علينا بجمع شعبتين بدلاً من شعبة واحدة في الصف، وكانت تلك فرصة فريدة لنا، نستمع إلى تعليقات الطالبات في شعبة (جيم) اللواتي يكبرننا عمراً. فقد خلب أستاذ الرياضيات حواسهن، بأناقته وبهاء طلعته وحسن سلوكه، فيتجرأن أحياناً في رفع أصواتهن بمديح لون منديله أو العطر الذي استعمله في الحلاقة. كان يتجاهل المديح ويتغاضى دائماً عنه! خابت آمالهن ذات يوم عندما اكتشفن أنه متزوج وأب لطفل! فانهارت الأحلام التي بنينها في مخيلتهن، وجرفها الواقع المرّ الذي أعادهن إلى حقيقة مجتمعهن القاسي المحافظ.

الطالبات في غالبيتهن كن من الطبقة الوسطى وفوق الوسطى، في حين لم يكن بيننا طالبات دون الطبقة الوسطى أو بنات من الريف، إذ لم يكن يسمح لهن بالدراسة من قبل أهاليهن آنذاك.

كانت مدرستا اللغة العربية لبية القيسي والشاعرة عاتكة وهبي الخزرجي[٢٣]، تجلسان مع مجموعة من المدرسات في الحديقة يتحدثن فيما بينهن، نراقبهن عن بعد، ولا نتقرب منهن، نصغي عن بعد إلى

٢٣- عاتكة وهبي الخزرجي: ١٩٢٤- ١٩٩٧، شاعرة عراقية، حصلت على الدكتوراه من السوربون في باريس ١٩٥٥، بعد تخرجها من كلية دار المعلمين في بغداد ١٩٤٥. أصدرت ثلاثة دواوين، أنفاس السحر ١٩٦٣، لآلآالقمر ١٩٦٥، انواف الزهر ١٩٧٥، ومسرحية شعرية بعنوان: مجنون ليلى. أما لبيبة القيسي فيقال انها كانت إحدى ملهمات الشاعر بدر شاكر السياب التي نظم فيها القصائد عندما كانت تلميذة في كلية دار المعلمين العالية.

Twitter: @ketab_n

أحاديثهن وضحكاتهن، ونعجب بآخر تقاليع موضة الشعر والملابس، حيث أصبحن نماذج نحتذي بهن.

كانت الشاعرة عاتكة تجلس بمفردها أحياناً تحت الأشجار على عشب الحديقة أثناء الفرصة بين الحصص، شاردة بعينيها الواسعتين السوداوين نحو الأفق، فترتفع ضحكات الطالبات الشيطانية، مرددات الجملة نفسها: «يبين الست عاتكة ده تنظم قصيدة، أو جايها الإلهام»!. لم تكن الشاعرة عاتكة من المجددات في الشعر، ولم تتفرد وتبرز في القصائد التي نظمتها آنذاك كقريناتها نازك الملائكة أو لميعة عباس عمارة، وإنما سارت على النهج القديم في نظم الشعر المقفى ذي طابع موسيقى جيد، يتسم بالطابع القصصي أحياناً ونغمة ذاتية.

كانت اسعد اللحظات لنا خلال الفرصة بين الحصتين، عندما ينادي بائع «العمبة/ المانكو»[٢٤] المتجول عن بضاعته بأعلى صوته، نسمع مناداته عبر الجدار المرتفع الذي يفصل حديقة المدرسة عن الشارع. فنهرع نحو جدار الحديقة الخلفي، نجمع المبلغ الذي نحتاج إليه، ونختار أصغر الفتيات حجماً، نرفعها على أكتافنا، تتسلم لفات العمبة، نوزعها بيننا، ثم نجلس على عشب الحديقة، ونبدأ بأكل اللفة بلذة ومتعة! تسيل بلونها الأصفر على الشفاه الوردية، نمصها بشغف، ونلوك اللقمة ببطء، نتلمظ حرارتها بين اللسان وسقف الفم، قبل أن نبلعها. كنت أعود للدار بلا شهية، وأتجه نحو المغسلة قبل أن أجلس لتناول الطعام، كان لوالدتي حس غريب «للعمبة»! ربما لأنها لم تذقها في حياتها! وكنت أفشل دائماً في محاولة إيجاد الأعذار، أنكر بإصرار، أحاول أن أجيبها وشفتايّ نصف مطبقتان، ولكن كانت رائحة «العمبة»تفوح حتى من مسامات جسدي

٢٤- العمبة: هي من المآكل الشعبية المنتشرة في معظم أنحاء بغداد بين الباعة الجوالين، وتتكون من المانكو المخلل مع البهار الحار، تقدم عادة مع السمك المسكوف/ المشوي.

Twitter: @ketab_n

فتفضحني! ظلت والدتي تتعجب وتستغرب من حبنا لأكل لفة «العمبة»! فلم تحاول أن تتذوق طعمها ولو مرة واحدة في حياتها، لأنها كانت لا تستسيغ أكل التوابل الحارة في الطعام.

×××

كانت والدتي تذهب بصحبة أم نزار زوجة الاستاذ حسين مروة لزيارة الإمام موسى أبن جعفر، كنا نرافقهن أحياناً. لم نكن نفقه شيئا عن الطقوس الدينية التي تقام في الحضرة لصغر سننا، ولكننا كنا نفرح بمرافقتهما، إذ كانت حتى زيارة العتبات المقدسة نوعاً من النزهة لنا. وبذلك يشعر الفرد أنه جزء من الجماعة، وليس وحيداً في هذا الكون، وهو زائل.

كانت ساحة الحضرة واسعة، بأربعة مداخل، يرتبط كل مدخل منها بسوق أو حي من أحياء الكاظمية. تمتلئ الساحة أو«صحن الحضرة» عصر كل يوم بالنسوة، اللواتي يسحبن خلفهن عدداً من الأطفال، يفتشن عن زاوية مناسبة يجلسن بها. يفترشن الحصير، يتحدثن ويوزعن الطعام والفاكهة، يشربن الماء من النادل الجوال «السّقى»، الذي يحمل جّرة كبيرة من الماء البارد مع سلسلة من كاسات من الصِفر، وقبل أن يملأ الطاس يحركه ببعضه البعض بشكل فني، متسق النغم، وهو يسكب الماء لأحد من الناس العطاشى. كانت النسوة المتلفعات بعباءتهن تتحدثن مع بعضهن وتعقدن الصداقات أحياناً، بينما يسرح الصبية يلعبون في ساحة الصحن الكبير. كانت هذه اللقاءات نوعاً من الشعور براحة نفسية، فعالمهن محدود جداً. والغالبية من النسوة لا يذهبن إلى السينما ولا يتمتعن بأي نوع من التسلية في حياتهن يجدن ملاذهن في الذهاب إلى هذه الزيارة. يجمعن فيها بين الثواب والراحة الايمانية، والتفريج عن كربهن.بما يعوضه لهن من تسلية بريئة.

كنا نمسك بذيل عباءة والدتي، عندما يكون الصحن مزدحماً بالناس،

Twitter: @ketab_n

خاصة أيام الخميس. تدخل والدتي إلى داخل الضريح، وتقف خلف «إمامي» يصلي بجماعة من الناس، بعد أن ينتهي من الصلاة، يلتفت إليها، فتعطيه مبلغاً من المال، ثم ندور حول الضريح، تنساب دموع بعض النسوة وهن يربطن شرائط خضراء اللون بالضريح، متمتمات بكلمات مبهمة غير مفهومة، طالبات «المراد»[25] أمام قفص الإمام، يبكين بحرقة بكاءً خافتاً! لم أكن أدرك ما تعنيه هذه الطقوس، لكني كنت استغرب بوعي الطفولي من جسم مسجى، مات منذ مئات السنين قادر على تنفيذ طلبات ورغبات النسوة اليائسات والمتضرعات إليه، اللواتي بنين آمالهن على الغيب والابتهال!

إذ نشأتُ في بيت يهيمن على أجوائه التفاؤل والفرح، وكنت أتفادى الأجواء الكئيبة، فأحاول الابتعاد عن البكاء والابتهال، وأتسلى في عّد مصابيح الثريات الكبيرة المتدلية من السقف المطرزة بمئات القطع من المرايا الصغيرة المنعكسة في ألوان زجاج النوافذ الملون. كانت الجدران والأرض من الرخام النفيس، نسير حفاة الأقدام احتراماً لمقام الضريح. يستلم «الكيشوان»[26] أحذيتنا قبل أن ندخل عتبة باب الضريح، وكنت اندهش من قوة ذاكرة «الكيشوان» المحاط بجيش من الأحذية المصطفة أمامه، تظهر مدى الدقة والذاكرة المدهشة التي يتحلى بهما، إذ كان يجلب أحذيتنا بمجرد أن نخرج من الباب. نصل الدار، ويبدأ غسل الأقدام من الأتربة التي علقت بها.

كانت والدتي ترتاح لتلك الزيارات، وكأن هّما قد أزيح عن كاهلها،

٢٥- المراد: هو عندما تتمنى النساء أن يستجاب لهن طلب من قبل الضريح، فيربطن الشرائط، يرافقها الدعاء بالإستجابة لمطالبهن.

٢٦- الكيشوان: هو الرجل الذي يجلس في مدخل باب الحضرة، يستلم الأحذية قبل أن يدخل الناس إلى زيارة الضريح. ويصف الأحذية على رفوف خشبية بجانبه. ويستلم مبلغاً من المال عند تسليم الحذاء أو الأحذية.

Twitter: @ketab_n

فتشعر بالطمأنينة تسري في عروقها وتظهر البهجة على قسمات وجهها! فالإيمان يساعدها على تحمل صعوبات الحياة ورتابتها وعبثيتها، والعيش خارج الواقع، يدفعها أن تستند إلى أوهام غيبية قد لا تنسجم مع صحيح الدين والإيمان. فهنالك تناقض بين رؤية والدي العلمانية من الوجود وبين موقف والدتي من الوجود، الذي يعتمد بالأساس على الإيمان وأداء الطقوس الدينية.

×××

حي الكرادة الشرقية - بغداد

ولأننا كنا نعيش في جو يهيمن عليه الكتاب، فولادة جنين القراءة في بيتنا أمر طبيعي. كان للقراءة سحر فانقلب إلى نهم، فتفشت حمى المطالعة بيننا، وشاركتني شقيقتيّ مريم وحياة في هذه الهواية، وأحيانا عمتي سكنة. كنا في مطلع الصبا متلهفات لفتح مغاليق المجهول، نحّلق تحت راية الخيال، نرتشف من مناهله العذبة ما يحلو لنا. واعتكفنا ذلك الصيف في غرفة واسعة مطلة على حديقة الدار، كل منا اتخذ زاوية من زوايا الغرفة، نقرأ بنهم، لا نشعر بالجوع أو العطش، ننسى وجبات الأكل، نسمع صوت والدتي معلنة عن موعد الطعام. نتجه إلى مائدة الطعام أحياناً أو لا نجيبها لانغماسنا الكلي في الكتاب الذي أمام كل منا، فقد أصبح الكتاب هو الغذاء الفكري لنا، نمتحن قدراتنا على تفهمه. نسابق الزمن ونعتصر ساعاته، وهكذا أحببت الكتاب وعشقت صمته.

فتحتْ قراءة الأساطير اليونانية وملحمتي الأوديسة والإلياذة أمامي أبواباً جديدة، فعشت صراع الأبطال وتقلب حظوظهم بين الخير والشر، أحلم بمصيرهم. ثم أعقبت ذلك كتب المنفلوطي المترجمة بتصرف عن الفرنسية. قرأنا في ذلك الصيف عدداً من الكتب في

Twitter: @ketab_n

الأدب القصصي والشعر وسيّر الكتاب والعظماء. وشعرنا في نهاية العطلة الصيفية باتساع الأفق والثروة اللغوية التي حصلنا عليها، فقد اطلعنا على الأدب الغربي المترجم لأول مرة. كنت اقرأ بنهم[٢٧] ما كتب باللغة العربية عن الشعراء الرومنطيقيين وعن الموسيقيين الذين بدأنا نستمع إلى موسيقاهم في دار الشاعرة نازك الملائكة[٢٨].

الشاعرة نازك الملائكة ١٩٤٨

توسعت أفاقنا وتطلعاتنا التي لم يكن لها حدود، نرنو نحو مستقبل ضاحك ملوء الأمل، نتحسسه بين راحتينا. كانت حماسة الصبا وتفاؤله تهب علينا كنسيم عذب، نستنشقه بعمق. كما كانت نظارة الحياة طاغية علينا في كل خطوة نخطوها، تتفتح عن أسرارها الجميلة الساحرة، فتنقلنا إلى عالم من الأحلام المتواصلة المتفائلة بالمستقبل الذي ينتظرنا.

كانت الكتب هي النافذة المطلة على أوربا، وكانت إنكلترا موضع اهتمامنا وحلم يراودنا في أن ندرس في بلد شكسبير وبرناردشو

٢٧- قرأت ذلك الصيف ما يقرب من خمسين كتاباً أدبياً.

٢٨- أهدتني هذه الصورة نازك الملائكة وكتبت خلفها: هدية إلى عزيزتي بلقيس مع ودي وتحياتي، ١٩٤٨/٥/٢٨.

Twitter: @ketab_n

وكيتس وشيلي وبايرون، نتغنى بشعرهم، نحفظه عن ظهر قلب، نقرأ حياتهم، نتمتع بلحظات حبهم ونعيش عذابهم ونتألم معهم بهمومهم ويأسهم. كان لعمي مرتضى فضل كبير في شغفنا هذا، فقد كان طالباً في كلية الحقوق، واستمر في ترجمة الكتّاب والشعراء الغربيين من اللغة الإنكليزية إلى اللغة العربية وينشرها في الصحف المحلية.

أخي إبراهيم شرارة

أما أخي إبراهيم فكان نشطاً، مشاكساً أحياناً، يحب اللعب بعد عودته من المدرسة، ولا يجد في معظم الأحيان من يلعب معه، فيخرج من الدار ويتسلق أعلى شجرة في الحديقة، ويختبئ بين أغصانها أو يتنقل من شجرة إلى أخرى، حتى يحين موعد الطعام، فتنادي عليه والدتي، فينزلق من أعلى غصن الشجرة بسرعة خاطفة نحو الأرض، ممزقاً بذلك أحياناً، بنطلونه القصير أو دشداشته التي تتعثر بالأغصان. تمتعض والدتي من تصرفه وتؤنبه على سلوكه الصبياني ولكن بلا نتيجة، فقد أتعبها لحد الإعياء، من الطاقة والحيوية المتفجرة فيه، التي لا مجال للأطفال في استنفاذها! فلم يكن هنالك ملاعب أو نوادي قريبة، خاصة بالأطفال تستقطب طاقتهم وحيويتهم، أو تنظيم نشاطات من قبل مؤسسات أخرى أيام العطل، و لم يكن أمام والدتي إلا أن ترتق الثقوب

Twitter: @ketab_n

في الدشداشة أو البنطلون، أو تخيط له دشداشة جديدة وبنطلونا قصيراً.

×××

كان يتردد على دارنا في تلك المدة، عدد من الأصدقاء والأدباء والشعراء[٢٩]. وربطتنا أواصر علاقة وصداقة متينة بعائلة الأديب حسين مروة[٣٠]، حيث كانوا يسكنون حي الكاظمية، وكنا نقضي الليلة في دارهم عند زيارتنا لهم. كان حسين مروة هادئاً في نقاشه، بعيداً عن

٢٩- كان من بينهم الشاعر بدر شاكر السياب والشاعر بلند الحيدري والشاعرة لميعة عباس عمارة والشاعرة نازك الملائكة، والأديب حسين مروة والكاتب كريم مروة. وكاتب ادب الرحلات ناجي جواد الساعاتي، وعزيز أبو التمن. وكان يحضر الندوة أحياناً ثمينة ناجي يوسف التي اصبحت زوجة حسين الرضي سكرتير الحزب الشيوعي.و غيرهم. أنظر كتاب،» محمد شرارة من الايمان إلى حرية الفكر»، دار المدى - ٢٠٠٩، ص- ١٧٥، (الندوة الشعرية) الفصل السابع، ص- ١٧٥.

٣٠- حسين مروه: ١٩١٠- ١٩٨٧، أرسله والده إلى العراق عام ١٩٢٤ لدراسة العلوم الإسلامية في جامعة النجف، وانهى دراسته فيها عام ١٩٣٨. بدأ اهتماماته بالكتابة الادبيّة منذ سنوات دراسته الأولى في العشرينات، فكتب المقالة والقصة والنقد. عام ١٩٤٨ بدأ الاهتمام والاطلاع على الفكر الماركسي.. شارك أدبياً واعلامياً وعملياً في أحداث الوثبة الوطنية العراقية عام ١٩٤٨، التي اسقطت معاهدة بورتسموث البريطانية مع حكومة العهد الملكي. وإثر عودة نوري السعيد إلى الحكم في العراق عام ١٩٤٩، اتخذ القرار بإبعاده من العراق فوراً مع عائلته ونزع الجنسية العراقية التي كان قد اكتسبها أثناء مكوثه أكثر من عشرين عاماً في العراق. عاد عام ١٩٤٩ إلى بيروت حيث واصل الكتابة الأدبية في زاويته اليومية «مع القافلة» في جريدة الحياة لمدة سبع سنوات. تعرّف عام ١٩٥٠ إلى فرج الله الحلو وانطون تابت ومحمد دكروب، وقاد هذا التعارف إلى تأسيس مجلة الثقافة الوطنية التي أصبح مديراً لتحريرها إلى جانب دكروب. انتظم رسمياً في الحزب الشيوعي اللبناني عام١٩٥١. انضم إلى قوات انصار السلم عام ١٩٥٢. انتخب عام ١٩٦٥ عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني وبعدها عضواً في المكتب السياسي. ترأس تحرير مجلة الطريق الثقافيّة من العام ١٩٦٦ حتى شباط ١٩٨٧، حيث اغتيل في منزله في ١٧ شباط عام ١٩٨٧.

Twitter: @ketab_n

الانفعال، خافت الصوت. عمل في تدريس اللغة العربية في مدرسة شماش، الخاصة بالجالية اليهودية، كما كان يحرر جريدة الساعة، المعروفة بتوجهها القومي. النقاش حول خط الجريدة العام، يدور بينه وبين والدي. إذ كان والدي يختلف معه بتميزه عنه بنظرته اليسارية، خلافاً للنظرة القومية التي تبنتها الجريدة. أثّر ذلك الجدل تدريجيا على حسين مروة، وأتجه بعد مدة من الزمن، إلى قراءة الأدب الماركسي حين سافر إلى لبنان، وسجل بذلك نقطة تحول في نظرته وتحليله للقضايا فيما بعد.

كانت زوجته أم نزار، متدينة، تصلي وتصوم رمضان، وتذهب لزيارة مقام جعفر الصادق في الكاظمية، أدى هذا التشابه بينها وبين والدتي إلى علاقة متينة، لكن أم نزار تميزت بقراءة بعض الكتب، بالإضافة إلى قراءة القرآن، مما جعلها أوسع أفقاً من والدتي من هذه الناحية.

×××

ما جذب نظري عندما انتقلنا إلى حي الكرادة الشرقية، أن العائلات المسيحية في الحي، نساءً ورجالاً، كانوا يجلسون على الكراسي أمام دورهم، يتحدثون ويشربون الشاي، وينظرون إلى المارة في الشارع أو الزقاق، وأحياناً يستقبلون في الشارع حتى أصدقاءهم. إذ اعتبروا الخروج من الدار إلى الشارع، نوعاً من التنفيس. واقتصر هذا التقليد على العائلات المسيحية فقط، دون أن تتشارك معهم العائلات المسلمة. في الأحياء، التي تخلو دورها من الحدائق.

ألتقيت أثناء إقامتنا في حي الكرادة الشرقية، في ثانوية الكرادة الشرقية بصديقة العمر بتول القشطيني. كان الصف يتألف من عدد قليل من الطالبات، إذ كانت الثانوية في دور التأسيس. ومنذ أن تعارفنا، شعرنا أن افكارنا متقاربة، فكنت أحدثها عن الاجتماعات الأسبوعية الأدبية التي كانت تقام في دارنا، حيث يؤمها الشعراء والكتّاب والمفكرون. كانت بتول نهمة في قراءة الكتب الأدبية، لها قابلية خارقة في حفظ الشعر

Twitter: @ketab_n

واستعادته. توطدت أواصر الصداقة بيننا. ولم تستسغ بعض الطالبات هذه الصداقة المقرونة بالتقارب الفكري، إنما حذرتني طالبة، من العائلات الشيعية المعروفة، من هذه الصداقة، بدعوى ان بتول من الطائفة السنية ويجب الحذر منها، بالرغم من أن الحديث الطائفي كان ضمنياً وليس مباشراً.

صداقتنا استمرت خلال السنين الطويلة، لأنها كانت صداقة فكر خالية من المصالح والانتماء. وأصبحت كشجرة الزيتون الكبيرة التي ترمز للصمود بوجه الأعاصير. كما أصبحت صداقتنا أمتن وأعمق وأقوى كلما عصفت بنا الأحداث.

كنا نأتي إلى المدرسة بالباص أو سيراً على الأقدام إن كان الجو مشمساً أو معتدل الحرارة، أما بتول فكانت تأتي بسيارة والدها، وكانت من بين العائلات الميسورة التي تملك سيارة خاصة آنذاك. لم تكن بتول الوحيدة في هذا المجال، وإنما كان عدد من بنات العائلات في الكرادة الشرقية تنقلهم سيارات عائلاتهم الخاصة خلافاً لما كانت عليه طالبات ثانوية الأعظمية.

بتول القشطيني ١٩٤٨

لكن بتول لم تتأثر بما كان يحيطها من الرفاه الإقتصادي، بل تأثرت

Twitter: @ketab_n

بالأفكار اليسارية، وكان لوالدي تأثير كبير على تفكيرها واتجاهها اليساري. إذ كان والداها محافظين، ولم تكن تتمتع بالحرية التي كنا نتمتع بها، فكانت هنالك تعليمات عليها أن تتبعها، وكانت معظم عائلات بغداد محافظة في تربيتها، بوجه خاص تجاه البنات، فهنالك قيود مفروضة عليهن، وليس هنالك صراحة أو أحاديث ونقاش، بينهن وبين آبائهن، كما هي الصراحة التي تربينا عليها في دارنا، إذ كان والدي يعاملنا معاملة الند للند، ونبحث معه جميع المشاكل التي كنا نتعرض لها في حياتنا اليومية، ويبدي النصح ويوجهنا في الطريق الصحيح الذي علينا أن نسلكه.

×××

معاهدة بورتسموث ١٩٤٨

بدأت المفاوضات بين العراق وبريطانيا بتكتم شديد في قصر الرحاب في ٧ أيار ١٩٤٧، واستمرت المفاوضات في لندن، وانتهت بالتوقيع على المعاهدة في ميناء بورت سموث البريطاني في ١٥ كانون الثاني ١٩٤٨، واعتبرت بنود المعاهدة الرئيسية أشد وطأة من معاهدة ١٩٣٠. تضمنت إلزام العراق بالوقوف إلى جانب بريطانيا في أي نزاع تدخل فيه، ويسمح للقوات البريطانية باستخدام الأراضي العراقية، وعلى العراق أن ينفق من حسابه الخاص على القواعد والمنشآت العسكرية المشتركة، وتكون طرق المواصلات في خدمة القوات البريطانية في حالات الحرب.

تسربت بعض بنود المعاهدة إلى الأحزاب السياسية والجماهير، فبدأت التظاهرات في بغداد، واشتدت المقاومة، حتى أمرت الشرطة بفتح النار على المتظاهرين.

كانت ثانوية البنين تشترك في التظاهرات، وكانت المدرسة في شارع ثانوية البنات، فحاولوا مرات عديدة أن تشارك ثانويتنا معهم في التظاهرات، ولكن المديرة أديبة إبراهيم رفعت رفضت ذلك، واعتبرت أن الطالبات وديعة عندها وعليها المحافظة عليهن.

Twitter: @ketab_n

ولكن بعد مقتل عدد من المتظاهرين، كان من بينهم شقيق الشاعر محمد مهدي الجواهري، اشتدت المقاومة، فحاولت الحكومة تهدئة الوضع، وتراجعت السلطة عندئذ عن إبرام المعاهدة.

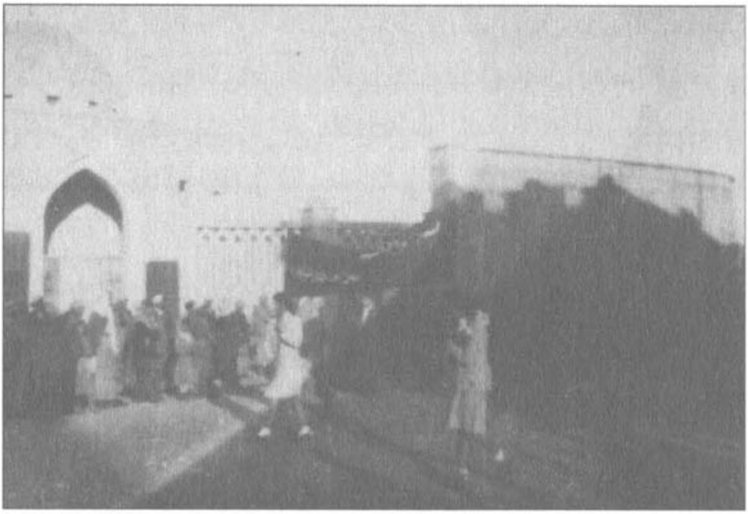

بلقيس حاملة لافتة في تشييع ١٩٤٨

وبعد مرور أربعين يوماً، سمح للمدارس رسمياً أن تشارك بالتشييع، فسمحت المديرة لمدرستنا بالمشاركة، وارتدت جميع الطالبات لباس المدرسة الرسمي، حاملات اللافتات والأكاليل، وكتب على بعض اللافتات أبيات من قصيدة الجواهري التي نظمها بأخيه جعفر الذي قتل أثناء التظاهرات.

ثم جاءت بما أطلق عليها بـ «نكبة فلسطين» في العام نفسه والاعتراف بأسرائيل كدولة من قبل هيئة الأمم، فسمحت لنا المديرة في المشاركة بالاحتجاج على تقسيم فلسطين، والقيتْ الخطب وألقت ثمينة ناجي يوسف[٣١] كلمة ضد تقسيم فلسطين.

٣١- ثمينة ناجي يوسف: هي ابنة ناجي يوسف، مدير دار المعلمين الريفية في حي

Twitter: @ketab_n

الثانوية الشرقية في تشييع ١٩٤٨

ثمينة ناجي يوسف ١٩٤٨

الكرادة آنذاك. كانت صديقتي وتلميذة معي في الصف الثاني في ثانوية الكرادة الشرقية. التقت في دارنا بحسين الرضي (سلام عادل)، سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، وتوثقت العلاقة بينهما، وانخرطت في النشاط السياسي، تركت الدراسة وتزوجا وانتقلتْ إلى مدينة البصرة. كتبت كتاباً عن زوجها مع نزار خالد، بعنوان: (سلام عادل).

Twitter: @ketab_n

لكن بدأت غيوم التوتر تتكاثف في أجواء بغداد عام ١٩٤٨، وغلبت روح العداء بين المراهقين والشباب، وأصبح التعدي أحياناً أو التحرش بالشباب والشابات من السمات الواضحة، إذ كان شارع أبو نؤاس من الشوارع التي يتمشى فيه فتيات وفتيان الجالية اليهودية والمسيحية والمسلمة أحياناً، فبدا الحذر وتجنب السير في الشارع. لم نكن نشعر بهذا الجو فيما قبل، أصبح الجو مكهرباً، وانعكس هذا الجو في معظم أنحاء العراق وشملني رذاذه.

×××

رابطة المرأة العراقية

حضرتُ في العطلة الصيفية لأول مرة عدة اجتماعات عقدتها منظمة رابطة الدفاع عن حقوق المرأة، التي تأسست في عام ١٩٤٨، ولم تكن مجازة من قبل الحكومة، وإنما كانت جمعية سرية يسارية. كان توجيه المنظمة والإشراف عليها بالحقيقة من قبل نساء منتميات للحزب الشيوعي العراقي. كما كان الحزب الشيوعي يشرف على حركة السلام واتحاد الطلبة.

عقد أول اجتماع حضرته عام ١٩٥٠، في دار الدكتورة نزيهة الدليمي[٣٢]. ذهبتُ إلى الاجتماع أنا وأختي حياة، أما أختي مريم فلم تكن تهتم بالقضايا السياسية، بل كان عالمها يدور حول الأدب، ولذا كانت منصرفة كلياً بجهودها وطاقاتها إلى دراسة الأدب والمسرح والشعر.

٣٢- الدكتورة نزيهة الدليمي: كانت طبيبة ورائدة الحركة النسائية في العراق، وأول وزيرة عراقية، أصبحت وزيرة البلديات في عام ١٩٥٩ في عهد رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم. جعلت من حقوق المرأة قضيتها الأساس في المؤتمرات والمحافل الدولية، كانت عضوة نشطة في الحزب الشيوعي، واضطرت إلى مغادرة العراق بقرار حزبي، بعد اشتداد حملات الملاحقة والتصفيات الجسدية أواخر ١٩٧٨، توفيت في برلين عام ٢٠٠٧.

Twitter: @ketab_n

بلقيس ١٩٥٠

حضر الاجتماع الأول ما يقرب من عشرين فتاة وامرأة، جميعهن كن من الطبقة الوسطى، فلم يكن بينهن عاملة أو فلاحة. بل كن طبيبات وحقوقيات وطالبات في الثانوية أو الجامعة. كانت تلك الاجتماعات دورية وليست منتظمة، تعقد في بيوت مختلفة وفي أوقات مختلفة تجنباً لرقابة السلطة.

خرجتُ من الاجتماع الأول متحمسة للانخراط في النضال وتلبية نداء المقاومة والثورة في سبيل تغيير قيم ومفاهيم المجتمع التقليدي المتعلقة بشأن المرأة! وتصورت بسذاجتنا أننا سننقل العراق إلى عالم فردوسي، يتمتع بالحرية والمساواة، فقد صوروا لنا أن هنالك عالماً مثالياً هو الاتحاد السوفياتي. ولكني اكتشفت بعد مدة وجيزة أن هذا العالم بعيد عن هذه المثالية التي صوروها لنا.

كنا نلقن دروساً في البطولات التي قام بها كل من لينين وستالين، اللذان أصبحا رمزاً وشعاراً للنضال ضد الإمبريالية، كانت النظرة إليهما يشوبها التقديس والتأليه، ولا يمكن نزع هالة التقديس وتوجيه

Twitter: @ketab_n

النقد لمثل هذه الشخصيات، فقد صُور الاتحاد السوفيتي بالجنة الموعودة، ويوتوبيا المستقبل الذي آمنا به. واخترقت المنظمة بذلك بساطتنا وحماسنا، بالطاعة العمياء إلى اللواتي أنيطت بهن مسئولية تنظيمنا.

كنا نتصور أن سكان الاتحاد السوفيتي يرفلون بالسعادة، لأن مجتمعهم - حسبما صُور لنا - مبني على المساواة والعدالة الاجتماعية، وكم ابتعدنا عن إنصاف كتّاب من أمثال أندريه جيد عندما كتب ضد الاتحاد السوفيتي بعد عودته عام ١٩٣٢، كما سخرنا من كتابات الكاتب الانكليزي أورويل، واعتبرنا كتاباته تمجيداً للإستعمار البريطاني، وخاصة كتابيه «مزرعة الحيوانات و١٩٨٤»، ولم نفق من سباتنا إلا عندما بدأت حملة خروشيف برفع تماثيل ستالين ونقل جثمانه من الساحة الحمراء وفضح أساليبه اللانسانية في التخلص ممن يعتبرهم متآمرين! وخسرنا بذلك الأفكار التي كنا نؤمن بها، وأصبنا بخيبة أمل!

شقيقتي حياة شرارة

Twitter: @ketab_n

واستمرت الاجتماعات المتنقلة في البيوت، وعقدت إحدى الاجتماعات في دار إحدى الزميلات في حي المسبح، ووزعت علينا الأعمال، فطلب منا توزيع منشورات ضد السلطة في عدد من أحياء بغداد. ووقع الاختيار على شقيقتي حياة بالذهاب إلى حي بعيد عن دارنا مليء بالبيوت الطينية «الصرائف». كانت تلك الأزقة بلا إضاءة، مخيفة في المساء للعتمة التي تهيمن عليها. فاعترضتُ من جانبي معلنة عن معارضتي المطلقة، معددة الأسباب التي لا يمكن أن ترسل شقيقتي إلى ذلك الحي، إذ كانت «حياة» صبية، جميلة، صغيرة السن لم تبلغ السادسة عشر من عمرها. وجدت نفسي في وضع لا يمكن فيه إلتزام الصمت، وأعّرض حياتها إلى مخاطر في قلب حي مجهول مخيف، تكثر فيه الجرائم.

وبسبب اعتراضي، أصبحت مواعيد الرابطة تحدد من دون علمي، وأصبحت شقيقتي حياة كاتمة أسرار المنظمة لا تنبس بكلمة أمامي! وشعرت بالفجوة التي بدأت تفصلني عنها. كان اندفاع شقيقتي وحماسها يشعرني بالقلق، واني عاجزة عن ردعها.

واعتبرتُ فتاة «برجوازية!» من قبل بعض مسؤولات الرابطة! كانت هذه التسمية تطلق بصورة عشوائية. فلم تفطن المنظمة النسائية إلى أن جميع عضواتها كن من الطبقة الوسطى! إذ كان يطلق على «الطبقة الوسطى» بـ»الطبقة البرجوازية» وهي تسمية غير صحيحة، فلم يتبلور الإنتاج الرأسمالي في العراق، لتظهر الطبقة البرجوازية، ولذا جاءت هذه التسمية وغيرها من التسميات، من خطأ وجهل القادة، لأن البرجوازي هو صاحب المال المسخّر في الإنتاج الصناعي، وفي الوقت نفسه مسيطر على إدارة السلطة.

Twitter: @ketab_n

لم تنتهي العطلة الصيفية، حتى تركتُ المنظمة وانتهت علاقتي بها في بداية العام الدراسي.

×××

كلية الآداب

كان أملي قوياً في الحصول على بعثة دراسية، بعد أن حصلت في امتحان البكالوريا على درجات تمنحني الحق بالحصول على بعثة دراسية خارج العراق، وكنت أتوق إلى دراسة الأدب الانكليزي في انكلترا، إذ كانت انكلترا في مخيلتي تجسيداً للحلم الذي كنت أتطلع لتحقيقه، بلد شكسبير وكيتس وشيلي وبايرون وديكنز ولورنس. . . خابت آمالي عندما أوقفت البعثات الدراسية من قبل وزارة المعارف عام ١٩٥١. وشعرت عندئذ أن الحلم دائماً بعيد عن الواقع، فهو الأمنية التي تتجول وتدور في الفكر، وتبقى بعيدة المنال! وعدني مدير المعارف أن ينظر بملفي حالما يلغى أمر إيقاف البعثات، ولكن كان أملي ضعيفاً، خاصة بعد أن قدمت ملفي إلى عدد من الكليات الأدبية التي قبلت في جميعها. ولم يكن هنالك مخرج آخر لي، إذ كان والدي يمر بضائقة مالية منذ أن فصل من وظيفته عام ١٩٤٩.

قررت الالتحاق بفرع اللغة الإنكليزية في كلية الآداب. كان الفرع مرغوباً من قبل الطلبة، ولم يكن يقبل فيه إلا الطلبة ذوو الدرجات العالية. وكان عليّ أن أنجح في المقابلة الشفوية التي تجرى من قبل لجنة القبول.

ذهبت صباح اليوم المعين إلى المقابلة في كلية الآداب الواقعة في باب المعظم. كان الجو ما زال حاراً، وزعت أسماؤنا حسب الحروف الأبجدية، فكان أسمي ثالث أسم، فالتسلسل اعتمد الاسم الأول وليس أسم العائلة.

Twitter: @ketab_n

كانت اللجنة مكونة من أستاذين، الكاتب جبرا إبراهيم جبرا والكاتب دزمند ستيوارت[٣٣]. دخلت القاعة، وشعرت بأعصابي متوترة. سألني الأستاذ جبرا عن اسمي، أجبت: بلقيس شرارة، وهي المرة الأولى التي التقي بجبرا. ثم أردف قائلا: لماذا ترغبين في دراسة هذا الفرع؟ أجبت: لأنني مولعة في قراءة الأدب. ثم سألني الأستاذ دزمند: بمن معجبة من الشعراء الإنكليز؟ أجبت: شلي وكيتس. قال لماذا شلي بالذات؟ قلت: لأنه كان ثائراً على تقاليد مجتمعه. واستطرد جبرا وسألني سؤالا أقرب منه إلى أحجية: كم كان عمر شلي عندما توفي؟ قلت: ثلاثين عاماً. وكيف مات؟ غرقاً. ثم سألني دزمند: ومن الذي استعمل جمجمته في شرب النبيذ؟ أجبت: الشاعر بايرون.

شعرتُ براحة نفسية عندما استطعت أن أجيب عن جميع الأسئلة بصورة صحيحة. بعد انتهاء المقابلة، سألني جبرا: ماذا يكون عبد اللطيف شرارة منك؟ أجبته: عمي. قال: اقرأ مقالاته التي تنشر في المجلات والصحف. توجهت نحو المجاز، والتف حولي الطلبة يسألونني عن الأسئلة التي وجهت لي من قبل اللجنة. بعد بضعة أيام استلمت قبولي في فرع اللغة الإنكليزية.

كان معظم الطلبة في السن الدراسية نفسها، ولكن كان عدد قليل منهم أكبر سناً منا. كان البعض منهم بعيداً عن الأدب والشعر والمسرح، ولاقى صعوبة في هضم المادة. خاصة وإن خلفية هذا البعض من الطلبة كانت تجارية، فآباؤهم تجار في سوق الشورجة

٣٣- دزموند ستيوارت Desmond Stewart، ١٩٢٤-١٩٨١ لم يكن استاذاً فحسب وإنما كان صحفياً وكاتباً متخصصاً بشؤون الشرق الأوسط، ألف أثناء وجوده في العراق كتاباً بعنوان: بابل الجديدة New Babylon، A Portrait of Iraq ، كما كتب عن عبد الناصر عندما سكن القاهرة. وله مؤلفات عن الإسلام.

Twitter: @ketab_n

بعيدون عن الأجواء الأدبية. ولم ينته الفصل الأول حتى بدأ الصف بالتقلص حتى نصف العدد، إضافة إلى أن الطلبة في المدارس العراقية، مفطومين على ثقافة التلقين. فالطفل يبدأ حياته بتلقين القراءة وجدول الضرب، ولم ينته من الدراسة الابتدائية حتى تكون شخصيته قد تكونت، معتمدة على التلقي والتلقين. فمعلم الابتدائية ومدرس الثانوية وأستاذ الجامعة ينهجون نفس الأسلوب في التعليم، وتبعه التلقين الحزبي الذي ساد في مجتمع الحزب الواحد وهيمن على حياة الناس، فلا يبقى أمام الفرد إلا الانسياق في هذا التيار، فهو محاصر من كل جانب، ولغة الحوار وإبداء الرأي بعيدة عن ممارسة العراقي، لأنه ترعرع في أحضان ثقافة التلقين والأمر، في البيت والجامع والمدرسة والدائرة التي يعمل فيها، وبذا أصبح مشلول التفكير.

أصيب بعض الطلبة بما يشبه الصدمة حين ظهر اختلاف قسم اللغة الانكليزية في كلية الآداب[٣٤] عما اعتادوا عليه من أسلوب التلقين والحفظ، واعتماده الحوار والنقد والتحليل وإبداء الرأي وتكوين فكرة مستقلة عن رأي الإستاذ. فواجه الطلبة من هؤلاء صعوبة التماشي في أسلوب التدريس الجديد، مما اضطر بعضهم إلى ترك القسم، والانتقال إلى كليات أخرى.

×××

٣٤- عندما تأسست كلية الآداب، كانت فكرة العميد عبد العزيز الدوري، أن تصبح الكلية نموذجاً، وكان هنالك اتجاه لربطها بجامعة لندن، من حيث مستواها العلمي والأدبي. فاستقدم العديد من الاساتذة من إنكلترا، فكان رئيس قسم الإقتصاد بريطاني، وجميع اساتذة اللغة الإنكليزية، وكذلك المسؤول عن المكتبة وإعارة الكتب للطلبة. كما كان العديد من الاساتذة العرب خريجي الجامعات البريطانية، من أمثال جبرا إبراهيم جبرا وضومط استاذ الرياضيات.

Twitter: @ketab_n

انتقلنا بعد أن أمضينا بضعة أشهر في شقة في شارع الأمين إلى دار في حي الوزيرية الهادئ، بحديقة واسعة، تظلل شوارعه أشجار الكالبيتوس الباسقة، فتقي المارة من حرارة الشمس المحرقة في الصيف. تفاقمت المشكلة التي عانيت منها في مرحلة الدراسة الثانوية، فالانتقال إلى الدراسة في كلية الآداب المختلطة عرضتني إلى المزيد من ملاحقة «الخّطابة»، وازداد من جانبي الإصرار على الرفض. مما أشعرني كما لو أنني في سجن، وتحت رقابة مشددة تحدق بي العيون ترصد كل حركة أو التفاتة تبدر مني.

كما شعرتُ أن والدتي لم تكن مرتاحة من موقفي الرافض لكل من يتقدم لطلب يدي، واعتبرته نوعاً من غرور الشباب وعجرفة الصبا! لم تستطع والدتي فهم مشاعري أو موقفي من المستقبل، فلم تسنح لها الفرصة في حياتها أن تختار الفستان الذي ترتديه عندما كانت شابة بعمري، فكيف تستطيع استيعاب شروط اختيار الشاب المناسب لي؟ فالسؤال أو الرفض هما فقرتان لا وجود لهما في قاموس حياتها، كل شيء مسّير بالنسبة لها حسب نظام فرضته العائلة عليها، وعليها الطاعة، رغم ان ذلك يعني تجريدها من إرادتها، دون أن تتوقف عنده أو تشعر به، بل اعتبرتها سلوكاً طبيعياً في إطار المنظومة الاجتماعية القائمة التي تتحكم في حياتها.

كنت أسير مشياً أحياناً من الكلية إلى دارنا في منطقة الوزيرية، أو أركب الباص، فأعبر الشارع إلى محطة الباص بخط مستقيم، لا ألتفت يميناً أو يساراً، أجلس في المقعد الأمامي القريب من السائق، مرفوعة الرأس، أتطلع إلى الشارع. يصعد طلبة الكلية في نفس الباص

Twitter: @ketab_n

المتجه إلى الوزيرية. حين اتأهب للنزول من الباص، ترصدني العيون وتراقبني عن كثب، أقفز بسرعة عندما يقف الباص أمام المحطة القريبة من دارنا، أسير بخطوات واثقة حتى أصل الدار. كنت أشعر لأكثر من مرة بحركة غريبة خلفي، وقع خطوات على مبعدة أمتار مني. مما يحفزني على تسريع الخطى، ثم أعود للسير ببطئ فيخف وقع الخطوات ورائي. كنت أواصل السير، وأنا أتابع حفر الرصيف، لا ألتفت خلفي، حتى عندما أصل الدار. ظل وقع تلك الخطوات يثير قلقي، أذهب في اليوم التالي إلى الكلية، وتلاحقني كظلي، بصوتها الرتيب على قارعة الرصيف حتى وصولي داري.

حاولت التغلب على هذه الملاحقة، فقامرت بترك الدرس الأخير، لكن باءت محاولتي بالفشل، لأنها تواصلت يوماً بعد يوم، وأسبوعاً بعد أسبوع، أحس بالخطوات تقترب أحياناً، متداخلة مع خطواتي، فأسرع عندئذ، وأحس بغضب في أعماقي من تلك الأشباح التي تلاحقني. يغالبني الشعور أنني مطاردة. وأنا في حيرة من أمري، لا أجد حلاً مناسباً لتلك المشكلة التي أقضت مضجعي! وهو ما يسببه الحرمان الجنسي عند الشباب، والذهنية الذكورية المهيمنة على المجتمع آنذاك.

لم أفاتح والدي أو والدتي بالموضوع أو أبحثه مع شقيقتي مريم. إلا إنني صممت على تجاهلها! مع شعوري في معظم الأوقات أن حريتي كانت محاصرة. ولكن نجحت بعد عدة أشهر، فتلاشت الخطوات التي كانت تتبعني تدريجياً، حتى اختفت تماماً، لا اسمع إلا خطواتي! أصبحت لي الجرأة أن التفت ورائي، لأطمئن أن ليس هناك من يتبعني، واختفت الأشباح التي ظلت تتعقبي.

Twitter: @ketab_n

كنت حذرة جداً، لا أختلط إلا بطلبة صفي، نتمشى كطالبات في ساحة الكلية ولا نتحدث مع الطلبة إلا كمجموعة في ساحة أو نادي الكلية. ونادراً ما تتجرأ طالبة وتجلس بصحبة طالب لوحدهما في النادي، خوفاً من الشائعات التي تنهش سمعة الفتاة وتنتشر كالنار في الهشيم، كانت سمعة البنت رقيقة برقة الزجاج الشفاف، والعيون مصوبة نحوها كتيار الضوء الكاشف عتمة المكان.

كنت لا أجلس في نادي الكلية إلا بصحبة رفيقاتي، ذهبت ذات يوم أفتش عنهن في النادي، كان شعري الأسود منسدل على كتفي، فاشرأبت الأعناق فجأة وتسّمرت عيون الطلبة محدقة بي، ارتبكت وشعرت بتدفق الدم يسري في عروقي، وأحسست بطول الدرج الذي قطعته وكأن عدد درجاته قد تضاعفت. وصلت الصف، كان خالياً من الطلبة، فرفعت شعري بدبوسين، محاولة إعادة ترتيبه كما كنت أمشطه في السابق. كانت هي المرة الأولى والأخيرة التي أغير فيها موضة شعري. أصبحت تلك الحادثة درساً لي وعلمتني ألا أتركه يتدلى ثانية على كتفي. ولكن أصبحت الشرائط التي كنت أربط بها شعري، موضوع حديث وتعليقات من قبل الطلبة وشملت حتى بعض الأساتذة العرب. كنت أتجاهل ما يدور حولي من تعليقات التي اعتادت أذني على سماعها، مثل « اليوم الشريط الأبيض، واليوم مقطع، واليوم ملّون»! مما أشعرني أن حريتي كانت مقيدة.

×××

كان في الصف طلبة فلسطينون من الذين قدموا إلى العراق مع اللاجئين الذين تركوا وطنهم عام ١٩٤٨. تميزوا بتفوقهم باللغة الإنكليزية، ليس بمعزل عن اعتماد دراستهم في مرحلة الثانوية

Twitter: @ketab_n

المنهج الإنكليزي، وشعرت أن عليّ اللحاق بهم، فقضيت الفصل الأول من السنة الدراسية مع «القاموس العصري» وأصبح صديقي الدائم والمرافق لي في البيت، يسهر الليل معي، أقلب أوراقه وأحفظ اصطلاحات ومرادفات جديدة كل يوم. تسلحت قبل انتهاء العام الدراسي بمرادفات كثيرة ساعدتني على فهم ما كان مطلوباً منا دراسته في المسرح والرواية والشعر والنقد.

كان معظم الطلبة الفلسطينيين من القوميين العرب. ولم تُخلق أواصر صداقة تربطنا بهم باستثناء قلة من أمثال سولافة حجاوي[٣٥]، وبقي معظمهم مجرد معارف، لم يكن ثمة اختلاط بين الطلبة من اليساريين أو الديمقراطيين أو الشيوعيين وبين القوميين والبعثيين. فالانقسام كان إيديولوجياً، فمعظم الطلبة الفلسطينيين يميلون أو ينتمون إلى الأحزاب القومية أو حزب البعث، الذي بدأ يتبلور في كلية الآداب.

بينما كان اتحاد الطلبة، الذي تأسس في شهر نيسان عام ١٩٤٨، تحت قيادة الشيوعيين واليساريين، فالطلبة الشيوعيون هم المنظمون الرئيسيون للإضرابات والاحتجاجات والمشرفون على المظاهرات.

كنتُ محسوبة على اليساريين عندما بدأت الدراسة في كلية الآداب، ولكن لم أنتمي بصورة رسمية إلى اتحاد الطلبة، فلم أحضر الاجتماعات الدورية للاتحاد، لكنني كنت أتبرع مالياً للاتحاد ولا أقوم بجمع التبرعات.

كانت تقام في الكلية نشاطات ثقافية، من بينها اجتماع أسبوعي يعقد كل يوم اثنين في الساعة العاشرة صباحاً. فيجتمع طلبة الكلية

٣٥- سولافة حجاوي، كاتبة وناقدة، كانت من الطالبات المتفوقات، تزوجت الشاعر كاظم جواد شقيق حازم جواد الذي أصبح وزيراً في انقلاب حزب البعث عام ١٩٦٣. عادت إلى فلسطين بعد وفاة زوجها.

Twitter: @ketab_n

والأساتذة في القاعة الكبيرة المعدة لهذا الغرض. سارت الأمور على طبيعتها في البداية، فلم يتدخل العميد فيما يتعلق في الاجتماع الأسبوعي، حتى ألقى الشاعر مظفر النواب[٣٦] قصيدته الشعبية في فرّاش الكلية «مروكي» فامتلأت القاعة بالطلبة، ولم تكفي مقاعدها للحضور فاضطر جمهور الطلبة الوقوف على جانبيها. علا التصفيق بحماس لمظفر بعد أن انتهى من إلقاء القصيدة، وكان لها صدى واسعاً بين أوساط الطلبة، وأصبح الفراش «مَروكي» فجأة نجماً من نجوم الكلية. واشتهر مظفر بشعره الشعبي في الكلية، وجرى تداول قصيدته على أوساط واسعة يحفظها ويرددها عدد من طلبة الكلية.

على أثر ذلك قرر العميد عبد العزيز الدوري بشكل مفاجئ أن يلغي هذه الساعة، مما خلف في نفوس الطلبة إحساساً بعدم استعداد الإدارة تقبل أي نوع من أنواع الانفتاح، بالرغم من إن العميد كان من خريجي جامعة لندن وعاش في جو ليبرالي لبضعة أعوام في إنكلترا، لكنه كما يبدو كان أسير إملاأت من وزير المعارف خليل كنة عليه الإلتزام بها وتطبيقها.

كما كان مظفر النواب من الطلبة الناشطين في جمعية الانطباعيين التي أسسها الرسام حافظ الدروبي[٣٧] في كلية الآداب والعلوم، وبعض

٣٦- مظفر النواب: مواليد ١٩٣٤، شاعر ومناضل، كان طالباً في قسم اللغة العربية، عندما كنت في قسم اللغة والادب الإنكليزي، اشتهر بقصائده الشعبية والشعر الشعبي، فُصل مع من فصل من الكلية عام ١٩٥٢. تعرض للملاحقة، وسجن لمرات ولعدة سنوات. عام ١٩٦٣ حكمت عليه المحكمة العسكرية بالاعدام، ثم خفف إلى السجن المؤبد، قام مع زملائه بحفر نفق من زنزانتهم في سجن نقرة السلمان وظل مختفياً حتى ١٩٦٩، عندما صدر العفو عن المعارضين، غادر بغداد إلى دمشق واستقر فيها. يعد من أهم شعراء العراق والعالم العربي الذي تغنى بفلسطين.

٣٧- حافظ الدروبي: أحد الرواد البارزين في الفن التشكيلي المعاصر في العراق،

Twitter: @ketab_n

الطالبات كن يجلسن كموديل في فترات الفراغ من الدروس. وقد ألّح عليّ الرسام حافظ الدروبي مرات عديدة أن أنتمي للجمعية، وحجتي بالامتناع تمثلت بضيق الوقت وكثرة المواد التي علينا تحضيرها.

أما الأستاذ جبرا إبراهيم جبرا[٣٨]، فكان من المشرفين على جمعية الموسيقى الكلاسيكية بالإضافة إلى التدريس. جذبت لجنة الموسيقى العديد من الطلبة والأساتذة المولعين بسماع الموسيقى الغربية. كنا نجتمع مساء نهاية الأسبوع، في قاعة الكلية بعد انتهاء الدوام، يقف جبرا على المنصة فتشرئب الأعناق ويسود الصمت، ليبدأ بشرح أهمية القطعة الموسيقية أو الأوبرا التي سنستمع إليها. كان له الفضل في تثقيف عدد من الطلبة في حبهم وولعهم وميلهم لتذوق الموسيقى «الكلاسيكية» الغربية. وكنت من بين الطلبة المواظبين على حضور هذه الجمعية.

كانت أول قطعة موسيقية سمعناها أوبرا أثلو Othello للموسيقار الإيطالي فردي Verdi وهي المرة الأولى التي استمع فيها إلى أوبرا،

ومن أوائل المؤسسين. ولد عام ١٩١٤، ودرس في /الكتاتيب قبل أن ينتقل الى دراسة الثانوية، سافر لدراسة الرسم في كلية غولد سميث في لندن، وأصبح استاذ الرسم في كلية الآداب عام ١٩٥٠، أسس المرسم الحر مع زميليه فائق حسن وجواد سليم، توفي عام ١٩٩١.

٣٨- جبرا إبراهيم جبرا: ولد في بيت لحم ١٩٢٠-١٩٩٤، كاتب روائي ورسام وناقد ومترجم، درس الادب الانكليزي في جامعة كيمبرج، وسكن العراق منذ عام ١٩٤٨ واعتنق الاسلام للزواج من لميعة العسكري، من رواياته (صراخ في ليل طويل) و(صيادون في شارع ضيق) و(السفينة) و(البحث عن وليد مسعود) و(البئر الأولى) و(شارع الأميرات) سيرة ذاتية. وترجم عدداً من مسرحيات شكسبير، كما ترجم للكتاب العالمين من أمثال أوسكار وايلد وصموئيل بكيت وأندرية مارلو وهنري فرنكفورت وليام فوكنر.

- أنظر كتاب «جدار بين ظلمتين» ص ٥٧-٥٩.

Twitter: @ketab_n

وجدت صعوبة في استيعابها في بادئ الأمر، بالرغم من إنني كنت أستمع كثيراً إلى الموسيقى الغربية ولكن لم أشارك في الاستماع إلى غنائيات الموسيقى الغربية. ولعب جبرا دوراً فعالاً في ذلك، فقد فتح أمامي آفاقاً جديدة كنت أجهلها، ولذا اتخذت من سماع الموسيقى الجنائزية/requim [39] كجسر أتكئ عليه لكي أفهم الأوبرا. كان جبرا أستاذ الشعر الرومنطيقي والترجمة في كلية الآداب.

كنا مخيرين بين موضوعين، الفلسفة أو اللغة الفرنسية، واختار معظم الطلبة درس اللغة الفرنسية حباً بالمدرسة الفرنسية التي كانت فتاة شابة، نحيفة القد والقوام. جميلة الوجه، ذات عينين واسعتين داكنة الزرقة، تطوقها أهداب طويلة سوداء، وشفتين رقيقتين قرمزيتين، وشعر أسود قصير. كانت تبذل قصارى جهدها في تلقيننا اللغة الفرنسية تلقيناً صحيحاً. كانت لغة جديدة علينا، تختلف تماماً عن الإنكليزية التي اعتدنا على تلفظها في المدارس الابتدائية. تميزت بجديتها في التدريس، تنتقل من طالب إلى آخر للتأكيد على صحة لفظ الكلمة بالإعادة والتكرار مرات عديدة، حريصة على ألا تترك الطالب أو الطالبة حتى تتأكد من اللفظ الصحيح. فتعيد الكلمات والجمل كآلة تسجيل حية. يتحايل بعض الطلبة في إعادة اللفظ بصورة غير صحيحة، بالرغم من الجهد الذي كانت تبذله معهم، تعود ثانية لتنحني على الطالب عن قرب، حيث لا تبقى إلا مسافة قصيرة تفصل بينهما! كان الطلبة من الشباب يتلذذون بهذه الحيلة، وهم يحدقون بعينيها الواسعتين، الداكنة الزرقة، وشفتيها الرقيقتين، المصبوغتين بالحمرة. كنت أحس بما تحس به من التعب، تبلع ريقها أحياناً، من الإعادة والتكرار، اشعر بنوع من التعدي على هذه المرأة الأوربية،

٣٩- Requim الموسيقى الجنائزية: تعزف عادة في الكنيسة الكاثوليكية، ثم طورت بعد ذلك من قبل موسيقين مثل موزات وبيتهوفن.

Twitter: @ketab_n

في مجتمع محروم من الجنس! ولكن بالرغم من هذا الحرمان الذي كانوا يعانون منه، كانوا مؤدبين بتصرفهم وسلوكهم تجاه زميلاتهم في الكلية.

أما الأستاذ دزمند ستيوارت Desmond Stewart فكان على عاتقه تدريس مسرحيات شكسبير، وكانت مسرحية يوليوس قيصر Julius Caesar إحدى المسرحيات في منهج الدراسة. كان معجباً بشخصية يوليوس قيصر، فعّلمنا القراءة الصحيحة للمسرحية. وكان يدمج في كثير من الأحيان ساعتين من دون فاصل، ونحصل بذلك على الفاصل بين الدرسين في نهاية الحصتين. كان يجلس بيننا، يوجه لنا أسئلة سياسية، مستقصياً أراء الطلبة، ويسمح لنا أن نوجه له الأسئلة عن القضايا الآنية في السياسية.

استاذ دزمند يتوسط طلاب الصف الرابع

كان دزمند ستيوارت من المعجبين بهتلر كقائد، وحدثنا عن دور موزلي رئيس الحزب الفاشي في إنكلترا أثناء الحرب العالمية الثانية. لم نكن نعرف ما خلفه هتلر من مآسي في تلك الحرب. ولم تكن

Twitter: @ketab_n

الأضواء مسلطة على المحرقة التي ذهب في أوارها ملايين من اليهود والشيوعيين والغجر والمقاومين للاحتلال من قبل أبناء وبنات البلدان التي سقطت تحت عبء الاحتلال النازي.

صورة مع الاساتذة والطالب جعفر علي[٤٠] جالس أمامي

كنت في موقفي حيادية بالنسبة لهتلر، لم أكن معه أو ضده خلال سنوات الطفولة، فقد كان والدي ضد الإنكليز خلال الحرب في البداية، ولكنه لم يؤيد المفاهيم النازية أو يتبناها بل كان ضدها.

×××

٤٠- جعفر علي: ١٩٣٣-١٩٩٧، مخرج سينمائي ومسرحي وممثل من العراق. تخرج من كلية الآدب ١٩٥٦، والتحق بجامعة آيوا الأمريكية وحصل على ماجستير في السينما والتفزيون، عاد إلى بغداد، عين مدرساً في معهد الفنون الجميلة للتمثيل في أكاديمية الفنون، أسس قسم السينما في معهد الفنون، وظل مدرساً في أكاديمية الفنون حتى وفاته. أخرج فلم الجابي ١٩٦٨، وفلم المنعطف عام ١٩٧٤، عن رواية الكاتب العراقي غائب طعمة فرمان، بعنوان (خمسة أصوات) وهو من ابرز الأفلام السياسية التي انتجته الشركة الوطنية للافلام الوطنية وعرض في العديد من المهرجانات العربية والمحلية والدولية بضمنها مهرجان موسكو في ١٩٧٥. والفلم الثالث سنوات العمر ١٩٧٦. كما كتب وأخرج العديد من المسرحيات، من أهمها: حصن الإخيضر.

Twitter: @ketab_n

شّكل إضراب طلبة كلية الصيدلة والكيمياء الذي حدث بسبب فصل أربعة طلبة من الكلية، الفتيلة التي أشعلت انتفاضة ٢٢ تشرين الثاني عام ١٩٥٢. كان موقع كلية الآداب الاستراتيجي في باب المعظم، السبب في اختياره مركزاً لتجمع الطلبة من جميع الكليات، قبل أن تبدأ التظاهرة وتجوب شوارع مدينة بغداد. كنا شباب وشابات متحمسين ضد ظلم وطغيان السلطة وإذلالها للشعب. كان اتحاد الطلبة العام الذي بقياد الحزب الشيوعي هو من يقوم بتنظيم التظاهرات وكتابة الشعارات والإشراف عليها. انتشرت الإضرابات تأيداً لكلية الصيدلية والكيمياء في جميع الكليات، تطالب بإعادة الطلبة المفصولين، وبحياة ديمقراطية حقيقية.

كانت سافرة جميل حافظ[٤١]، من الناشطات في التنظيم السياسي، عضوة في منظمة الرابطة النسائية والحزب الشيوعي واتحاد الطلبة. انتمت سراً لهذه المنظمات من دون علم أسرتها، الثرية المحافظة، التي لا تتحمل أن ينخرط بناتها في العمل الحزبي السري. كانت تدرس الأدب العربي، تقطن في دار والدها الضخم الذي يطل على نهر دجلة في شارع أبي نؤاس. وكانت من المشرفات على توجيه التجمع قبل البدء في التظاهرة،

٤١- سافرة جميل حافظ: أديبة وناشطة في مجال حقوق المرأة. أكملت دراستها الجامعية عام ١٩٥٤، وانخرطت في النشاطات السياسية والمهنية منذ بداية الخمسينيات، تعرضت بسبب ذلك إلى الاعتقال عدة مرات، كان أكثرها قسوة ومرارة حين اعتقلت مع زوجها محمد حسين أبو العيس، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، في إنقلاب ٨ شباط ١٩٦٣. وقد جرى تقييدها مع زوجها بعد أن توفي تحت التعذيب. تعرضت للتعذيب من قبل الحرس القومي ولم تنجو من الموت لولا الضغوط الدولية.

Twitter: @ketab_n

والهتاف الذي يعيده الطلبة بحماس بالغ مرددين هتافاتها الواحد تلو الآخر.

لم أشارك في التظاهرات في الأيام الأولى ولكني كنت أقف في مدخل الكلية، أهتف مع الطلبة الذين كانوا يتجمعون في مدخلها. كان أساتذتنا البريطانيين يتركون الخيار لنا في الحضور أو التغيب عن الدرس، وكانوا يؤمنون في حق التظاهر، فشارك الطلبة عندئذ بالهتافات والتظاهرات.

شاركت في يوم ٢٢ تشرين لأول مرة بالتظاهرة التي خرجت من كلية الآداب، يتقدمها عدد من الطالبات، ولكن لم نصل حي «الفضل» حتى رشقنا بالغازات المسيلة للدموع ولعلع الرصاص في الفضاء، رصاص طائش موجه نحو المتظاهرين، أزيز الرصاص يصم آذاني، انجلت وتفرقت التظاهرة في الأزقة، لتعود فتتجمع ثانية وتعود إلى الشارع قوة متماسكة. كنا فريقين، الشرطة الذين يصرون على موقفهم بالرصاص ونحن نصر على موقفنا الاحتجاجي برفع أصواتنا المنددة بفصل الطلاب وإرجاعهم للكلية. لم تقتصر التظاهرات على طلبة الجامعات وإنما امتدت وانتشرت وشملت العمال وأصحاب المهن. سرنا بضعة مئات الأمتار، حتى انطلق الرصاص ثانية، من سيارات الشرطة، سقط الجرحى والقتلى، وسالت الدماء، ووجدت نفسي في أحد الأزقة الضيقة.

عدت ذلك اليوم إلى دارنا، لا أدري كيف أختبئ من جيش المخبرين، فانتشرت أخبار التظاهرة، وعرفت بسرعة أسماء الطالبات الجامعيات المشاركات في التظاهرة، كاللافتات والأعلام المرفوعة فيها. انتشر خبر اشتراكي بالتظاهرة، وحددت الشرطة حتى لون ملابسي والشريط الذي كنت أرفع شعري به!! كنت أعلم أن الشرطة ستداهم الدار للقبض عليّ وعلى والدي. أما حياة فقد سافرت لحضور مؤتمر السلام في فينا، ونجت بذلك من إلقاء القبض عليها. اضطررت أنا ووالدي إلى ترك الدار والاختفاء عن أنظار المخبرين.

Twitter: @ketab_n

أعتقل في ذلك اليوم عدد كبير من الناس، فلم يقتصر الاعتقال على طلبة الجامعات والثانويات، وإنما شمل الأساتذة والعمال، وأعضاء الأحزاب من الوطني الديمقراطي والشيوعي حزب الاستقلال والجبهة الشعبية، وشخصيات معروفة من الكتاب والشعراء.

×××

تركتُ الدار وأقمت في دار ناجي جواد الساعاتي. استحوذ القلق على تقاسيم وجه والدتي عندما زارتني خلال الأسبوع الأول في دار ناجي جواد[٤٢]، وطلبت مني آلا أعود إلى الدار، لأن الدار مراقبة من قبل رجال الأمن السريين. فقد أعلنت الأحكام العرفية وجرت حملة واسعة في اعتقال الناس، لم تقتصر على الطلبة وإنما شملت حتى الأحزاب العلنية التي أيدت الانتفاضة. والقي القبض على والدي بعد شهر، عندما عاد من النجف إلى بغداد، وصدر الحكم عليه بالسجن لمدة عام في سجن بغداد، لكتابته المقالات المعادية للحكومة.

مرّ ما يقارب الشهرين، قبل أن أستطيع العودة إلى دار والدي، وأصدر عميد الكلية عبد العزيز الدوري الفصل بحق جميع الطلبة الذين شاركوا في التظاهرات، وشملني الفصل من الكلية لمدة عام، وبذلك خسرتُ سنة دراسية كاملة، وكان أستاذي دزمند ستيوارت **Desmond Stewart** من المعارضين لقرار فصلي و لم يستطع أن يهضم فكرة العقوبات القاسية بحق

٤٢- ناجي جواد الساعاتي: ١٩٢٢-٢٠٠٩، استمر على مهنة والده في تصليح وتجارة الساعات، وكان محله في شارع الرشيد، لكنه كان مولعاً في قراءة الأدب والشعر، وكان بين الذين يحضرون الندوة الشعرية التي كانت تقام في دارنا أسبوعياً في منتصف الأربعينيات. وكان يأتي دائماً بصحبة عزيز أبو التمن نجل جعفر أبو التمن. ساهم في تأسيس مكتبة الخلاني. اتجه إلى كتابة أدب الرحلات وألف كتباً عديدة. منها «رسائل من الهند» و«من أدب الرحلات» و»قصة الوقت» و«رحلة الأندلس» و«مع الأيام» و«رحلة إلى أفريقيا».

Twitter: @ketab_n

طلبته، وهو حق طبيعي يمارسه الطلبة في جامعات انكلترا. كما صدرت مدد متفاوتة بحق الطلبة اليساريين والشيوعيين. ومنهم من صدرت عليهم أحكام بالسجن.

×××

القاء القبض عليّ من قبل مديرية التحقيقات الجنائية

عدت إلى الدار بعد شهرين تقريباً، وكان وضع العائلة الاقتصادي والنفسي في غاية السوء. وقد صدر الحكم على والدي بالسجن، ومريم ما زالت تلميذة في الصف الرابع في كلية دار المعلمين العالية، وتحتاج لبضعة أشهر لكي تنهي دراستها وتحصل على شهادة بي أي BA التي تخولها الحصول على وظيفة في التدريس. و لم يعد أمام والدتي إلا أن ترهن جميع ما تملكه من مجوهرات، وطلبت من خالي أن يقوم ببيع قطعة أرض من الأراضي التي تملكها في لبنان لإعالة عائلتها لأننا كنا في ضائقة مالية. حاولنا – مريم وأنا – أن نفتش عن وظيفة، لكي نساعد العائلة من الضيق الذي كانت تمرّ به. فوجدت عملا ككاتبة طابعة في المصرف الصناعي خلال العطلة الصيفية.

شقيقتي مريم شرارة

Twitter: @ketab_n

انتهى الشهر الأول وجلبت راتبي وسلمته لوالدتي، واغرورقت عينها بالدموع، قائلة لي والألم باد في كلماتها: كان عليك أن تصرفي هذا الراتب عليك وليس على الدار، قلت لها لا فرق بيننا، فالبيت جزء مني وأنا جزء منه.

خرجت ذات يوم كعادتي من باب المصرف الصناعي في شارع الرشيد، وإذا برجال الأمن يطوقونني ويقذفوني بسيارة، متجهين بي نحو مديرية الأمن. شاهدتني في الطريق إحدى زميلاتي سها ثنيان(٤٣)، وأدركتْ أنني معتقلة إذ كنت جالسة بين شرطيين من الأمن، فاتصلتْ بأهلي وأخبرتهم باعتقالي.

كان الجو حاراً في نهاية شهر آب، فعلت الحمرة وجهي، وبان عليّ الانفعال والقلق عندما ألقي القبض عليّ. وصلنا في الثانية بعد الظهر مديرية التحقيقات الجنائية. المديرية التي أصبحت رمزاً للظلم والتعسف والتعذيب في ذاكرة شريحة من الشعب العراقي. فالتصق الرعب والفزع بكل من دخل بوابتها. توجه أحد الشخصين اللذين كنت جالسة بينهما في السيارة، نحو غرفة المدير قائلاً له: «سيدي جبناها/ اتينا بها»!

دخلتُ غرفة شبه مظلمة تقريباً، تطل نوافذها المغطاة «بالعاقول/ الشوك البري» على نهر دجلة. جو الغرفة رطب بارد، قطرات الماء تتلوى بين شوك العاقول، فينقلب الهواء الجاف الساخن في الغرفة إلى برودة لذيذة. كان بهجت العطية(٤٤)، مدير التحقيقات الجنائية، جالساً

٤٣- سها ثنيان: ناشطة في مجال حقوق المرأة، وعضو في الرابطة النسائية والحزب والشيوعي. تخرجت من كلية الحقوق، تزوجت الفنان والمصور الفوتوغرافي ناظم رمزي. وهو من أهم المصورين العراقيين.

٤٤- بهجت داود سلمان العطية: ١٩٠٠-١٩٥٩، أكمل دراسته في ثانوية الشرطة في البصرة عام ١٩٢٩ وأصبح مديراً للشرطة وتدرج في منصبه وتنقل في عدة محافظات. تم تعيينه عام ١٩٤٦ مديراً لقسم التحقيقات الجنائية وكان مسؤولا

Twitter: @ketab_n

أمام منضدة كبيرة، رجل بدين، في منتصف الخمسين من العمر. رفع رأسه عندما أطلت عليه فتاة لم يكن يتوقعها بهذا الشكل! حدق بها من خلال نظارته السميكة، ثم رفعها عن عينيه، ومسحها ببطيء ووضعها ثانية!

أحسست بالمفاجأة التي ارتسمت على وجهه ذا السحنة السمراء، فلم تتطابق الصورة التي رست في مخيلته من خلال التقارير التي كان يكتبها له أعوانه عني! فأمامه فتاة تهيمن على قسمات وجهها براءة الطفولة، بملابسها البسيطة، وحذائها الواطئ وشعرها الأسود القصير، الذي اختزل بضعة أعوام من عمرها!

سألني سؤال يشوبه الاستغراب والشك، هل أنت بلقيس؟ أجبت نعم. ثم قال بحدة أقرب منها إلى التأنيب: «شعايزج! ما تكولي لي! بنية مِثْلج كاملة بكل شي، شجابيج على السياسة! لكن هذا أبوك محمد شرارة إللي دخلج بهل الشغل! يعني: ما الذي يعوزك أو تفتقدين إليه؟ قولي لي! فتاة مثلك كاملة في كل شيء، ما الذي دفعك للإنخراط في السياسة! لكن والدك محمد شرارة، هو المسؤول الذي قادك في اتخاذ هذا النهج. » نظرت إليه و لم أجبه بل التزمت الصمت. ثم أردف قائلا: « حققوا وياها، بس لا تخلوها تبات»! يعني آلا أقضي الليل في مديرية الأمن.

دخلتُ غرفة فارغة من الأثاث، إلا من طاولة صغيرة وكرسيين. جلست على أحداهما، وانتابني مزيج من الأحاسيس التي لم أعرفها من قبل، تطلعت إلى الغرفة التي تضم بين جدرانها الصامتة ألف قصة وقصة! تقاذفت الأسئلة الحائرة في رأسي، ترتطم ببعضها، حاولت أن أبعدها

عن ملاحقة الشيوعيين والتنكيل بهم. وحصل على لقب باشا بإرادة ملكية من الملك فيصل الأول، وظل في منصبه حتى ١٤ تموز ١٩٥٨. وتمت محاكمته في محكمة الثورة برئاسة المهدواي، وتم إعدامه في ٢٠ سبتمبر/أيلول ١٩٥٩.

Twitter: @ketab_n

عني وأدفعها في خندق الذاكرة. طفت كلمات والدي على شفتي، الإجابة بصلابة والابتعاد عن التردد الذي يقود إلى الانهيار النفسي، وتراءى موقفه الصلب في السجن أمامي.

عشت تلك اللحظات أخلع الأسئلة وأجوبتها في ذهني كأنني أخلع تهمة على عجل. ثم غابت الكلمات في لحظات الارتباك وعادت كالبرق، تقفز وتتجول بحريتها في أعماقي. حاولت أن أجمع كل ما تعلمته من تجارب الحياة في تلك اللحظات الحرجة، فبدأت أكتب الأجوبة العالقة في ذهني، أسطرها واحدة بعد واحدة على لوح الذاكرة، لأعود ثانية وأمسحها، أعيد كتابتها وأصححها، حتى عثرت على الأجوبة الصحيحة، فتمسكت بها أمام محقق الأمن، الذي دخل الغرفة بعد أكثر من نصف ساعة، واصلت إعادة وتكرار الأجوبة، بأسلوب آخر يناسب سؤاله!

كان المحقق في البداية يستمع بهدوء، لم تمر مدة وجيزة حتى علا صوته بالوعيد والتهديد إن التزمت التهرب من الإجابة عن الأسئلة وإنكارها؟ قلت: انكار ماذا؟ فقد تركز التحقيق حول علاقتي بالحزب الشيوعي ومنظمة الرابطة النسائية واتحاد الطلبة؟ كانت أجوبتي مقتضبة، وأعدت الأجوبة نفسها : لم أنتمي للحزب الشيوعي ولا علاقة لي بالرابطة منذ أكثر من عامين، ولكني أتعاطف مع الطلبة وإعادة المفصولين منهم. لم تشبع أجوبتي غليل محقق الأمن فظل متعطشاً إلى الحصول على ما يسمى «بالاعترافات»! ولم يمل المحقق أو يتعب، بل استمرت الأسئلة بالتدفق، من دون أن تصل إلى مصبها! انتعشت الأجوبة العنيدة في رأسي كلما طال التحقيق معي! حتى يأس المحقق عندما وجد أنه لم يصل إلى نتيجة بعد ما يقارب الساعتين من التحقيق المتواصل. فأطلق سراحي قبل غروب الشمس، ونجوت بذلك من قضاء الليلة في مديرية التحقيقات الجنائية، كما طلب بهجت العطية منهم! والحقيقة كان موقف بهجت

Twitter: @ketab_n

العطية موقفاً مشرفاً، إذ لم يأتمن رجال الأمن الذين يعملون في دائرته في أن اقضي ليلة بصحبتهم.

عدت إلى الدار قبل غروب الشمس، فوجدت قلق الانتظار قد هيمن على والدتي. كانت واقفة في وسط الدار، متخوفة من أن أحال إلى المحكمة أو السجن، فيضاف لزيارتها الشهرية للسجن زيارة أخرى هي في غنى عنها، وبان عليها الارتياح لمجرد رؤيتي، وانفرجت أسارير وجهها عن ابتسامة عريضة. حدقتُ في ابتسامة والدتي القلقة، وانتبهت أن والدتي لا تضحك، لم أرها طيلة حياتي مرة واحدة تضحك، فقد علمتها الحياة الصبر والابتسام بدل الضحك.

توفي ستالين في العام الذي قضاه والدي في السجن، لم يكن لوفاته تأثير في حياتنا، فقد كنا مغمورين بالدراسة الجامعية والعمل، خاصة وإن والدي وشقيقتي حياة كانا اللولبين اللذين نشعر من خلالهما بما يحدث في الاتحاد السوفيتي من هزات.

×××

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

زيارة الدكتورة سميرة بابان

دعتني الدكتورة سميرة بابان[٤٥] إلى تناول الشاي في دارها للقاء رفعة الجادرجي. إذ كانت لي معرفة بها من خلال اجتماعات الرابطة النسائية. تناهى إلى سمعي أن رفعة يساري التفكير، واعتقل لمدة شهر بعد عودته من إنكلترا.

رفعة بعد عودته من إنكلترا ١٩٥٣

٤٥– سميرة بابان: درست في كلية الطب، و كانت تلميذة نشطة، فاشتركت في لجنة التمثيل في الكلية، و لأول مرة تؤدي امرأة دوراً تمثيلياً بدل إناطة الدور برجل المرأة في مسرحية توفيق الحكيم: «رصاصة في القلب». تعرفت على زوجها الدكتور و الرسام قتيبة الشيخ نوري في كلية الطب ١٩٤٦. كانت ناشطة و اعضو في رابطة المرأة، و اشتركت في تظاهرات الوثبة ١٩٤٨.

Twitter: @ketab_n

اعتدت على رفض جميع المحاولات التي كانت لها علاقة بالخطبة أو الزواج. ولهذا كنت مترددة في بادئ الأمر، مرتبكة قبل الموعد بساعات، الارتباك الذي يسبق لقاءً لا أدري مدى نجاحه أو إخفاقه. الأسئلة تتقاذف في ذهني، هل أذهب أم أخلف الموعد؟ لكني صممت على الذهاب، ففي كل منعطف يمكن لحياة الإنسان أن تتغير، وكأن شيئاً في أعماقي أمرني أن أذهب.

الدكتور قتيبة الشيخ نوري والدكتورة سميرة بابان ١٩٥٣،

تصوير: رفعة الجادرجي

جلسنا في الحديقة، كان الجو معتدلاً، في نهاية شهر أيلول. بعد مدة قصيرة، أطل شاب وسيم الطلعة جميل المحيا. نحيف الجسم، مرتدياً بدلة بنية، تخرج الكلمات من بين شفتيه الرقيقتين بصوت خافت بطيء.

حياني وجلس في الجهة المقابلة من الأريكة، ساد الصمت بيننا. كان نظري مشدوداً إلى أرض الحديقة، لا أملك القدرة إلى النظر إليه،

Twitter: @ketab_n

وعندما التقت العيون ابتعدت النظرات حالاً، متجاهلة ما حولها. جاءتْ مضيفتنا الدكتورة سميرة، وقدمت لنا الشاي. بدأ رفعة بالسؤال عن والدي الذي كان محكوماً بالسجن لعام كامل. أجبته باقتضاب عن سؤاله، بسبب حياء غمرني.

ثم إنهال عليّ بسيل من الأسئلة، بأسلوب لبق هادئ. لكن الهدوء في أعماقي كان قد جانبني في تلك اللحظات، إذ وجدتُ نفسي أمام تحقيق اشق عليّ من تحقيق مديرية الأمن! إذ كان يحاول رفعة من خلال اسئلته أن يتوصل إلى معرفة وجود تقارب فكري بيننا، فالتقارب الفكري هو الكفيل ببناء حياة مستقبلية مشتركة. اخذنا الحديث في ذلك اللقاء إلى المرور على الشعراء الإنكليز والموسيقى الغربية والفن عموماً. لكنه لم يتطرق إلى العمارة، لأن رفعة ربما شعر في قرارة نفسه أني اجهل هذا الموضوع.

عدت إلى الدار، مأخوذة بجمال لقائنا الأول، لقاء غريب، في بعده ونوعيته، بعيد عن مفاهيم مجتمعنا المحافظ وتقاليده الخانقة، لقاء يحرك الفكر ويبعده عن الركود! كانت والدتي أول من أخبرتها عن ذلك اللقاء. افترت شفتاها الرقيقتان عن ابتسامة الفرح ولكنها فاجأتني بجوابها الذي لم أكن أتوقعه، فأعادته على مسمعي قائلة: «بألا أتزوج قبل إكمال دراستي الجامعية يا أمي!» ضحكتُ قائلة: ولكن سأكمل دراستي الجامعية يا أمي، ولن تتعارض مع اقتراني برفعة، لأنه البند الأول في اتفاقنا! هزت رأسها موافقة، وافترت شفتاها عن ابتسامة شاركتها بها. وهكذا اخترنا بعضنا، رفعة وأنا، دون أن يفرض أحد رأيه علينا.

كان لقاؤنا الثاني في «مقهى البرازيلية»، دخلت المقهى بارتباك وجلسنا في زاوية منه. لم تكن المقهى واسعة كما تدل مساحتها من الشارع. كانت المقهى ملتقى لموظفي الدولة ومثقفي البلد. ومع ذلك،

Twitter: @ketab_n

كان وجود امرأة في المقهى مخالف للعرف الاجتماعي في العراق، رغم ان رواد المقهى يمثلون الشريحة الاجتماعية المتعلمة والمثقفة، لكن ريادة المقاهي كانت تقتصر على الرجال، دون النساء، مما اظهر عملنا كمخالفة لتقاليد المجتمع واعرافه.

تعددت اللقاءات بيننا، بحثنا خلالها دقائق الأمور المتعلقة بالحياة التي كنا نخطط لها سوية، واتفقنا على معظمها. تغيرت رتابة الحياة و لم تعد محصورة بين الدار والكلية، وتغيرت ساعات المساء، التي صرت أترقبها بلهفة، إذ ما أن اسمع طرقاً على الباب حتى أجد نفسي في مواجهة رفعة.

قبل بداية العام الدراسي بأسبوع ذهبت بصحبة الأستاذ عبد الجبار عريم[٤٦]، لمقابلة عميد الكلية الدكتور عبد العزيز الدوري. كان العميد جالساً أمام منضدته الكبيرة وبجانبه أستاذ الجغرافية الدكتور إبراهيم شوكت[٤٧]. وبدأ عبد الجبار قائلاً: إن بلقيس ترغب في العودة إلى إتمام دراستها بعد أن انتهت مدة الفصل، وهي فتاة جدية، وستبدأ صفحة جديدة في حياتها، بابتعادها عن العمل السياسي! وفي هذه اللحظة الحرجة، قاطعه الدكتور إبراهيم شوكت قائلا: «أبو طبيعة مي يجوز من طبيعته/ أي المعتاد على هذا النهج الفكري لا يتمكن من تجاوزه»! شعرت بوخز في أعماقي، عندما تبرع أستاذ درس في الولايات المتحدة في التهجم عليّ بهذا الأسلوب الفج، أستاذ مارس حرية التعبير التي

٤٦- كان عبد الجبار عريم استاذاً في كلية الحقوق، أصبح عميد كلية الحقوق في عهد عبد الكريم قاسم عام ١٩٥٨.

٤٧- د. إبراهيم شوكت: حصل على الدكتوراه في الولايات المتحدة. هو زوج السيدة صبيحة المقدادي التي كانت مدرسة اللغة العربية في ثانوية الأعظمية، عندما كنت تلميذة في الصف الأول. تزوجت ابنته مليكة شوكت المعمار قحطان عوني، و كان من أصدقاء رفعة المقربين.

Twitter: @ketab_n

يمارسها ويتمتع بها الطلبة في الولايات المتحدة! وكأن الرأي السياسي هو طبيعة أو عادة كما يعتقد دكتور الجغرافية! وافق عميد الجامعة على عودتي إلى الكلية وإكمال دراستي، وانتهت بذلك هذه المرحلة القلقة من حياتي.

×××

زيارة دار كامل الجادرجي

فاجأني ذات يوم رفعة وطلب مني أن أزور والده كامل الجادرجي ترددت بادئ الأمر، إذ كنت أنتظر أن تنتهي مدة سجن والدي، قبل أن أقدم على مثل هذه الخطوة. ولكن أصر على الزيارة، وطمأنني إن إعلان الخطبة الرسمي لن يتم قبل الإفراج عن والدي!

عائلة الجادرجي ١٩٤٦

التقيت برفعة، وذهبنا سوية لدار والده. كان والده متحفظاً، حذراً، متهيباً في البداية، يخشى الفتيات النشطات في السياسة لتجربته المريرة مع بعض الفتيات والنساء المنتميات لمنظمة الرابطة النسائية، والحزب

Twitter: @ketab_n

الشيوعي، ولسلوك بعضهن البعيد عن اللياقة أحياناً. كانت معلوماته عني قليلة، مبعثرة، مبالغ فيها عن نشاطي السياسي. وكان يعلم أنني فصلت من الكلية وخسرتُ عاماً دراسياً.

دخلتُ من المدخل الخاص بضيوف أبو رفعة وليس من الباب الرئيسي. وجدته واقفاً قرب النار، إذ كان اللقاء في منتصف شهر تشرين الثاني عام ١٩٥٣. صافحته، وطلب مني أن أجلس على الكرسي الذي أمامه، وجلس رفعة بجانبي. كنت مستمعة معظم الوقت، لا أجيب إلا إجابات مقتضبة. كان السؤال الأول الذي وجهه لي عن والدي وعن وضعه في السجن. أخبرته أن مدة السجن ستنتهي بعد بضعة أسابيع.

ثم جاءت أمينة شقيقة رفعة، بعد أن سلمتْ عليّ، توجهت نحو المدفئة، وظلت واقفة وظهرها مواجه للنار، تتحرك بين حين وآخر لتغير الموقع، تبتعد تارة عنها وتقترب تارة أخرى منها، واقفة طيلة المدة حتى قُدم الشاي.

دخلتْ أم رفعة، وجلست بجانب أبنتها أمينة بعد أن سلمت عليّ، ظلت صامتة، ولم تنبس بكلمة، بل استمرت تتطلع بي، تتفحصني بدقة، لا ترفع عينيها عني! فأم رفعة امرأةِ محافظة في تفكيرها، نشأت في بيت يتمسك بالتقاليد الصارمة حول المرأة، كانت راغبة بزواج ابنها من إحدى قريباتها، من فتاة تعرف عائلتها معرفة جيدة، وهذا موقف طبيعي ينسجم مع مفاهيمها، في تفضيل إحدى فتيات العائلة، يتيح لها إقامة حفلة قران لابنها يكون مفخرة لها.

لا أدري ما هي الخواطر والأفكار التي دارت في رأسها، فقد تطوعت بعض النسوة في نشر شائعات غريبة لا يجمعها جامع عني. لكنها باءت بالفشل في إثارة الشكوك التي يمكن ان تحول دون إقدام رفعة على الزواج من فتاة غريبة عن العائلة!

Twitter: @ketab_n

علمتُ فيما بعد من رفعة من أن والدته كانت خائفة، متوجسة من تلك «الفتاة الغريبة» عن بيتها؟ متشككة من تسببها في زوال الصفاء السائد بين أفراد أسرتها! واضعة نصب عينيها ما ستثيره «الفتاة الغريبة» عن العائلة من مشاكل باقترانها من ولدها البكر بعد أن فشلت محاولاتها المتتالية لإثارة اهتمامه بصورة جدية والتقدم لخطبة إحدى فتيات العائلة. مع استمرارها في كيل المديح المباشر وغير المباشر لهن أمامه، لم يصغِ رفعة إلى المديح، بل كان جوابه دائماً قاطعاً لا مجال للشك والتراجعِ عنه: « ماما أنا أختار الفتاة التي سأقترن بها، وسأرافقها إلى دارنا لتتعرفي عليها!». ظلت تلك الفكرة تقض مضجعها وتجعلها في حالة من القلق والخوف مما يضمره المستقبلِ المجهول لها بزواج ابنها من الفتاة الغريبة عنها! لم تستطيع أن تفهم لِمَ أقدم رفعة على مثل هذه الخطوة، فهي في حيرة من أمرها! فالعائلة هي أهم ما في حياتها، هي كيانها التي تتمثل بها منزلتها التي تكرس لها في المجتمع! وكان صعب عليها خروج ابنها عن المفاهيم السائدة في محيطها والتي نشأت عليها منذ نعومة أظفارها!

أدخل رفعة فتاة غريبة في محيطها! تؤمن بالمفاهيم اليسارية، حكم على والداها بالسجن بسبب آرائه التي لا تكترث لها، ولا تفقهها أو تعيرها أية أهمية. فتاة يعود أصلها إلى بلد آخر غير العراق، وطائفة دينية تختلف عن طائفتها! فتاة ليست بالثرية أو من الطبقة الحاكمة! صفات تجمعت في فتاة تناقض ما تؤمن أو ترغب فيه لأبنها البكر.

أما أبو رفعة فلم تكن تهمه مثل هذه الاعتبارات أو المعيار الأساسي من وجهة نظر أم رفعة، في اختيار الفتاة المناسبة لولده. كان يقلقه شيء واحد فقط، استمراري في الانخراط بالنشاط السياسي الذي قد يخلق له مشاكل هو في غنى عنها. وقد تبدد قلقه هذا بعد ان أخبره رفعة بقراري اعتزال العمل السياسي نتيجة تداولنا معاً بعد أن بحثنا الموضوع سوية وبالتفصيل، قبل أن ألتقي بعائلته.

Twitter: @ketab_n

قُدم الشاي لنا بأكواب من البورسلين المذهب مع الكليجة[٤٨]. طلب البعض إضافة الحليب للشاي، وهي عادة لم تكن شائعة في المجتمع العراقي آنذاك، إلا بين النخبة من الناس الذين اعتادوا السفر لقضاء الصيف في أوربا، أو الطلبة الذين درسوا في جامعات بريطانية والولايات المتحدة. ودعتهم بعد أن قضيت ساعة معهم. خرجت من بوابة الدار الرئيسة برفقة رفعة، وهو اعتراف ضمني وغير مباشر بقبولي، فقد أصبحتُ عضواً في العائلة.

×××

توالت أسئلة والدتي عند عودتي إلى الدار. أخبرتها عن التواضع ودماثة الخلق الملازمين لأبي رفعة، الذي شجعني على المشاركة في الحديث رغم الخجل الذي سيطر عليّ. فقد كنت متوجسة من الحديث في زيارتي الأولى. حدثتها عن صمت أم رفعة ونظراتها الفاحصة لي من رأسي إلى أخمص قدمي! و لم تتوقف أسئلة والدتي عند هذا الحد، فأجوبتي لم تشبع فضولها، فانتقلت إلى موضوع آخر، حيث بادرتني بالاستفسار عن دارهم. وصفتُ لها الحديقة الواسعة بأشجارها الباسقة وسعة غرفة أبو رفعة الضخمة، التي هي بسعة مساحة الدار الذي كنا نقطنه في حي الأعظمية! التي كانت أصغر دار عشنا بها، بعد أن صدر الحكم بالسجن على والدي لمدة عام.

كان الشارع الذي كنا نقطنه من بين الشوارع الجميلة في حي الأعظمية. حيث يبدأ ببيوت كبيرة منفصلة عن بعضها بحدائق جميلة واسعة تطل عليها، لينتهي ببيوت متواضعة، ملتصقة الجدران حيثُ تقع دارنا. لا يلاعب النسيم إلا جدران الإسمنت والطابوق، واختفت

٤٨- الكليجة/ أصابع تمر: هي عجينة من الطحين و الماء و الزبد، على شكل رقائق تحشى بالتمر أو الفستق و السكر أو الجوز.

Twitter: @ketab_n

فيها الأشجار التي تزينه، وكأن الشارع يتكون من جسدين منفصلين لا علاقة لأحدهما بالآخر!

كانت غرف دارنا في حي الأعظمية، صغيرة لدرجة لم تكن تتسع غرفة الضيوف إلى طقم «الكنبات»، فاحتوت نصفه، ووزع النصف الآخر على الغرف الأخرى، فضاقت المساحات فيها و لم يعد باستطاعتنا التنقل في غرف النوم إلا بحذر، ننتبه دائما لكي لا نصطدم بالأثاث ونعّرض أجسادنا للأذى. فالدار صندوق من طابقين، بجدران من الطابوق وأرض من الطابوق الأصفر ألفرشي، خلا من ألوان الطبيعة الزاهية وطغى اللون الرملي على مساحاته، وغابت خضرة الأشجار التي كان بعضنا يستظل بظلها والبعض يجعل منها لعبة مهمة يتنافس بتسلقها. كانت ساحة الدار الداخلية صغيرة لدرجة ضاقت بها حتى رقعة السماء، وقلت النجوم المتلألئة التي ترصعها في ليالي بغداد الصافية.

xxx

عائلة الجادرجي

وجدتُ في كامل الجادرجي شخصية قوية، يهابها الجميع، تشع حوله هالة من الاحترام والوقار والرسمانية، التي تفرض وجودها على الحاضرين. كان مربوع الجسد، أقرب إلى القصر، ذا شعر أسود، وعينين صغيرتين ثاقبتين من تحت العوينات، له حدس عجيب بمعرفة الناس وأهوائهم. كان موسوعة متحركة بمعرفة الناس وأصولهم وطوائفهم! مقتضب في الكلام لا يدخل بالتفاصيل العائلية. كان الحوار هو أساس العلاقة بين أفراد عائلة الجادرجي، فالانفعال والغضب لا مكان لهما في قاموس الجادرجي، لا يرفع صوته على أحد من أفراد العائلة، بل تحل المشاكل عن طريق الحوار. ولكنه حوار غريب، لا يجلس الجميع لمناقشة الموضوع المثار أو توجيه الكلام للشخص المعني، وإنما كان يدور

Twitter: @ketab_n

الحوار عن طريق وسيط، والوسيط في أغلب الحالات كان أبنه رفعة، فهو الذي يعرض الموضوع أو المشكلة أمام والده، وإن لم يقتنع بوجهة نظره، يحاول طرحها من زاوية أخرى لإقناعه، لما كان يجمعهما من احترام متبادل و لم يكن يتجاوز ولو بكلمة يمس بها حقوق الآخرين من أفراد العائلة، ولكنه كان يسخر أحياناً إذا لم يعجبه الوضع.

كامل الجادرجي

كما كان يحب النظام، دقيقاً، في حياته، يسجل حتى تاريخ وضع «الكلوب أواللمپة» الضوء، يرتب ملابسه قبل النوم ويضعها في الخزانة. وتميز بذلك عكس زوجته منيبة، وورث رفعة عن والده النظام والدقة في حياته.

للجادرجي· أربعة أبناء وبنت واحدة. كانت أمينة رقيقة وديعة مستقيمة كاسمها. نحيفة القوام، ذات ساقين طويلين متسقتين، وبشرة

Twitter: @ketab_n

بيضاء، ووجه أبيض، يتوسط وجهها عينان عسليتان واسعتان، وشعر ذهبي قصير، وأنف دقيق صغير ذا نَدَبُ لم ينج من «حبة بغداد» التي عاثت فساداً في وجوه أهالي بغداد، ولكنها كانت رقيقة معها فلم تشوه أنفها الجميل و لم تترك في وجهها إلا أثراً خفيفاً!

كانت قليلة الكلام، وإن تكلمت فببطء وهدوء، ينساب صوتها البعيد عن حالات الانفعال، كجدول هادئ رائق نحو مصبه. كما كانت محافظة في سلوكها وتفكيرها، الذي كان لوالدتها دور في تنشئتها، لا تخرج عن عرف المجتمع وتقاليده حتى في اختيار زوجها. يجب أن يكون الزوج من عائلات بغداد المعروفة، العريقة في نسبها. فلم يخطر ببالها أن تخرج عن عرف العائلة، وتتزوج أحد الذين تقدموا لخطبتها من خارج ذلك المحيط.

أمينة الجادرجي ١٩٦١

درست الحقوق و لم تمارس المحاماة، تركت الوظيفة بعد بضع أشهر، حالما تزوجت طارق السنوي، خريج كلية الحقوق، الذي هو الآخر لم يمارس المحاماة بل اتجه إلى العمل التجاري مع والده. أصبحت أمينة ربة

Twitter: @ketab_n

بيت لكنها لا تمارس أعمال البيت أو تربية الأطفال. واكتفت بالإشراف على شؤون المنزل الذي تتولاه، مربية وطباخ ومعينون تقع المسؤولية على عاتقهم في تدبير المنزل.

كانت أمينة تختلف عن والدتها، فلا تقيم «قبول شهري» لتقضي وقتها في أداء الزيارات، بل اقتصرت زياراتها على بنات خالتها اللواتي نشأت بصحبتهن. وكانت منسجمة معهن واستمر الانسجام وعدم الافتراق عنهن حتى بعد أن تزوجن. وجدتْ نفسها تختلف عن والدتها عندما تعلمت وتخرجت من كلية الحقوق، لكنها ظلت تراعي التقاليد وأعراف المجتمع.

×××

وتعرفتُ بعد ذلك إلى جميع أعضاء العائلة. وجدت باسل ثالث أولاد الجادرجي أقربهم روحياً لي. كان شاباً أصغر من رفعة بسنتين ونصف، مرحاً بعيداً عن التعقيد، يحبه الجميع، له موهبة وقابلية في إصلاح الآلات الكهربائية، فإن تعطلت آلة من مكواة أو مروحة كهربائية فباسل حاضر دائماً لإصلاحها.، ولم أعرف لَمَ تخصص بالزراعة بدل الهندسة الميكانيكية!

باسل وبلقيس في تركيا ١٩٥٦

Twitter: @ketab_n

أما نصير فكان خجولاً ومنعزلاً في تلك المدة عن العائلة، له أصدقاؤه الذين لا يختلطون بالعائلة مثل أصدقاء رفعة تميز بعينين سوداوين وشعر أسود، تقاطيع وجهه أقرب إلى وجه والده من والدته. ظلت العلاقة بيني وبينه علاقة يشوبها نوع من الرسمانية رغم تقارب السن بيننا.

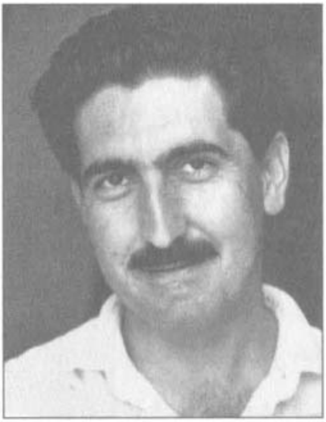

نصير الجادرجي

يقظان وبلقيس ١٩٥٤

كان يقظان خامس أولاد الجادرجي، ما زال طفلا صغيراً في الصف الخامس الابتدائي، بشعر ذهبي وخدين ورديين، وعينين واسعتين عسليتين مائلتين للخضرة. كان بصحبة والدته معظم الوقت، يحظى بمعاملة خاصة من قبلها لدرجة الدلال، كما هي الحالة عادة مع آخر مولود في العائلة، الفرق بينه وبين نصير عشرة أعوام.

×××

Twitter: @ketab_n

بعد أن قضى والدي مدة عام، خرج من السجن، وزاره أبو رفعة بهذه المناسبة بصحبة رفعة، ودار الحديث عن السجن، وعن الأحداث السياسية التي كان يمرّ بها البلد آنذاك. وقبل أن يتركا الدار، التفتَ أبو رفعة إلى والدي قائلاً له: تعرف بالطبع سبب زيارتي، أجابه والدي: نعم. وأضاف أبو رفعة في سياق الحديث، قائلا: إن رفعة وبلقيس قد اتفقا بينهما وهذا أمر يعود إلى كليهما.

بلقيس ورفعة ١٩٥٤

جلب لي رفعة خاتم الخطبة، وقدمه لي، وطلب مني ألا أجلب بدوري خاتماً له، فهو لا يؤمن بهذه التقاليد، فوالده لم يلبس خاتم زواج. أجبته: و لَمِ عليّ أن البس الخاتم عندما لا تؤمن أنت بهذه التقاليد، فالأحرى بي ألا البس الخاتم أيضا! فوالدايّ لم يلبسا خاتم زواج أيضاً. قال لي أعلم

Twitter: @ketab_n

جيداً أن لبس الخاتم عادة مستحدثة، ربما دخلت العراق في بداية الحرب العالمية الأولى، عندما احتل الشرق الأدنى من قبل فرنسا وإنكلترا. وقد استوردت هذه العادة عندما بدأت الطبقة الحاكمة تقلد بدورها المستعمرين في البلد وأصبحت بذلك موضة متبعة في المجتمع، ولكن من الصعب عليكِ في هذا المجتمع آلا تلبسي خاتم الزواج، إذ ستخلقين لنا مشاكل نحن في غنى عنها[٤٩]. كان محقاً من هذه الناحية، فما زال مجتمعنا تقليديا جامداً متخلفاً و«الحلقة» أو الخاتم هو رمز الأسر للزوجة! لبستُ الخاتم على مضض، رغم أني لم أكن مقتنعة برأيه كلياً، فقد تشربت وآمنت منذ طفولتي بالمساواة بين المرأة والرجل في جميع المجالات.

أعلنت الخطبة بصورة رسمية في يوم عيد ميلاد رفعة المصادف ٦ شهر كانون الأول. وأخبرني أن جمع من أصدقائه سيحضرون هذه المناسبة في دار الرسام محمود صبري[٥٠].

كان العديد من الفنانين في انتظارنا عند وصولنا دار محمود. بينهم جواد سليم وزوجته لورنا، فائق حسن، وإسماعيل الشيخلي وزوجته الفرنسية سوزان، ومعظم أعضاء جماعة «الأس بي . S.P» مثل الدكتور قتيبة الشيخ نوري وزوجته الدكتورة سميرة والدكتور خالد القصاب والرسام زيد صالح والنحات خالد الرحال والمعمار قحطان عوني

٤٩- في عام ١٩٥٩ عندما عينت سكرتيرة في كلية البنات، فاجئتني عميدة الكلية روز خدوري من ان احد الأشخاص جاء يخطبني، فاجابتها انني زوجة رفعة الجادرجي.

٥٠- محمود صبري: ١٩٢٧-٢٠١٣، فنان تشكيلي، درس في لندن و حصل على دبلوم في العلوم الاجتماعية، كان فناناً و باحثاً و عضواً في الحزب الشيوعي. كان يؤمن أن الفن يجب أن يمثل المجتمع، كان أحد (جماعة. S.P) التي ضمت الفنانين الأوائل..، فائق و جواد و خالد القصاب و قتيبة الشيخ نوري. ترك محمود العراق في أوائل الستينيات، و درس في اكاديمية الفن في موسكو لمدة ثلاث سنوات، ثم عاش في براغ، و وضع نظرية اسماها (واقعية الكم) و هو من أبرز ما قدمه في تلك الفترة.

Twitter: @ketab_n

والكاتب ذنون أيوب. وأصدقاءهم، لمعان البكري وزوجها محمد عبد الوهاب ويوسف عبد القادر. كان لي معرفة ببعضهم ولكن لم التق بمعظمهم.

كان الجو غريباً بالنسبة لي، طاولة مليئة «بالمزّات» وأخرى بأنواع مختلفة من الكحول.

تقديم الكحول لم يكن معروفاً في دارنا، فوالدي لا يتعاطى المشروبات الكحولية ولا يقدمها لأصدقائه، ليس بسبب تحريمها دينياً وإنما كتقليد اعتدنا عليه، ولا يشرب النبيذ إلا عند زيارة أصدقائه المسيحيين لتهنئتهم بعيد الميلاد. أما عمي مرتضى فكان يشرب بصورة معتدلة البيرة والويسكي ولكن بصحبة أصدقائه في مطاعم بغداد أو «الجراديغ»(٥١) أيام الصيف. ونشأت معظم العائلات هذه النشأة، وشمل تقديم المشروبات الروحية شريحة صغيرة من الناس في العراق آنذاك.

تميزت الجلسة بالصخب، فامتزجت الموسيقى الغربية بأصوات وضحكات وأحاديث المدعوين. كان يوسف عبد القادر جالساً في زاوية من الغرفة يحيط به شلة من الأصدقاء يستمعون لنقده المطرز بالنكت اللاذعة محولاً بسرده الساخر الأحداث المؤلمة إلى ملهاة مضحكة. فتتصاعد الضحكات التي تنقلب في كثير من الأحيان إلى قهقهات مدوية. وفي زاوية ثانية تتحدث مجموعة أخرى بنبرة جادة كأنها في ندوة فنية تبحث فيها آخر النظريات الفنية في أوربا، فيحتد الجدل بين المؤيدين والمعارضين، وتضيع أصواتهم في لجة الضجة الصاخبة.

٥١- الجراديغ: هي المنشآت التي كانت تقام على ضفاف نهر دجلة في بغداد من سعف النخيل، حيث يلتجأ البعض إليها، تهرباً من العيش في وسط بغداد أيام الصيف.

Twitter: @ketab_n

برسيا والرسام محمود صبري ١٩٥٣، تصوير: رفعة الجادرجي

وعندما دقت الساعة العاشرة، عم الصمت فجأة وتوقف الحاضرون عن الكلام، وتولى محمود وزوجته برسيا إعلان خطوبتنا. فعلا التصفيق وقرعت الكؤوس، وتمنى لنا الجميع حياة زوجية سعيدة. ثم صدحت الموسيقى الراقصة، وسحبتُ من يدي مع رفعة لنفتتح الرقص. غمرني الخجل، فتلكأت في البداية في الحركة، وشعرت بخطواتي المتعثرة البعيدة عن الرشاقة والبراعة في الرقص، ولكن حاولت بجهد جهيد أن أكمل الرقصة مع رفعة.

عدت بعد منتصف الليل إلى دارنا، أنفلتُ من بين ذراعي رفعة الحنونتين، وفتحت الباب، فواجهني مجاز مظلم، سرت منتشية على رؤوس أصابعي، محدقة طويلاً في العتمة التي هيمنت على جميع غرف الدار، صعدت الدرج بهدوء ولكن شعرتْ والدتي بعودتي دون أن تنبس بكلمة.

تم الاتفاق بيننا على أن نذهب سوية مع شاهدين إلى المحكمة لعقد قراننا، فلم يكن بوسع والدي أن يقيم حفلة قران لنا، إذ كان

Twitter: @ketab_n

عاطلاً عن العمل بعد أن خرج من السجن. بالإضافة إلى تمردنا على تلك التقاليد أيضاً فقد تزوج عدد من معارفنا وأصدقائنا بالأسلوب نفسه. والدة رفعة اقترحت أن يكون عقد القران في دارها بدلاً من الذهاب إلى المحكمة، ورجت رفعة قبول اقتراحها وتلبية رغبتها. إذ كان رفعة يكن الحب العميق لوالدته، فوافق على اقتراحها.!

تألمت كثيراً عندما غيّر رفعة رأيه، وأصبحتُ في موقف حرج بالنسبة لوالدتي، فلم يكن والدي يهتم بهذه الشكليات، بل يعتبرها أموراً تافهة، لا يعيرها أدنى أهمية. ولكن التقاليد المتبعة في إقامة عقد الزواج يكون عادة في دار الفتاة وليس في دار الفتى. فاستهجنتْ والدتي عندما أخبرتها بالقرار و لم ترتح إليه. وقالت: أليس عقد القران عادة في دار البنت؟ أجبت نعم، هذا هو التقليد السائد في المجتمع. ولكن دارنا لا تتسع للمناسبة، مما دفعني إلى الموافقة على الذهاب إلى دارهم. سكتت والدتي على مضض، رغم عدم استساغتها تصرفي في القفز على تقاليد المجتمع التي اعتادت عليها.

×××

عقد القِران وقاموس أوكسفورد

حددنا موعد عقد القِران في ليلة عيد الميلاد، لنحتفل كل عام بعيدين. وذهبت صباح ذلك اليوم مع رفعة لشراء فستان بهذه المناسبة، فاخترت فستاناً أسودَ، ذا خطوط دقيقة صفراء اللون، منافياً بلونه للعرف الاجتماعي السائد في يوم عقد القران.

رافقني والدي مع شقيقتي مريم إلى دار أبو رفعة. ارتديت ذلك الفستان من الصوف، وجاكيت أصفر ينسجم مع لون الفستان، وعقصت شعري إلى الخلف بشريط أسود اشبه بسواد شعري. وهذا

Twitter: @ketab_n

مخالف ايضاً للتقاليد المتعارف عليها، إذ على الفتاة أن ترتدي فستاناً ابيضاً، لأنه يرتبط بالطهارة والنقاء.

جلس والدي مع الرجال في غرفة أم رفعة، وكان من بين الحاضرين ناجي شوكت[٥٢] وصبيح ممتاز الدفتري، مدير العدلية العام، وعارف آصف آغا، وعدنان الكيلاني وآخرين من العائلة.

دخلتُ مع شقيقتي مريم الغرفة التي جلست فيها النساء بصحبة أم رفعة، ومعظمهن قريبات رفعة، فبانت الدهشة على قسمات وجه أم رفعة، عندما شاهدتني بالفستان الأسود. فهذا اللون الأسود مرادف بذهنها للموت والفقدان والحزن. ثم قالت بنبرة يشوبها التعجب والاستغراب: «عروس ولابسة أسود!» إذ كان واجب عليّ أن التف باللون الأبيض الذي يرمز للطهر والبراءة وطول الحياة! ولكن لا تدري أم رفعة أن اللون لا يعني شيئا من هذا القبيل، وإن الإنسان ابتكر رموزاً من تلك الألوان وأضافها إلى مخيلته. فالمرأة الهندية ترتدي اللون الأبيض عند موت زوجها، ولا يفارقها اللون الأبيض حتى وفاتها.

واتفقنا سابقاً رفعة وأنا أن يكون حق العصمة بيدي، وهذا شيء مهم بالنسبة لكلانا، وأن يكون المهر ليرة رشادية واحدة. فالفتاة ليست بسلعة تباع وتشترى بمهر عالي يطلبه أهلها عادة! وقمنا ثانية بكسر العرف الاجتماعي المتعارف عليه. جلس القاضي في صدر الغرفة،

٥٢- ناجي شوكت: ١٨٩٣-١٩٨٠، زوج مقبولة خالة رفعة. تخرج ناجي شوكت من كلية الحقوق باسطنبول و شارك في حرب العراق حيث اسره الإنكليز و أرسل للهند. التحق بضباط الثورة العربية بقيادة الشريف الحسين بن علي، و عاد إلى العراق و عمل في جمعية العهد العراقية المناوئة للإحتلال البريطاني. عين متصرفاً للواء بغداد، ثم الموصل. أصبح رئيساً للوزراء عام ١٩٣٢-١٩٣٣، ثم وزيراً للداخلية في حكومة رشيد عالي الكيلاني. بعد إخفاق الحركة، انتقل إلى إيران ثم جنوب أفريقيا و قدم للمحاكمة و حكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات. امتاز بالذكاء و النشاط و النزاهة و الجرأة، كان من مؤيدي الحاج أمين الحسيني في فلسطين.

Twitter: @ketab_n

وبدأ في قراءة نص العقد وعندما وصل إلى نص الجملة التي تمنحني حق العصمة، أعاد الجملة مرتين على مسمع رفعة، فأجاب رفعة بنعم، ثم التفت إليّ وأعاد النص مرتين وأجبت بنعم ايضاً.

تشاءمت أم رفعة من هذا النص الغريب بالنسبة لها، فمن يطلب الطلاق يوم عقد القران! واعتبرته نذير شؤم، وربما تكون عواقبه وخيمة ونتائجه مؤلمة.

قضينا ذلك المساء في دار الرسام جواد سليم. كانت الدار مليئة بالمجموعة نفسها التي التقيت بها في دار الرسّام محمود صبري، وعدد من المعماريين وبعض أصدقاء الفنانين من الكتّاب ومن الذين يهتمون بالرسم والنحت والعمارة والأدب. كان سلوك بعضهم أقرب منه إلى السلوك البوهيمي، بعد أن احتسى أقداح عدة من البيرة أو الويسكي. ولكن رغم ذلك وجدت نفسي منسجمة في تلك الأجواء، فأحاديثهم شائقة متنوعة.

توقفت السيارة أمام باب دارنا، اكتشفت يومها كأننا عشيقين ولسنا بزوجين، لا مكان لنا سوى تلك السيارة[٥٣] التي أهداها إليه عمه رؤوف الجادرجي بعد عودته من انكلترا. ليس أجمل من سرقة تلك اللحظات، وحيدين مختبئين عن أنظار الناس في ذلك الشتاء القارس، الشارع المظلم صامت، لا نسمع إلا أنفاسنا، نتقاسم رائحة تبغ سجائر (الجمل) التي كان يدخنها رفعة، استنشقها بحواس متوهجة، وأنا التي اشكو من حساسية الدخان.

كانت هدية عقد القِران قاموس ضخم Oxford Companion Dictionary، الذي احتفظت به في مكتبتنا كهدية ثمينة، كان ذا فائدة

٥٣- كانت السيارة سوداء اللون، كبيرة الحجم، بسبعة مقاعد، أوستين، موديل ١٩٣٦.

Twitter: @ketab_n

كبيرة لي، إذ كنت تلميذة في كلية الآداب في الصف الثاني فرع اللغة الإنكليزية، ولكن لم تشعر أم رفعة وأبنتها أمينة بالارتياح لهذه الهدية، واعتُبرت مثل هذه الهدية، منافية للعرف الاجتماعي! فقالت أمينة مظهرة عدم الارتياح والتعجب:

« يوه شكد عيب، واحد يودي مجوهرات مو قاموس بمثل هل المناسبة؟/أي، أحس بالخجل من تلك الهدية، إذ تقدم المجواهرات في مثل هذه المناسبة وليس قاموس؟» أما والدته فلم تنطق بكلمة، بل ظلت صامتة، فالمفاجئة بالنسبة لها كانت أكثر مما تحتمل الاعتراض أو الكلام.

×××

ارتحلت وجوه الخطّابة التي طوقت والدي ووالدتي، وكانت مصدر إزعاج دائم لي. أما في الكلية، فكانت ردود فعل الطلبة متفاوتة، فمنهم من هنأني، ومنهم من قاطعني، إذ كان البعض يأمل في الزواج مني، وتجنبوا الحديث معي أو حتى تهنئتي بالخطوبة. وربما كانوا الأشخاص الذين لاحقوني من الكلية في طريقي إلى البيت. وظلت أشباحهم مختبئة في مساحة من ذهني. ومنهم من اتخذوا المبادئ حجة في موقفهم المعادي لي، واعتبروا إنني تخليت عن المبادئ التي كنت أومن بها، فاقترنت- بالنسبة لتفكيرهم- بشاب أرستقراطي! هذا بالرغم من أن رفعة اعتقل لميوله اليسارية في معتقل أبو غريب لأكثر من شهر تقريباً حالما عاد من إنكلترا.

كما جابهتْ أم رفعة أسئلة متكررة عن خطيبة أبنها. فقد أقترن بفتاة غريبة عن الطبقة التي تنتمي إليها، وكانت بدورها تعيد الجواب نفسه، وباقتضاب: «عيني هي خوش بنية وبنية حلوة». ويظهر أن الجمال كان حجة مهمة بيد أم رفعة، تستعمله في إسكات ثرثرة النسوة والأسئلة المتكررة التي تدور في «القبولات» التي كانت تحضرها دورياً.

Twitter: @ketab_n

عشت في بداية الأمر في جو غريب، مشحون بالتوتر، أعاني من موقف الطلبة الجاف في الجامعة، واشعر بالغربة في دار أبو رفعة، فهنالك هالة من العلاقات الرسمية بين أفراد العائلة، خاليه من الحرارة التي كنت معتادة عليها في العلاقة بين أفراد عائلتنا. فكبت العواطف واضح في العلاقات بين رب العائلة وأولاده، وحتى بين الأخوة. .

انسجمتُ حالاً مع أصدقاء رفعة المقربين منه، كحميد العزاوي(٥٤) وسلمان الأعظمي، اللذين كانا من المواظبين على تناول الغداء يوم الجمعة في دار أبو رفعة ومن بين المستقبلين لرفعة مع عائلته عندما عاد إلى بغداد بعد غياب دام ست سنوات.

سلمان ورفعة وحميد

ففي اليوم التالي من وصول رفعة بغداد، التقى بصديقه، حميد العزاوي، وسأله رفعة عن الفتيات «التقدميات أو اليساريات» في بغداد،

٥٤- حميد العزاوي: من اصدقاء رفعة المقربين عندما كان طالباً في المتوسطة، تخرج من كلية التجارة، و عمل محاسباً فيها، و استمر صديقاً عزيزاً، عمل محاسباً في السفارات العراقية، النمسا و المانيا و تونس. تزوج الرسامة و الفنانة وداد الأورفلي.

Twitter: @ketab_n

أجابه حميد: إن هنالك عدداً من الفتيات التقدميات والنشطات، وذكر له ثلاثة أسماء، كان من بينهن إسمي.

كان حميد آنذاك محاسباً في كلية التجارة الواقعة في حي الوزيرية، وكان يراقبني عن بعد في ذهابي وعودتي من كلية الآداب، وقرر في دخيلة نفسه من أنني فتاة تصلح كزوجة لصديقه رفعة، الذي ما زال طالباً يدرس في إنكلترا! تميز حميد بدماثة الخلق، يأتمنه أصدقاؤه على أسرارهم، فكل منهم يجد فيه الشخص المثالي الذي يبحث معه أسراره العائلية ومشاكله الخاصة.

ولكي يردع الآخرين من التقدم لخطبتي، إن كانوا من أساتذة أو طلبة كلية التجارة، أعلن حميد العزاوي أنني ابنة خاله، وكان ينصحهم بعدم التفكير في التقدم لخطبتي! ولا أدري لَمَ فكرّ حميد بصديقه رفعة ولم يفكر بي لنفسه؟ أصبح الجميع في كلية التجارة، على دراية بقرابتي «المزعومة» مع حميد، ومن له رغبة في بحث موضوع الخطوبة، فعليه أن يراجعه، وكان يسدي لهم النصح ويثنيهم عن التفكير في مثل هذا الموضوع. استمرت الحالة لأكثر من عام، حتى وصل رفعة بغداد، فكان حميد اول من رشحني لرفعة، أما قائمة أسماء الفتيات الأخريات فلم تكن تعني بشيء جدي بالنسبة له.

لم ألتق بحميد رغم تتبعه أخباري، ومعرفته الكثير عني، لكنني تعرفت عليه في اليوم الثاني من إعلان الخطبة الرسمية. ولم تمض إلا مدة قصيرة، حتى قص عليّ الخطط التي كان يرسمها والستراتيجية التي كان يستخدمها في ملاحقة الموضوع الذي يتعلق بأعز صديق له. وأصبح من أقرب الناس لي.

×××

Twitter: @ketab_n

كنا نجلس حول مائدة الطعام، ويتصدر المائدة أبو رفعة وكنت أجلس عن يمينه ويجلس نصير عن يساره، أما رفعة فكان يجلس بجانبي دائما. وظلت تلك المقاعد نفسها نجلس عليها دون أن تتغير، كل منا في مكانه المخصص له. أما أم رفعة فلم يكن لها مكان معين حول مائدة الطعام، وإنما كانت تغير مكانها حسب عدد الحاضرين حول المائدة.

لم نكن نبدأ بتناول الطعام قبل أن يترأس المائدة أبو رفعة، وإن تأخر أحياناً، وهو نادر جداً وخاصة في أيام الجمع حيث تجتمع العائلة مع بعض الأصدقاء المقربين، فتختلط الأحاديث بالضحك والنكات، ويدب الصمت عندما يدخل أبو رفعة غرفة الطعام. ويقول «ليش ما تستمرون!» يجيبه سلمان الأعظمي «ما نكدر كامل بك». فتتغير الأحاديث عندئذ وتتسم بصبغة رسمانية، إذ كان وجوده بيننا يضفي على الجلسة هالة من الاحترام له من قبل جميع الحاضرين.

ثم توضع أطباق الطعام بألوانها المختلفة، كنت في تلك المدة خجولة، لا أشارك في الحديث إلا ما ندر، وكان أبو رفعة هو الذي يوجه الأسئلة للحاضرين، والأحاديث متنوعة عامة، خفيفة تشوبها النكتة، ويشوب لقاء يوم الجمعة خاصة جو من المرح. كان أبو رفعة يحب ممازحة سلمان نعمان الأعظمي، صاحب مطبعة الأعظمي في شارع المتنبي.

أما أم رفعة فكانت تتكلم قليلاً، ولكنها تعير أهمية كبيرة لراحة ورضا الجالسين حول المائدة، وقد لاحظتْ أنني أتفادى أكل البامية، الأكلة التي يعشقها العراقيون! لم استطع أن أفصح عن العداوة المتأصلة بيني وبين البامية! لاحظت أم رفعة، حذري عندما أغمس الملعقة ببطء في قعر الوعاء العميق، متفادية البامية، محاولة الحصول على مرق الطماطم فقط. لم تحاول أم رفعة إحراجي و لم تسألني، لكنها شعرتْ

Twitter: @ketab_n

أنني لا أحب أكلة البامية! ورغم ذلك لم تغير المنيو، بل أصبح يرافق أكلة البامية «تبسي» الباذنجان التي أصبحت أكلتي المفضّلة!

أكلة البامية أكلة عراقية، وقد تجلت بها الذات العراقية، وأصبحت رمزاً لهوية العراقي البعيد عن وطنه! تعلمتْ والدتي طبخها على الطريقة العراقية عندما أقامت في النجف، ووجدت طريقها إلى المنيو اللبناني، الذي كانت تتقنه. كانت أكلة البامية تؤكل طازجة في الصيف، لكنها تلاحقنا حتى في فصل الشتاء. كنت أشاهد والدتي تقضي ساعات في تنظيفها وتقطيع رؤوسها، ثم تغرز الإبرة في البامية وتصفها كخرز السبحة، خرزة بعد خرزة بخيط متين، تعلقها على حبل في غرفة المؤن المظلمة قرب المطبخ. أما في الصيف فكانت تطبخها مع اللحم والثوم والطماطة. فتهيمن رائحتها على الدار وغرف النوم، ولا تبقى زاوية في الدار خالية من رائحة البامية! كنت أحس برائحتها في أنفي في الشارع قبل أن أدخل الدار، وأعرف أن منيو ذلك اليوم البامية والأرز. أصبح أنفي حساساً يميز بوضوح أنواع الطبخ![٥٥]

×××

شهر العسل في كردستان - العراق

اتفقنا - رفعة وأنا - على آلا نتبع تقاليد المجتمع وقررنا الخروج عنها وتحديها، فلا فستان زفاف ولا زفة عرس ولا حفلة عرس أو صورة لتلك المناسبة. ولكن بعد أن انتهت السنة الدراسية والامتحانات

٥٥- بعد أن تركنا العراق عام ١٩٨٢، سافرنا إلى بوسطن في الولايات المتحدة، كان رفعة يشتاق لأكلة الباميا، فاضطررت أن أذهب معه إلى المخازن التي تبيع بقالية الشرق الأوسط، واشتريت له باميا طازجة، وطبختها على طريقتي وليست الطريقة العراقية، فقد أضفت لها المشمش، وقدمتها كوجبة جانبية مع لحم دجاج الهند/ التركي turkey أثناء عطلة عيد الشكر Thanks giving. وهي وصفة أرمنية، يطبخها الأرمن في بوسطن.

Twitter: @ketab_n

النهائية، فوجئت بطلب رفعة مني أن نسافر إلى شمال العراق/كردستان. أجبته اتفقنا على كل شيء ولكن لم نتفق بعد على موعد الزواج. قال إننا سنسافر مع المعماريين قحطان المدفعي وعبدالله احسان كامل.

أحست والدتي بصدمة كبيرة عندما أخبرتها أني سأسافر تلك الليلة مع رفعة إلى شمال العراق، لم تجب في البداية للمباغتة التي شعرت بها، فقد كانت تتوقع إقامة حفلة عرس كبيرة، كما هو العرف الجاري في المجتمع! فأنا أول بنت أتزوج من بين بناتها وأبنائها. كان العرس حلم من الأحلام التي تتمنى إقامته. تلبس أبنتها فستاناً أبيض، وتضع إكليلاً من الزهور، تلحق بها مجموعة من الأطفال الصغار يرفعن ذيل فستانها حتى منصة العرس الذي يكون العريس في استقبالها بين الهلاهل والزغاريد! لكنه ظل حلماً لم يتحقق!

قالت بعد صمت طويل ومن سيخبر والدك؟ كان والدي متعباً ذلك اليوم ونام في وقت مبكر. أجبت لِمَ لا تخبريه أنت صباح الغد؟ نظرت نظرة تنم عن عدم الرضى من سلَوكي، لكنها ظلت صامتة، شعرتُ بهالة من الحزن قد خيمت على تقاطيع وجهها، وبالحرج تجاهها واتجاه والدي.

جاء رفعة في الساعة العاشرة ليلاً، وضع حقيبة الملابس في السيارة، وودع والدتي قائلا لها: سنسافر اليوم إلى شمال العراق. علمت والدتي عندما ودعتها أنني لن أعود إلى الدار ثانية، فقبلتني، واغرورقت عيناها بالدموع.

أما رفعة فذهب إلى والده في غرفة نومه، قبل أن ينام وطلب منه بعض الأفلام للتصوير، قائلاً له إنه سيسافر إلى شمال العراق، أجابه والده: مع من؟ قال له: مع بلقيس! وبتلك الطريقة المختزلة أخبر رفعة والده عن الزواج.

Twitter: @ketab_n

تجمعت السيارات المتجهة نحو شمال العراق/كردستان، بعد مدينة بعقوبة، وتحركت كقافلة في الساعة الثانية صباحاً خلف سيارة شرطة مسلحة. إذ لم يكن مسموحاً للسيارات بالسير ليلاً من غير حراسة. فمعظم الطرق الرئيسة في العراق آنذاك لم تكن معبدة، ويهب الغبار خلفنا في الطريق الملتوية أمامنا، مخلفة غيمة ترابية.

كان الفجر جميلاً، انعكست أحزمة أشعته على الأرض الترابية، وبانت جبال حمرين أمام أعيننا، وحولتها إلى حمرة متلألئة. وصلنا جبال حمرين بعد مدة قصيرة، جلس الجميع للاستراحة وشرب الشاي، وتركتنا سيارة الشرطة، واتجهنا نحو مدينة كركوك التي وصلناها وقت الفطور. كانت فنادق مديرية سكك الحديد، ما زالت تقدم فطوراً إنكليزياً جيداً.

تغيرت مناظر الطبيعة بعد جبال حمرين وزالت رتابة الصحراء، وكست أزهار الشقائق الحمراء التلال الخضراء التي كنا نقطعها، فتتراقص تحت أشعة الشمس وتتلوى بالنسيم العذب الذي يمسها بخفة. وصلنا أربيل، ثم اتجهنا نحو سفوح جبال صلاح الدين التي أشاهدها لأول مرة في العراق، فلي معرفة بجبال لبنان، ولكني فوجئت بتلك الجبال الشاهقة بارتفاعها وضخامتها، كنا ندرس ارتفاعها وضخامتها في درس الجغرافية ولكنها كانت أرقاماً مجردة غير مجسدة أمام عيني كما هي عليه الآن. أقمنا في فندق صلاح الدين، وهو فندق بسيط مكون من عدة غرف، ولكن الإدارة المشرفة عليه كانت إدارة جيدة مدربة منذ عهد الإنكليز.

قضيت بما يسمى «شهر العسل» بصحبة شخصين بسيارة واحدة. كان المعمار قحطان المدفعي[٥٦] مملوءً حيوية، ملماً بالموسيقى الغربية

٥٦- قحطان المدفعي: ولد ١٩٢٧، يقترن اسمه بالعديد من الابنية، والصروح

Twitter: @ketab_n

والأدب والشعر، تتفتح قريحته عندما يشرب في السهرات التي لا نهاية لها. فيبدأ في الحديث عن آخر التطورات في الفن والعمارة، ولكنه يصبح أحياناً عنيفاً في حديثه لدرجة التعدي على الآخرين. كان يختلف عن المعمار قحطان عوني، الذي يفرح عندما يرى المعمارين الآخرين ينجحون في التصاميم التي يقومون بها، فكانت تستحوذ على قحطان المدفعي الغيرة من الآخرين.

المعمارين قحطان المدفعي وعبداللة إحسان كامل وبلقيس ١٩٥٤

أما المعمار عبد الله إحسان كامل[٥٧] فكان وديعاً هادئاً، يتكلم

المعمارية المميزة في العراق، على مدى أكثر من خمسين سنة. فهومصمم جامع آل بنية، ووزارة المالية، وكان له دور مهم في الحصول على تمويل وبناء جمعية الفنانين التشكيليين من مؤسسة كولبنكيان. كما قام بتصميم نصب ومتنزه ١٤ تموز في الكاظمية، ومدينة الألعاب قرب قناة الجيش، وعدد من الدور، منها دار الفنان نوري مصطفى بهجت في المنصور، وبيت الفنان فائق حسن في الصليخ.

٥٧- عبدالله إحسان كامل: ١٩١٩- ١٩٨٥، درس وتخصص بالعمارة في جامعة ليفربول، وحصل على الماجستير من أمريكا ١٩٥٢. اسس مع د. محمد مكية قسم العمارة ١٩٥٩، وله دوز في بناء القسم على أسس صحيحة، وبمستوى عالي. شريك رفعة في الأستشاري العراقي، الذي تأسس عام ١٩٥٣، وعملا سوية حتى عام

Twitter: @ketab_n

بصوت خافت، ولا يختلف سلوكه حتى عندما يحتسي الويسكي. كان يتحدث ويبحث بعمق عن إيجاد مفاهيم وحلول جديدة للعمارة في العراق.

قطعنا شمال العراق طولاً وعرضاً، وزرنا مناطق كثيرة وتعرفنا على عدد من الناس من الأكراد[٥٨] وزرنا صالح ميران في شقلاوة الذي كان يكن وداً خاصاً واحتراماً لأبي رفعة. لم أشعر بحرج عندما جلست بين عدد كبير من الرجال الأكراد في مضيفه، فقد كنت المرأة الوحيدة بينهم، و لم تكن هي المرة الأولى التي اجلس فيها بين الرجال، فقد كان لقائي الثاني برفعة في المقهى البرازيلية التي يؤمها الرجال فقط.

كبرة صالح ميران في شقلاوة ١٩٥٤

١٩٦٥. شغل منصب مدير التخطيط الحضري والإقليمي ١٩٦٨– ١٩٧٢.

٥٨– زرنا دار كمال الحاج حسين في السليمانية، وجلبت لي اخته العروس ملابسها الكردية لكي اتصور بها.

Twitter: @ketab_n

لاحظت جمال طبيعة كردستان، جبالها العالية وسفوحها الممتدة بين تلك الجبال، وأناسها الطيبين، الحميمين بعلاقاتهم. لكني لاحظت أيضاً الإهمال الذي تعاني منه تلك القرى والمدن، وإنعدام الخدمات فيها.

بلقيس بالملابس الكردية ١٩٥٤

عدنا إلى بغداد، وذهبت إلى داري الجديدة، التي كانت في الأساس دار الحارس حمزة، وإسطبل البقر وتربية الدجاج، وكان هدم الإسطبل سبباً في غضب أم رفعة، فقد حُرمتْ العائلة من شرب الحليب غير المغشوش والبيض الطازج! ولكن كان هذا الإجراء بناء على اقتراح أبو رفعة الذي طلب من رفعة ألا نقيم بدارهم، تجنباً لحدوث مشاكل عائلية في المستقبل، قائلا له: «إذا زعلتْ، ستترك الدار ولا تعود ونخسرك بذلك، لذا أفضل أن تسكن في دار منفصلة عنا، وقريبة منا.» وهذا ما طبقه مع أولاده الآخرين عندما تزوجوا. لم يكن من

Twitter: @ketab_n

طبعي أن أتدخل فيما لا يعنيني، لكني بالرغم من ذلك، فقد وطّنت نفسي على عدم التدخل في الشؤون العائلية، ورسمت لنفسي منذ البداية خطاً لا أتعداه، وظلت علاقتي ودية مع جميع أعضاء العائلة، علاقة حميمة طيبة، تكسوها غلالة من الرسمانية.

×××

تصميم الدار

صمم رفعة دارنا حسب مقاسات المقطع الذهبي Golden Section الذي كيّفه لكوربوزيه لمقاس العمارة، الذي هو ارتفاع مترين وست وعشرون سم. فأصبح ارتفاع الدار حديث الأقارب والأصدقاء، إذ كان ارتفاع سقوف الدور في بغداد لا تقل عن ثلاثة أو أربعة أمتار. كما استعمل screen/ المشبكات، لحجب حرارة الشمس عن الدار، فوضعنا في الصيف قماشاً بين مربعات "السكرين" يرفع في فصل الشتاء، لكي تدخل الشمس إلى الغرف.

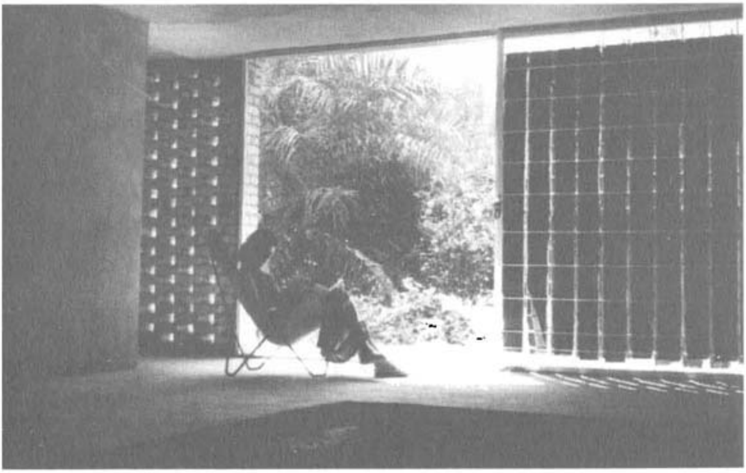

صورة السكرين بلقيس 1954..

Twitter: @ketab_n

ولم تكن الدار بتصميمها الحديث تتناسق دون أثاث حديث التصميم، ولذا كانت الأثاث التي استعارها رفعة موقتاً، من أهله وأقربائه لا تنسجم مع تصميم الدار. لأننا قررنا آلا نقتني أثاثاً وغيرها من حاجات الدار، إلا أن تكون حديثة لحين يتوفر في الأسواق أو يصممها رفعة حين توفر المال لها. وهكذا لم يكتمل تأثيث الدار إلا بعد عدة سنوات. وعشنا على أرض من الخرسانة لمدة سنتين تقريباً، لحين توفر المال لإكساء الأرض بمادة اليولونيوم.

كانت الدار خالية من الأثاث، إلا من نصف تخم من الكنبات الفستقية اللون، ذات لمعة برّاقة، خاصة عندما تلتف بحزم الشمس المتسللة من النافذة الواسعة التي غطت جداراً من الدار. واستعار رفعة، طاولة طعام مصبوغة باللون الأبيض، مع أربعة كراسي خيزران من دار خالته مديحة. أما الكتب التي جلبها معه من إنكلترا، فقد صفها على رف خشبي في أرض الغرفة. إذ لم يكن في غرفة المكتبة رفوف لنضع الكتب عليها. كما استعار تختين لغرفة النوم، واشترى تختين حديديين للسطح.

شملت الدهشة والاستغراب حتى صديقاتي اللواتي كنَ، معظمهن، يؤمن بالمفاهيم اليسارية، فلم يهضمن الدار بسقف واطئ، دار خالية من الأثاث، والأثاث الموجود بها غير منسجم مع تصميم الدار. كما كانت أرضية الدار عارية حتى من الكاشي واكتفى رفعة بصبها بالخرسانة، إذ لم يكن قادراً مالياً أن يغطيها باليولونيوم الذي استورده المهندس علي رأفت آنذاك.

بدأت هدايا العرس من الأقارب والأصدقاء تتراكم في دار أم رفعة.

Twitter: @ketab_n

كان معظمها لا ينسجم مع تصميم دارنا الخالية حتى من البرّاد/ الثلاجة والفرن. ومعظمها هدايا كمالية، لا نحتاج إليها. حاولنا إبدال بعضها في محلات أوروزدي باك[٥٩]، الذي كان أكبر مخزن في بغداد آنذاك، ويحتوي على البضائع الأوربية بأنواعها المختلفة، فاستبدلنا بعض الهدايا بطقم كامل من صحون وأكواب أريبيا Arabia الفلندية مع سلة حديثة التصميم للنفايات. أما الهدايا التي لم يكن باستطاعتنا إبدالها، فأصبحت من حصة أم رفعة، أُعتبر كدين، وعليها أن ترده في المستقبل القريب.

كانت الصحون والأكواب التي اشتريناها ذات لون أبيض، من غير زينة، سميكة وثقيلة الوزن. وهي اشبه بالنوع الذي كان يستعمل في دور استراحة السكك الحديدية في العراق. استغرب الأصدقاء والأقارب من هذا الذوق، فهي صحون لا تستعمل إلا في المطاعم! فقد كان كل ما هو بسيط التصميم لا يقدرونه إن لم يكن مزين بألوان فضية أو ذهبية. كما أصبحت سلة النفايات نكتة/ فكاهة الموسم بين الأصدقاء والأقارب، فالدار فارغة من أبسط الضروريات، فليس هنالك برّاد أو فرن أو طباخ لتسخين الطعام، وأول ما نجلب لتلك الدار من أثاث سلة نفايات فاخرة! كانت سلة النفايات أنيقة، فريدة في تصميمها ونوعها آنذاك، كما كانت غالية الثمن. متوسطة الحجم ذات لون أبيض تتوافق مع الأثاث الحديثة، تفتح بضغط القدم عليه. واعتبرنا بعض أقارب رفعة شاذين في تصرفاتنا عما هم معتادون عليه في حياتهم وما هو مقبول في المجتمع! لم تُثننا ردود الفعل، وإنما اتبعنا مبدأ شراء الجيد والحديث عندما يتوفر لدينا المال.

شعرت كالشجرة التي اقتلعت من مكانها الآمن، فليس في الدار

٥٩- أوروزدي باك: متجر بلجيكي كبير، يتميز ببضاعته الجيدة، وهو في الواقع يشبه «المولات» الحديثة. كان معظم زبائنه من الطبقة ما فوق المتوسطة والثرية آنذاك.

Twitter: @ketab_n

شيء يعود لنا إلا الكتب. كان الشعور بالغربة، سبباً في ذهابي عصر كل يوم في ذلك الصيف لزيارة أهلي، فأحس بالدفء ثانية، كما لاحظتُ أن أمينة شقيقة رفعة كانت مثلي في تلك الأيام، تزور والدتها معظم أيام الأسبوع عصراً أو ليلا بصحبة زوجها.

بالرغم من أن المجتمع الذي كنا نعيش فيه مجتمعاً مختلطاً، لكنه في الحقيقة كان قشرة خفيفة، فبمجرد ما يكتمل نصاب الضيوف، حتى تنفصل النساء عن الرجال كما ينفصل الزيت عن الماء، يجلسن عادة بنصف حلقة مقابل نصف حلقة الرجال. والحديث منفصل تماماً بين الجنسين! فحديث النساء مستنقع راكد، متقوقع تافه لا يتعدى إطار جدران الدار، يدور حول شؤون البيت والأطفال والخدم، وإن خرج الحديث عن إطار الدار، فإلى الأسواق والأقمشة والخياطات وآخر تقليعات الموضة. تتنافس المدعوات في عرض آخر تقليعات الموضة الغربية من الفساتين والأحذية، وتتلألأ خواتم الماس والزمرد في الأنامل الرقيقة، والأساور في المعاصم البضة والقلائد في الأعناق المعطرة بعطور كرستيان ديور ونينة ريشي وشانيل. أما رجال تلك الطبقة فكانت تدور أحاديثهم حول أعمالهم المهنية أو السياسة.

لم تكن هذه الزيارات تمثل الجو الذي نعيشه، وإنما كنا نقوم بها كواجب من الواجبات العائلية. فقد كانت لنا أجواؤنا الخاصة، من الفنانين والرسامين والمعماريين.

×××

Twitter: @ketab_n

القبول

ذهبت ذات صباح إلى دار أم رفعة، فوجدت حركة غير طبيعية في الدار. وعرفت أنه [٦٠] يوم «قَبُول» أم رفعة الشهري. كنت أذهب إلى القَبول مع والدتي في مدينة الحلة. وكانت القبولات على درجات حسب طبقة العائلة ووضعها المالي. كنت اشعر بالفرح والبهجة، العب مع الأطفال في باحة الدار أو الحديقة. لم تكن زيارات النسوة لوالدتي محددة بيوم معين في الشهر، إذ لم تحدد «قبولاً» شهرياً لإستقبالهن. وتوقفت الزيارات إلى القبولات بانتقالنا لبغداد في منتصف الأربعينيات.

كانت أم رفعة مواظبة على إقامة القبول شهرياً. فتصُف التخوت البيضاء، بمساند من القماش الملون، تتخللها طاولات صغيرة بيضاء. وتوضع في جانب الحديقة المقابل لغرفة ضيوف أم رفعة طاولة كبيرة، يتصدرها «السماور» الفضي، الشامخ بارتفاعه على المائدة المزينة بأطباق الكليجة والكيك. كانت أم رفعة تقوم بخلط الكليجة ولا تعتمد على الطباخ، إذ كان لكليجة أم رفعة شهرة واسعة بين الأقارب والأصدقاء.

كان أبو رفعة يترك الدار، عندما تبدأ وصول النسوة بسياراتهن، وتكون الحديقة الواسعة قبل وصولهن مساء، قد تشبعت برطوبتها المريحة التي تسري وتخدّر الأحاسيس وتدغدغها في صيف بغداد الحار. لم يكن من عادة النسوة البقاء طيلة ساعات القبول، لأنهن كن

٦٠- القَبول: هو اجتماع شهري، نسوي، تجتمع النساء في دار إحداهن مرة في الشهر، ولكل امرأة يوم محدد تقيم فيه القبول، فكان القَبول يقام يوم أول أربعاء من الشهر في دار أم رفعة.

Twitter: @ketab_n

يقمن بزيارة قبولات أخرى في نفس المساء. ولذا كانت الوجوه في تغير مستمر.

جلستُ بجانب أمينة شقيقة رفعة التي جاءت خصيصاً لمساعدة والدتها في استقبال وتوديع النسوة. كنتُ صامتة طيلة المدة، أتحدث أحياناً معها، وكانت ترفدني ببعض المعلومات عن النسوة اللواتي يمثلن الطبقة الحاكمة في العراق، فمعظمهن زوجات وزراء أو وزراء سابقين أو مدراء عامين. دارت الأحاديث أحياناً عني، العروس زوجة رفعة!

كانت العادة المتعارف عليها في العراق، زيارة دار العريس والعروس من قبل صديقات أم العريس، ليطلعن على فخامة الدار والأثاث والفرش التي جهزت به العروس. ويصبح موضوع مهم يتناقلن تفاصيله بإمعان واهتمام بالغ. شعرتْ أم رفعة بالحرج وبان الارتباك عليها عندما طلبت بعضهن زيارة دار ابنها رفعة، فهي غير قادرة على أن تفتخر وتعتز بجهاز ابنها البكر كما تفعل النسوة من صديقاتها! وشعرتْ براحة نفسية عندما جاءت ضيفات جدد لزيارتها، فانشغلت بقدومهن، وتهربت بذلك من مرافقة بعضهن للدار.

ما أن ينتهي القبول، حتى تبدأ أم رفعة في اليوم التالي برد الزيارات التي تستغرق شهراً كاملاً. كانت «القبولات» تقام صباحاً وعصراً، إذ لم يكن العصر كافياً لاستيعاب جميع القبولات الشهرية. وكان «حسين السائق» يقوم بتنفيذ تلك المهمة فهو المسؤول عن قيادة السيارة، ينتظرها عادة مع السّواق الآخرين ليجلبها إلى الدار أو لزيارة قبول آخر.

لم تكمل أم رفعة– منيبة آصف عارف محمود آغا – الدراسة الابتدائية، بسبب وفاة والديها في سنٍ مبكرة. كانت فتاة يافعة، صغيرة السن، جميلة الوجه، ذات بشرة بيضاء وعينين عسليتين وشعر

Twitter: @ketab_n

أصفر طويل ينتهي بجديلتين طويلتين متدليتين على ظهرها. وعندما بلغت سن السادسة عشر، تزوجت كامل الجادرجي. كانت بينهما فجوة فكرية بينة، تفصل بين عالميهما. عالمها لا يتعدى إطار الإشراف على شؤون الدار والخدم والأطفال وزيارات الأقارب والأصدقاء من النسوة. وتجلى ذلك حتى في تصميم الدار الذي له مدخل خاص بأبي رفعة، ومدخل آخر للعائلة. ولكن أم رفعة كانت قنوعة وسعيدة بعالمها كما هي الحالة بالنسبة لجميع النسوة في العراق. فالزواج مبرمج ومتفق عليه من قبل ربي العائلتين إن كان شاباً أو شابة!

كانت هادئة، قليلة الكلام، وإن عبرّت عن فرحها فتفتر شفتاها الرقيقتان عن ابتسامة وديعة، تنصت معظم الوقت إلى أحاديث الآخرين ولا تشارك فيها إلا نادراً. لكنها تميزت بحيوية ونشاط نادرين، اجتماعية بطبعها، لا تمل من زيارات الناس لها وزيارتها إليهم.

كانت السيارة يحتاج إليها أبو رفعة أحياناً، الذي نادراً ما يخرج من الدار إلا في الذهاب إلى مقر جريدة الأهالي أو مقر الحزب إن كان مسموح له بممارسة أعماله وغير مغلق من قبل السلطة. فكانت أم رفعة تتذمر أحياناً حين لا يكون باستطاعة حسين أن يلبي جميع طلباتها. فتشكي أحياناً أمامنا، وتقول من « أنها محبوسة» وكان حسين ميال للمبالغة فيجيب: «اليوم زارت أم رفعة ثلاثة قبولات صباحاً وثلاثة عصراً وتكول/أي تقول، هي محبوسة» وينهي جملته بقهقهة عالية ماكرة.

أقيم في بغداد المعرض البريطاني للصناعات البريطانية في عام ١٩٥٤، كان التلفزيون من جملة الاختراعات التي عرضت في

Twitter: @ketab_n

المعرض. واستورده العراق في عام ١٩٥٥، فانتشر بين العائلات الميسورة.

أم رفعة كانت تشاهد التلفزيون في بيوت بعض الأصدقاء والأقارب. وطالما تمنت أن يكون في غرفة ضيوفها جهازاً مثله. لم تذكر تلك الأمنية بصورة مباشرة، لكنها قالت أمامي: «إن التلفزيون سينما دائمة في الدار، وتنتفي بذلك الحاجة للذهاب إلى السينما». ثم وصفتْ لي الشاشة الصغيرة التي باستطاعتها أن تنقل ما يحدث في العالم وهي جالسة في غرفتها، وعددت لي بيوت بعض اصدقائها الذين اقتنوا هذه الآلة الجديدة. نقلتُ الحديث الذي دار بيننا إلى رفعة، وعلم من ذلك الحديث برغبة والدته في اقتناء مثل هذا الجهاز.

لم يكن وضعنا المالي يساعد على شراء جهاز تلفزيون، لكن رفعة قرر تلبية رغبة والدته رغم الضائقة المالية التي كنا نعاني منها. ومنذ تلك الحادثة أصبحتُ الشخص المؤتمن الذي ترتاح إليه أم رفعة عندما لا تستطيع الإفصاح عن رغباتها أمام الآخرين. ومع ذلك ظلت علاقتي رسمية، لا أتخطى الحدود التي رسمتها لنفسي، وبذلك استمرت علاقتنا علاقة ودية بعيدة عن توافه الحياة اليومية، والمشاكل التي كانت تعترضها أحياناً.

كما أصبحتْ عادة شرب الشاي في الساعة الخامسة في دار أم رفعة طقساً من الطقوس التي لا أتردد عن حضوره إلا في ظروف طارئة، كالمرض أو السفر. فعندما كان يتجه رفعة بسيارته عصراً إلى مكتبه في شارع النضال، أتجه بدوري إلى دار أم رفعة عبر الحديقة التي تفصل دارينا لشرب الشاي. كنا نشرب الشاي في غرفتها الواسعة التي تطل على حديقة الدار. وهو يقدم مع الكليجة المحشوة بالتمر.

×××

Twitter: @ketab_n

نما الحب بيني وبين رفعة وتعمق وشيجة فوشيجة، وتأصل عبر صروف الزمن وتغيراته وعواصفه. أصبحت رفيقة دربه في اكتشاف خفايا المعرفة التي كنا ننهل منها معاً. كانت أحاديث رفعة تسليني وتشحذ خيالي في حبي إلى غور المعرفة التي كنت أجهلها. تتناغم خطواتنا ونمشي على نفس الدرب الطويل الذي سنقطعه معاً، نشعر بلحظات النشوة المفرحة معاً وبلسعة لحظات الخيبة.

فعندما التقيت برفعة، لم يكن عندي أي حس معماري، وكان عليّ أن أتعرف وأقرأ عن هذا الموضوع الجديد، خاصة أنه صمم دارنا تصميماً حديثاً، على مقاس المقطع الذهبي. كانت أحاديثه جديدة على مسمعي، شعرتُ بقلة معرفتي وجهلي في مواضيع كثيرة، ففي الحياة مواضيع كثيرة غير الأدب والشعر.

بدأنا في تأثيث دارنا، كنت صامتة لا أبدي رأياً، ألاحظ ما يبديه رفعة من أفكار بخصوص الألوان المتناسقة وما يقوم به من تصميم قطع الأثاث، والزوايا التي توضع بها. فكل قطعة لها مكانها المخصص لها.

لم استسغ في البداية هذا النوع من التأثيث البسيط، وترك فراغ ومساحات واسعة في الدار، إذ كنت معتادة على كثرة الأثاث، كبيوت العصر الفكتوري في إنكلترا، حيث تتزاحم فيها قطع الأثاث. لم تكن لي الخبرة الكافية، لأقّدر ما كان يقوم به رفعة، كنت أجهل تطور تاريخ الفن المعماري، وما أفرزته الحركات المعمارية خلال التاريخ، التي أدت بدورها إلى الحركة المعمارية الحديثة.

كان أثاث دار والدي عادياً، عبارة عن مجموعة من الكنبات التي

Twitter: @ketab_n

توجد في دور الطبقة المتوسطة عادة. وكانت ثقافتي ينقصها هذا النوع من الدراسة. و لم أتعرف من قراءتي للأدب إلا على عمارة الاكروبولس والبارثنن الاغريقيين.

وأول ما قمت به هو التتبع لما يجري في العمارة الحديثة. واتاح لي اشتراك رفعة في عدد من المجلات ألاسبوعية والشهرية، كانت تصل إلى البيت، وليس إلى المكتب، فرصة في أن أطلع عليها قبل أن يأخذها رفعة إلى المكتب. وبذلك بدأت المعلومات تتجمع وأصبحتْ خزيناً مهماً بمرور الزمن.

بدأتُ أفتح المجلات الشهرية التي تصل الدار بانتظام، وأتصفح البعض منها، واقرأ عن المعماريين الحديثين، وأطلع على ما قاموا به من تصاميم جديدة. و لم تمضِ إلا بضعة أشهر حتى وجدت نفسي أتابع ما يدور من أحاديث بين المعماريين الذين عادوا من أوربا والولايات المتحدة، وعن الحركات المعمارية الجديدة. كما بدأت أقرأ بشغف كتب عن تاريخ الفن بصورة عامة، والحركات الفنية بصورة خاصة، وبذلك واكبت ما كان يحدث على مسرح العمارة والفن من تطورات. كانت الأحاديث بين المعماريين عن العمارة والفن بدل الحديث عن هموم البيت والحياة اليومية كما هو المعتاد بين الأصدقاء عامة.

ثم بدأت ألتقي بالمعماريين الأوربيين والأمريكيين، الذين كنت أقرأ عنهم في تلك المجلات، فقد قرر مجلس الأعمار(٦١) جلب خيرة

٦١- بناء على حديث مع رفعة الجادرجي: «اتفق رفعة وقحطان عوني على تهيأة قائمة باسماء المعماريين الجيدين والحديثين في العالم، وتقديمها إلى وزير الإعمار، نديم الباجچي، فحصلا على اللقاء به مساء في داره، وبحثا الموضوع، وقالا له، ان هنالك معماريون جيدون في العالم؛ وان المعماريين الإنكليز الموجودن في العراق، ليسوا من المعماريين المفضلين. وهكذا بدأ المعماريون العالميون بتلبية دعوة الحكومة العراقية.

Twitter: @ketab_n

المعماريين العالميين من أوربا والولايات المتحدة. ليقوموا في تصميم بعض الأبنية الحكومية المهمة. والتقيت بالمعمار الإيطالي، جيو بونتي Gio Ponti، الذي صمم بناية مجلس الإعمار في باب الشرقي. واشتهر بعمارته برلي Pirelli، التي كانت من اوائل الأبنية التي احتوت على ٣٢ طابق في أوربا، واعتبرت من بين أجمل ناطحات السحاب في العالم. زاره رفعة في مكتبه في ميلان، وقضى ثلاثة أيام معه، وكان يخرج معه يومياً لكي يطلع رفعة على معالم مدينة ميلان.

وعندما دعي المعمار الأمريكي فرنك لود رايت Frank Lloyd Wright، ليصمم دار أوبرا في بغداد، أقام المعمار نزار جودت وزوجته ألن دعوة عشاء. ثم دعاه المعمار قحطان عوني في داره الجديدة المطلة على نهر دجلة في الأعظمية، وقدم له السمك المسكوف، وهي الأكلة التي يفتخر بها العراقيون، لكن الرجل لم يكن باستطاعته أن يأكل بيده، ولم يستطع أن يفصل العظام عن اللحم بالشوكة، فظل جائعاً.[٦٢]

ثم التقيتُ بالمعمار الدنماركي أوتسن Jorn Utzen الذي كُلف بتصمم أوبرا سدني عام ١٩٥٦، وذلك عندما توقف في بغداد ليومين ليتابع منها سفره إلى استراليا. وسأل أوتسن السفير الدنماركي عن رفعة الجادرجي[٦٣]. فدعي رفعة للتعرف عليه، ثم دعاه رفعة إلى دارنا،

أما المعماريان، دوكسيادس وكروبيوس، فقد استدعيا من قبل الحكومة العراقية قبل ذلك الترتيب.

٦٢– عندما دعي فرنك لويد رايت إلى بغداد في عام ١٩٥٧، كان يناهز سن ٨٩ من العمر. لذلك كان يطلق على المعماريين العراقيين أولاد/بويز boys، لأن معظمهم كانوا من الشباب.

٦٣– كانت السفارة الدنماركية من أملاك عم رفعة، رؤوف الجادرجي. ونشرت آنذاك المجلة الفرنسية L، Architecture D،ajourd،hui، إحدى عمارات رفعة في

Twitter: @ketab_n

وتوطدت العلاقة بيننا. وعندما ذهبنا إلى الدنمارك عام ١٩٦٢ أقمنا في دارهم اسبوعاً كاملاً. كانت الدار التي صممها جميلة، ذات نوافذ واسعة، تطل غرفها على الغابة التي تقع في وسطها، خارج العاصمة كوبنهاكن. كان أوتسن صاحب نكتة، ويضحك عندما يتحدث عن بعض المسؤولين في العاصمة سدني، الذين طلبوا منه دعوة أوركسترا لائقة بافتتاح الأوبرا التي كانت يومها تحت التنفيذ. و لم تكن آنذاك أوركسترا جيدة في سدني بمستوى الفرق الموسيقية العالمية التي اشتهرت بها العواصم الأوربية الغربية. وبعد ان أطلع على ما كان يقوم به رفعة من تطوير في العمارة، طلب منه أن يشترك مكتباهما في تصميم بعض المشاريع في المستقبل سوية. وقد رحب رفعة بادئ الأمر، لكنه انتبه لاحقاً أن الأسلوب الذي يتبعه في التصميم يختلف جذرياً عن أسلوب أوتسن، ولهذا لم تتحول الفكرة إلى التطبيق العملي.

ثم توالت الزيارات بعدها لمعماريين مشهورين مثل المعمار الفنلندي ألفار آلتو Alvar Aalto والمعمار ولتر كروبيوس Walter Gropias، الذي أسس مع مجموعة من المعماريين (TAC)، والفكرة الرئيسية من تأسيس المكتب، هي المسؤولية الاجتماعية التي تقع على كاهل المعمار. وقد كلف كروبيوس آنذاك بتصميم جامعة بغداد، حيث التقينا به في تلك الحقبة. كما زار بغداد المعمار الفرنسي ميشيل أيكوشارد الذي كلف في تخطيط مدينة دمشق. كنا ندعوهم في دارنا ونقيم بهذه المناسبات حفلات عشاء على شرفهم، كما كنا ندعوا البعض من المعماريين والفنانين العراقيين، لكي يلقتوا بهم.

نفس المجلة التي نشرت تصاميم أوتسن عام ١٩٥٦.

Twitter: @ketab_n

بلقيس والمعمار الفرنسي إيكوشارد في سلمان باك 1956.

×××

لقاء الفنانين في دارنا

كانت اللقاءات الدورية للفنانين من الرسامين والنحاتين والمعماريين، تعقد أسبوعياً في دار أحدهم.

كان معظم الفنانين قد عادوا من جامعات إنكلترا وفرنسا وايطاليا والولايات المتحدة. ويحاولون ابتكار قواعد جديدة لحركة فنية طليعية اسوة بما حدث في ميادين الأدب والشعر والأنواع الإبداعية الأخرى قبل ذلك بأعوام.

وبعد أن جاء كل من الرسام محمود صبري ورفعة الجادرجي من إنكلترا وانتميا إلى الجماعة، تبلورت المفاهيم التجديدية في تلك الاجتماعات، فقد كانا يساريان في نظرتهما يؤمنان بالمفاهيم الماركسية، وسرعان ما انقلبت الحوارات عن الفن إلى تناول هموم المجتمع والخصوصية العراقية. تأثر فائق حسن بهذا النقاش ورسم

Twitter: @ketab_n

أول صورة لإمرأة ريفية عام ١٩٥٢، ليتجه منذ ذلك التاريخ إلى التركيز والتعمق في نقل جوانب من الحياة الاجتماعية في العراق.

الفتاة والعنزة، للرسام فائق حسن 1952.

كانت الندوات الفنية الأسبوعية تعقد في دار أحد أعضاء جماعة «الأس بي S.P."(٦٤). لتصبح دارنا بمرور الأيام مقراً للقاء الأصدقاء والفنانين في أمسيات الخميس. ولم تشمل الفنانين فقط وإنما شملت المعماريين. كان رفعة كوالدته يرتاح لوجود ضيوف حوله، بالرغم من الوضع المزري الذي كان عليه دارنا، التي تفتقر إلى كل شيء من الضروريات أو الكماليات.

٦٤- أطلق اسم "Society primitive S.P."، بسبب خروجهم لرسم الطبيعة في الريف.

Twitter: @ketab_n

كنا نستعير الشوك والملاعق والسكاكين وحتى كراسي الحديقة أحياناً من دار أم رفعة. لم يكن الجو غريباً عليّ، فقد انتقلت من دار والدي الذي كان يؤمه الأدباء والشعراء إلى دار يؤمها الفنانون.

من المعماريين والرسامين والنحاتين. ولكن كان سلوك البعض يضفي أحياناً جواً بوهيمياً متطرفاً إذا ما قيس بالجو المتزن في دار والدي. كما كانت تقام المعارض الفنية بين الحين والآخر.

معرض فني – رفعة وعزيز أبو التمن ومدام جمالي 1956.

كان البحث يدور في تلك الاجتماعات الاسبوعية، حول وظيفة الفن. وما هو دوره. وربما اعتقد جواد ان الجدل يدور حول الالتزام، وهو لم يكن كذلك. مع ذلك انفصل جواد عن الجماعة وأسس «جماعة بغداد للفن الحديث»، المكونة من قحطان عوني ونزيهة سليم ونزار سليم وجبرا ابراهيم جبرا وخالد الرحال وشاكر حسن آل

Twitter: @ketab_n

السعيد. وأصبحت مجموعة «الرواد» مكونة من فائق حسن واسماعيل الشيخلي والدكتور قتيبة الشيخ نوري والدكتور خالد القصاب وزيد صالح ومحمود صبري وعيسى حنا وغيرهم. كلا المجموعتين تنطلق من أن الرسم يجب أن يكون له خصوصية عراقية.

وتحولت غالب أعمال الرسامين في تلك المدة إلى رسم القضايا الاجتماعية، وأوضحهم كان جواد وفائق، أما محمود فقد ركز في الغالب على النضال السياسي، بينما رسم جواد الحالة الاجتماعية في المدن، ورسم فائق الحالة الاجتماعية في الريف.

وكان الجدل والنقاش يؤدي إلى تساؤلات في إيجاد أسلوب جديد في الرسم والتصميم المعماري. كان النقاش والجدل أحياناً حامياً وحاداً، وهم ينهلون الكؤوس وما فيها من آخر قطرات النشوى، فترتفع الأصوات ويتلاشى الإصغاء ويهيمن الحماس في الساعات المتأخرة من الليل.

بلقيس باقراط من تصميم جواد سليم 1957.

Twitter: @ketab_n

جواد سليم اعتبر قائد الحركة الفنية الحديثة في العراق. ومن سوء حظ الحركة أنه رحل في عمر مبكر في قمة إنتاجه، وهو في العقد الرابع من العمر. وشكل جواد وهو في ريعان العمر المنارة التي تضيء طريق الفنانين العراقيين الذين جاءوا بعده. عرف بكونه متحرراً، لا يؤمن بما يفرضه المجتمع التقليدي من قيود. كما كان مثقفاً موسوعياً متميزاً بين الفنانين. ألمّ بالموسيقى الغربية وكان يعزف "الكيتار"، مطلع على الأدب والمسرح والشعر والموسيقى والرقص. لم يتحدد جواد بالرسم الزيتي والمائي وإنما تجاوزها إلى النحت والحفر على الخشب، كما رسم على الفضة وصمم اقراطاً، بقيت منها الصور التي اخذت لها.

الرسام جواد سليم، تصوير رفعة 1953.

كان لعمله في المتحف العراقي أهمية بالغة، حيث تأثر بالفنون السومرية والبابلية إلى جانب الجداريات الآشورية كما تأثر بالرسام الأسباني بيكاسو، ونجد انعكاس هذا التأثر واضحاً في رسومه وتماثيله. ولم يكتف بذلك بل درس الزخرفة العربية ومدرسة الواسطي في الرسم والريازة التركية والايرانية التي نجدها واضحة في تخطيطاته

Twitter: @ketab_n

المائية، وصهر جميع هذا الخزين في لوحاته وتماثيله، بأسلوب رشيق متناسق جديد. استعمل الخزين الغربي الذي تشبع به في دراسته في إيطاليا وإنكلترا وصهره بخطوط قوية وألوان وأشكال غالبة عليها البيئة البغدادية التي نشأ بها، وبدأ في تلك الحقبة يؤكد في رسمه على الخصوصية العراقية، وظهر بأسلوب تجريدي مع خصوصية عراقية.

أما محمود صبري فكان جميل الطلعة، رشيق طويل القامة، يتكلم بصوت خافت، صوره لم تكن تعكس مظهره الهادئ، بل تجسد معاناة الطبقة الكادحة في العراق من خلال رسم العامل والسجين والنساء الكادحات كالعلابيات[٦٥]. ألوان داكنة وخطوط متناسقة صهرت لتعّبر عن البيئة العراقية بقوة وأصالة. وانعكست مفاهيمه اليسارية في فنه، ولو أنه لم يتبع أو يتأثر بالمدرسة الواقعية التي كانت سائدة في الاتحاد السوفيتي، لكنه أتخذ الحركة الفنية الحديثة في أوربا مرجعاً له، وتجنب بذلك السقوط في هوة التقليد للواقعية السوفيتية. كان محمود موظفاً في بنك الرافدين، وكان الرسم هواية له وليس مهنة، فلم يدرس الرسم في اكاديميات متخصصة مثل جواد أو فائق حسن.

كان فائق حسن أسمر اللون، نحيف القامة، ذا شعر أجعد وعينين ثاقبتين وحس مرهف بالألوان والتقنية. يحضر معظم تلك الاجتماعات، لكنه تخلى عن حضورها بعد زواجه من «سوزان» زوجته الفرنسية، التي أبعدته عن أصدقائه من الفنانين، بل كانت داره مركزاً لتلك الاجتماعات حتى زواجه من «سوزان». لم تنسجم زوجته معهم واعتبرتهم «متوحشين»، فاطلقَ عليها الفنانون في المقابل savage، وهو الوصف نفسه الذي وصفتهم به. ومن المؤسف

٦٥- العلابيات: هن النسوة اللواتي يحملن عدداً من قفف اللبن فوق رؤوسهن، تصل أحياناً بين ستة وثمانية قفف فوق بعضها البعض.

Twitter: @ketab_n

أن يتوجه فائق إلى رسام ممتهن لرسم صور حسب الطلب. فامتلأت بيوت البعض، بصور الخيل والخيام والبدو، وبلغ به الأمر أن ينقل من صور فوتوغرافية للمسؤولين من رجال السلطة تحت تأثير زوجته التي لا يهمها إلا الحصول على المال!

أما بالنسبة لنا، فقد صار شراء الصور من الفنانين بالأقساط الشهرية كشراء الكتب، إذ لم تكن تسمح لنا ميزانيتنا في اقتناء الصور والكتب إلا بالتقسيط الشهري. كنا نزور جواد ولورنا في دارهما، وكان يعرض جواد آخر أعماله على رفعة، أو كان يجلبها لدارنا أحياناً.

أقامت جمعية الفنانين في عام ١٩٥٦ حفلاً في قاعة بهو الأمانة

في بغداد، وقد تبرعنا جميعنا لجمع مبلغ للجمعية، لكي يستطيعوا إقامة الفعاليات والنشاطات الفنية. وحضر الحفل الوصي على عرش العراق ورئيس الوزراء عبد الوهاب مرجان.[٦٦]

كان حفلاً ناجحاً، تخللته الموسيقى والرقص بعد أن غادر الوصي ورئيس الوزراء الحفل، لكنه كان آخر النشاطات قبل ثورة ١٤ تموز.

٦٦- كانت مادلين من أشهر الخياطات في بغداد، يتردد اسمها دائماً بين الطبقة الميسورة، لكنني ارتديت في حفلة الفنانين فستانا من خَياطة منافسة للخَياطة مادلين. إذ كانت الخَياطة مادلين تتقاضى ٢٥ ديناراً عراقياً عن خياطة الفستان الواحد آنذاك، هذا إذا علمنا أن راتب خريج الجامعة يومها لا يزيد عن ١٨ ديناراً عراقياً. أما الخياطة الثانية الجيدة فهي شوشانيك.

كانت نساء الطبقة الموسرة والحاكمة في بغداد يتنافسن في ارتداء فستان من خياطة الخَياطة مادلين. وكلفتني خياطة فستان الحفلة والحذاء نصف راتب رفعة الشهري! واشترى رفعة طاقم سموكن بالنصف الثاني من الراتب لذلك الشهر، وهي المرة الأولى التي نصرف بها بترف مثل هذا المبلغ على ملابسنا! إذ كنا، رفعة وأنا، نميل إلى التقشف في حياتنا اليومية، ونفضل صرف المبالغ على الكتب وشراء اسطوانات الموسيقى الغربية، وكانت والدتي تقوم بخياطة جميع ملابسي.

Twitter: @ketab_n

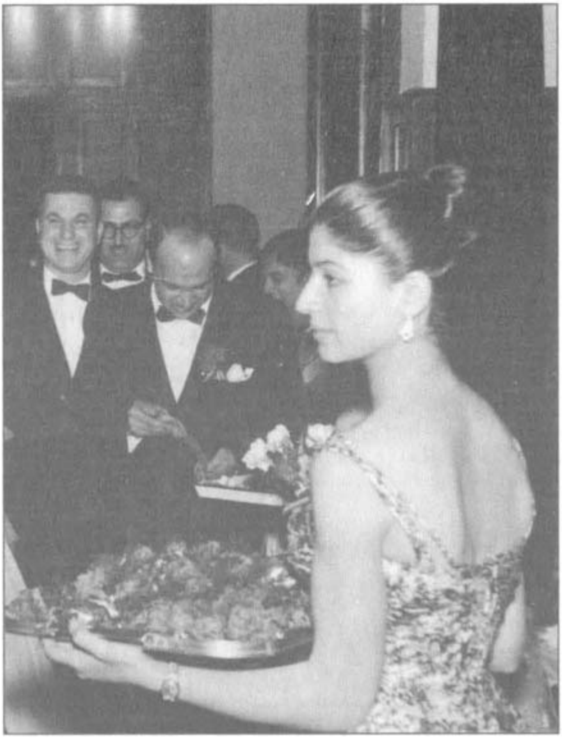

بلقيس في حفلة جمعية الفنانين 1956.

بمرور الوقت، بدأت الاجتماعات الفنية تتخذ طابعاً متطرفاً أحياناً، وظهرت الاختلافات العميقة بينهم، وشن بعضهم الهجوم على البعض الآخر، فتفرق الشمل وقلت اللقاءات تدريجياً وتلاشى النقاش وذاب، بعد أن تزوج بعضهم فتيات صغيرات السن بعيدات عن تلك الأجواء، فكان تأثيرهن على أزواجهن واضح بصورة غير مباشرة. ولكن استمرت علاقتنا بمحمود صبري وجواد سليم.

بالرغم من ذلك، كانت تلك اللقاءات بذرة التجديد في فن الرسم والنحت والعمارة، وأصبح العراق في طليعة البلدان العربية في عقد

Twitter: @ketab_n

الخمسينيات، كما كان عليه في عقد الأربعينيات في الأدب والشعر. واستمرت المعارض الفنية بعرض أعمالهم، التي مهدت الطريق للأجيال التي أتت بعدهم.

×××

المكتبة

اتخذ بيتنا شكله الذي خططنا له بالتدريج، فامتلأت الرفوف البيضاء بالكتب، وبدأنا ببناء مكتبة للكتب وأخرى لأسطوانات الموسيقى الغربية الكلاسيكية. فالمكتبات هي حافظة ذاكرة المجتمع.

نقل رفعة مكتبته من الرفوف الأرضية، ونقلت أيضاً الكتب الأدبية التي لها علاقة بدراسة الأدب الإنكليزي، وكانت كتباً قليلة بالمقارنة مع مكتبة رفعة التي جلبها معه من لندن. وأصبحنا مواظبين على زيارة مكتبة مكنزي(٦٧) ببغداد أيام الجمع، نطلب منه قائمة الكتب التي لها علاقة باختصاص رفعة والإصدارات الأدبية التي كنا نطالعها كلانا.

فالكتاب يظل جليسك بعد ان تنتهي من قراءته، ويشغل مساحة متوثبة في نشاطك الفكري. كانت الكتب تحاورني وهي فوق رفوفها، منها ما يذكرني بلحظات من الماضي الجميل، ويبقى الكتاب سجل التاريخ للساعات التي قضيتها في التهام صفحاته. اقلبها وانتقل بين سطورها واستعيد من خلاله أفكاراً وذكريات. وفي رفوف أخرى ظلت كتب متراصة على الرفوف لا أحد يقترب منها. ليس هنالك من يلمسها ويداعبها ويفتح صفحاتها، وتشعر عندما تمر العيون بسرعة

٦٧- مكتبة مكنزي: تأسست من قبل صاحبها مكنزي اثناء الاحتلال البريطاني عام ١٩٢٠، واستمرت بعد ان ترك البريطانيون العراق.

Twitter: @ketab_n

عليها، بتأنيب الضمير لهجرها. وتشعرك أحياناً بأنك كسول محروم من طيات كنوزها الدفينة.

كنا وما زلنا نعتبر الكتب جزءً حيوياً من حياتنا، ترافقنا، أمعنتُ في قراءة بعضها، و لم أجد الفرصة لقراءة كتب أخرى، فظلت تطل من مهجعها بانتظار اليد التي تلامسها وتفتح صفحاتها لتعيش معها.

وكلما كنا نسافر، نعود مع أصدقاء جدد من الكتب التي ترافقنا في رحلتنا، حتى لم يعد هنالك فسحة لكتب جديدة. فالمكتبة هي تاريخ وسجل طويل لحياتنا واتجاهاتنا.

و لم تنقطع هواية اقتناء الكتب حتى بعد أن تركنا العراق وفارقنا مكتبتنا في بغداد، لكننا بدأنا نؤسس مكتبات جديدة، أولاً في لندن وثم في كيمبرج/ ماساشوست، وبيروت. و لم تقتصر على زيارة المكتبات بل شمل أهتمامنا زيارة مهرجانات الكتب في مدينة «هيّ اون وياي Hay-on-Wye". ننظر بحماس إلى الرفوف الممتلئة، وإلى الصناديق ونتعرض للكتب القديمة، ولكن الرغبة في الحصول على الكتب واقتنائها، ووضعها على الرفوف وقراءتها، ظلت رغبة متأججة لا ينطفئ لهيبها ولا يطالها الفتور، بل تظل على الدوام تثير الهمة في اقتناء المزيد منها.

×××

كما أصبحت زيارة سوق الصفافير/النحاس، وسوق السجاد في صبيحة بعض أيام الجمع، من الطقوس الأسبوعية، نمر خلالها على حسن أبو تراب، المتخصص في بيع الأواني من الصفر، فيعرض علينا القطع القديمة منها، ويقص علينا قصصاً طويلة عن والده عندما اشترى جميع قطع الصفر من بيت عارف آغا، والد أم رفعة، ولا يمل من تكرار القصة على مسامعنا باختلاف بسيط في سردها في معظم زياراتنا له.

Twitter: @ketab_n

واعتدنا على قطع سوق الصفافير الصامت نسبياً في يوم الجمعة، إلى محل عباس الفويلي، المتخصص ببيع السجاد.

كان محل عباس من محلات السجاد المتميزة بالأنواع الفاخرة والنادرة. وكانت ترتاده طبقة من أثرياء العائلات العراقية. كنا من المستجدين في هذا الموضوع، نلتقي بأولئك الأشخاص الذين لهم هواية في جمع السجاد الجيد، حيث تراكمت معرفتهم الواسعة بالسجاد عن طريق التجربة والخبرة. أما نحن، فمعرفتنا بالسجاد الجيد وأنواعه المختلفة ارتبطت بالقراءة المتخصصة في هذا الحقل وزيارة المتاحف الأوربية التي تقتني مجموعات كبيرة نادرة من السجاد. فقد عكفنا، رفعة وأنا خلال سفراتنا، في تلك المدة، على زيارة معظم المتاحف التي تضم مجموعات نادرة من السجاد عبر العصور المختلفة، كما أضفنا إلى مكتبتنا الكتب المتخصصة عن السجاد، وبدأنا قراءتها بشغف حتى انتبهنا ان لنا دارية كافية تساعدنا على معرفة أصل السجادة وأهميتها التاريخية.

كان «عباس» متمرساً بأسلوب البيع، يبدو على وجهه السرور والانشراح، عندما يعرض علينا سجادة نادرة حصل عليها مؤخراً، فيديرها من جهات متعددة، لنشاهد لمعة الحرير، والتصميم والألوان، ويسمعنا كلاماً مفصلاً عن تاريخها والألوان الطبيعية التي استعملت في صناعتها، بعد أن شعر أن ذوقنا يختلف عن الذوق السائد بين الناس، واننا لسنا بصدد ملء دارنا بالسجاد، ولكننا خلف إيجاد قطع صغيرة تتناسب مع تأثيث الدار ونسبه الجمالية.

كنا نفتش دائماً عن التصاميم المجردة الشكل، وليس عن تصاميم الأزهار والحيوانات التي لا تنسجم مع أثاث دارنا. كان يفتح لنا قطعة بعد أخرى، وترتفع معها الأسعار كلما كانت السجادة ثمينة ونادرة. كنا نعرف أن ميزانيتنا محدودة، فيلح علينا إن أعجبتنا قطعة من القطع

Twitter: @ketab_n

في أخذها وفرشها لمدة من الزمن وإن لم تعجبنا فباستطاعتنا إعادتها إليه. كان عباس يعرف سيكولوجية أعماق النفس البشرية، ويعلم جيداً إن القطعة إن أعجبت صاحبها، سيتمسك بها ولن يفكر بشحة المال لشرائها. ولذا أصبحنا ندفع الأقساط الشهرية، كما كنا ندفع أقساط الكتب الشهرية لصاحب مكتبة مكنزي وأقساط الصور للرسامين.

أثار شراء أول سجادة في الدار نقاشاً حاداً بين أعضاء العائلة، فقد كانت سجادة «القُم» من الحرير، ذات نقشة متكررة أنيقة. كانت القطعة طولها ثلاثة أمتار وعرضها مترين، وهي مناسبة تماماً لمكان الجلوس في غرفة المعيشة. إذ لم يكن في دارنا غرفة خاصة للاستقبال أو غرفة خاصة للطعام كما هي العادة في بيوت بغداد آنذاك. كانت السجادة مرتفعة الثمن. فالبعض أقترح علينا إعادتها، وشراء سجاد من نوع «كرمان» نفرش بفرق السعر جميع غرف الدار، ولكن رفعة لم يقتنع بهذا الاقتراح. كان من بين زوار أبو رفعة يوم الجمعة محمود صبحي الدفتري، زوج عمته صبيحة، وهو خبير بنوعية السجاد. فاستعان رفعة بخبرته في تقييم السجاد. بعد تفحصها أعجب محمود صبحي الدفتري بالسجادة، أعجبته من النظرة الأولى، وشجعنا على اقتنائها بالرغم من ارتفاع ثمنها.[٦٨]

كانت سجادة "القم" هي الأولى التي غطت مساحة صغيرة من غرفة جلوس في دارنا، ثم تجمعت بمرور الزمن قطع جديدة شاركت تلك السجادة في مساحة الغرفة، ولكننا توقفنا عن شراء السجاد وزيارة عباس بعد أن تم فرش جميع غرف الدار.

×××

---

٦٨ - كان سعر السجادة القم، ٣٠٠ دينارٍ عراقي، تعادل راتب موظف لمدة عام، إذ كان راتب خريج الجامعة آنذاك ١٨ ديناراً عراقيا.

Twitter: @ketab_n

سافرنا في الخريف إلى أوربا وكان بصحبتنا الرسام محمود صبري وزوجته برسيا، وقضينا وقتاً ممتعاً في جميع الأقطار التي مررنا بها. كنا عائدين في طريقنا من النمسا إلى بغداد عندما علا صوت الراديو معلناً أن القوات البريطانية والفرنسية والإسرائيلية قد احتلت قناة السويس بعد أن أعلن الرئيس جمال عبد الناصر تأميم القناة. التصقت آذاننا بالراديو طيلة المدة، التي قطعنا فيها الطريق الصحراوي الشاق بين دمشق وبغداد. وصلنا بغداد، وشعرت أنه سيكون عاماً صاخباً كعام ١٩٤٨.

الرسام محمود صبري وبلقيس 1956.

كان أبو رفعة في مصر آنذاك، قضى ثلاثة أسابيع والتقى بالرئيس جمال عبد الناصر. كنا ننتظر عودته إلى بغداد بحماس. نرغب في سماع المزيد عن مآثر الجيش المصري وأعماله البطولية أثناء العدوان

Twitter: @ketab_n

الثلاثي على مصر، استناداً إلى ما كنا نسمعه من إذاعة صوت العرب، وما كان يبثه أحمد سعيد من خطب شعبوية حماسية يلهب بها عواطف الناس. أجاب أبو رفعة بنوع من السخرية: «أي صمود! لولا تهديد خروشيف وتأييد الولايات المتحدة للانسحاب الفوري، لكانت مصر محتلة الآن! لقد سحق الجيش المصري بساعات عندما نزلت الجيوش الفرنسية والبريطانية والإسرائيلية»! شعرنا بخيبة أمل تبدد ثقتنا بقوة الجيش المصري الذي كنا نسمع عنه الكثير، وكانت الشعوب العربية تنظر له كجيش تحرير! وقد أطلق الرئيس عبد الناصر خطبة طويلة رنانة، واستعمل بها جملة و«نرميهم في البحر»، أي أن له القدرة على تصفية إسرائيل وسكانها من الوجود، بالتخلص منهم. فاستغلت إسرائيل والصحافة الموالية لها في الغرب هذا الشعار، لعقود تلت.

عاد أبو رفعة ليجد نفسه أمام حاكم ومحكمة، كان الاعتقال أمراً مألوفا بين أفراد العائلة. اعتادت على الباب يطرق بعد منتصف الليل منذ أكثر من عقدين من قبل حفنة من رجال الأمن، خلال الأزمات والهزات السياسية التي كان يمر بها البلد!

حكم الجادرجي بالسجن لمدة ثلاثة سنوات على التصريحات التي أدلى بها في مصر[٦٩]. ولم يستطع محامي الدفاع د. حسن زكريا الحيولة دون إدانته.

زج به في غرفة ينز من سقفها الماء، يتساقط في سطل على الأرض. ولكن نقل إلى غرفة أخرى وسمح له بتغطية جدرانها الرطبة بالسجاد، ويقوم على خدمته أحد السجناء. كما سمح له بالزيارة مرتين في

٦٩- قائلاً، نقلاً عن إحدى الصحف العربية، بأن الحكومة العراقية استمرت في ضخ النفط إلى حيفا، حسب إدعائها.

Twitter: @ketab_n

الإسبوع. فخصص يوم الجمعة لزيارة العائلة، والأربعاء لأصدقائه ولأعضاء الحزب الوطني الديمقراطي.

كنا رفعة وأنا، نزوره في السجن مرتين في الأسبوع. يوم الجمعة المخصص للعائلة، ويوم الأربعاء المخصص لأصدقائه. كانت أحاديث الأربعاء تشدني وتوسع مداركي، كنت مستمعة طيلة الوقت، أنصت إلى أحاديث قادة الأحزاب يبحثون تطورات الوضع السياسي، وما يجب عليهم أن يقوموا به في مثل تلك المدة الحرجة التي كان يمر بها البلد. ولأول مرة أسمع خلال تلك الاجتماعات أن الوضع وصل لدرجة من التردي بحيث لم يبق أمام الأحزاب إلا المشاركة بالثورة على الأوضاع القائمة. واستغربت من ذكر كلمة (الثورة) بصورة علنية.

كان من بين الزوار الدائمين محمد حديد وحسين جميل وصديق شنشل وخدوري خدوري الذي كانت ترافقه أحياناً زوجته الدكتورة روز خدوري، التي اصبحت عميدة كلية البنات بعد عام ١٩٥٨.

×××

إطلاق سراح أبو رفعة من السجن

أطلق سراح أبو رفعة من السجن في شهر حزيران عام ١٩٥٨، أي قبل انتهاء مدة المحكومية ببضعة أسابيع، وعادت معه بوابة الدار المؤدية للجناح الخاص به إلى نشاطها السابق. تفتح صباحاً ولا تغلق إلا ليلاً، وتوالت زيارة الناس له بانتماءاتهم المختلفة، وعاد «سلمان» موظف الأمن إلى تواجده في شارع طه، يقوم بواجبه اليومي، مسجلاً أرقام السيارات الواقفة أمام باب الدار، ليبعث بها تقريراً يومياً إلى مديرية الأمن!

Twitter: @ketab_n

كانت مديرية التحقيقات الجنائية في العهد الملكي تقوم بحملة واسعة لتجنيد رجال شرطة الأمن السريين، من بين الطبقة الفقيرة العاطلة عن العمل، والتي لها معرفة ولو بسيطة بالكتابة والقراءة لمراقبة المعارضة في البلد. فجندت عدداً كبيراً منهم لمراقبة الناس وكتابة التقارير اليومية، وبثت عيونها عنهم في كل مكان، فلم تقتصر على مراقبة أعضاء الحزب الشيوعي الذين كانوا دائماً من المطاردين والمشردين، وإنما شملت جميع القوى المعارضة لسياسة النظام الملكي، من الديمقراطيين واليساريين والبعثيين والقوميين. وقد وقع الاختيار بالصدفة على شخص اسمه سلمان لمراقبة دار كامل الجادرجي.

كان سلمان قميء المظهر، رث الثياب، يتجلى الذل على قسماته، وبؤس الفئة التي جند منها. امتهن هذا العمل البائس الذي يدر عليه راتباً بسيطاً، يقيه وعائلته من شظف العيش والجوع التي تعاني منه تلك الطبقة التي ينحدر منها. نظرات الاحتقار لم تكن تخفى عليه، من قبل أهالي الشارع لقيامه بهذا العمل الوضيع! فوظيفته تحتم عليه الوقوف في مدخل شارع طه، من الساعة التاسعة صباحاً حتى المساء، يتطلب واجبه اليومي تسجيل أرقام السيارات وأسماء الأشخاص الذين يزورون دار كامل الجادرجي. يقف على مقربة من الدار، يراقب الداخلين والخارجين منها، صباحاً ومساءً، يضيف أسماء جديدة إلى قائمته، كلما شاهد وجوهاً جديدة!

تعامل معه أفراد العائلة باهمال، فالتجسس علنا كان أو سراً، لم يكن في يوم من الأيام عملاً محترماً في العراق.

ولكن اختفى سلمان فجأة من الشارع، عندما صدر الحكم بالسجن ثلاثة أعوام على أبي رفعة في عام ١٩٥٦، وعاد ثانية عندما أفرج عنه في شهر حزيران من عام ١٩٥٨، فاحتل سلمان ثانية مكانه

Twitter: @ketab_n

المعين في الشارع، مواظباً في وظيفته، يسجل يومياً أرقام السيارات وأسماء أصحابها، ليضيفها إلى ملف مديرية التحقيقات! يكتب يومياً نفس التقارير، التي تضاف إلى ملف الجادرجي.

ودارت عجلة التاريخ دورتها المفاجئة، وجاء سلمان في صبيحة ١٤ تموز ١٩٥٨، للقيام بعمله المعتاد، ووجد الشارع يموج بالناس، ويعج بوفود داخلة وأخرى خارجة، وتمر التظاهرات في الشارع لتحيي أبو رفعة الذي أصبح رمز تلك الثورة، فاختفى سلمان عن الأنظار.

×××

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

ثورة ١٤ تموز

كنا ننوي رفعة وأنا، السهر في نادي المنصور ليلة الثورة. في المساء أتصل أبو رفعة تلفونياً، طالباً من رفعة آلا يتأخر في السهر تلك الليلة، لأن الوضع في العراق غير طبيعي، دون أن يضيف شيئا على ذلك.

في الصباح الباكر رن جرس التلفون الداخلي ثانية، رفع السماعة رفعة، وإذا بوالده يقول: قامت الثورة من قبل الجيش وأطيح بالنظام الملكي والحكومة.

اتجهنا حالاً نحو غرفته، كان جالساً يستمع إلى الراديو يذيع بيانات الثورة. وأصغينا للبيان الأول الذي أذيع بصوت عبد السلام عارف، الذي كان يعاد بين قاطع من الموسيقى العسكرية. كان بيد أبو رفعة قلماً يسجل به الأسماء المذاعة من الراديو. لم تمض إلا ساعة حتى امتلأت غرف وحديقة الدار بالناس من كل حدب وصوب. فتركتُ غرفة أبو رفعة واتجهت نحو غرفة أم رفعة التي امتلأت بدورها بالنساء.

أمتلأت غرفته بأناس من مختلف الرتب والطبقات. شخصيات سياسية معارضة، منها ألبعثي والشيوعي والديمقراطي والقومي، مهنيون من جميع الاتجاهات والملل، أكراد وشيعة وسنة ومسيحيون. كبار من الشيوخ وشباب متحمسون. أصبحت دار أبو رفعة في تلك الساعات المزار الذي يأوي إليه الناس، فهم يجهلون أسماء القائمين

Twitter: @ketab_n

بالثورة من العسكريين من أمثال عبد السلام عارف أو عبد الكريم قاسم! ولكن الجميع يعرفون الجادرجي.

وغصت حتى الحديقة بحشود الناس، يتوافدون طيلة اليوم. وفد يدخل ليبارك أبو رفعة وآخر يخرج. حمزة القهوجي، مشغول في صنع القهوة العربية وتقديمها للوافدين، كراسي الحديقة لم تكف عن استيعاب الحشد الكبير منهم. فبعضهم واقف يتحدث مع مجموعة وآخرين جالسون. وامتزجت أحاديثهم بهتافات المتظاهرين الذين بدأوا يتجهون نحو الدار في شارع طه.

×××

كان حمزة رجلاً وقوراً يحترمه الجميع، مرهف الحس، ثاقب النظر، له نظرته الخاصة، التي تعلمها من خلال تجربته التي عاشها في الجيش، إذ كان نائب عريف في الجيش العراقي ويتمتع بشخصية عسكرية محترمة. كان يراقب الداخلين والخارجين من دار أبو رفعة، يحس بتقلبات الأوضاع السياسية وبالجزر والمدّ من خلال تلك البوابة! وكانت تعليقاته ذكية وأحياناً لاذعة، عن بعض الزوار الذين يتغيبون عن زيارة أبو رفعة، حتى يجدوا الظرف المناسب لزيارته.

كانت باب الدار هي الباروميتر بالنسبة له! فعندما ينحسر عدد الزّوار، يشعر أن الوضع السياسي في البلد متوتر، وإن السلطة الحاكمة بعيدة عن معالجة الأزمة التي تفاقمت في البلاد نتيجة احتدام الصراع السياسي الذي يبلغ الذروة أحياناً عندما تحاول السلطة حل الأزمة السياسية بإلغاء الأحزاب وتعطيل الصحف. ولكن عندما يتوافد عدد كبير من الزوّار، بما في ذلك أولئك الذين يشغلون مناصب مهمة في الدولة، يشعر حمزة عندئذ أن هناك انفراج في الوضع، والبلد بعيد عن الأزمات السياسية!

Twitter: @ketab_n

كان من واجبات حمزة إضافة للحراسة، طحن القهوة العربية والإشراف على تخميرها بصورة صحيحة، وتقديمها للضيوف . فيجلس في الحديقة التابعة للمطبخ، أمامه الهاون الذي نستمع إلى طرقاته الموسيقية المتناوبة بين ارتفاع وانخفاض الصوت في طحن القهوة كما هي في المجالس العربية، وإلى جانبه المنقلة التي يضع فيها دلة القهوة الكبيرة على النار المشتعلة فيها، يحركها بين الفينة والفينة، ثم يصفيها، ويسكبها في دلة الفضة الصغيرة قبل أن يقدمها إلى الضيوف بأقداح القهوة الصغيرة، يضعها بيده فوق بعضها البعض. أصبح صوت الهاون مقترن بنكهة القهوة التي تفوح رائحتها في أجواء الدار. أما في المساء، فقد كان سماور الشاي يحتل المركز الرئيس، فيطل شامخاً على طاولة الشاي، تحيطه باقة من الاستكانات الفارغة التي تنتظر ملأها.

×××

تهيئة الظرف لخلق الدكتاتور

زيارة الاتحاد السوفيتي تشرين ثاني عام ١٩٥٨

كان رفعة بالإضافة إلى عمله كمدير للإسكان العام، عضواً في مجلس أمانة العاصمة المتكون من أمين العاصمة وسبعة أعضاء. وقد وجهت دعوة من قبل أمين عاصمة موسكو إلى أمين عاصمة بغداد وإلى مجلس الأمانة لزيارة موسكو.

كان الاتحاد السوفيتي ما زال بالنسبة لي حلماً مغلفاً بغلالة وردية، على أنه الرمز ضد الإمبريالية الغربية، والناس متساوون في الحقوق، بل إنه الفردوس على الأرض والآن سيتحقق الحلم الذي ظل بعيد المنال، بعد أن وافقت السفارة السوفيتية في بغداد على مرافقة أزواجنا! أصبح الوفد مؤلفاً من سبعة رجال وثلاثة نساء.

Twitter: @ketab_n

رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم مع وفد مجلس أمانة العاصمة في بغداد.

لم يكن الطيران في تلك المدة مباشراً بين بغداد وموسكو، فتوقفنا في فينا عاصمة النمسا لمدة يومين، كانت فرصة لنا في التسوق، فاشترينا ملابس شتوية تناسب برد موسكو.

وجدنا في استقبالنا عند وصولنا مطار موسكو عدداً كبيراً من المسؤولين الرسميين بالإضافة إلى المترجمين والمرافقين . بعد إنهاء معاملات السفر، توجهنا بقافلة من أربعة سيارات كبيرة ذات اللون الأسود، يتصدرها شرطي في دراجة مرور «المتورسيكل»، وخلفنا سيارة للشرطة. أقمنا في فندق سوفيت سكايا Soviet Skaya، المميزة آنذاك بنجومها الخمس، والقديم المعماري طرازها ، الذي بني في عهد القياصر في القرن التاسع عشر ضم الفندق قاعات كبيرة، تزينها ثريات ضخمة متدلية من السقف، وغرف نوم كبيرة بوسع شقق الفنادق الحديثة، وحماماً واسعاً بمرايا جميلة ذات أطر ذهبية.

في صباح اليوم التالي لوصولنا، كان أمين عاصمة موسكو بانتظارنا، فرحب بالوفد ، وقدم له أمين عاصمة بغداد ورئيس الوفد

Twitter: @ketab_n

حسن عبد المجيد، الذي أطلق على نفسه «اللورد»[٧٠] هدية من قبل رئيس وزراء العراق عبد الكريم قاسم. مختزلاً تراث العراق بهدية من سيف مصاغ من الفضة المطعمة بالمينا السوداء، مصنوع بأسلوب تقليدي مصاغ من محترفي هذه الصناعة من الطائفة الصابئية، مع عباءة سوداء اللون ومنديل من الحرير الأبيض وعقال مذهب.

الهدايا التي قدمت لرئيس عاصمة موسكو 1958

٧٠- إن كلمة اللورد، لا تستعمل إلا إلى محافظ لندن حيث يسمى «Lord Mayor».

Twitter: @ketab_n

كان يرافقنا منذ اليوم الأول عدد من المترجمين والمرافقين، الذين أصبحوا جزءاً من الوفد خلال الشهر الذي قضيناه معهم. فلاديمير المترجم الرسمي للوفد، كان أستاذ اللغة العربية في جامعة موسكو والمرافق الدائم لأمين العاصمة. أما المرافق الثاني، فكان شاباً وسيم الطلعة لا يتجاوز الخامسة والعشرين من العمر، يتقن الفرنسية والإنكليزية، وخصصت غالينا كمرافقة ومترجمة للنساء. رافقتنا طيلة المدة التي قضيناها في الاتحاد السوفيتي، لا تغيب عن أنظارنا. وأتضح لنا بمرور الأيام، أن هذا الإهتمام هو نوع من الرقابة المحكمة. فلم يكن يسمح لنا بأية حركة مخالفة للبرنامج الذي وضع لنا، و لم نستطع أن نحيد عن البرنامج الذي حدد لنا.

في اليوم الأول بعد وصولنا موسكو، سئلنا عن رغباتنا، فأجاب رفعة، طالباً الحصول على خارطة موسكو، التي هي عادة متوفرة في معظم اسواق مدن العالم الغربي. فقال له الشاب الوسيم الطلعة، سأجلبها غداً. وبالطبع لم يجلب الخارطة في اليوم التالي. فطالبه رفعة ثانية بخريطة موسكو، كانت الإجابة سيجلبها غداً. واستمر الحال على هذا المنوال، حتى إنتهاء الرحلة، حيث لم يحصل رفعة على الخريطة.

كانت أول الزيارات المدرجة في البرنامج، زيارة قصر ومتحف الكرملين. فشاهدنا البذخ الذي كان يعيش فيه القياصرة، صحون من الذهب الخالص المرصع بالجواهر والأحجار. وانتقلنا من التبر الأصفر في قصر الكرملين، إلى زيارة «السوبر ماركت» في الساحة الحمراء، كان المخزن يحتوي على بضائع روسية منوعة. كنا نشق طريقنا بصعوبة في الازدحام، وضرب طوق من المرافقين حول وفدنا لفتح الطريق أمامنا، لكن رغم ذلك شعرت بيد خفية تتلمس قبعتي، رفعت يدي إلى رأسي بحركة لا إرادية والتقت بيد تحاول رفعها عن رأسي،

Twitter: @ketab_n

أمسكت القبعة بقوة ولكن اليد الخفية استمرت في محاولة سحبها عن رأسي، واستمر تشابك الأيدي لبضعة ثوان، محاولة بإصرار إنقاذ قبعتي من اليد الخفية التي وصلت إلى سحب خصلات شعري ، وأنقذني أحد المرافقين قبل أن أرفع صوتي، طالبة النجدة. واختفت اليد الخفية فجأة عندما علا صوت المرافق Delegate أي وفد! وانتهت بنجاح تلك المسرحية الصغيرة التي تعرضت لها!

زرنا في اليوم التالي المترو، ووضعنا في عربة خاصة بنا، وبذلك تجنبت محاولة سرقة ثانية! فقد رفعتْ منزلة محطات المترو في عصر ستالين في الاتحاد السوفيتي إلى درجة المتاحف والقصور الأثرية، ونقل ترف القياصرة الروس إلى الشعب الروسي، ليروا ويشعروا بحلاوته عند مرورهم الخاطف بتلك المحطات. محطات مغطاة جدرانها وأرضها بالرخام المزخرف والملون، متدلية من سقوفها ثريات الكريستال، فينبهر السائح متمتما، ما هذا البذخ الذي يتمتع به الإنسان الروسي المحروم من أبسط متطلبات العيش اليومي! وما هذا التناقض، بين الوفرة والعوز؟

توطدت علاقتنا مع مرافقنا فلاديمير، فطلبنا منه زيارة زوجته والتعرف عليها، لكنه كان يحاول في كل مرة التخلص بأعذار مختلفة، مرض طفلته، انشغال زوجته بالعمل، وتوالت الأعذار حتى عجزنا ولم نعد نطالبه بالزيارة! كان فلاديمير حذراً عندما يعتذر عن إمكانية زيارتنا لزوجته، ينظر إلى ملامح مرافقنا الشاب الأنيق الذي يصغره بعقدين، فهو مراقب في كل كلمة يتفوه بها، يزن كلماته بحذر قبل أن تفارق شفتيه. كنا في جهل تام عما يعانيه الفرد السوفيتي في المجتمع الشمولي ولم نشعر بتلك المعاناة إلا عندما أصبحنا نعيش في مجتمع شمولي. وكنا نجهل العقاب الذي ينتظره إذ استضاف أجانب في شقته!

Twitter: @ketab_n

ينحسر وجود الفرد في المجتمع الشمولي ويتلاشى ليصبح كالقشة التي تحركها رياح السلطة المهيمنة على ذلك المجتمع، فتسحق هوية الفرد، ويدمر ويفنى إن تجرأ في حفظ كيانه كفرد متفرد بخصوصيته عن ذلك المجتمع. وهذا ما اطلعنا عليه عندما قرأنا كتب لكتاب مثل باسترناك وصولجنتسن ومايكوفسكي، وبعض كتاب مسرح أللامعقول. عندما سئل الموسيقار الكبير جوستاكوفيج من الصحفيين الغربيين عند زيارته للولايات المتحدة: بأي درجة تضع نفسك بالقياس إلى ستالين؟ أجاب بكل صراحة: بدرجة دودة! هذا هو شعور أكبر موسيقار في القرن العشرين كفرد في المجتمع الشمولي. ولكن من يذكر ستالين الآن! لقد أصبح صفحة في طيات التاريخ، يتوقف أمامها بحاثة التاريخ في الأرشيف الذي طمسه غبار الزمن. لكن انزاح الغبار الذي كان يغطي مؤلفات الموسيقار الكبير جوستاكوفيج والتي طمست معالمها في عهد ستالين، وأصبح العالم يصغي إلى موسيقاه، يصغي إلى معاناته من خلال موسيقاه التي كتبها لنفسه والتي لم تر النور إلا بعد وفاته.

شاهدنا الوجه الحسن، الذي كانت تصر السلطة على إبرازه أمام زائريها، لكي نترك البلد بانطباع رائع عن البذخ الذي تلمسناه أثناء إقامتنا. ولذا زرنا المتاحف والقصور وأقيمت لنا حفلات العشاء والشاي في قصور مختلفة وفي مدن مختلفة، كانت جميعها تبدأ بشرب الأنخاب وتنتهي بشرب الأنخاب، شربنا نخب خروشيف وعبد الكريم قاسم مئات المرات! كان الفطور يبدأ صباحاً بالبراندي وينتهي ليلاً بالفودكا، يعبون الكأس تلو الكأس. كان هنالك نوع من الاندفاع اللاعقلاني في شرب الأنخاب، وتاريخياً هو جزء من تقاليد الشعب الروسي، فقد كان النبلاء في القرن التاسع عشر يقيمون المباريات بين بعضهم البعض في شرب الأنخاب، يستمرون في الشرب

Twitter: @ketab_n

حتى يسقطون على الأرض فاقدي الوعي. ولم يكن ذلك وقفاً على النبلاء بل شمل الفقراء أيضاً، الذين كانوا يشربون حتى الموت، يدفنون بالكحول بؤسهم وشقاءهم وفقرهم.

كانت من جملة الزيارات المهمة للوفد، زيارة الرئيس خروشيف Khrushchev ، كان في استقبالنا نائب الرئيس أنستاس ميكويان Mikoyan، فجلسنا حول الطاولة الكبيرة عندما حضر خروشيف ، دار الحديث عن العراق وثورة ١٤ تموز ورئيس الوزراء عبد الكريم، ثم انتقل الكلام إلى القضايا الثقافية والفنية، فسأل عن البالية. فاجبته اننا حضرنا عدداً من الأوبرا والبالية، فقال: هل شاهدتم بحيرة البجع Swan Lake، قلت نعم. إذ تعتبر بحيرة البجع للموسيقار تشيكوفسكي، نقلة مهمة في تطور البالية في القرن التاسع عشر في روسيا.

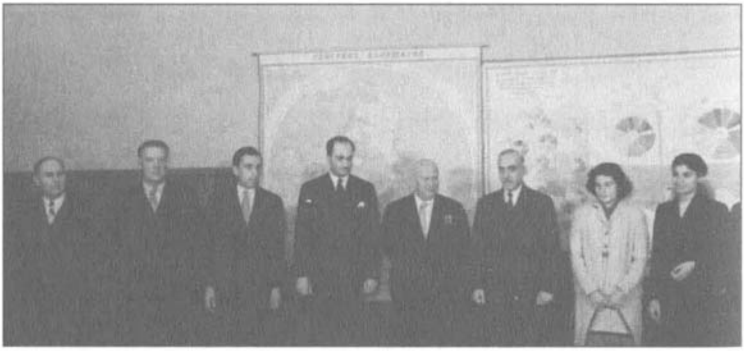

خروشيف مع الوفد العراقي 1958.

كما شملت زيارتنا الأماكن الأثرية والسبوتنك Sputnik، حيث كان الاتحاد السوفيتي اول بلد يطلق القمر الصناعي حول الأرض عام ١٩٥٧ لكن ذلك البذخ لم يمنعنا من مشاهدة الطابور الطويل الذي

Twitter: @ketab_n

يملأ الشوارع أمام المخازن في طلب الخبز والزبد، عندما كانت تقطع سياراتنا بسرعة شوارع موسكو.

قضينا ثلاثة أيام في لينينغراد بين زيارة المتاحف وحضور الأوبرا، وشاهدنا فرق البالية والأوبرا المهمة في لينينغراد. كان التأثير الأوربي الغربي واضحاً في المدينة. كما قضينا معظم سهرات الليل في موسكو في مسرح البولشوي. فحضرنا عدد من البالية والأوبرا. كنا نجلس في الصف الأول في مسرح البولشوي، فنشاهد بدقة أحاسيس وعواطف الراقصين والراقصات، الفرح والحزن، الخيبة واليأس، الفجيعة والموت، وكانت تقنية فرقة البولشوي أعلى تقنية كلاسيكية في العالم آنذاك.

ولكن كان بعض أعضاء مجلس أمانة العاصمة، بالرغم من مناصبهم كمدراء دولة، بعيدين عن القضايا الثقافية، ولم يتعرضوا في حياتهم اليومية لسماع الموسيقى الغربية أو مشاهدة أوبرا أو بالية، وكان الملل بادٍ على وجوههم، فارتفعت «تكتكة» سبحة أحدهم، فالتفت المعمار عبدالله احسان كامل ماسكاً بيده السبحة. منبهاً أياه بالتزام الصمت والكف عن التسبيح بالسبحة. ولم يكن باستطاعتهم التخلي عن حضور تلك الحفلات فهي جزء من البرنامج المقرر لنا، ولا يمكن لهم الغياب عنها.

كان البعض منهم يلجأ للنوم تخلصاً من الممل الذي يصيبه، فنسمع شخيره يتعالى أحياناً، فيوقظ عبد الله النائم. كان عبد الله يغتاظ عندما ينتهي العرض ويبدأ التصفيق، ولا يحرك بعض أعضاء الوفد أيديهم، فيلتفت إليهم قائلا: « ما تصفكون إلمن دي يركصون؟ مو الكم؟» يصفقون عندئذ ببطء.

غادرنا موسكو بالطائرة إلى جورجيا، وقضينا وقتاً في عاصمتها

Twitter: @ketab_n

تفليسي/تبليسي، كان الغرض من الزيارة هو زيارة قبر ستالين، إذ لم يكن جائزاً لوفد مهم أن يترك البلد من غير زيارة هذا القبر المقدس!

ثم ذهبنا لزيارة نموذج من الكلوخوز واستضافنا رئيسه على العشاء، في داره المكونة من عدة غرف، جلسنا في غرفة واسعة، تتوسطها مائدة معدة للعشاء اشتملت على أصناف مختلفة من الأطعمة الجورجية. بدأ العشاء كالمعتاد بشرب الأنخاب التقليدية، واختلطت أصوات الأنخاب بالغناء والعزف على البيانو. واستمرت الجلسة إلى ما بعد منتصف الليل.

في الطريق أصيبت السيارة التي كانت تقل أمين العاصمة بعطب ميكانيكي، فانتظرنا في البداية لتصليح العطب، كان البرد قارصاً، ولا يمكن الانتظار داخل السيارة، وحلاً للمشكلة شاركنا الأمين بالسيارة، إذ كانت سيارتنا حسب البروتوكول خلف سيارة أمين العاصمة. وبعد إصلاح العطب في السيارة المخصصة لأمين العاصمة، تقدمت سيارته في الصف الأول. فأمتعض في أن يكون في الصف الثاني وليس في سيارته المتقدمة في الصف الأول، وظل يعيد علينا نفس الجملة: إن سيارته في الصف الأمامي. وكأنه شعر بانتقاص لشخصه!

لم يمر على أمين عاصمة بغداد إلا أسابيع، حيث تمتع بهذه الامتيازات، حتى بدأ يتغير سلوكه تدريجياً، وأخذ يتصرف وكأنه قائد الثورة ورئيس الجمهورية نظراً للاهتمام الذي حظى به. كان التصفيق يتعالى عندما يمر صف سيارات الوفد العراقي السوداء اللون، يتقدمها شرطي على دراجة في شوارع موسكو ولينينغراد وتبليسي، وأمين العاصمة رافعاً يده محيياً الجماهير، وكأنه رئيس دولة وليس أمين عاصمة. كان التصفيق يرتفع أيضاً عندما ندخل مسرحاً أو أوبرا ترحيباً بالوفد العراقي.

Twitter: @ketab_n

وأخذت خطب الأمين تطول في افتتاح كل مناسبة حتى شملت حفلات الشاي الذي كثيراً ما كنا نشربه باردا. وبدأ يقلد عبد الكريم قاسم رئيس وزراء العراق آنذاك، في أسلوب الخطاب. وأصبحنا نأكل الطعام أحياناً بارداً من طيلة الانتظار. فقد شعر بدخيلة نفسه أنه بطل ثورة ١٤ تموز! وانقلب في مخيلته إلى بطل حقيقي. أصبح التصفيق أحب موسيقى إليه، وسلك سلوك البطل تجاه أعضاء الوفد، وابتكر في مخيلته قصصاً بعيدة عن الواقع ولكنه أصبح يعتقد بها، فهو الساعد الأيمن لزعيم ثورة ١٤ تموز. وأخذ يتكلم عن بطولاته التي انجزها في ثورة ١٤ تموز، إنه الوهم الذي أصبح حقيقة.

واصبح المترجم فلاديمير يلاقي صعوبة في الترجمة الفورية، وبتشجيع من بعض الأعضاء، وتسريعاً في الترجمة، التي لا تؤثر على المعنى، بدأ فلاديمير بانتهاج سياسة جديدة، وهو الاختصار وحذف ما هو غير صالح للترجمة! واصبحت مسرحية نعيشها يومياً. كان فلاديمير لا يبدأ الترجمة قبل أن ينظر إلى رفعة أو عبدالله، ويقول هل هذا صالح للترجمة؟ شعر أمين العاصمة، أن هنالك مؤامرة تحاك ضده، إذ كان يتكلم بضع دقائق ويختصرها فلاديمير بجملة واحدة. فسأله: لماذا لا تترجم ما أقوله لك حرفياً، أجابه فلاديمير بجرأة: هذا ليس صالحاً للترجمة يا سعادة الرئيس. وبدأت هذه الجملة تكرر وتتخلل ترجمات فلاديمير كجملة اعتراضيه.

هذا ما حدث لنا خلال أقل من شهر من إقامتنا في الاتحاد السوفيتي، وأمين العاصمة ليس أكثر من ضابط بالجيش ومن أصدقاء عبد الكريم قاسم عندما حدثت الثورة، وعُين بسبب تلك العلاقة أميناً لعاصمة بغداد. كان إنساناً طيباً بسيطاً منفذاً لما يطلبه منه رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم.

Twitter: @ketab_n

فكيف برئيس دولة مثل عبد الكريم قاسم المقيم في وزارة الدفاع، يسمع التصفيق والهتافات بحياته ليل نهار، يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر، من قبل الجماهير المتحمسة المنادية باسمه: الأوحد، مؤكدة له أنه الأوحد على هذه البسيطة. ولو سنحت الفرصة لأمين العاصمة كالفرصة التي سنحت لعبد الكريم قاسم لأصبح الدكتاتور الأوحد من خلال التجربة التي مرت علينا في زيارتنا الرسمية إلى الاتحاد السوفيتي. فالمجتمع هو الذي يهيء الظرف لظهور الدكتاتور.

وعندما حان موعد الرحيل بعد أن قضينا شهراً مع المترجمين والمرافقين لنا، شعرنا أننا أصبحنا عائلة واحدة، فانسابت الدموع الساخنة من أعينهم، فكان الوداع مؤلماً وعاطفياً، وتركنا المرافقين، بعد أن طلب منهم جميع أعضاء الوفد، الاتصال بهم إن سنحت الفرصة لبعضهم في زيارة العراق!

كنا نعلم أن من الممكن الالتقاء ببعض هؤلاء المرافقين ببغداد، لأهمية مناصبهم، وهذا ما حدث عندما التقى رفعة بفلاديمير رئيس قسم اللغة العربية في جامعة موسكو، في شارع أبو نواس، في مدخل وزارة الأشغال، بعد أقل من عام على زيارتنا. فطلب منه أن يزورنا وأعطاه رقم تلفون الدار وفلاديمير يتلفت يميناً ويساراً خوفاً من محاسبته، وانتظرنا أن يتصل بنا و لم يتصل!

×××

نصب الجندي المجهول والرابع عشر تموز والحرية

طلب رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم من رفعة تصميم ثلاثة أنصبة، الجندي المجهول، نصب ١٤ تموز ونصب الحرية.

زرنا جواد – رفعة وأنا– في داره في المساء بعد ثورة ١٤ تموز

Twitter: @ketab_n

بأشهر، وحدثه رفعة عن مشروع نصب ١٤ تموز، وقدم له رفعة قاعدة لبناء ضخم تشبه اللافتات التي كانت ترفع في التظاهرات آنذاك، على أن يملأها بالجداريات أو النحت النافر/ relief. أما بالنسبة للجندي المجهول فقد صممه رفعة بأقل من ساعتين.

ثم سافر رفعة إلى لشبونة عاصمة البرتغال، للتفاوض مع مؤسسة كولبكيان على التبرع كلفة الملعب الذي سيقام في بغداد، عندما كان محمد حديد وزير المالية، ووزير التخطيط/الاعمار بالوكالة. وطلب رفعة أن يرافقه أكرم فهمي، المسؤول عن الرياضة والألعاب في العراق آنذاك. وبعد الانتهاء من المباحثات، اقترح رفعة على روبرت كولبكيان التبرع ببناء بناية متحف للفن العراقي الحديث، الذي سمي باسم كولبكيان في البداية، ثم أصبح متحف الفن الحديث.

روبرت كولبكيان ورفعة مع بعض موظفي المؤسسة 1959.

Twitter: @ketab_n

عاد رفعة إلى بغداد، وحاول أن يُنفذَ الجندي المجهول خلال سبعة أشهر، ليتم افتتاحه بمناسبة مرور عام على الثورة، ولهذا كان العمل مستمراً ليلاً ونهاراً. كنت أرافقه في زيارته للنصب أحياناً في منتصف الليل، ونجد المهندس المقيم بشير كججي في مقره يوجه العمل، فنقضي بعض الوقت معه ونعود إلى دارنا.

أصبح الانقسام في مواجهة الأمور ظاهرة طبيعية بين الناس، وكان ذلك انعكاس للانقسام الحاد بين مؤيدي «بطليّ» الثورة، عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف! ولذا فإن الشخص المستقل الذي لم يكن منتمياً إلى جهة معينة، لا يمكنه أن يفلت في تلك المدة الحرجة من تاريخ العراق، ويبقى بعيداً عن التيار الايديولوجي الذي عم جميع مؤسسات الدولة، فكان عليه دفع ثمن غال! و لم ينج رفعة من نشر بعض الشائعات المغرضة بحقه، متهمة إياه بالتلاعب في المبالغ التي كانت تصرف على نصبي الجندي المجهول والرابع عشر من تموز، هذا بالرغم من ان المبالغ التي كانت تصرف على النصبين من قبل دائرة كاملة مسؤولة عن الحسابات. لكن الشائعات تتضخم وتنتشر، تتلقفها الأفواه في المقاهي والمطاعم والأسواق، ثم تتلاشى إن لم يكن هنالك واقع يسند التهمة وتموت بسرعة.(٧١)

أصيب رفعة بالتعب لدرجة الإعياء من كثرة الأعمال التي أنيطت به، فصممنا أن نقضي شهراً في اليونان للراحة والاستجمام فقط، والابتعاد عن الأجواء السياسية!

×××

٧١- أحيل رفعة في إنقلاب ١٩٦٣ للتحقيق المالي، فيما يتعلق بنصبي الجندي المجهول ونصب ١٤ تموز، فوجد المحقق أن هنالك نقصاً في عربة صغيرة يدوية بمبلغ زهيد.

Twitter: @ketab_n

وفاة رؤوف الجادرجي

توفي في نهاية ذلك العام رؤوف الجادرجي[٧٢]، الاخ الاكبر لكامل كانت وفاته يوم عيد رأس السنة، فاضطر رفعة إلى السفر إلى بيروت وقضى يومين في إنهاء معاملات نقل الجنازة إلى بغداد.

رافقتُ العائلة إلى المطار، لاستقبال نعش الفقيد، كما حضر العديد من رجال الدولة، فرافقنا الجنازة إلى داره. تمت مراسيم الدفن في مقبرة الحضرة الكيلانية، بعد أن شيع بموكب شبه رسمي، حضره بعض رجال الحكومة من الوزراء والمدراء العامين، فقد تقلد رؤوف الجادرجي مناصب مهمة في الدولة العراقية، منها وزيراً وسفيراً كما كان محامياً لشركة النفط البريطانية.

شاركتُ لأول مرة في حياتي في التقاليد والطقوس المتعلقة بالموتى التي كانت جديدة عليّ. وأقيم المأتم في الصباح والمساء. أعاقتني الوظيفة عن ذلك، فكان باستطاعتي حضور المأتم في المساء فقط. كان الحداد يختلف عن الحداد المعتاد في بغداد. فلم نجلس على الأرض المفروشة بالسجاد والمساند المعتاد عليها في مثل تلك المناسبات، وإنما جلسنا على الكراسي والكنبات. كانت زوجته ماجدة الحيدري متأثرة بالطقوس التركية، و لم يكن هنالك غير قارئ قرآن. كان اللون الأسود هو الغالب على ملابس المعزيات. كنا نجلس صامتات معظم الوقت في غرفة الاستقبال الواسعة، لا ننبس بكلمة قبل أن يتوقف قارئ القرآن عن التلاوة. كان الصمت مهيمناً على مأتم رؤوف، وليس هنالك عويل أو بكاء، وعندما يتوقف قارئ القرآن، تحضر الفتيات

٧٢- رؤوف الجادرجي: ١٨٨٣-١٩٦٠، الجادرجي لكامل الأكبر الأخ، درس المحاماة في اسطنبول، اصبح عميد كلية الحقوق ، ثم محاميا لشركة النفط وعين وزيرا للعدل، ترك العراق بعد انقلاب بكر صدقي ١٩٣٦، عين اثناء الحرب العالمية الثانية سفيرا للعراق في لندن.

Twitter: @ketab_n

عندئذ حاملات صواني القهوة والماء ينتقلن بين النساء، ويدور الهمس والحديث الخافت بينهن.

×××

كان أبو رفعة متحرراً في آرائه بصورة عامة، لكنه يطبق بدقة الطقوس والشعائر المتعلقة بالمجتمع. لذا طلب حتى من إبنه الصغير يقظان أن يرتدي الرباط الأسود لمدة سبعة أيام! بالرغم من أن يقظان لم يبلغ الخامسة عشر من العمر. كما ارتديتُ الحداد لأول مرة في حياتي، لمدة أربعين يوماً مراعاة لشعور أبو رفعة. لكن كانت أمينة، شقيقة رفعة، تحرضني دائماً على عدم ارتداء اللون الأسود بعد الأسبوع الأول من وفاة عمها.

كان رؤوف الجادرجي شخصية مثقفة، يتقن اربعة لغات، العربية والتركية والإنكليزية والألمانية. يملك مكتبة ضخمة بعدة لغات. وكانت داره بجانب دار البعثة البريطانية للآثار، لذا كان يزوره عدد من منقبي الآثار البريطانيين. ظل أعزب معظم حياته، و لم يتزوج إلا بعد أن بلغ السبعين من العمر. كانت هنالك علاقة صداقة قديمة بينه وبين دواد الحيدري، وكانت ابنة داود الحيدري، ماجدة تزوره وتشرف على تنظيم حفلات العشاء التي تقام في داره، قال لها ذات يوم أنه يرغب في تغيير ستائر الدار. وأود أن تنتخبي لون ونوعية الستائر على ذوقك. لأنك ستعشين في هذه الدار. وهكذا أعلن خطبته لها.

كانت داره جميلة جداً، استعمل في داره، بعض نوافذ بيت والده الخشبية، المطعمة بالزجاج الملون والمخرم، ذات صناعة دقيقة، كالدانتيل، وكان استعماله منسجماً مع الدار، مما يدل أن له معرفة جيدة بالربط بين ملامح العمارة الحديثة والتراث.

كنت أزوره أحيانا بصحبة رفعة، كان أصلع الرأس، غاصت عيناه

Twitter: @ketab_n

الصغيرتان بلا رموش، في وجهه المترهل، وبان أنفه أكبر من حجمه، وبدا كرشه أكبر مما يجب لقصر قامته. كان يجلس على كنبة، تتوسط ركبتيه عصا، ممسكاً بها بيديه، يتكئ عليها عندما ينتقل من غرفة إلى أخرى، أو عندما يركب السيارة لزيارة الأصدقاء. أما داره فكانت مفتوحة في استقبال أصدقائه دائما.(٧٣)

×××

جبرا إبراهيم جبرا وزوجته لميعة

استقبلنا عام ١٩٦٠ الجديد بالحداد و لم نحتفل بعيد رأس السنة، ولكن عادت الحياة إلى مجراها الطبيعي بعد مرور أربعين يوماً على وفاة رؤوف الجادرجي، وعدنا إلى زياراتنا في النوادي وإقامة العشاء في دارنا. كان جبرا إبراهيم جبرا من بين المدعوين المواظبين على زيارتنا، ولكن نادراً ما كانت ترافقه زوجته لميعة. إذ كانت تفضّل الاختلاط بمجموعة من النساء، وتؤكد لنا عدم وجود رابطة فكرية بينها وبين تلك النسوة اللواتي تجلس بصحبتهن ساعات طويلة، وإنها لا تتحدث معهن، وإن الرابطة الوحيدة بينهن هو لعب الورق حول الطاولة. كنا نلتقي بها في دارهم في حي المنصور صباح يوم الجمعة أحياناً. لميعة تختلف عن جبرا تماماً، سواء في نظرتها أو موقفها من الناس في المجتمع، بعيدة عن مجاملة ودماثة جبرا، إذ كانت تعرب عن مواقفها بصراحة، في حالة ارتياحها أو على العكس.

---

٧٣ – حدثني رفعة عن حادث مع عمه: كان رؤوف جالسا في شرفة الدار في الصيف، عاريا من الملابس ملتفا بيشطمال(قطعة القماش ذات الخطوط طويلة وتستعمل الناس في الحمامات العامة). نوه رفعة اثناء الحديث معه من انه لايليق في ان يكون بهذا الوضع في اوقات العصر، واشر الى احدى رفوف المكتبة التي تحتوي على كتب الموضة، طلب منه أن يرافقه الى المكتبة، يغادر رفعة دار عمه، منوها له أنه يفهم الموضة وتأريخها أيضا.

Twitter: @ketab_n

كما كنا نلتقي بجبرا أيضاً في المعارض الفنية للرسامين العراقيين، فلم تتأثر الحركة الفنية بالوضع السياسي، إذ كان معظم العسكريين والسياسيين بعيدين عن فهم الفنون التشكيلية بل هم أقرب إلى الجهل بهذا الفن! كان لجبرا دور مهماً في تقييم الفنانين والرسامين والكتابة عنهم، في المجلة التي كانت تصدرها شركة النفط I.P.C[٧٤] والتي كان يشرف عليها. كتب العديد من المقالات عن المعارض الفنية وعن أهمية الفن العراقي والفنانين الذين يمثلون الحركة الطليعية في العالم العربي. في الوقت الذي كانت الصحافة لا تمنح الفن أهمية، ولا تكتب عنه إلا ما ندر، ربما كانت جريدة الأهالي تكتب عن الفن والفنانين، لأن أحد الصحفيين في الجريدة، كان يزور المعارض ويكتب عنها.

رفعة وجبرا، المصور، تصوير علي كمال.

---

٧٤ –أصدرت شركة النفط مجلة شهرية بعنوان «أهل النفط» وتغير اسمها إلى «العاملون بالنفط».

Twitter: @ketab_n

ومن الفنانين الأجانب الذين زاروا بغداد في تلك المدة الرسام الاسترالي الشهير Sidney Nolan، وقد اقام جبرا على شرفه حفلة عشاء في نادي المنصور، دعا اليها عدد من الفنانين والمعماريين وما لفت انتباهي انذاك التواضع الذي اتسم به ذلك الرسام الكبير.

×××

جواد سليم في فلورنس

كُلف رفعة آنذاك من قبل عبد الكريم قاسم بتصميم ثلاثة أنصبة في بغداد – كما ذكرت سابقاً. عرض رفعة قاعدة نصب ١٤ تموز التي طولها ٥٢ مترا وعرضها ٦ أمتار، في ان يملأها جواد بالتماثيل. تحمس جواد للفكرة، قائلا له: لم يقام نصب في العراق بهذا الحجم منذ العصر الآشوري. وبدأ جواد برسم التخطيطات الأولية. ثم سافر بصحبة عائلته إلى إيطاليا لإنجاز النصب، وقضى ما يقارب السنتين حتى أكمل المشروع.

وعندما أوشك جواد على صب تصميم الجدارية بالبرونز، تناهي إلى سمعه أن رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم، يرغب في أن تتجلى إنجازاته الثورية في هذا النصب. يعنى بذلك أن صورته كقائد للثورة تصبح بارزة في النصب.

وربما راجع النحات خالد الرحال مقر عبد الكريم قاسم وأخبرهم أن جواد لم يصمم صورة «الزعيم» في النصب ، وبأنه مستعد أن يصلح هذا النقص، وأوصل هذه المعلومات إلى السفارة العراقية في روما، التي لا تقل سلبية اتجاهه.

فسافر رفعة إلى فلورنس للتأكيد لجواد في الاستمرار بعمله. عانى

Twitter: @ketab_n

جواد في تلك المدة من حالة نفسية عصيبة، أدت به إلى دخول المستشفى للأمراض العصبية. كنت بصحبة رفعة وزوجته لورنا والنحات محمد غني، عندما زرنا جواد في المستشفى في فلورنسا، شعر بعدم الارتياح في البداية عندما شاهدنا، كان مرتدياً بيجامة بيضاء مقلمة بخطوط، وسترة بلا أزرار، ولذا كان يلف جانبيها بيده، والقلق باد على تقاسيم وجهه، لكنه ارتاح عندما طلب منه رفعة أن يرتدي ملابسه ويخرج معنا من المستشفى.

أكد رفعة لجواد أن طلب صورة الزعيم في النصب هي محض شائعات لا أساس لها، وبذاك زال القلق الذي كان يعاني منه في تلك المدة. كانت تلك مبادرة أتخذها رفعة على عاتقه كرئيس للجنة نصب ١٤ تموز، وتحّمل بذلك المسؤولية التي تترتب عليها. فعبد الكريم قاسم كان يرغب في تسجيل ما أنجز في عهده من الإطاحة بالعهد الملكي في نصب ضخم. فمنذ بداية التاريخ سجل الحاكم سيرة حياته على الحجر، وواصل تلك المحاولة خلال العصور التي مرت عليه في تسجيل حياته لحفظها من الضياع، و لم يسجل «الزعيم» إنجازاته في بناء مباني فخمة أو قصور لنفسه، بل رفض الانتقال والعيش في القصر الملكي الذي أنجز في عهده، وظل مقيماً في وزارة الدفاع، ولكنه أصر على رفعة قبل أن يذهب إلى إيطاليا في أن يكون نصب ١٤ تموز، نصب يمثل ثورة ١٤ تموز في العصر الحاضر![٧٥]

×××

٧٥- دوّن رفعة هذه التفاصيل في كتاب الأخيضر والقصر البلوري، رفعة الجادرجي، دار الريس للنشر، 1993.

كان جواد سليم قد سلم قطعة برونزية مصغرة للنصب إلى السفارة العراقية لإرسالها إلى بغداد، و لم تصل القطعة و لم تسلم.

Twitter: @ketab_n

مصارعة الثيران في أسبانيا

سافرنا إلى أسبانيا في شهر آب عام ١٩٦٠، للراحة والاستجمام. كان الحر شديد يميل إلى الرطوبة، وكان الأسبان كأهالي العراق ينامون في مدة الظهيرة وتخلو شوارع مدنها من الناس، وتدب الحياة ثانية بعد السابعة مساء، ويبدأ النشاط والحركة ثانية، وتفتح الأسواق والمطاعم. وتمتزج ضوضاء السيارات والدراجات النارية بأحاديث وضحكات الناس على أرصفة الشوارع المكتظة بهم.

كان أهم ما علينا مشاهدته مصارعة الثيران بعد أن شاهدنا المتاحف والأماكن الأثرية في العاصمة مدريد. كنت اقرأ روايات الكاتب الأمريكي همنغواي، وكان من المعجبين بمصارعة الثيران وكتب عنها بإسهاب، إنها تمثل القمة في حياة مصارع الثيران، وتمثل لحظات الأنتصار والموت. وكان من الذين يزورون أسبانيا لهذا الغرض.

حجز لنا من قبل الفندق مقعدين في الصف الرابع من حلبة المصارعة، وكانت من المقاعد الجيدة، كنا مشرفين على حلبة المصارعة، نشاهد عن قرب تفاصيل المجزرة!

كان الناس من حولنا مبتهجين وكأنهم في احتفال. صدحت الموسيقى فجأة وأعلن عن بدء المصارعة، فدخل فارسان على حصانين ضخمين، بيد كل منهما رمح ذو رأس مدبب حاد، وقفا في وسط الحلبة حتى انتهاء الموسيقى. ثم دخل ثور أسود اللون هائج حلبة المصارعة، ووقف الناس تهليلا، فشعر الثور بالعداء المحاط به من كل ناحية.

وبدأت ملحمة التعذيب، تعذيب هذا الثور البريء أمام ناظرنا. بدأ الفارسان يطاردانه برمحيهما، والثور يركض أمامهما يحاول تجنب رمحيهما، الزبد الأبيض يسيل من فمه المفتوح، نسمع لهاثه من درجة

Twitter: @ketab_n

التعب الذي وصل إليها، عندئذ استطاع أحد الفارسين أن يصيبه برمحه في العامود الفقري، ثم حاصره الفارس الثاني وكسر عاموده الفقري. وتفجر ينبوع من الدم قرب رقبته، التصق الثور بجدار الحلبة، نسمع أنينه من الألم الذي أصابه.

وإذا بمصارع ثيران مشهور يدخل إلى الحلبة، علا التصفيق من جمهور المشاهدين، وقف وقفة زهو المتفوق على هذا الحيوان المسكين، وبدأ يلوح بوجهه بقطعة القماش الحمراء التي بيده، يرفعها تارة ويخفضها تارة أخرى، وكأنه يرقص مع راقصة بالية، هجم الثور نحوه بكل قوته، محاولاً رفسها بأقدامه، وبدأت السهام تنهال عليه، والناس يصرخون بأعلى صوتهم أولى، أولى(ole، ole) مشجعين مصارع الثيران على شجاعته الفذة وبراعته في الإصابة. وكلما أصيب الحيوان برمح، ارتفعت أصوات التشجيع، وعلا التصفيق. خفت حركة الثور تدريجياً، وتباطأت خطواته، مثقل بآلام جراحه، وانتهز المصارع هذه اللحظة فأصابه إصابة قاتلة. ارتجت الحلبة بالهتاف بحياة المتادور، واشتد التصفيق، ومنهم من وقفوا على كراسيهم من شدة الحماس الذي سيطر عليهم. المتادور يحي الناس منتصراً، يترك حلبة المصارعة بين التصفيق وهتافات الاستحسان من الجمهور. يسحل الحيوان المسكين بعربة من قبل أربعة أشخاص إلى خارج الحلبة المضرجة بدمه، الجو معفر بذرات الرمل الأصفر الممزوج برائحة الدم الساخن، كنست الحلبة ثانية، لتبدأ تراجيديا تعذيب لحيوان جديد لمدة عشرين دقيقة أخرى. ويبدأ الفصل الثاني كالفصل الأول بكسر رقبة الثور، دماؤه تسيل كنافورة، ويدخل مصارع جديد يلوح بقطعة القماش الحمراء.

شعرت بالغثيان، وصداع عنيف، أغمضت عيني، كي لا أرى تعذيب حيوان ثانية، اسمع صراخ الفرح والتصفيق والتشجيع

Twitter: @ketab_n

للمتادور من حولي، ألتفتُ إلى رفعة وطلبت منه أن نترك حلبة المصارعة، كان رفعة متعباً ومتقززاً مثلي من التعذيب الوحشي الذي شاهدناه! وارتبط الدم دائماً في مخيلتي بالتعذيب اللا إنساني إن كان كيان لحيوان أو لإنسان، إذ كنت لا اسطيع مشاهدة الدم، وأحاول أن أتجنب قدر الإمكان لمس اللحم.(٧٦)

×××

وفاة الفنان جواد سليم

عاد جواد إلى بغداد في نهاية العام، وبدأت ورشة العمل في باب الشرقي، وأحيطت بنوع من السرية، لكي لا يصل خبر إلى رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم، أن الجدارية تخلو من صورته. وما أكثر المتبرعين في هذا المجال، من أمثال خالد الرحال إلى السفارة العراقية في روما.(٧٧)

واعتبرها رفعة موقع العمل كـ «منطقة عسكرية» لا يسمح لأحد دخول الساحة من غير موافقة من الجهات المعنية. كان يغطى كل تمثال يوضع في المكان المخصص له حالاً بقماش الخيش. ولعب عبد الأمير النجار دوراً مهماً في ذلك الترتيب، فقد كانوا يعملون لساعة متأخرة من النهار، في سباق مع الزمن، كنت أرافق رفعة أحياناً إلى موقع

٧٦- لقد تغيرت النظرة الآن لمصارعة الثيران، فهنالك عدد من مصارعي الثيران قد ثاروا على تلك الرياضة وتركوها، ومنهم المصارع الكولمبي الأصل تويروا موريرا، الذي اعتزل المصارعة، وأصبح من المدافعين عن الحيوانات وتعريضها للأذى شعرت بأنني أكبر حثالة على وجه الأرض، نقل عنه: " شاهدت البراءة في عيني هذا الحيوان وسمعت أنينه".

٧٧- أخبرني رفعة ان السفارة العراقية وعدداً كبيراً من الموظفين كانوا ضد نصب ١٤ تموز، باعتباره بدعة. بسبب جهلهم الفني والثقافي، و لم يتصوروا أن هذا النصب سيعتبر بعد قرن أو أقل من أهم النصب في العالم فيما يخص نوعيته الفنية المتميزة.

Twitter: @ketab_n

العمل، ولم يكن يشعر بارتياح من الشائعات التي كانت تدور في بغداد حول النصب، وكان جواد مواظباً في تلك المدة على التواجد في موقع العمل، ولكن الإرهاق والقلق اللذين استبدا به سببت له نوبة قلبية مفاجئة!

ذهبتُ في اليوم التالي مع رفعة إلى المستشفى، كان جواد شاحب اللون، لا قدرة له على الكلام، في داخل خيمة من الأوكسجين، وقفنا إلى جانبه، حتى وهو في تلك الحالة من المرض، كان يفكر بنصب ١٤ تموز، ويقول له رفعة: كل شيء سائر حسب الخطة التي وضعناها معاً، والمهم أن تتحسن صحتك وتخرج من المستشفى. ثم أصيب بنوبة ثانية في المستشفى أدت إلى وفاته بعد عشرة أيام في ٢٠ كانون الثاني عام ١٩٦١.

شارك رفعة في تشيع الجنازة، إلى جانب عدد كبير من الفنانين والأصدقاء، الذين خيم عليهم الألم والحزن، على جواد الذي اختطفه الموت من بينهم وهو في عنفوان حياته وفي أوج إبداعه الفني، إذ كان يبلغ من العمر الثانية والأربعين. كان الشعلة التي أنارت الطريق للفنانين العراقيين، وبرحيله فقد العراق والعالم العربي فناناً من الطراز الأول، وكان لفقدانه تأثير على اتجاه الحركة الفنية في العراق فقد كان لولبها الدائم في الخلق والإبداع والابتكار، ينتهل من التراث ويصهره بمفاهيم حديثة.

عاد رفعة ذلك اليوم إلى الدار حزيناً، لفقدانه صديق فكر عزيز عليه، وكأن عضو قد بتر من جسده، فقد كان يعتقد أن الحركة الفنية ستتعثر بعد فقدان جواد.

×××

Twitter: @ketab_n

زيارة شقيقتي حياة

في اليوم الذي شيع فيه جنازة جواد سليم، زارتني شقيقتي حياة عصر ذلك اليوم، وفوجئت بزيارتها بعد قطيعة دامت أكثر من عامين، إذ صنفتُ بالنسبة لها في خانة البرجوازيين، ولذا كان واجب عليها مقاطعتي

كان فرق العمر بيني وبين حياة كفرق العمر بيني وبين شقيقتي مريم، ولكن عندما عادت حياة وقد تجاوزت الرابعة من العمر بصحبة العائلة بعد قضاء عامين في لبنان، أضفى البعد ستاراً بيني وبينها، لقد نمت حياة نبتة بعيدة عنا لم تستطع أغصانها التشابك بأغصاننا. لم تشاركنا اللعب العبثي، و لم تشاركنا أحلامنا وتصوراتنا التي كنا نتحدث عنها، مريم وأنا، عن المستقبل الذي بدأنا في بنائه من اللبنة الأولى. لكنها كانت على صغر سنها تشارك في ندوات الشعر والأدب الأسبوعية التي كانت تعقد في دارنا.

كانت شقيقتي ولكنني لا أعرف إلا القليل عنها، وعندما اتجهتْ اتجاهاً سياسياً، أصبحت تعيش بيننا، ولا تشاركنا عالمنا. دخلت التنظيم الحزبي وهي صبية لم تتجاوز السادسة عشر من العمر. وأصبحت أكثر بعداً بمرور الأيام والسنين. حريصة بصمتها على كتم الأسرار الحزبية التي أنيطت بها، وابتعدت عنا تدريجياً.

كنت أزور والدي باستمرار، ونادراً ما كانت حياة تتواجد في الدار، إذ كانت الواجبات الحزبية الملقاة على عاتقها قد استنفذت معظم أوقات فراغها وأبعدتها عن أقرب الناس إليها.

Twitter: @ketab_n

جاءت حياة لتودعني، وشعرتُ من خلال حديثها بالندم على سلوكها اتجاهي خلال العامين المنصرمين. فرحتُ بزيارتها رغم القطيعة التي لا موجب لها، وإنما هي قطيعة سياسية.

أخبرتني أنها ستسافر لمدة طويلة، لدراسة الأدب الروسي والحصول على الدكتوراه. وشعرتُ أنها اختارت هذا الطريق لتبتعد عن المعاناة وخيبة الأمل التي أحست بها من خلال عملها كعضو في الحزب الشيوعي لأكثر من عقد. ولكنها لم تتجرأ على الكلام بصراحة أمامي.

لقد أثر على عائلتنا انصياع حياة التام، والتزامها الحزبي. فالالتزام هو إلغاء الإرادة ويصبح الفرد مسير. ولا فرق هنالك في الإلتزام من الناحية الفكرية، إن كانت عقيدة دينية أو آيديولوجية حزبية، الإنسان يفقد إنسانيته وينكر ذاته ويتحول إلى آلة طيعة لتلك الأيديولوجية.

×××

خلال تلك المدة كان رفعة منغمراً في إيجاد حلول للمشاكل التي كان يجابهها في التصميم إن كان ذلك في البيوت التي كلف بتصميمها أو العمارة. وفي عام ١٩٦١، دعينا الى مؤتمر في القاهرة عن العمارة والمجتمع، وهي المرة الأولى التي أزور فيها مصر واستمعُ إلى معماريين عالميين، يبحثون مشاكل البيئة التي بدأت تواجه المعماريين من حيث النمو والتطور في المجتمعات النامية. وحضر المؤتمر عن العراق كل من رفعة ومحمد مكية وهشام منير. لم يقتصر المؤتمر على المعماريين العالميين من أوربا والولايات المتحدة، وإنما شمل عدداً من المؤرخين وعلماء الإجتماع. كما كان من بين المشتركين في المؤتمر كونيتنيوس

Twitter: @ketab_n

دوكسيادس[٧٨] الذي حاول في العراق إيجاد الحلول الملائمة لإسكان الطبقة دون الوسطى.

رفعة، دوكسيادس وبلقيس في القاهرة 1961.

×××

٧٨- دوكسيادس Constantinos Apostolou Doxiedis : ١٩١٤- ١٩٧٥، معمارومخطط مدن. أسس مؤسسة دوكسيادس عام ١٩٥١ حيث نمت وأصبح لها فروع في خمس قارات، ومشاريع في أربعين قطرا. وقعت الحكومة العراقية في العهد الملكي عقداً معه في الاسكان، حدثت ثورة ١٩٥٨ و لم يكمل المشروع، نُفّذ جزء منه فقط. اشتهر في العالم بعد أن خطط مدينة إسلام آباد عاصمة الباكستان، عام ١٩٥٩ . اشتهر في علم Ekistics، وبحث الاسكان بمفهومه الواسع. أقام من عام ١٩٦٢ - ١٩٧٤ Delos Symosium، على يخته كل عام لمدة اسبوع. وبحث خلاصة مديات وأهداف الهيكل الفكري المناسب، في علم الاستيطان البشري. والتعلم من خلال الآثار والتاريخ، ليس بالنظر فقط إلى المدن الكبرى ولكن إلى نموذج الاستيطان.

Twitter: @ketab_n

في اليوم الأخير من المؤتمر، أقميت حفلة عشاء، كنت جالسة بالصدفة بجانب المؤرخ برنارد لويس Bernard Lewis (٧٩). سألني أثناء العشاء عن البلد الذي اقطنه، أجبت العراق. فقال: اعرف من العراق عبد العزيز الدوري. قلت: كان عميد كلية الآداب عندما كنت تلميذة في الكلية. أجابني: لقد درّسته في كلية الدراسات الشرقية في جامعة لندن عام ١٩٣٨، كان عبد العزيز الدوري متميزا عن الاخرين. كنت أعرف ان برنارد لويس من المؤرخين المهمين في التاريخ الإسلامي، فقد قرأت له آنذاك كتاب العرب في التاريخ Arabs in History، ووجدت تحليله يختلف عما درسناه في المدارس في العراق.

٧٩- برنارد لويس Bernard Lewis، ولد عام ١٩١٦، من أبوين يهوديين من الطبقة الوسطى. تخرج من جامعة الدراسات الشرقية في لندن عام ١٩٣٦، حصل على الدكتوراه من جامعة لندن، وتخصص في تاريخ الإسلام. يعتبر في الغرب من أهم مؤرخي الشرق الأوسط خلال الستين سنة الماضية. عين مساعداً في دراسات الشرق الأوسط عام ١٩٣٨، واستاذ كرسي الدراسات للشرق الأوسط عام ١٩٤٩. سافر للولايات المتحدة وأصبح أمريكياً. كما أصبح استاذاً في جامعة برنستون. ألف العديد من الكتب والدراسات. أسس جمعية دراسات الشرق الأوسط لشمال امريكا، واعتبر جمعية درأسات الشرق الأوسط وأفريقيا مناوئة لإسرائيل والولايات المتحدة.

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس

انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣

بدأ الانقلاب من قبل بضعة أشخاص، وبضع دبابات، رفعت صور عبد الكريم قاسم للتمويه والخدعة، مما مكنهم من احتلال الأستوديو. الإحتياطي للتسجيل ولاستخدامه كإذاعة في الظروف الاستثنائية في حالة حصول خلل في الإستديو الرئيس للإذاعة، وأذاعوا البيان الانقلابي الأول.

كان صباح ٨ شباط صباحاً مشمساً، جميلاً بصفاء سمائه، وكأنه يومٍ من أيام الربيع، بدفء حرارة أشعة شمسه عندما كنا نتناول الفطور، عكر هذا الصفاء أطلاق النار المتقطع، ينقطع لفترات ثم يعود الإطلاق بشدة متواصلة لينقطع ثانية. علت علامات التساؤل والاستفهام على وجهينا، تركنا الفطور حالاً واتجهنا- رفعة وأنا- نحو دار أبو رفعة، الذي أخبرنا أن انقلاباً حدث ضد عبد الكريم قاسم، وإن الوضع ما زال غامضاً. أدركنا أن الوضع شائك والبلد مقبل على انتقامٍ لا أحد يتنبأ بنتائجه. طلب منا أبو رفعة أن نترك الدار، واتجهنا جميعاً إلى دار ابنة أخت أم رفعة، اسماء الكيلاني. قضينا النهار عندها نتابع الأخبار والبيانات الإنقلابية التي كان يبثها الراديو والتلفزيون. القلق والوجوم باد على الجميع. عدنا جميعاً في المساء وأتجه كل منا إلى داره. ألقى المساء ستائره المخيفة على المدينة، بعد إعلان منع التجول. وهيمن صمت مطبق في الشوارع والبيوت، لا يقطعه إلا لعلعة الرصاص الذي

Twitter: @ketab_n

نسمعه من بعيد! شعرنا بالجو الموشى بغيوم الرعب، عندما ألقي القبض على نصير شقيق رفعة بعد عودته لداره. أودع نصير في النادي الأولمبي الذي تحّول إلى معتقل كبير لليساريين والشيوعيين.

ترك عبد الكريم قاسم داره واتجه إلى وزارة الدفاع بدلاً من الذهاب إلى المعسكر، كان ذلك أكبر خطأ ارتكبه في حياته، فقد حصر نفسه في الوزارة، محاطاً بفوج من الدبابات، لم يستخدمها في الدفاع عنه. وخسر بذلك المعركة!

وانتبه أبو رفعة منذ الساعات الأولى للخطأ الذي ارتكبه عبد الكريم قاسم في حصر نفسه في وزارة الدفاع بدلاً من الذهاب إلى المعسكر. وانتهت بذلك مرحلة من تاريخ العراق، فسقط النظام الجمهوري وتهاوى حطاماً بعد بضعة ساعات من تحرك الإنقلابيين، وبدأت مرحلة جديدة.

أعلن في اليوم التالي عن تشكيل مجلس عرفي عسكري لمحاكمة عبد الكريم قاسم وجماعته، بعد أن سلموا أنفسهم. ولم تكن محاكمة وإنما مهزلة انتهت بإعدام عبد الكريم قاسم، وفاضل عباس المهدواي وطه الشيخ أحمد، رمياً بالرصاص. شاهدنا عرض جثثهم على شاشة التلفزيون، ولكي يثبتوا لعامة الناس وفاة الزعيم، رفع أحد الجنود رأسه وأخذ يركل الجثة بجزمته «البسطال» ثم دفع الجثة على الأرض. لكن الناس البسطاء من محبي عبد الكريم قاسم ورغم العنف والقسوة المقززة للنفس، لم يصدقوا أنه غادر الحياة، واستمرت شريحة من المجتمع تؤمن أنه لم يقتل بل اختفى كما اختفى من قبله المهدي المنتظر، وإنه سيظهر في يوم من الأيام!

لقد اسقط نظام قاسم بإذاعة بيان وبضعة دبابات، ومنذ ذلك

Twitter: @ketab_n

الحين أصبح الهدف الأول لأي انقلابي طامع بالسلطة، الاستيلاء على الإذاعة كأداة فعّالة.

×××

الحرس القومي

تعرض نصير شقيق رفعة إلى عذاب نفسي وجسدي خلال مدة الاعتقال، وكان من بين المحظوظين الذين نجوا من القتل والإبادة التي شملت شريحة واسعة من مثقفي البلد اليساريين. اضطرت زوجة نصير، أميرة إلى الاختفاء في مدينة النجف لأكثر من ستة أسابيع، وتركت طفلها سليمان برعاية جدته، لأن بقاءه مع والدته كما اعتقد أبو رفعة قد تعرضه إلى الخطر، رغم إبقاء الطفل بعيداً عن والدته في تلك المحنة يشوبها نوع من القسوة.

أخذ الحرس القومي ببنادقهم يجوبون شوارع العاصمة، يفتشون عن الخونة «أعداء الشعب». ما أكثر أعداء الشعب في العراق وما أقل أصدقاءه! الأغنية تتكرر « نحن لسنا ضد الشعب وإنما ضد المتآمرين العصاة من المجرمين أعداء الشعب!»! بينما الواقع، هو أن الشعب الذي عانى من الوضع الأحادي في الحكم، وفقدان التعددية، وهيمنة الحاكم أو الحزب الذي لا يقبل إلا فكره وأيديولوجيته.

انقسمت العائلات على بعضها وتفككت الروابط بين الناس بسبب اشتداد الصراع السياسي، وفقدان التسويات السياسية. وصار الإنقلاب سيد الموقف. فاطلقت يد كل من أدعى أنه حرس قومي، لملاحقة المواطنين وإلقاء القبض علي من يشاء وممارسة الخوف في تصفية حسابات سابقة.

كان حارث ناجي شوكت أبن خالة رفعة من الأعضاء النشطين

Twitter: @ketab_n

والمتحمسين في حزب البعث، ولكنني كنت أجهل مهماته الحزبية. ساعد العائلة في جلب نصير ذات يوم من المعتقل إلى دار والده كامل الجادرجي. قال كامل الجادرجي لرفعة: قل لنصير آلا يعترف، لأنه إذ اعترف فلن يستطع أن يرى زوجته. قلة هم أولئك الآباء الذين يطلبون مثل هذا الطلب من أبنائهم، ويعرف أن ابنه ربما يموت تحت التعذيب! فقد اعدم ثمانية أعضاء من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، ونجا التاسع بهربه بأعجوبة من النادي الأولمبي.

ولم تنج حتى الفتيات والنساء من التعذيب. فانتزعت الاعترافات بشتى الأساليب الوحشية منهن. والقي القبض على إحدى الناشطات في الحزب الشيوعي وزوجها، الذي قتل بالتعذيب، ووضعت بجانبه لثلاثة أيام متتالية على سطح أحد المعتقلات. اصبحا جثتين، جسد محمد أبو العيس، هامدة وأخرى إلى جانبه فاقدة الوعي من التعذيب يجمعهم مصير واحد، الخلاص من بربرية الإنسان المفترس الذي تجرد عما يميزه عن الحيوان. لم تكن تسمع المناضلة في الليل القارص إلا أنين الموت ورائحته، لكنها صَمدتْ بالرغم من التعذيب الوحشي الذي تعرضت إليه، ولم تمت بل تمسكت بالصمت وأبت البوح بأسماء من سيكون مصيرهم مثل مصير زوجها.

×××

في قلب اللعبة السياسية ثانية

كنا - رفعة وأنا - في قلب اللعبة السياسية الأولى، عندما تعّرض رفعة لمحاولة اعتقال من قبل المقاومة الشعبية، لولا إحباطها من قبل محمد حديد، وزير المالية آنذاك في عهد عبد الكريم قاسم. ووجدنا أنفسنا في وسط اللعبة الجديدة أيضا. ففي اليوم الذي تقلد به عبدالسلام عارف زمام الحكم في ٨ شباط ١٩٦٣ كرئيس للجمهورية، أصدر

Twitter: @ketab_n

مرسوماً بتجميد أموال رفعة، ومنعه من السفر خارج العراق، فكتب رفعة ورقة معنونة إلى الوزير المعني بدائرته: «اعتباري مستقيلاً» وترك الدائرة حالاً. سحبت الحكومة الجديدة بعض المشاريع المعمارية التي كانت قد احيلت على المكتب الاستشاري العراقي، لم تكن بقيد التنفيذ بعد. بسبب موقف رفعة من عبد السلام في مجلس الوزراء، قبل الإنقلاب، عندما كان يتدخل عبد السلام في القضايا الفنية والتقنية، فكان يجيبه عبد الكريم قاسم بالقول: إن هذه القضايا فنية وكان يؤيد رفعة.

ولم اسلم أنا أيضاً من الانقلاب الجديد، فقد اعتقلت العميدة روز خدوري وحجزت في سجن النساء ببغداد، وحلت محلها الدكتورة سعاد خليل إسماعيل. لم أذهب إلى الكلية في الأيام الأولى من الانقلاب، بعد أن علمتُ أن الحرس القومي قد دخل حرم الجامعة وألقى القبض على العميدة وعدد من المدرسات. ذهبت بعد بضعة أيام، وجلست بانتظار العميدة في غرفة السكرتيرة التي كنت اشغلها قبل أقل من أسبوع[٨٠]، فوجدت أنها قد احتلت من قبل فتاة تخرجت منذ عام من فرع الفن. ثم دخلتُ غرفة العميدة الجديدة، ودار بيننا حديث قصير تميز بالمجاملة. طلبت مني أن اختار العمل الذي ارغب فيه في مكتبة الكلية، بالرغم من انعدام خبرتي بهذا الإختصاص مما كان يعني تجميداً متعمداً لي.

وبما أنني كنت مجمدة وبلا عمل قررت الدوام في الكلية من الساعة التاسعة صباحاً حتى الواحدة ظهراً. شعرت أنني مراقبة من قبل بعض موظفات المكتبة. تخترق نظراتهن الحادة كياني، تحيطني عيونهن

---

٨٠ – عينتُ معيدة وسكرتيرة العميدة روز خدوري عام ١٩٦٣ – ١٩٥٩، في كلية البنات، وكانت السكرتيرة الجديدة إحدى تلميذاتي.

Twitter: @ketab_n

المحدقة بي من كل صوب، لكنني وضعت قناعاً أحجب به النظرات العدوانية نحوي. أصبحت أتجنب الكلام أو الحديث مع الموظفات، بالرغم من معرفتي الجيدة بمعظمهن. وأصبح الصمت المطبق ملازماً لي، لا أنطق إلا بجملة «صباح الخير». كما أصبح الكتاب صديقي الوحيد، مرافقاً لي في تلك المدة العصيبة التي كنت أقضيها في مكتبة الكلية. وابتعدت بذلك عن الواقع الذي كنت أعيشه، وبدأت بقراءة أدب وتاريخ الحضارات القديمة في العراق، السومرية والبابلية والآشورية. ووجدت الشبه بين الماضي البعيد المندثر وبين الحاضر الذي نحياه من خلال الأدب السومري، الذي يشوبه الحزن والندب، والابتهال والتضرع للآلهة بخلاصهم من الظلم. تاريخ يئن تحت سياط الطغاة من الحكام الذين يخوضون بدماء رعيتهم.

كما سجلتُ في دورة مسائية بجامعة بغداد لدراسة علم المكتبات لمدة عام، لكي ألم بهذا العلم، واستفدت من تلك الدورة في تنظيم مكتبة والد رفعة وعمه.

انتهى العام الدراسي بعد تجميد دام أربعة اشهر، وبدأت العطلة الصيفية. فوجئت عندما وقف باص كلية البنات لأول مرة أمام دار أبو رفعة في شارع طه، وسلمني السائق ظرفاً مختوماً. فتحتُ الظرف فوجدت أمراً بعزلي عن العمل في الكلية. كانت تلك أقصى عقوبة اتخذتها العميدة الجديدة بحقي، إذ لا يتم العزل عادة من الوظيفة إلا لسوء الأخلاق! بالرغم من أن لجنة التحقيق في الجامعة لم تجد أي مستمسك ضدي أو تهمة توجهها لي، خلال المدة التي كانت خلالها تحقق عن موظفي وأساتذة الجامعة. فتشوا جميع القوائم التي عثروا عليها فلم يجدوا اسمي في أية قائمة لها علاقة بالحزب الشيوعي أو المنظمات السرية اليسارية. وشعروا بنوع من الإحباط، وكانت

Twitter: @ketab_n

العميدة الجديدة مصرة على معاقبتي، بالرغم من عدم وجود أية أدلة تسهل لها فصلي من العمل. ولكن كان العزل نوع من الانتقام والثأر، لا لسبب، سوى لأنني ربما إبنة محمد شرارة!

ذهبت في تلك المدة بصحبة أم رفعة لزيارة سجن النساء، وتفقد من ألقي عليهن القبض من بين الطبقة المثقفة من نساء العراق آنذاك. فوجدت الدكتورة روز خدوري[٨١] عميدة كلية البنات بانتظارنا، كانت تتمتع بمعنويات عالية، أحسستُ أنها الدرع الذي تحمي النساء الشابات والفتيات في ذلك السجن الرهيب، بجدرانه وأرضه الرطبة، لا يقيهن من برد الشتاء القارص، إلا البطانيات التي وزعت عليهن في السجن. كانت الدكتورة روز تتكلم بثقة وحماس، لم يوهن السجن عزيمتها، بل زادها صلابة وصموداً. تنقلتُ بين السجينات كما كنت أتنقل بينهن عندما كن زميلاتي في العمل في كلية البنات. كانت تربطني بمعظمهن علاقة صداقة حميمة.

كان من بينهن هناء برتو، مدرسة تصميم الأزياء، التي لم يمر على عودتها من سويسرا بعد تخصصها في تصميم الأزياء، أكثر من عام ونصف، ويبرز في تخطيطاتها قوة التعبير في الوجوه، الملابس المنسدلة على الجسد. كانت امرأة في غاية الرقة والجمال. لم تبلغ عامها الخامس العشرين، بعينين كستنائيتين واسعتين، تطوقهما أهداب وحاجبين كثين، وبشرة رقيقة بيضاء، تتهدل خصلة من شعرها الكستنائي الأملس على جبهتها فتغطي نصف وجهها. كانت حامل

٨١ – الدكتورة روز خدوري: ولدت ١٩٢٣، حصلت على الدكتوراه من جامعات بالولايات المتحدة، زوجة خدوري خدوري، ناشطة سياسية في قضايا المرأة. عضو اللجنة السياسية في مكافحة الفاشية ١٩٤٥، من مؤسسات رابطة الدفاع عن حقوق المرأة ١٩٥٢، عضو ناشط في لجنة مكافحة الأمية، أصبحت عميدة كلية البنات بعد ثورة ١٩٥٨– ١٩٦٣، اعتقلت في انقلاب ١٩٦٣ وأودعت السجن لبضعة أشهر.

Twitter: @ketab_n

في شهرها الثالث، عندما ألقي القبض عليها في كلية البنات، لم يعر الحرس القومي أي أحساس لمدّرسة حامل في السجن.

مصممة الأزياء هناء برتو 1963.

عدت متألمة من تلك الزيارة، صور أولئك النساء اللواتي يمثلن صفوة المجتمع العراقي، وهن يقبعن في السجن مع مجرمات عاديات. تطفو تارة صورة هناء الأنيقة كنساء فرنسا وهن في ملابسهن وهندامهن تارة، وصورة هناء المتشحة بثوب واسع في سجن النساء تارة أخرى! ظلت تلك الصور تقض مضجعي، فافتح عيني، أفركهما لعَلِي أزيل الكابوس الذي خيم عليّ.

خسرتْ جميع النساء اللواتي اعتقلن في سجن بغداد وظائفهن بالفصل أو الإحالة على التقاعد، بعد إطلاق سراحهن، عندما كان العراق في أمس الحاجة لخدماتهن.

زاد الاعتداء العشوائي بمرور الأيام من قبل الحرس القومي،

Twitter: @ketab_n

إذ لم يكونوا جيشاً منظماً، وإنما شباباً متهوراً، وبدأت بينهم وبين العسكريين منافسة على السيطرة على المواقع المهمة في الدولة. لم تمض سوى بضعة اشهر حتى بدأ صراع مستتر بين أعضاء حزب البعث والقوى القومية، من جانب وبين العسكريين الطامعين في الاستئثار بالسلطة. «فعندما سافر طالب شبيب إلى خارج العراق، حل مهدي عماش محله مؤقتاً وكيلاً لوزير الخارجية، فأصدر قرار ينقل جميع نساء الوزارة مبرراً ذلك أن الخارجية لا تحتاج إلى حريم».

وسرى الهمس بين الناس عن الضحايا الكثيرة وعن «قطار الموت» الذي زُج فيه بمئات من العسكريين والمدنيين اليساريين والشيوعيين، المتوجه إلى سجن نقرة السلمان الصحراوي في شهر تموز المحرق، ولولا تنبيه بعض الناس في الحلة لسائق القطار، وان القطار محمل ببشر هم خيرة المثقفين من الضباط العسكريين والمدنيين وليس بأكياس من الفحم والخشب والحديد، كما أوحي له، مما دفعه لتسريع القطار للوصول إلى قضاء «السماوة»، وانتشار الخبر في المدينة الذين قدموا للمعتقلين فيه الماء، ولولا وجود أطباء بين المعتقلين في القطار، كالدكتور قتيبة الشيخ نوري والدكتور أديب بابان، اللذين قدما الإرشادات الصحية لهم، لقضى معظم أولئك المعتقلون نحبهم داخل القطار.

بعد بضعة أشهر، انقلب رئيس الجمهورية عبد السلام عارف على حزب البعث خوفاً من التآمر عليه وضياع سلطته. ففي صباح ١٨ تشرين الثاني من نفس العام، سار بسيارته مخترقاً معسكر أبو غريب، فأيده الجيش حالاً كعسكري، وصفقوا له هاتفين بحياته، وبتأييده التام للقضاء على المتآمرين، وبذلك حصل على ما كان يبتغيه. وعلى أثر ذلك قام بحملة اعتقالات واسعة، شملت بعض أقطاب حزب البعث الذين وضعوا في المعتقلات والسجون.

Twitter: @ketab_n

أعلن منع التجول في جميع أنحاء العراق لمدة خمسة أيام ليل نهار ولم تستثن غير سيارات الإسعاف والأطباء الخاصة. فكان الدكتور خليل الآلوسي يمر على رفعة أثناء النهار بعد أن ينتهي من عمله في المختبر ويذهبان لزيارة أصدقاء آخرين من نفس الحي.

أما في الليل فكنا نحاول أن نتجنب الشوارع الرئيسة ونتخذ الشوارع الفرعية للوصول الى بيوت الأصدقاء الذين نريد زيارتهم وهم يقطنون غير بعيد عن شارعنا، وبذلك لم تنقطع زياراتنا بالرغم من منع التجول. وكنا نخبر بعض الأصدقاء في تجنب الشوارع الرئيسة التي يمكن أن توجد فيها حراسة. ولذا اقتصرت الزيارات على كل حي في حيهم دون أن تتجاوزها إلى الأحياء الأخرى. وضل الوضع على هذا المنوال طوال الأشهر التي استمر فيها منع التجول.

ملأنا وقتنا بالمطالعة والزيارات، والذهاب إلى بستان الفحامة ، الذي أعاد رفعة زراعته بأسلوب حديث. كانت فيه مساحات غير مزروعة، فزرعها بالنخيل وأنواع من أشجار الفاكهة المنوعة. وعندما أوشك على الانتهاء من زراعته، سلمه لأخيه نصير بعد إطلاق سراحه من المعتقل الذي قضى فيه ستة اشهر تقريباً.

تخلصنا من الحرس القومي، وتخلص الناس بذلك من جو الإرهاب الذي هيمن عليهم ومن التعذيب والقتل الجماعي الذي مارسه حزب البعث بالاعتماد على أداته الحرس القومي الذي اشرف على تأسيسه.

ولكن القطيعة استمرت بيني وبين بعض أقرباء رفعة، فعشنا بأجوائنا الخاصة، البعيدة عن الأطر العائلية والسياسية أيضاً.

أحس أبو رفعة بالتوتر السائد في أجواء العائلة، وهو الذي يتطلع دائماً إلى أن تعيش عائلته بصفاء، وكانت علاقتي به قد توطدت أكثر في تلك المدة، وأصبحنا نمر عليه - رفعة وأنا- يومياً قبل الغداء، نجلس

Twitter: @ketab_n

معه، بعد أن يخرج آخر ضيف من ضيوفه. كان يلازمني الشعور بأنه أقرب شخص لي رغم فارق العمر والمركز والتجربة، وبدا مؤيداً بصورة ضمنية لموقفنا.

×××

رن جرس التلفون الداخلي في أحد الأيام الساعة العاشرة ليلاً، وإذا بوالد رفعة يخاطبه قائلا: لقد اغتيل كندي رئيس الولايات المتحدة. فاتصل رفعة حالاً بلكلند أحد الموظفين المهمين في السفارة الأمريكية، ولم تكن السفارة تعرف ما تعرض له رئيسها. كان لكندي حتى بين المعادين للسياسة الأمريكية، نوع من الاحترام، وكنا نتابع خطاباته وما قامت به زوجته جاكلين من تجديد للبيت الأبيض والثورة الفكرية والفنية التي انعكست في دعوة الفنانين والكتاب، مما قدمهما كزوجين مثاليين، أمام العالم. لقد شعرنا بأن العالم قد فقد رئيساً مهماً، لما أحدثه من تغيير.

كنا في تلك المدة – رفعة وأنا– عاطلين عن العمل، فذهب رفعة إلى مكتبة مكنزي[٨٢] ، وطلب منه قائمة بالكتب الجديدة. فعرض رفعة القائمة على الكاتب جبرا إبراهيم جبرا وأشر على أكثر من خمسين كتاب. وهي نخبة الكتب التي لا تقتصر على الأدب الإغريقي والروماني وإنما شملت أهم ما صدر من كتب في الأدب الحديث. وبدأنا نملأ وقتنا بالمطالعة، وخلال عام توسعت معرفتنا عن الأدب ولم تعد تقتصر على الأدب الإنكليزي أو أدب مدة معينة، بل أعطتنا صورة بانورامية عما يحدث في الأدب والمسرح الحديث في العالم الغربي.

ثم بدأتُ في قراءة بعض الكتب التي تحتوي عليها مكتبتنا عن

---

٨٢ – مكتبة مكنزي كانت أكبر مكتبة في بغداد للكتب الأجنبية وخاصة الإنكليزية.

Twitter: @ketab_n

تنظيم وترتيب الأزهار والورود. وجذب انتباهي تنظيم الأزهار اليابانية المعروفة بـ إكيبانا **Ikebana**. فبدأت بدراستها وأخذت أقوم بالتجارب التي كانت في كثير من الأحيان تؤدي إلى نتائج مرضية. وبدأ رفعة يصور كل ما كنت أقوم به من تصفيف لتلك الأزهار.

كما بدأت أجرب حظي في الطبخ لأول مرة. فلم تسمح لي الفرصة أن أتعلم أي نوع من الطبخات قبل الزواج، إذ كنت معتمدة في ذلك على والدتي التي كانت تتقن الطبخ اللبناني، ونشأنا نشأة غير صحيحة وناقصة من هذه الناحية. لأن النظرة الدونية عن الطبخ والمطبخ وكل ما يتعلق بهما، كانت تسيطر علينا، وهي نظرة تأصلت في القرنين الثامن والتاسع عشر في إنكلترا، إذا كانت النسوة من الطبقتين الأرستقراطية والوسطى يفتخرن من أنهن لم يشاهدن في يوم من الأيام ما يحدث في الطابق الأسفل من دورهن حيث تدار منه شؤون المنزل عادة.

كنت احب الطعام اللذيذ والمطبوخ طبخاً جيداً، ولكن لم أكن اعتبره إنجازاً مهماً[٨٣]. وعندما كانت تعترض والدتي على جهلنا بالطبخ وشؤون المنزل، كنا نجيبها أننا إذا تزوجنا سنأكل عندئذ في المطاعم!

ولذا عندما تزوجتُ لم أكن أعرف حتى عمل ألاومليت[٨٤] الذي تعلمته من رفعة، الذي أتقن طبخة ألاومليت عندما كان طالباً في لندن، ولم أفكر في تعلم الطبخ العراقي، لأن طباخ العائلة كان يقوم

---

٨٣ – وتغيرت نظرتي للطبخ والطعام، عندما بدأت أقرأ كتب في علم الأنثروبولوجي والسيسويولوجي.

٨٤ – الأومليت: يتكون من البيض المخفوق وكمية قليلة من الحليب، ثم يقلى على نار هادئة في المقلات، ويُفضل البعض إضافة بعض الخضروات إلى الأومليت.

Twitter: @ketab_n

بهذه المهمة، بصورة متقنة وماهرة. كما إن الطبخ العراقي واللبناني يحتاجان إلى صبر في إتقانهما، وإلى وقت كنت أفضل أن أقضيه في المطالعة.

اتجهت إلى إتقان الطبخ الغربي وخاصة الفرنسي منه. ووجدت المطبخ الفرنسي يعتمد بالدرجة الأولى على الصلصة الجيدة التي تكون جزءً من لون الطبخة وذلك عكس المطبخ الإنكليزي الذي يعتمد على اللحم الجيد الذي يطبخ بلا حاجة إلى الصلصة sauce .

وانتقلت بعد تلك المرحلة لتحضير الكيك بأنواعه، وبدأت أجهز أبو رفعة وضيوفه الذين يزورنه عصراً. ولكن كان نقد أبو رفعة لاذعاً وقاسياً أحياناً عندما لا يعجبه الكيك الذي أقدمه له. وكنت اسمع مديح الكيك الذي أعجبه عن طريق أم رفعة وليس عن طريقه مباشرة. وجدت من خلال تجربتي أنه يفضل الكيك الذي بلا زينة، فقد كان ينظر إلى الذائقة والناحية العملية في الدرجة الأولى وإلى الناحية الجمالية في الدرجة الثانية، يهمه آلا تتسخ أيدي ضيوفه بقشطه الكريم أو الشوكولاته. ولهذا بدأت أبعث له الكيك من غير زينة.

لم أكن طباخة بالمعنى الصحيح للطبخ وإنما كانت مجرد هواية، فعندما أشعر أني أتقنت طبخة ما أو نوعاً من الكيك، أتركه ولا أعود إلى عمله ثانية. كنت مزاجية السلوك من هذه الناحية. وهكذا انتقلت من الكيك والصلصة الفرنسية بأنواعها المختلفة إلى عمل المربى وثم المارماليد Marmalade .

لم تكفِ المطالعة وحدها لسد الفراغ الذي أحدثه ترك العمل في حياتنا، فقد اعتاد المعمار قحطان عوني في زيارة رفعة ثلاث مرات في الأسبوع صباحاً، عند تناوله الفطور فيقضي معه ساعة قبل أن يذهب

Twitter: @ketab_n

إلى مكتبه. وفي تلك المدة بدأ التفكير في تأسيس جمعية ثقافية تجمع شتات المثقفين من الفنانين والمعماريين والأدباء.

كان ذلك في بداية عام ١٩٦٤ أي بعد الانقلاب الذي قام به رئيس الجمهورية عبد السلام بشهرين تقريباً. كان المعمار قحطان عوني قد فتح مطعماً في دار والده، فنقل رفعة اجتماعاته مع أصدقائه إلى مطعم قحطان، فأصبح المكان ملتقى الفنانين والمعماريين للتداول والنقاش حول قضايا الفن. وفي أحد الأيام كان المعمار نزار علي جودت حاضراً، فلم تكن الوجبة التي طلبها جيدة، وهو من ذواقة الطعام Gourment، فالتفتَ إلى رفعة وقال له: لِمَ لا نقوم بتأسيس جمعية فنية تُعنى بالتراث والفن وتقدم طعاماً جيداً. وكانت تلك بداية التفكير الجدي في تقديم طلب إلى وزارة الداخلية، وهكذا ولدت الجمعية البغدادية.[٨٥]

استقطبت الجمعية البغدادية معظم أصدقائنا، وحلت دعوات العشاء في الجمعية بدل بيوت الأصدقاء، كما اشتملت على النشاط الفكري حول المسرح وحفلات الموسيقى الشرقية والغربية، وعلى المحاضرات التي تتعلق بالفن، وعلى إقامة المعارض الفنية.

×××

النقلة المعمارية في تصاميم رفعة

استغل رفعة تلك المدة التي قلت فيها المشاريع، فاتجه بجد نحو تطوير وتطبيق نظريته في العمارة التي كتبها عندما كان طالباً. كان

٨٥- كتبت مقالاً مفصلاً عن الجمعية البغدادية بعنوان: "قصة الجمعية البغدادية لمنتسبيها وروادها"، نشر في ملحق جريدة المدى، عام ٢٠١١. واستمرت الجمعية البغدادية منذ عام ١٩٦٤-١٩٦٨. توقفت عن العمل، بعد أن استلم إدارتها حزب البعث، فتحولت بمرور الوقت، إلى نادي بعيد عن هموم النشاطات الثقافية.

Twitter: @ketab_n

متمردا، وشعر أن عليه أن يكون فاعلا في عصره الذي يحفزه على التحرر من قيود الماضي وليس القطع مع الماضي. فلم يكن يؤمن بالانقطاع المطلق، بل يؤمن أن للتراث قوة هائلة في حياتنا، في تكوين الهوية، وآلا نصبح عبيداً له وإلى التيارات الأوربية، بل يبقى القوة المغذية للنفس. فهو النسغ الحي الذي يمد تصاميمه المعمارية بالحياة، ويضيف إليه قوة جديدة في مضمونها وشكلها.

إن من ينظر إلى أعمال رفعة المعمارية وتصاميمه التي نفذها خلال ربع قرن، سيلاحظ انها تؤكد على مفهوم واحد متواصل من دون كللٍ، وهو ما بدأه من صهر التراث بالأشكال الحديثة والتي ظهرت أولاً بوضوح في مشروع بيوت الجادرجي في حي المنصور. فقد أدخل فيها نغمة جديدة كانت تفتقر إليها العمارة الحديثة في العراق. وأسس أسلوباً جديداً له في العمارة، وكان يتكلم بكل صراحة عن التأثيرات في تصاميمه المعمارية التي يشيح عن ذكرها المعماريون عادة. كان يدرك إن عليه، أن يقوم بهذه المهمة ويفتح بذلك الطريق أمام الأجيال القادمة، مساهما في صياغة حضارة اليوم والغد، كما شعر بالعقبات الكبيرة التي عليه أن يجتازها.

كان رفعة عندما يكلف بمشروع، سواء كان صغيراً أو كبيراً، يبدأ بفكرة، وتليها فكرة أخرى، وتبدأ الأفكار تتزاحم مع بعضها، ويرسم دائماً سكيجات Sketches، لعلاقات بين المسطحات والخطوط والأحياز، التي تؤلف بدورها المبادئ الأولية لتطور شكل العمارة، الذي أصبح منذ أن باشر بممارستها، طرازاً يميزه كمعمار. فكان عن طريق هذه السكيجات التي كانت دائماً في دور تطوير للتكوين الشكلي، يؤدي إلى تطوير الطراز الذي يتميز به. وربما كان الوحيد بين المعماريين في العراق والعالم العربي، يتميز بطراز ابتكره لنفسه. ويتميز هذا الطراز بطابع يسعى إلى إيجاد حلول لقسوة المناخ في

Twitter: @ketab_n

العراق، حيث تصل أحياناً، درجة الحرارة في الصيف إلى خمسين درجة مئوية. كما منح الطراز الذي يتميز به نكهة تخص الطابع المحلي. وبدأ رفعة في هذا التطوير منذ عام ١٩٥٣.

كان رفعة يتابع الحركات المعمارية في العالم، الذي في الوقت نفسه تدعم التنظير وتغنيه. متتبعاً لما يحدث في اليابان وأمريكا وأوربا. وكان مشتركاً بعدد من المجلات المعمارية الأسبوعية والشهرية. يطلع عليها، لتكون خزينا غنياً واسعاً عما يحدث في العالم من تطور في استعمال المواد والأشكال الحديثة في الغرب، وعن االطرز المعمارية وما يقوم به المعماريون من تجارب في أنحاء العالم. و لم تقتصر اهتماماته على تطور الطرز المعمارية في العالم، بل شملت التطورات في العلوم الأخرى، خاصة البايولوجي والأنثروبولوجي والسيسيولوجي والسيمائية والفلسفة بعامتها. ساعدته تلك الخلفية الواسعة في تطوير النظرية التي توصل إليها.

بالرغم من انتباه بعض المعماريين إلى الإهتمام بالطابع المحلي، فهناك قضية جذرية يختلف رفعة بها عن الآخرين، فقد اعتبر العمارة العالمية، قد حققت نقلة جذرية في الشكل والطرز نتيجة تطور المكننة في إنكلترا أولاً وثم في العالم. حيث أصبحت الماكنة تدخل بين العامل والمادة، وهو يتعامل معها، بينما كان هذا التفاعل مباشراً بين اليد وفكر العامل قبل المكننة. وأصبح هنالك قطع بسبب الماكنة. فليس هنالك حركة سبريانية[٨٦] متبادلة، أدى هذا الفقدان إلى الاعتماد على عامل جاهل لا يحس بما تقوم به الماكنة. في نفس الوقت، الذي ظهر فيه المعمار نفسه، الذي أصبح يهيء الشكل مسبقاً لعملية الإنتاج، بعيداً

---

٨٦ -السبريانية: قطعت العلاقة السبريانية بين فكر العامل وما يحصل من تغير على المادة. فالسبريانية هي الفعل المتبادل بين الفكر والمادة، أثناء تحويل المادة إلى شكل المصنّع، كتحويل الشجرة إلى خشب والخشب إلى كرسي.

Twitter: @ketab_n

عن ساحة العمل. فالمعمار لا يجلس في المقهى حيث يجلس عمال البناء والزبائن، وإنما أصبح يعمل في أستوديو. كما أصبح هنالك تخصص في المواد التي تستعمل. وصار المصمم جاهلاً أحياناً بهذه المواد، وفقد بذلك هذه الصيغة من العلاقات الحميمة التي كانت سائدة قبل المكننة.

وتتضمن نظرية رفعة، ان الإنسان يختلف عن الحيوان في دماغه الذي لا يطفأ بالغريزة والحاجة النفعية فقط، وإنما يحتاج إلى، خوفه من الطبيعة وغضبها المفاجئ، أمطارها وفيضاناتها، وتدمير كل ما بناه، فأضطر إلى إيجاد ما يدجن تلك الطبيعة الغامضة عن فهمه، فأبتكر المعبد والآلهة، ليتجنب بذلك غضب الطبيعة عليه، وهنا برزت الحاجة الرمزية التي تعّبر عن تحقيق هوية الذات. فجعل من المعبد أو الجامع أو الكنيسة بناءً مقدساً.

ويتضمن قوله، إن الإنسان يختلف عن الحيوان، فلا يكفيه الأكل والشرب والملجأ، بل هو فكر مبتكر ولهذا يمل بسرعة، ويحتاج إلى التنوع. ولشعوره بعبث الوجود، ابتكر عالماً آخر في مخيلته يتضمن اللعب واللهو والاستمتاع بالوجود. أي الناحية الجمالية التي تطرد الملل، وتثير المتعة في حياة الإنسان خارج حدود عبث الوجود.

كان له موقف فكري واضح بالمعنى الفلسفي، جريء في مجال الممارسات المعمارية والفنية. انتقل من دور المعمار إلى دور المنظّر ولم يقتصر على الفن وإنما تجاوزه إلى الممارسة الاجتماعية والثقافية. فاستطاع أن يصوغ فناً معمارياً يتميز به، يجمع بين الأصالة والخصوصية المحلية والتقنية العالمية، فأنتج عمارة ربط من خلالها الماضي بالحاضر. عمارة جديدة تتماشى مع الحداثة، وتتجاوز الحدود الزمنية لعصره.

×××

Twitter: @ketab_n

تصميم الأثاث ومحل "أيا"

أتجه رفعة في عام ١٩٦٤ نحو تصميم الأثاث، فأسس معملاً للنجارة. كان عبد الأمير النجار مشرفاً ومنفذاً للتصاميم التي يقدمها له، كما أسس معرضاً لعرض الأثاث في مدخل المكتب الاستشاري العراقي، أختار له اسم «أيا» وهي آلهة الحرفة والخير في الأساطير السومرية. قام بتصميم الخشب كما كان يقوم بتصميم العمارة، أشكال نحتية حديثة، لم يترك شيئاً إلا وصممه من السقوف الخشبية التي لها تاريخ عميق في طراز العمارة الإسلامية، إلى المصابيح بتجريده للأشكال التقليدية وابتكر رؤى جديدة، وبنفس الوقت لها خصوصية عراقية. واشترك في تلك المدة بمعرض الأثاث الدولي، الذي أقيم في مدينة برشلونة، وحصل على الجائزة الثالثة البرونزية. وأصبح معرض «أيا» مكاناً لإقامة المعارض الفنية، فأقام معرضاً للورنا سليم زوجة جواد ولمجموعة الرسامين الجدد الذين ظهروا بعد جماعة فائق وجواد، وهم: هاشم سمرجي وعلي طالب ورافع الناصري ويحيى الشيخ.

واقترح رفعة عليّ أن أقوم بالإشراف على المعمل وإدارة معرض «أيا»، وعرض الموضوع على والده الذي عارض الفكرة قائلاً: ليس من الصحيح أو اللائق أن تدير بلقيس معمل نجارة ومحلاً لبيع الأثاث، فهذا غير مناسب بالنسبة للعائلة! كان أبو رفعة يراعي تقاليد المجتمع، بالرغم من مفاهيمه التي تختلف عما يؤمن به المجتمع، وما دفعنا للتخلي عن الفكرة.

في تلك المدة جاء عرض من اليابان لرفعة، لدراسة الحدائق اليابانية لمدة ستة أشهر، وكنت متحمسة لزيارة اليابان معه، بعدما قرأت عن المدارس المختلفة في تصميم الأزهار. وعندما عرض الموضوع على

Twitter: @ketab_n

والده، قال له: آلا تعتقد إن اليابان بعيدة! شعر رفعة في قرارة نفسه أن والده لا يرغب في ابتعاده عن العراق، وإنما يفضل أن يظل على مقربة منه، وبذلك فاتت علينا تلك الفرصة، التي كنا سنطلع خلالها على حضارة كنا نجهل الكثير عنها. وبعد مدة لاحقة، وجهت لرفعة دعوة لزيارة الولايات المتحدة لمدة ستة أشهر للإطلاع على العمارة الحديثة فيها، وكان رد أبو رفعة كرده على زيارة اليابان، فتركنا الموضوع و لم نبحثه.

رُفع منع السفر عن رفعة بعد مرور ثلاثة أعوام، فسافرنا في شهر نيسان عام ١٩٦٦ إلى بيروت، وعلمنا أن الهليكوبتر التي أقلت عبد السلام عارف رئيس الجمهورية آنذاك قد سقطت في عاصفة ترابية، ومات بعض المسئولين الذين رافقوه. دارت الشائعات حالاً عن إنها مؤامرة مدبرة من قبل حزب البعث الذي أطاح به عبد السلام عام ١٩٦٣، ولكن لم ينكشف أي شيء من ذلك. والتصقت آذاننا بالراديو، نتوق لمعرفة من سيقود السفينة بعد مقتل قبطانها! ولكن لم تمر إلا بضع ساعات حتى تناهى إلى سمعنا أن أخاه عبد الرحمن عارف قد أصبح رئيس الجمهورية.

×××

السفر إلى غانا والإنقلاب على الرئيس نكروما

في شباط عام ١٩٦٦ كنا ما زلنا رفعة وأنا، بلا عمل، بعد أن استقال من وظيفته منذ عام ١٩٦٣ وقرر ممارسة العمل الحر، فانكب في العمل على تطوير المكتب وتوسيعه، وفتح فروع خارج العراق. دعي في تلك المدة من قبل مؤسسة دوكسيادس إلى أكرا عاصمة غانا، ليكتب تقريراً عن الإسكان فيها.

جلبَ رفعة معه بهذه المناسبة صندوقين تتضمن ألواحاً لأعماله

Twitter: @ketab_n

بهدف إقامة معارض في البلدان التي كنا ننوي زيارتها. بدأنا زيارتنا للخرطوم، حيث كانت شقيقتي مريم وزوجها جيم شو يقطنان في السودان آنذاك. ويدرّسان في جامعة الخرطوم. فأقام رفعة عرضاً لأعماله في جامعة الخرطوم، ثم توجهنا إلى أديس أبابا عاصمة الحبشة، وقضينا فيها أربعة أيام.

كان الجو جميلاً جداً، يتساقط المطر في الصباح الباكر والمساء، والعاصمة خضراء على عكس الخرطوم التي تميل إلى اللون الترابي الذي غطى منازلها وشوارعها وأشجارها، بالرغم من وفرة مياه النيل.

في اليوم الثاني من وصولنا "أديس أبابا" خرجنا نتجول في شوارع المدينة، فخرجت مظاهرة ووجدنا أنفسنا وسط التظاهرة. المتظاهرون مرتدون رؤوس الأسود والفهود، ويخرجون أصواتاً غريبة، بإيقاع مخيف كأصوات الحيوانات. حاولنا أن نفتح لنا طريقاً بين الحشود التي بدأت تكتظ حولنا، حيث لاحقتها الشرطة بالعصي محاولة تفريقها، خفتُ من أن نكون من ضحاياها، فركضنا إلى الجانب الآخر من الرصيف واستطعنا، أن ننجو بأنفسنا وحاولنا الابتعاد عن المتظاهرين الذين ظلت أصواتهم الغريبة، يتردد صداها في أذني طيلة ذلك اليوم.

شاهدنا عن بعد قصر الإمبراطور هيلاسيلاسي، الذي كان في مدخله تمثالان لأسدين، يمثلان القوة والسيطرة على شعب مقهور جائع. تجولنا في الأسواق المتشعبة، وكانت النسوة يجلسن على الأرض يرضعن أطفالهن على حافة الطريق. كانت أمراض الرمد منتشرة بشكل واسع، فمعظم عيون الأطفال مصابة بالرمد والصديد متراكم على جفونهم.

عدنا إلى الفندق، وفي اليوم التالي قررنا أن نأخذ فيزا إلى غانا، بالرغم من إن المسؤول عن إقامتنا كانوا قد أخبرونا أن الفيزا في

Twitter: @ketab_n

انتظارنا في مطار أكرا. ولكن وجدنا من الاحتياط أن نحصل على فيزا. ملأنا الاستمارة، وبعد أن سلمناها إلى الموظف، قال لنا إن الفيزا لا تصل بأقل من شهر، فأجابه رفعة: إن علينا أن نسافر غداً، وإنه مدعو من قبل مؤسسة دوكسيادس. أصر إنه من الصعب أن نحصل على فيزا. ثم سألنا من أين أنتم؟ أجاب رفعة: من العراق، بغداد. تغير كل شيء فجأة، وقال له من الشرق الأوسط. أجاب رفعة: نعم. قال له من آسيا؟ قال له نعم. قفز فجأة مبتسماً قائلا: نحن أخوة، من نفس القارة وأنا من الهند، فيجب أن تحصلا على الفيزا فوراً!!

أخذ الاستمارات بيده ودخل على القنصل، كنا جالسين في الانتظار خارج غرفة القنصل، لا ندري ما ستكون عليه النتيجة. الوقت يمر ببطء ونحن جالسين، قاطعين الأمل من الحصول على الفيزا. تأخر الموظف بعض الوقت مع القنصل. ثم خرج وسلمنا جوازيّ السفر. لم يكن عندنا أمل في الحصول على الفيزا. ولكن عندما فتحنا الجواز وجدنا الفيزا الغانية بداخله. قال لرفعة: لقد قضيت هذه المدة مع القنصل محاولاً إقناعه من أنكما أخوتي فنحن من نفس القارة ولا يمكن له أن يرفض إعطاءكما فيزا! شكرنا ذلك الشخص الهندي الذي اعتبرنا أخوته لأننا من نفس القارة الأسيوية، وقلت لرفعة هل من الممكن أن يحدث مثل هذا في العراق! حيث القبيلة والعائلة لها الأهمية في عالمنا الضيق المحدود.

وصلنا في اليوم التالي مطار غانا ليلا، وكان في استقبالنا عدد من المهندسين، ومسؤول غاني لإعطائنا الفيزا في المطار. فأخبرناه أننا حصلنا على الفيزا من القنصلية الغانية في أديس أبابا واستغرب وضحك الجميع من الطريقة التي حصلنا فيها على الفيزا.

قضينا الأسبوع الأول في الفندق الكبير الذي كان يعتبر أهم فندق

Twitter: @ketab_n

في أكرا. كان مبرداً لدرجة كنا نحتاج إلى غطاء يقينا البرد في حر أكرا، كانت درجة الحرارة لا تتغير تقريباً عن ٢٨ مئوية ليل نهار، ودرجة الرطوبة عالية تصل أحياناً إلى خمس وتسعين درجة خارج الفندق، ولهذا كنا نعيش في جو اصطناعي، ابتكرته تكنولوجية التبريد.

في اليوم التالي جلسنا في غرفة الطعام لتناول الفطور، كان أقل من نصف المطعم مشغولاً بالزبائن. قادنا المسؤول عن الخدمة إلى طاولة إلى جانب الأجانب الأوربيين. مرت عشر دقائق و لم يأت أحد لأخذ طلبنا، ثم جاء أحد المشرفين على خدمة المطعم ووضع شوكة وسكين أمام كل منا. مرت بضعة دقائق وبدأت ألعب بالشوكة والسكين أرفعهما أحياناً بيدي وأضعهما ثانية على الطاولة، أسلي نفسي بقضاء الوقت، حتى جاء شخص آخر فوضع صحناً أمام كل منا. ثم جاء المسؤول وسجل طلب الفطور وغاب عن أنظارنا، بقينا ننتظر، ولكي لا نحس بملل الانتظار الذي بدأ يهيمن علينا، بدأنا رفعة وأنا بملاحظة زبائن المطعم المقيمين في الفندق. جلب انتباهنا أسلوب الخدمة في المطعم. كان الملونون من السود الأفارقة يقدم لهم طعام الفطور بسرعة، أما زبائن العرق الأبيض فكانت حالهم كحالنا في انتظار طويل لا أحد منا يدري متى يقدم له الفطور! وعندما قُدم لنا الفطور، أكلنا بسرعة لكي نكون حاضرين بانتظار السائق الذي سيكون معنا.

تكررت العملية ذاتها في الغداء، ولكن قضينا مدة أطول حتى استطعنا الحصول على الغداء، كان البطء المتعمد في الخدمة يجعلنا حائرين من ذلك السلوك! التفتُ إلى رفعة قائلة له: سنقضي نصف وقتنا في انتظار وجبات الطعام يومياً. فلم نكن نفقه ذلك التصرف الغريب. فنحن معتادون على الخدمة في لبنان أو الأقطار الأوربية حيث يسرع المسؤول في خدمة الزبون وتلبية طلباته والحصول على رضاه. أخبرنا بعد مدة احد المسؤولين في مؤسسة دوكسيادس في

Twitter: @ketab_n

غانا، أن السود يقتصون بتلك المعاملة من البيض الذين كانوا السادة المستعمرين لهذه البلدان، والآن بعد أن تحرروا من الاستعمار، شعروا أن عليهم أن يكونوا أسياد بلدهم وأن يعاملوا البيض كأناس من الدرجة الثانية، حتى وإن كانوا من السياح أو رجال الأعمال. كما كان جميع الذين يشرفون على الخدمة في الفندق، هم موظفون من قبل الحكومة لأن الفندق ملك الدولة، ولهذا ليس هنالك ما يدفع الموظف نحو خدمة جيدة للزبون، فلن يخسر وظيفته إن أساء أو تقاعس في خدمتهم، وراتبه جارٍ إن أدى عمله أو لم يؤدّهِ!

بعد أسبوع انتقلنا إلى فيلا جميلة في أكرا، تعود لمؤسسة دوكسيادس. وبذلك تخلصنا من الانتظار الطويل وإضاعة الوقت في تناول وجبات بسيطة من الطعام في ذلك الفندق الذي اعتبرت درجته خمسة نجوم.

كانت حديقة الفيلا واسعة، تجوبها أنواع من الحرباء الملونة بألوان فاقعة جميلة، وحذرنا من التقرب منها أو الجلوس تحت الأشجار، لأن هنالك أفاع صغيرة خضراء اللون بلون العشب، تتسلق الأشجار أو تزحف على العشب الأخضر ولا يمكن رؤيتها لأنها بلون العشب. وإن لدغتها مميتة. كنت حذرة أينما أسير، أحدق في العشب الأخضر أو أتطلع إلى الأشجار الباسقة الارتفاع، خوفاً من تلك الحية اللامرئية.

كانت الشحه بارزة في جميع أنواع المواد الغذائية. وشملت كل شيء، من استيراد الحليب إلى مربى الفريز. لهذا كان المهندسون الذين يعملون في مؤسسة دوكسيادس، يتحدثون بالتفصيل عن وصول شحنات جديدة من الأطعمة كما يتحدثون عن العمارة والفن والأدب. فيهجم الناس على المخازن يشترون المواد بكميات كبيرة، وتفرغ رفوف المخازن خلال ساعات. كان هنالك يوم لشراء المربيات

Twitter: @ketab_n

وآخر لشراء الأضوية (اللمبات) وآخر لتوزيع الحليب، وهكذا أنهمك الناس في إصطياد المواد التي يحتاجون إليها، فكلما جاءت سلعة من السلع إلى الأسواق كانت الجالية الأجنبية خاصة، تتهافت على شراء ما هو متوفر منها في السوق. وكان الناس يقفون أمام المخازن بطابور طويل كالذي شاهدناه في رحلتنا إلى الإتحاد السوفيتي. كنت أستغرب في البداية من ذلك، فلم يصلنا التأميم بعد، وشملنا تأميم المصارف فقط في تلك المدة. ولم أكن أعلم أن تأميم المواد أدى إلى هذه الشحة، وأننا سنصبح بعد سنوات كالغانيين عندما يسيطر حزب البعث على مقاليد الحكم، ونقف في طابور طويل بانتظار البصلة والبيضة وعلبة المربى!

كان رفعة يحاول أن يصور المشاهد الغريبة عنا التي كنا نشاهدها، ولكن يظهر أن عدوى المنع التي كنا نعيش تحت وطأتها قد وصلت إلى أكرا، فكانت النساء تحتج عندما يرفع رفعة آلة التصوير لالتقاط صورة لهن، أو يتبرع أحد المارة فيحاول أن يضع يده على العدسة. وظاهرة الخوف من التصوير شملت معظم العالم الثالث والاتحاد السوفيتي آنذاك.

كان نكروما من رؤساء معسكر عدم الانحياز، كالرئيس المصري جمال عبد الناصر، يطبق حزبه المبادئ الاشتراكية، فبنى لأعضاء حزبه أحياء كاملة معدة لتدريس الطلبة بإشراف الحزب. كانت تلك الأحياء نموذجية بأبنيتها وشوارعها المنتظمة المبلطة والمزروعة بالأشجار بخطوط مستقيمة، والمحاطة بحدائق أنيقة. ويلقب الرئيس نكروما بـ«المخلّص/ Redeemer» من قبل أعضاء الحزب. تماثيله الضخمة تحلي شوارع أكرا، وتشبه بحجمها وضخامتها تماثيل ستالين في الاتحاد السوفيتي. وكان لنكروما قصر في كل بقعة جميلة من غانا. لا يسمح لأحد بالاقتراب منها، فكنا نشاهد تلك القصور عبر بحيرة

Twitter: @ketab_n

أو جسر يفصلها عن عامة الناس. كان شبحه جاثماً ومهيمناً بجبروته على ذلك الشعب الجاهل المسكين.

كما كان تأثير المعماريين الروس ظاهراً في المباني العمرانية والشقق السكنية، أما الخبراء الصينيون فكانوا مسؤلين عن الطرق والجسور. زرنا الشقق السكنية التي صممت من قبل المعماريين الروس. وهي مجمعات سكنية رمادية اللون «مسبقة الصنع/ Prefabricate». لم يدرس الروس متطلبات الشعب الغاني، وطبقوا الطراز الروسي في إقامة تلك المجمعات. وأصبحت مجمعات فاشلة، لجهلهم بالوضع الاجتماعي بين الطبقة الفقيرة في غانا. فقد زرنا إحداها، كان الحمام فيها يستعمل للخزن، وليس للغسيل، وكانت العائلات الغانية الفقيرة تقضي نهارها في الشارع، فهو مكان الطبخ والغسيل ولعب الأطفال وما يدور من أخبار الحي بين النساء. وكانت تلك الشقق التي صرفت عليها الحكومة مبالغ طائلة تستعملها العائلات للنوم فقط، أما في النهار فإنها مهجورة، ويحتل الشارع وظيفتها السكنية.

كانت الأمطار تهطل بعنف، فكأنها زوبعة من المطر، فتختبئ الطيور في الأشجار ويختفي الناس من الشوارع، ولا يسمع إلا وقع المطر العنيف الذي يستمر لوقت قصير، ثم تشرق الشمس وتعود الطيور إلى زقزقتها، ويخرج الناس إلى الشارع. والنباتات المختلفة بأزهارها تنمو حتى على رفوف الدور المصنوعة من التنك، وعلى الحواجز الخشبية، مورقة وكأنها أشجار صغيرة تحيط الدور.

بعد أن أقام رفعة معرضاً لأعماله المعمارية في جامعة أكرا وألقى محاضرة، دعي لجامعة كماسي التي تبعد حوالي أربعمئة كيلومتر شمال العاصمة أكرا.

قبل السفر بيومين دعانا السفير العراقي لتناول طعام الغداء في

Twitter: @ketab_n

داره. كان من بين المدعوين رئيس أركان الجيش السابق في غانا، الذي عرّف نفسه بـ «أنكرا[٨٧] Ankara» . وانتقد الوضع أمامنا بصورة علنية. ثم انتقل إلى الحديث عن مدينة كوماسي التي سنسافر إليها بعد يومين.

كان الطريق من أجمل ما شاهدته، أشجار المهاكوني مرتفعة بنحو عشرين قدم أو أكثر، كنت أحاول بصعوبة، أن أشاهد نهاية رؤوس الأشجار. وصلنا مدينة كوماسي عاصمة شمال غانا بعد ستة ساعات. وأقمنا في فندق الأنتركونتنتال. كان السائق الذي رافقنا اسمه «كوفي/ Gofi». ويعني باللغة الغانية الجمعة.

و في العصر جاء رئيس القسم المعماري في جامعة كوماسي بروفيسور لويد وطفليه، وركبنا السيارة وساق بنا ليرينا مجمعات سكنية ريفية في داخل الغابات المتشابكة. بعد بضعة دقائق من وصولنا سرنا نحو المجمع، خرج عدد كبير من الأطفال في استقبالنا، منهم من أختبأ خلف أطفال أكبر سناً منهم. ظلوا جامدين لا يتحركون بل ينظرون إلينا نظرة فضول، حتى أصبحنا لا نبعد عنهم أكثر من مترين، وإذا بهم يهجمون على طفلي بروفيسور لويد، اللذين كانا مرتدين ملابس السباحة فقط. لم نتحرك في البداية، ولكن جميع أطفال الحي كانوا يحاولون أن يلمسوا جسديّ الطفلين، وفجأة علا بكاء الطفلين من كثرة الأيدي التي أحاطت بهما، وكانت أيدي أطفال الحي تحاول اكتشاف الجسد الأبيض البض الذي لم يشاهدوه مسبقاً. إذ لم ير على ما يظهر، صغار الحي طفلاً أبيض، فأثار اللون الأبيض والشعر الأصفر والعيون الزرقاء فضولهم، وهجموا بتلك الطريقة العشوائية على الطفلين.

٨٧- اسمه الكامل: جوزيف آرثر أنكرا Joseph Arther Ankrah

Twitter: @ketab_n

كان رفعة يسأل السائق "كوفي" صباحاً عن صحته فيجيبه أنه بخير، ويقص عليه نبذة من الأخبار المحلية التي يسمعها من الراديو أو من أصحابه. ولكن عندما سأله رفعة السؤال المعتاد، كيف صحتك يا "كوفي" وما هي آخر الأخبار اليوم؟ أجاب هذه المرة: سيدي أنا بخير ولكن "المخّلص" ليس بخير. قال له ما تقصد بذلك؟ أجاب: لقد حدث انقلاب عسكري ضد رئيس الجمهورية نكروما[٨٨] ، سأله رفعة ومن الذي قام بالانقلاب، أجاب: رئيس أركان الجيش السابق «أنكرا». التقت نظراتنا، ولم ننبس بكلمة أمام «كوفي»، فقد كان الشخص الذي التقينا به قبل يومين من سفرنا في دار السفير العراقي، والذي أعلن نفسه رئيساً للجمهورية!

ذهبنا لصالة الطعام في الفندق، كان الفندق محاطاً بالجنود، حماية للأجانب المقيمين فيه. طلبَ مني رفعة آلا أرافقه إلى الجامعة، بل أجهز الحقائب للعودة إلى العاصمة أكرا، إذ نحن بين عشائر معادية لحكم نكروما، ولا ندري ما الذي سيحدث الآن!

لكن عندما وصل رفعة الجامعة، استغرب من العدد الكبير، إذ كانت

٨٨- نكروما Kwame Nkrumah: ١٩٠٩- ١٩٧٢ يعتبر الزعيم الغاني، من المناضلين الأفارقة الأوائل ضد الاستعمار البريطاني. تخرج من دار المعلمين في أكرا، وعمل أستاذا، ثم التحق عام ١٩٣٥ بجامعة لنكولن في الولايات المتحدة، وفي عام ١٩٤٥ بمدرسة الاقتصاد في لندن، كما كان نشطاً في العمل الطلابي مدة وجوده. وهو الذي اشرف على استقلال غانا من الحكم البريطاني في عام ١٩٥٧، وأصبح أول رئيس للوزراء ١٩٥٧- ١٩٦٠، وأول رئيس لجمهورية غانا ١٩٥٧- ١٩٦٦. وأبرز دعاة الوحدة الأفريقية، وأحد مؤسسي منظمة الوحدة الأفريقية. تعرض لمحاولات اغتيال عديدة بسبب تصرفات حزبه السلطوية، وانقلبت عليه مجموعة من الضباط أثناء سفره إلى فيتنام، فالتجأ إلى غينيا، ومنها أخذ يدعو الغانيين للتمرد بدون جدوى. توفي في رومانيا. له مؤلفات عديدة. "أتكلم عن الحرية"، "يجب أن تتحد أفريقيا"، "الاستعمار الجديد" وكذلك نشر سيرته الذاتية بعنوان "غانا".

Twitter: @ketab_n

القاعة مليئة بالطلبة، وكأن الوضع طبيعي و لم يمس جو الجامعة الانقلاب الذي هز كيان القطر وقلب الأسس التي كانت سائدة في البلد منذ استقلال غانا برئاسة نكروما.

عدنا إلى العاصمة أكرا بعد انتهاء رفعة من إلقاء المحاضرة. وفي الطريق كانت هنالك حواجز كثيرة من قبل الجيش، للقبض على الهاربين من المقربين للسلطة السابقة، ولكن كانت جملة " بروفسور مدعو من قبل جامعة كماسي"، تفتح لنا الطريق وكأنها كانت كلمة السر.

وصلنا العاصمة أكرا، وشاهدنا الناس في الشوارع، واقفين في طابور أمام باصات النقل رافعين أذرعهم إلى أعلى علامة الخضوع للتفتيش، وابتسامة عريضة على شفاههم، استغربنا رفعة وأنا من المنظر الغريب، وقلت لرفعة: هذا سلوك مثالي، لو حدث مثل هذا الانقلاب في بغداد لسالت الدماء للركبة.

قبل أن نصل إلى دار الضيافة الذي كنا نقطن فيه، شاهدنا مكائن ضخمة تحاول رفع تمثال الرئيس نكروما الضخم من قاعدته. وأصطف حشد من الناس على بعد من التمثال يشاهدون عملية رفعه، بصمت غريب.

خيم الهدوء على العاصمة أكرا، وأعلن منع التجول الذي كان يبدأ تطبيقه يومياً عند غروب الشمس، وأغلق مطار أكرا، و لم يعد في استطاعتنا ترك البلد، ولكن حضّرنا حقائبنا لكي نستقل أول طائرة تترك أكرا. غادرنا في أول طائرة متوجهة خارج غانا، وكان في الطائرة نفسها، السفيران الروسي والصيني مع طاقم من موظفي السلك الدبلوماسي للسفارتين.

توجهنا إلى ساحل العاج، وحطت الطائرة قبل ذلك في مطار غينيا،

Twitter: @ketab_n

لم يسمح لنا ترك الطائرة، إذ كان نكروما الرئيس المخلوع، قد وصل المطار. شاهدنا الاستقبال الرسمي من خلال نافذة الطائرة، فرشت له السجادة الحمراء وصدحت الموسيقى العسكرية في استقباله. نزل الطائرة شبح لرئيس دولة بعد أن هوى عرشه أمام أعيننا، وأصبح مقيماً لاجئاً عند رئيس الجمهورية سيكوتوري. فعندما دخلنا غانا، كان الرئيس يلقب بـ«المخَلّص»، لا يجرؤ أحد على ذكر اسمه الحقيقي، تركنا غانا، وأصبح «المخلّص» لاجئاً، هارباً من وجه العدالة! هكذا تهوى عروش هؤلاء الحكام وتتساقط بسرعة!

×××

عام ١٩٦٧ وخسارة فلسطين

في هذا العام أصبحت خُطبْ عبد الناصر الطويلة، أطول مما كانت عليه، وأصبح التكرار الممل يهيمن على خطاباته. واصبحنا لا نستمع إليها كما كنا نستمع لها سابقاً عندما احتلت مصر من قبل بريطانيا وفرنسا واسرائيل عام ١٩٥٦.

و بدأت حرب عام ١٩٦٧ بين مصر وإسرائيل، ولكن لم نكن نتوقع الهزيمة الكبرى، وما سيتكبده الفلسطينيون من خسارة ما تبقى من بلدهم. كنا كلنا آذان صاغية إلى المذياع، عندما بدأت تشتد المعارك، وبعثت سوريا والأردن جيوشها للإشتراك في الحرب، فخسرت الأردن الضفة الغربية وخسرت سوريا الجولان، وقضي على سلاح الجيش المصري ببضع ساعات، وانتهت الحرب بستة أيام.

لكن تعّلم الفلسطينون هذه المرة من تجاربهم السابقة، فلم يتركوا

Twitter: @ketab_n

بلدهم ويهاجروا إلى البلدان العربية كما فعلوا في عام ١٩٤٨، وإنما صمدوا فيه(٨٩).

×××

وفاة كامل الجادرجي

توالت نوبات القلب على أبي رفعة بعد أن أكمل العقد السابع من عمره، كانت تقعده في بعض الأحيان عن العمل لمدة طويلة. كنت أزوره أحياناً في غرفة نومه قبل الظهر، أو كان يبعث عليّ، فأجلس بجانب سريره، أصغي إلى أحاديثه، أشاركه أحياناً الحديث إن كان متعباً لا طاقة له حتى على الحديث.

كان معجباً بالكاتب الأمريكي همنغوي، وأعتبر انتحاره جرأة وشجاعة، فلم يترك المرض يهيمن عليه ليصبح مقعداً وعالةً على الآخرين، وكان في أعماقه خائفاً من الإصابة بنوبة قلبية تقعده عن العمل، ويصبح متكلاً في حياته اليومية على الآخرين، وهو الرجل النشط الذي لا يمكن أن يطيق العيش على هامش الحياة.

لم يمض وقت طويل على تلك النوبات المتسارعة، حتى قضى نحبه. كنت مساء ذلك اليوم في دار والدتي، تساعدني على خياطة فستان، للسهرة التي كانت ستقام تلك الليلة في الجمعية البغدادية.

فوجئت بالسائق حسين عندما طرق باب الدار، قائلا: «رفعة يكول لازم تجين للبيت/ يقول رفعة يجب أن تعودي للدار»! كان حسين قلقاً، ولكنه ظل يردد عندما ركبت السيارة وجلست بجانبه،

٨٩- أنظر كتاب محمد شرارة من الإيمان إلى حرية الفكر، بلقيس شرارة، دار المدى، ٢٠٠٩، ص ٣٥٧-٣٦٦.

Twitter: @ketab_n

«ألبيك يبين مو زين/ يظهر أن صحة البيك غير جيدة». حاولت أن أحصل على إجابة صريحة منه ولكنه كان يتهرب دائماً.

وصلت الدار، فوجدت رفعة في المجاز، بيده سماعة التلفون، أصابعه تدير الأرقام، وأم رفعة في غرفة الضيوف والدموع تنساب من عينيها. كانت الحركة غير طبيعية في الدار، عندما اتجهت نحو غرفة نوم أبو رفعة، فاجأني رفعة قائلا: «بابا مات»! كان خبر وفاته كالصاعقة، ظلت تطن في أذني «بابا مات، مات!».

ذهبت إلى غرفة نومه ورجع أصداء كلمات رفعة تطن في أذني! كان مغطى بغطاء فراشه السماوي اللون من رأسه إلى أخمص قدميه. وقفت وقفة حزن وأسى على فقدانه، كانت الغرفة فارغة، إلا من ضوء خافت باهت. ذابت كلمات رفعة وتلاشت عندما تقربت من فراشه، ثم عادت تطن في أذني « بابا مات! مات!» رجعت إلى الخلف وترددت في أن أرفع الغطاء وأرى وجهه الجامد بلا حياة أو حركة. تركت الغرفة حالاً، لا أريد أن تبقى صورته ميتاً راسخة في ذهني، بل كنت أود أن تبقى صورته وهو حي أمامي، صورة النشاط والحيوية التي اعتدت عليها منذ لقائي به لأول مرة قبل أربعة عشر عاماً في غرفته قرب المدفأة.

بدأ الأصدقاء والأقرباء يصلون، الوجوه مكفهرة، متجهمة وعابسة. وقف الرجال في شرفة الدار، وداخل المجاز، واتجهت النسوة إلى غرفة أم رفعة. تتكرر الأسئلة عما حدث؟

أصابته النوبة القلبية أثناء اجتماعه مع بعض أعضاء الحزب، و لم يستطع أن ينقذ نفسه كما كان ينقذها في السابق في مثل هذه الحالات.

وضع جثمانه في النعش الخشبي، ونقل إلى غرفة الطعام بعد أن

Twitter: @ketab_n

أفرغت من أثاثها. وضع النعش على السجادة الإيرانية التي تغطي الغرفة، وجلسنا حوله، نودعه بدموعنا.

مرت الساعات ونحن جالسون حول النعش، تفرق الأهل والأصدقاء والجيران، وذهبوا إلى دورهم، وبقيتُ جالسة مع أم رفعة وأبنته أمينة حول التابوت معظم الليل. ظلت تنساب دموع أم رفعة من عينيها، تخرج الكلمات الحزينة كآهات من أعماقها تارة، وتخبط ركبتيها أحياناً. فاحترامها لزوجها كان يصل إلى درجة التقديس. كانت هنالك طقوس معينة بينها وبينه. لا تناديه بأبي رفعة و لم أسمعها تلفظ اسمه، فهو «بابا» إن تكلمت مع أولادها، و«عمو» إن تكلمت معي، و«البيك» إن تكلمت مع الطباخ أو المعينين في الدار. ولكن تختفي الطقوس وتزول الرسمانية المهيمنة في الدار، عندما يخاطبها أبو رفعة، فيناديها "منيبة".

جلستْ بجانبي أمينة، تنساب دموعها بصمت. نظرت إلى نعشه المغطى بغطاء الموت الذي جلب من الحضرة الكيلانية، وسرى صوته بأذني، أحاديثه المتنوعة، ضحكاته، سخريته، نقده اللاذع، وألمه العميق مما وصل إليه الوضع من التردي في العراق!

حدقت بنعشه المغطى بستارة الموت، وتراءت صورته أمامي في الحديقة والكاميرا بيده، يلتقط الصور، غرفة التحميض التي يقضي فيها ساعات العصر يوم السبت غالباً، والقطط السائبة التي كانت تلتف حول عشائه في الحديقة في أيام قيض بغداد، وغرفته التي لم تخلو من الناس، بآرائهم ومعتقداتهم المختلفة، من جميع شرائح المجتمع العراقي. أكوام من الصور عششت في ذهني، وبدأت تطفو فوق بعضها عندما كنت جالسة أمام نعشه.

ارتدت أم رفعة لون الحداد، وارتدى الجميع اللون الأسود،

Twitter: @ketab_n

وتجمعت حشود الناس من جميع فئات المجتمع في صباح ذلك اليوم المصادف ١ شباط ١٩٦٨. امتلأت الدار والحديقة والشارع بالمعزين، تركنا الدار للرجال، وانتقلنا لدار ابنه نصير. فرشت الأرض بالسجاد والمساند والفرش، وامتلأت دار نصير صباحاً بالنساء من الأقارب والجيران والأصدقاء.

و علت الأصوات فجأة وخرجت أم رفعة إلى الشارع تجهش بالبكاء، وخرجنا معها، محاولين تهدئتها، عندما رفع النعش ووضع على ظهر سيارة مفتوحة « تنتة»، وسار في الصف الأول خلف الجنازة أولاده والأصدقاء وأعضاء لجان الحزب الوطني الديمقراطي.

كان يود رفعة أن يصور موكب الجنازة، عندما نقل النعش إلى الحضرة الكيلانية، ولكن امتنع عن القيام بذلك، لأن المجتمع لا ينظر للتصوير الفوتغرافي بأنه توثيق، بل هو مخصص لمناسبات الفرح فقط.

ظلت عيوني تتابع موكب الجنازة حتى اختفت من شارع طه وغابت عن ناظري، الشارع الذي قضى أبو رفعة فيه ثلث عمره.

ارتفعت الأصوات بالبكاء والنحيب في مأتم النساء في دار نصير، وطبقت جميع شعائر الحزن في وفاته، وشملت شعائر الشيعة الغربية عن عائلة الجادرجي. لأن الجادرجي كإنسان علماني كان رمزاً لكثير من الناس. تحبه وتعتز به شرائح مختلفة من الشعب العراقي، بقومياته وطوائفه المتعددة.

جلبتْ بعض النسوة بصحبتهن «المُلاية» لقراءة القرآن والأدعية. تقف والمصحف بيدها تقرأ بأعلى صوتها وتخبطه بيديها بإيقاع حزين، ثم تقف بجانبها بعض النسوة على شكل دائري، ويطلبن من أم رفعة أن تشاركهن، فتقف معهن ودموعها تنساب من عينيها، يبدأن باللطم على الوجوه والصدور، مرددات خلف الملاّية أصوات

Twitter: @ketab_n

مبحوحة « أحا، أحا». كانت من جهة أم رفعة حزينة على زوجها، ومن جهة أخرى مضطرة أن تجاري التقاليد الغربية عن ممارستها ومحيطها.

أم رفعة بعد وفاة زوجها 1969.

عاد قارئ القرآن إلى التلاوة بعد فاصل المُلاية، توقف الهمس وساد الصمت، عيون دامعة وعيون منكسة، وعيون محدقة بالوجوه التي تتغير أثناء قراءة القرآن. يتوقف القارئ وتقدم القهوة العربية المرة والماء والسجائر. ترتفع الهمسات ووشوشة الحديث، ويعود البكاء والنحيب كلما دخلت امرأة لمواساة أم رفعة.

كانت «المُلاية» تترك الدار مع النسوة التي جاءت بصحبتهن، ثم يأتي فوج جديد مع «مُلاية» جديدة، ويعاد الفصل ثانية، كما تعاد التراجيديا كل ليلة على خشبة المسرح.

سبعة أيام، امتزج الصباح بالمساء، ونحن في دوامة من النواح

Twitter: @ketab_n

والنحيب والبكاء المتواصل. زرافات من النسوة، متلفعات بالعباءات أو مرتديات ملابس الحداد من الجيران والأقارب والأصدقاء والمعارف، اللون الأسود بأشكاله وأنواعه المختلفة، صوف وحرير وجلد بلمعة وبلا لمعة، ساد أجواءنا.

×××

لم تهدأ الدار أو يخيم عليها الصمت بعد تشييع الجنازة، ولكن علت أصوات الرجال وهم يتولون تنظيف وإعادة فرش غرف الدار، لكي يستقبل أكبر عدد ممكن من الناس القادمين من سائر أنحاء العراق خلال إقامة الفاتحة لمدة ثلاثة أيام.

المطبخ في حركة دائمة، نقلت المواد الغذائية بأنواعها وكمياتها الهائلة، وسلمت للطباخ "فرج" الذي جلب معه طباخين ماهرين هما رشيد وجعفر. ارتفعت أصواتهم بالتعليمات لمساعديهم في فتح علب الدهن وأكياس الرز والطحين وتقشير البصل والخضروات ورق العجين لعمل الفطائر، وامتزجت أصوات القدور والملاعق بالبخار المتصاعد بنكهة الطعام. لم تكفِ ساحة المطبخ لتحضير الطعام فيه، فاستعملت الحديقة الخاصة بالمطبخ لشوي الخراف التي ذبحت منذ الصباح، وطبخ الرز، وانتشرت القدور الكبيرة وغطت مساحة حديقة المطبخ.

أقيم طعام الغداء لمدة ثلاثة أيام فاتحة الرجال، وللنساء في اليوم السابع، معلنا انتهاء الأسبوع الأول من فراق أبو رفعة لنا. فخف البكاء، وجفت الدموع تدريجياً، إلا دموع أم رفعة التي ظلت تنساب من عينيها المحمرتين لمدة طويلة من الزمن.

واستمرت النسوة في زيارة أم رفعة عصر الاثنين والخميس، فكان القارئ يبدأ بقراءة القرآن ولا ينتهي قبل صلاة العشاء، وانتهى مأتم

Twitter: @ketab_n

الأربعين كما انتهى مأتم الأسبوع. فمدت سُفرة فخمة، أنيقة على خوان في أرض غرفة الاستقبال، وهي المرة الأولى التي يمارس فيها هذا الطقس، وشملت جميع المآكل المتوفرة في الشتاء آنذاك، وأثبت الطباخ فرج ومساعده جعفر مهارتهما ثانية، في دقة الطبخ.

×××

ألتحق الطباخ جعفر(٩٠) منذ ذلك الحين وأصبح الطباخ الخاص بالعائلة. كان جعفر طباخاً جيداً، ولكن هنالك قلة من الطباخين في العراق يتقنون العجن وتحضير الفطائر بمهارة جعفر.

بدأ جعفر العمل في المطبخ في قصر الملك فيصل الثاني، حيث كان أحد المسؤولين عن تنظيف وغسل والملاعق والسكاكين والشوك والأطباق، ثم أصبح مساعد الطباخ أحمد أفندي، وثم عمل مساعد طباخ في دار سليمان فتّاح، وكان يرافق عائلة سليمان فتّاح في الصيف إلى اسطنبول، حيث كان يجلبه إلى فندق بيرة بالاس، ويتركه يقضي شهريّ الصيف مع طباخي ذلك الفندق، يتدرب على أيديهم. ينتقل من قسم صنع المعجنات إلى قسم الحلوى والمحاشي، لمدة دامت عدة سنوات. واصبح مسؤولاً عن عمل المعجنات، وبقي عندهم حتى توفى سليمان فتاح. ثم اشتغل مع الطباخ فرج، كنا نستدعيه أثناء إقامة حفلات العشاء في دارنا.

كما تعلم جعفر حتى الأتيكيت التركي، فكان يستعمل كلمة «خانم» للكبار والصغار من الإناث، وكلمة «بيك» للذكور حتى

---

٩٠ – ولد جعفر سعيد عام ١٩٢٨ في مدينة البصرة. ترك البصرة متوجهاً إلى بغداد ١٩٤٠، واشتغل في مطعم تاجران كمساعد طباخ. ثم اشتغل في دار سامي فتّاح، ثم في دار توفيق السعدون لمدة خمس سنوات. وعند وفاة كامل الجادرجي طلب منه رفعة أن يصبح طباخ العائلة، وما زال يواصل العمل منذ عام ١٩٦٨.

Twitter: @ketab_n

وإن كانوا صغاراً. وشارك أيضا في غداء الأربعين، الذي حضرته شخصيات من لبنان، من بينهم السياسي كمال جنبلاط والإديب حسين مروة، وكانت هي آخر مرة التقي بها بحسين مروة قبل اغتياله، كما حضر صلاح البيطار وأكرم الحوراني عن سوريا وغيرهم من القادة السياسيين.

لم أخرجِ من الدار في تلك المدة، وانا كنت مرافقة لأم رفعة لمدة أربعين يوماً، كان رفعة يذهب وحده إلى الجمعية البغدادية للقاء الأصدقاء أو مشاهدة فلم.

عاد رفعة ذات ليلة متأخراً على غير عادته، وأخبرني عن انفجار قنبلة في مدخل الجمعية البغدادية، كان من حسن الحظ أنها انفجرت قبل أن يخرج الناس من الفلم بدقيقتين، ولو أنها انفجرت مع انتهاء الفلم لسّبب ضحايا كثيرة، ولكن أصيبت شريفة زوجة المحامي أمين رؤوف بجروح ونقلت إلى المستشفى.

كانت هنالك حملة منظمة ضد الجمعية البغدادية منذ تأسيسها، مع انها كانت جمعية فنية تهتم بالتراث والفنون عامة وليس لها صبغة سياسية تصطبغ بها، ولكنها عُرفت منذ اليوم الأول من أنها جمعية تمثل الخاصة من المثقفين فهوجمت بعنف وانتهت بانفجار قنبلة في مدخلها.

×××

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس

انقلاب ١٩٦٨ وقتل حارث ناجي شوكت

أصبحت أم رفعة بعد وفاة زوجها، تجلس في نفس الكنبة، متشحة بالسواد، لا تترك مقعدها، إلا إذا نادى عليها الطباخ في طلب المواد التي سيطبخها ذلك اليوم، ولم تفارق تلك الكنبة لعام كامل تقريباً، هجرت حتى شرفة الدار التي كانت تشرب فيها قهوة الصباح، والحديقة الواسعة التي كانت تستقبل في الصيف ضيوفها، بل هجرت حتى غرفة نومها، لأنها ملاصقة لغرفة نوم أبو رفعة.

دفنت بصمت أحزانها التي عانت منها في أعماقها، وسيطرت عليها وأبعدتها عن الواقع، وأصبحت غرفة النوم مرتبطة في مخيلتها بالموت، تخاف شبحه الذي اختطف رفيق حياتها، فتجد الأعذار غير المقنعة عندما نطلب منها أن تنام في غرفة نومها. واعتبرت كنبة غرفة الاستقبال التي انقلبت إلى سريرها في الليل، أكثر راحة من سريرها في غرفة النوم. ولم نستطع تغيير رأيها.

مضت أربعة أشهر على وفاة أبو رفعة، سافرتُ إلى بيروت عندما سافر رفعة إلى الخليج وإنكلترا لمتابعة أعمال مكتب الإستشاري العراقي. كنت متعبة من جو الحزن الذي هيمن على الدار، وعدت إلى بغداد في ١٦ تموز ١٩٦٨. في اليوم التالي قام حزب البعث بانقلاب على حكومة عبد الرحمن البزاز، رئيس الوزراء والقي القبض عليه، ونفي رئيس الجمهورية عبد الرحمن عارف إلى تركيا. وترأس

Twitter: @ketab_n

الانقلاب عبد الرزاق النايف بمساعدة أحمد حسن البكر وصالح مهدي عمّاش، وأتفق معهم سعدون غيدان قائد الحرس الجمهوري في القصر، الذي أصبح وزيراً للداخلية.

وفي اليوم الثاني، ألتفتت إليّ أم رفعة وهي تقول: «عيني ليش جيتي، جان ظليتي بلبنان، على شنو جايه، على الانقلابات؟». كانت أم رفعة محقة في ذلك، فقد أعلن منع التجول، ولكن كنا نعتقد أننا بعيدون هذه المرة عن الإرهاب والاضطهاد اللذين عانينا من وطأتهما في انقلاب عام ١٩٦٣.

ولكن لم تمر بضعة أيام على الانقلاب، حتى قتل حارث ناجي شوكت، أبن خالة رفعة، وكانت طريقة موته غريبة! بل كانت تجسيماً للقسوة والعنف الذي يضمره المستقبل للعراق. كان حارث شوكت بعثياً معتمداً عليه في حزب البعث، ويظهر أنه خالف بعض تعليماتهم التي أدت إلى التخلص منه.

طرق باب داره صباحاً ثلاثة أشخاص، كان وحده، حيث كانت زوجته مع أولادها في تركيا. فتحت لهم الخادمة الدار، طلبوا منها أن تترك الدار. وجّه القابضون عليه مسدساتهم إليه، وأنذروه بألا يتحرك من مكانه، فتسمر في مكانه كالتمثال، فقد كان تحت رحمتهم. أُجلس على كرسي وأوثقت الحبال حوله، وعرفَ في أعماق نفسه أنه جالس على كرسي الإعدام، قبل أن يسمع إطلاق الرصاص من فوهة مسدساتهم.[٩١] وأنغرز الرصاص في أعماق جسده، فأخترق أحشاءه، الدم يتدفق من أمعائه، يسيل دمه على الأرض وهو موثق بالحبال المجدولة حوله والمثبتة بالكرسي الذي أجلسوه عليه. بعد

٩١– سرت شائعة أن ناظم كزار مدير الأمن العام آنذاك، كان أحد الذين أطلقوا النار على حارث.

Twitter: @ketab_n

أن تركوا الدار، حاول حارث بقوته البدنية وجسده الرياضي، فك الحبال المجدولة حوله، سقط من الكرسي على الأرض، كانت قواه تخور ولكن قبل أن يهيمن الوهن عليه، ويصبح ضعيفاً، ساق سيارته إلى مستشفى الحيدري القريب من داره، لكنه قضى نحبه بعد يومين. وتكلم بإسهاب وبالتفصيل لأحد أقربائه. لكن كلماته لم تخترق جدار الرعب الذي أسدل ستائره على العراق، وظلت قصته قابعة في الأعماق، يشوبها الغموض، ولم يتفوه أحد بكلمة حتى يومنا هذا، فقد أصبح العراقي مطّوقاً بالخوف. لكن الشبهات حامت حول أناس مهمين، وظلت شائعة غير موثقة، وطمست آثار مجزرة اغتياله، مع المجازر التي تلتها!

حارث شوكت.

وعد عبد الرزاق النايف رئيس الوزراء آنذاك، عائلته بالتحقيق في حادث اغتيال أبنهم، لم يمض إلا أسبوعين، حتى حدث انقلاب آخر على الانقلابيين، في ٣٠ تموز، ووضع عبد الرزاق النايف في طائرة أقلته إلى لندن، وحل محله أهالي قرية تكريت في الحكم.

Twitter: @ketab_n

مقبولة، خالة رفعة.

حضرت مأتم حارث الذي أقيم في دار والده ناجي شوكت. كانت والدته، مقبولة ببشرتها البيضاء، وجسمها الصغير النحيل، تنساب دموعها بصمت. تمسحها بمنديل أبيض. ما أصعب معاناة الأم في مثل هذه اللحظات، عندما يودع الابن الحياة، ويدفن تحت التراب في قبر قبل والديه! نظرتُ إلى وجهها الحزين، وقد حفر الزمن أخاديده اللعينة على قسمات وجهها، ولكن ما زالت مسحة الجمال والأناقة ظاهرة عليها. كانت من بين قلة من النساء السافرات في بغداد منذ عام ١٩٣٢. وكانت طيبة القلب، يحبها ويحترمها جميع أفراد العائلة والأصدقاء، تمتاز عن شقيقتيها بتعلمها الفرنسية في مدرسة الراهبات، ولهذا استمرت في مطالعة الكتب الفرنسية حتى ضعف نظرها و لم يعد بمقدورها القراءة.

كان التأثير التركي واضحاً في إقامة مأتم حارث، جلستْ النساء والفتيات والصبايا على الكراسي، المصفوفة حول جدران الغرفة الواسعة، أما قارئ القرآن، فكان جالساً في زاوية خارج الغرفة. كان

Twitter: @ketab_n

الهمس يدور على الشفاه عن اغتيال حارث، عندما يتوقف القارئ عن قراءة القرآن، و لم يكن أحد يتجرأ على السؤال بصوت مرتفع! فقد دخل الإرهاب باب الدار الواسعة، وهيمن على غرفه، وعلى الذين يعيشون فيها، بل رافق حتى الأصدقاء والأقارب من المعزين، نحس بثقل الهواء المفعم برائحته. أشاع أسلوب موته العنيف، الرعب بين الناس، وأصبح الخوف شبحاً وحشياً يتغلغل في أعماق نفوسنا، نعاني منه ويبعدنا عن واقع الوجود ومتعة الحياة. كان اغتيال حارث بمثابة ساعة الصفر مؤشراً عن الآتي وعما سيقبل عليه العراق من أحداث العنف والسجن والتعذيب والقتل في العقود المقبلة.

×××

عودة والدي وشقيقتي حياة إلى بغداد ١٩٦٨

عاد والدي من لبنان بعد أن قضى سبعة أعوام متنقلا بين الصين والاتحاد السوفيتي ولبنان. وعادت شقيقتي حياة بعد أن أكملت دراستها في جامعة موسكو، وحصلت على الدكتوراه في الأدب الروسي، وأجتمع بذلك شمل العائلة لأول مرة منذ سنوات عديدة، إلا شقيقتي مريم التي ظلت بعيدة عن العائلة، لأنها كانت تعيش مع زوجها جيم في لندن. كما عدتُ إلى الوظيفة في كلية البنات، فقد صدرت تعليمات بإعادة المفصولين.

عدنا لنرأب صدع عقد من القطيعة بيني وبين شقيقتي حياة، إنه عمر طويل!! عادت بعد أن أنهت دراستها في جامعة موسكو، ولكنها ظلت غير منفتحة، حذرة لا تذكر ما مرّت به من معاناة من قبل الحزبيين. ظلت الحارس الأمين، كاتمة الأسرار، محافظة على الالتزامات شبه المقدسة بالنسبة للملتزمين، التي لا يمكن الطعن بها. كانت تفلت بعض الجمل، الناتجة – بالدرجة الأولى – عن زلة لسان أو

Twitter: @ketab_n

الصدفة، من خلال جدل كان يدور بينها وبين والدي، فاكتشفتُ نتفاً من حياتها ألقت الضوء ولكنه ظل ضوءاً خافتاً.

كان زواجها سبباً في التقارب بيننا و لم يعد غيرنا بعد أن سافرتْ مريم وتزوجت في إنكلترا ولكن رغم بعد مريم عني وقلة الرسائل بيننا، ظلت قريبة مني! بدأتُ أتعرف على أختي حياة التي كانت تعيش بيننا ولكننا لا نعرف بعضنا. وأصبحتْ زيارتي لها بين يوم وآخر، نتحدث في مواضيع عامة، بعيدين عن طرق المواضيع الخاصة، كأن هنالك التزام خفي من قبلنا دون أن نشعر به، فوضعنا خطاً أحمراً لما نقول أو لا نتطرق إليه، نحرص على أن لا نتخطاه.

×××

هدم بناية بستان الفحامة من قبل محافظ بغداد خيرالله طلفاح

أصبح بستان الفحامة المطل على نهر دجلة الملجأ الذي نتقي به حرارة الأوضاع العامة، الساخنة في بلدنا، خلال مدة عزلي واستقالة رفعة من الوظيفة. فصمم رفعة غرفة استقبال ومطبخاً صغيراً وحماماً تطل جميعها على «طارمة/ شرفة» واسعة تستند على أعمدة خشبية قديمة، كان قد جمعها عمه رؤوف الجادرجي من دار والده، رفعت الجادرجي، وتنتهي بعامود حديث من تصميمه. يتوسطها طاولة حيث يجلس حولها الأصدقاء ظهراً في شتاء بغداد الجميل، تمتزج أصوات الأطفال، أولاد الأصدقاء، الذين يلعبون ويتراكضون، بأحاديث وضحكات الكبار. يرتفع دخان الشواء على شكل لولبي منتشر في الهواء، نشم رائحته، فنتجه نحو الطباخ، الواقف أمام طاولة عليها طست كبير من اللحم المفروم، يأخذ كرة من اللحم ويمدها على السيخ الحديدي بمهارة وسرعة غريبة، يضعه على المنقلة، ليعود

Twitter: @ketab_n

إلى كرة ثانية وسيخ ثاني، نشاهد عملية الشواء، فيتغير لون اللحم الأحمر تدريجياً، نشعر بالجوع، وتنفتح الشهية، ولكننا نسير باتجاه التنور لنشاهد عملية شوي الدجاج من قبل الرجال، ينضج الدجاج ويسحب من السيخ الخشبي، حتى تبدأ النسوة بعمل الخبز، فالنسوة هن المشرفات على تلك العملية التي هي من اختصاصهن.

كان عدد الأصدقاء يتراوح عادة بين العشرين والثلاثين شخصاً، وفي بعض الأيام كنا ندعو الفنانين من الرسامين والنحاتين والمعماريين، فيصل العدد إلى ستين شخصاً أو أكثر أحياناً.

كنا نعود إلى الطاولة التي بدأت تغطى بأنواع اللحوم اللذيذة والمآكل الشهية، ترتفع الأصوات بمناداة الذين اتجهوا نحو اكتشاف أسرار البستان، بنخيله وحمضياته، وفاكهته المنوعة. نجلس حول الطاولة حتى غروب الشمس.

بستان الفحامة 1967، جيرا إبراهيم جبر، محمد عبد الوهاب، مازن الزهاوي، رفعة، فخري خليل.

Twitter: @ketab_n

كانت تلك هي أجمل اللحظات، عندما نجلس على شاطئ دجلة، نحدق بقرص الشمس الأحمر، منعكسة أشعتها المتراقصة بين أوراق الأشجار وسعف النخيل على ماء دجلة الصافي كالمرآة، فتلونه بأشعتها، وتذوب الشمس تدريجياً وتتلاشى أشعتها بين الأغصان وحفيف الأشجار، حتى تتوارى عن الأعين المحدقة بها، فتبدأ حركة غير طبيعية بين الطيور المتجهة بسرعة، تحتمي بين الأشجار وأغصانها من الليل، وترتفع مناداتها وزقزقتها بين أوراق الشجر، ثم يخيم صمت رهيب، فنترك بستان الفحامة متوجهين كل منا إلى داره.

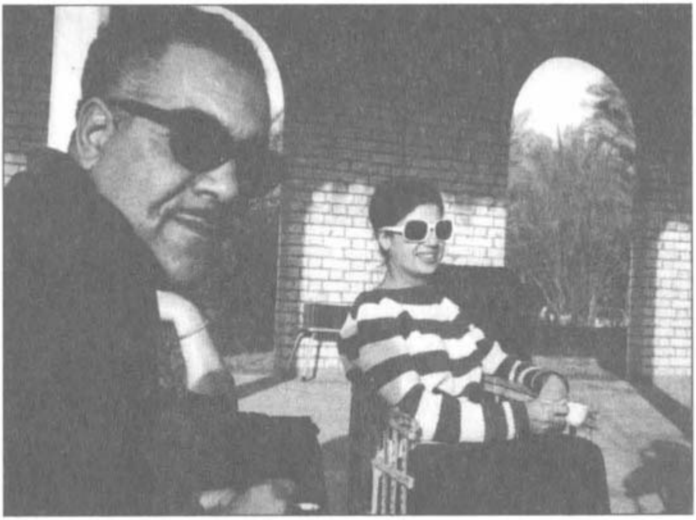

بلقيس والرسام اسماعيل الشيخلي[٩٢]، ١٩٦٧

٩٢- الرسام اسماعيل الشيخلي: ١٩٢٤- ٢٠٠١، حصل على دبلوم من الفنون الجميلة ١٩٤٥، سافر إلى باريس ودرس الرسم في École nationale supérieure des beaux-arts، عاد إلى بغداد ١٩٥١، عمل مدرساً للرسم في معهد الفنون الجميلة، زميل جماعة الرواد ١٩٤٥، أحد المؤسسين لجمعية الفنانين ١٩٥٦، شارك في أغلب المعارض الفنية داخل وخارج العراق. عمل مديراً عاماً لدائرة الفنون التشكيلية بوزارة الثقافة والأعلام ١٩٨٦.

Twitter: @ketab_n

كما كنا أحياناً نقضي ليالي الجمعة في فصل الصيف في الفحامة، فنصل عند غروب الشمس، قبل أن يسدل الليل ستاره، ويهب النسيم العذب من ضفاف دجلة، ويتحول إلى رطوبة عذبة منعشة، فتنسينا متاعب النهار ومشاكله.

.. وجد خير الله طلفاح[٩٣] في بستان الفحامة ما يصبو إليه، وفكر أن يستولي عليه، فهو في منصب يخوله أن يقوم بالمخالفات القانونية من غير محاسبة، فمن له الجرأة أن يقف أمامه بعد المشانق والقتل واختفاء الناس، الذين عارضوا السلطة! ولكن عندما وجد رفعة أن طلفاح طامع ببستان الفحامة، أقام دعوى عليه، وفي اليوم الذي صدر الحكم ضده، كان جواب طلفاح على ذلك أن بعث البلدوزر إلى بستان الفحامة. فابتلعت الأقواس وهدمتها، ورفعت الطابوق «الفرشي» من الأرض وكسرته، وتحطمت الأعمدة الخشبية، والأثاث ومرافق الحمام. اقتلع البلدوزر كل ما يعترض طريقه، وانقلب حطاماً. إنه درس لكل من يعترض على أسياد البلاد الجدد! وتحول القانون إلى عجينة يخبزونها كما يشاءون حسب مصالحهم.

×××

بدأت مطاردة الناس وزجهم في المعتقلات والسجون وأصبحت روتيناً يومياً، وشملت العائلة ثانية. فألقي القبض على منذر عباس

٩٣- خير الله طلفاح : هو خال الرئيس العراقي المعدوم صدام حسين ووالد زوجته وأخيها عدنان طلفاح وزير الدفاع حتى عام ١٩٨٩. ولد في قرية العوجة جنوب تكريت. عمل في بداية حياته المهنية معلماً في منطقة الكرخ في بغداد، واعتنق الأفكار القومية. ثم أصبح ضابطاً في الجيش في تكريت. وسجن لمدة خمس سنوات بسبب تأييده لحركة رشيد عالي الكيلاني. فطرد على اثرها من الجيش عام ١٩٤١. عندما تسلم صدام حسين منصب رئيس الجمهورية، قام بتعيين خير الله طلفاح محافظاً لبغداد. بعد تقاعده، عمل خير الله طلفاح مؤلفاً وقاد حملة لاعادة كتابة وتوجيه التاريخ لحين وفاته.

Twitter: @ketab_n

زوج ابنة خالة رفعة، واعتقل في قصر النهاية، وقد نال منذر عباس قسطه من التعذيب العنيف، الذي لم يتكلم عنه، حتى بعد أن أطلق سراحه، وقد انطوت تلك الصفحة بوفاته و لم يسجل شيئا مما حدث وعانى من وحشية حزب البعث في نزع الاعترافات من الناس.

أصبحت أم رفعة تقضي معظم لياليها في دار منذر، تواسي ابنة أختها أسماء الكيلاني، محاولة في شتى الطرق مساعدتها لكي يطلق سراح زوجها. وقد فاحت رائحة قصر النهاية النتنة وتعذيب المعتقلين حتى الموت، منذ انقلاب عام ١٩٦٣، حيث لقي العديد من اليساريين والشيوعيين والوطنيين حتفهم. كان من جملة الطرق المستعملة في التعذيب، وضع عدد كبير من المعتقلين في غرفة صغيرة حتى ينتهي الأوكسجين من هواء الغرفة، وقد نجى منذر عباس من الموت، عندما نقل في الوقت المناسب من قبل أحد الحراس الذين كان له معرفة سابقة به.

لم يمضِ عام على انقلاب ١٧ تموز، حتى بدأت التصفيات الجماعية بالناس، فقد حصل حزب البعث على قائمة بالأشخاص الذين يدعون في الاحتفالات الرسمية التي تقيمها السفارة البريطانية عادة، والمحتوية على ما يقارب مئة وثمانين أسماً، وكان من بين الأسماء، اسم رفعة مع عدد من أصدقائنا من الفنانين والمعماريين والأطباء والمهندسين. ونشرت تلك القائمة في إحدى الصحف المحلية، التي اعتبرت لأسباب ما زلنا نجهلها، باعتبارها قائمة بأسماء الأعضاء الماسونيين في العراق.

كنا عائدين إلى بيروت، من مؤتمر Deylos Symposium الذي دعينا إليه من قبل مؤسسة دوكسيادس عام ١٩٦٩، حيث عقد على ظهر يخت دوكسيادس في الجزر اليونانية. كان المدعوون خليطاً

Twitter: @ketab_n

من المعماريين والأكاديميين والباحثين وعلماء في الأنثروبولوجي والسسيولوجي والاقتصاد وعلم الفضاء. وكان من بينهم عالمة الأنثربولوجي الأمريكية ماركريت ميد Margart Mead[٩٤]، كانت امرأة مسنة آنذاك، لكنها كانت نشطة عندما القت محاضرة بهذه المناسبة، وأجابت عن معظم الأسئلة التي وجهت إليها. كما حضر المؤتمر المعمار والمخترع الأمريكي الشهير ريشارد بكي فولر[٩٥]،

---

٩٤ - ماركريت ميد: ١٩٠١-١٩٧٨، عالمة أمريكية في الأنثروبوجي، حصلت على درجة .B.A من كلية برنارد، و.M.A و.PH.D، من جامعة كولمبيا في نيويورك. سعت الى التبسيط والوعي بأهمية علم الأنثروبولوجي وجعله في متناول الجمهور. الدراسة التي قامت بها، وموقفها من الجنس في جزر الباسيفك الجنوبية والجنوبية الشرقية، أثرت وساهمت في الثورة الجنسية لعام ١٩٦٠. كما قامت بدراسة عن الجالية اليهودية في مدينة نيويورك، ووجدت أن الأم في العائلة اليهودية هي الميهمنة وتدير العائلة.

٩٥ - ريشارد بكي فولر Richard Buckminster Fuller : ١٨٩٥ -١٩٨٣، من مواليد بوسطن في ولاية مساشوست. معمار أمريكي ومنظّر وكاتب ومخترع. بدأ في الإختراع و لم يتجاوز سن ١٢ من عمره. كان ذا رؤى مستقبلية في التصميم المعماري. التحق بأكاديمية ملتن في ماساشوست، آدم هوس، وفصل مرتين من جامعة هارفرد، بسبب "عدم المبالاة والرغبة فِي الدراسة". عملِ خلال الحرب العالمية الأولى كعامل راديو على ظهر الباخرة، ومحرراً للنشر، ورئيساً لفرقة الإنقاذ للزوارق.

فكّر فولر عام ١٩٢٧ في أن يكرس وقته في "البحث عن المبادئ الرئيسة التي تتحكم بالكون، ويساعد في تقدم تطور البشرية وإيجاد طرق العمل الي تتماشى معها". وكانت مقولته :"أكثر انتاجاً بأقل طاقة". درّس وأدار في عام ١٩٤٨- ١٩٤٩ في كلية الجبل الأسود في ولاية كارولانية الشمالية، بمساعدة مجموعة من الأساتذة والطلبة، حيث بدأ في إعادة ابتكار مشروع geodesic dome، وسجل براءة الإختراع من قبل مؤسسة التسجيل للاختراع في الولايات المتحدة، ولو إن هذه القبة اخترعها قبله د. ولتر بورفيلد قبل ٣٠ عاما. وشاع استعمال القبة في جميع أنحاء العالم، ويعود الفضل له في ذلك. وعلى أثرها كلف بتشيد قبة للبحرية في شمال كارولاينة. وصنعت أول قبة بمساعدته مع تلامذته في جامعة أوريغن في عام ١٩٥٩.

Twitter: @ketab_n

الذي كان برفقة حفيدته. كان نشطاً، يشارك في جميع فعاليات المؤتمر بالرغم من تقدمه في العمر. كما كان مرحاً، ففي إحدى المناسبات، تأخر تقديم الطعام في إحدى المطاعم التي حجزت للمشتركين في الندوة في جزيرة ميكونوس، وبان على وجوه الحاضرين ملل الانتظار، فما كان منه إلا أن قفز على إحدى الطاولات وبدأ بالرقص، وشارك الجميع في تشجيعه على الاستمرار.

ألقى فولر محاضرة ليلة نزول رائد الفضاء ألامريكي آرمسترونك على سطح القمر، حيث بقينا في الإنتظار حتى الساعة الرابعة صباحاً، عندما حط آرمسترونك، وسار على سطح القمر، فانتهت الليلة بالتصفيق الحاد، حيث شاهد تلك اللقطة ما يقارب من ٥٠٠ مليون شخص في العالم آنذاك، إذ كانت البداية في تغيير مستقبل العالم وامكانياته في التقدم العلمي والمعرفي بالنسبة للفضاء وموقع الإنسان في الكون.

عندما وصلنا بيروت، أُخبرنا من قبل العائلة في بغداد، آلا يعود رفعة

طور خلال نصف القرن أفكاره التي تتعلق بالتصميم والاختراعات، بايجاد سكن عملي رخيص. كما قام بتوثيق حياته وفلسفته وأفكاره بكتابة يومياته، بـ ٢٨ مجلد، وقام بتمويل بعض تجاربه. عمل كمصمم وعالم ومطور وكاتب وألقى محاضرات في جميع أنحاء العالم.

ففتتح في باريس مؤتمر المعماريين العالمي في باريس – World Design Science Decade من ١٩٦٥–١٩٧٥. والذي ركز على "استعمال المبادئ العلمية لحل مشاكل البشرية والإنسانية".

كان فولر يعتقد ان المجتمع، سيعتمد في المستقبل القريب بالدرجة الأولى على مصادر الطاقة الشمسية، والريح. وكان يعتبر نفسه "مُلك العالم"، كما صرح من أن أعماله هي "ملك البشرية"، وأطلق عليه في العام الذي التقينا به في المؤتمر ١٩٦٩، Humanist of the year.

Twitter: @ketab_n

إلى العراق في الوقت الراهن لأن أسمه نشر في قائمة الماسونيين! و لم يكن لرفعة أية علاقة تربطه بالماسونية، فاستغربنا من ذلك، لأن القائمة بأسماء أعضاء المجمع الماسوني كانت مودعة في قاصة/خزنة في بنك الرافدين منذ عام ١٩٥٨. وذلك بعد أن أغلق المجمع الماسوني، وكان باستطاعة الحكومة الحصول عليها من البنك، ولكن شملتنا الموجة الثانية من الإرهاب، وعدت إلى بغداد وحدي.

حصلت الحكومة على القائمة من البنك بعد مدة، كان معظم الأعضاء الماسونيين، من العهد الملكي الذين تركوا العراق بعد ثورة ١٩٥٨، وعاد بعضهم إلى العراق بعد انقلاب ١٩٦٣ إذ شعروا بالأمان بعد القضاء على رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم، وانحسار التيار اليساري والشيوعي. كان البعض الآخر مهنيين لا علاقة لهم بسياسة العهد الملكي السابق.

و بدأت حملة جديدة من الرعب بين الناس، فألقي القبض على بعض الأعضاء، وسيقوا إلى معتقلات الأمن، وجرى التعذيب البشع بحق البعض من المسنين في العمر.

×××

انتهت تراجيديا الماسونيين، وبدأت تراجيديا جديدة، شملت بعض معارفنا، أصبحت مشاهد اللقطات سريعة من المآسي التي نعيشها يومياً، تذاع بعد انتهاء برنامج الأخبار التي شملت شرائح مختلفة من المجتمع.

كانوا يعلنون عن تلك اللقطات من خلال شاشة التلفزيون، في مشاهدة «الخونة والمجرمين والمخربين» الذين وقّعوا على اعترافات

Twitter: @ketab_n

انتزعت منهم تحت التعذيب الرهيب. وتجلت أمام أعيننا مأساة «زكي عبد الوهاب»[٩٦]، الذي كان يتكلم بصوت خافت، بطيء، متهماً نفسه بالجرائم التي وجهت إليه من قبل جلادي الحكومة. كان ذا وجه ضامر، وعيون باهتة زائغة، خالية من بريق حياة، ورقبة دقيقة كرقبة طفل. إذ كان زكي عبد الوهاب من المحامين الناجحين في العراق، وأصبح مدير بنك الرافدين بعد ثورة ١٤ تموز، وكان ديمقراطياً يساري التفكير. كان الألم يعتصرني، كلما أشاهد مثل هذه الاعترافات على شاشة التلفزيون العراقي، ثم تلتها اعترافات سعد شاكر ومدحت الحاج سري أمين العاصمة السابق، وغيرهم، من الذين أعدموا في تلك المدة.

كنت أنتقل من مأتم إلى آخر، لكثرة المآتم في بغداد، خيم الحزن علينا وعلى معارفنا وأصدقائنا. كان مدحت الحاج سري، أمين العاصمة ورئيس الجمعية البغدادية، أثناء حكم الأخوين عبد السلام عارف وعبد الرحمن عارف، كان نشطاً في مساعدة البعثيين ونقل السلاح لهم عن طريق سوريا خلال حكم عبد الكريم قاسم. وكان محسوباً على القوميين، وكانت إحدى هواياته جمع الكبريت «الشخاط» المتنوع، خلال رحلاته خارج العراق، وأصبح معظم أصدقائه يجلبون له الكبريت، فزادت وكبرت المجموعة التي كان يضعها في وعاء كبير في مدخل الدار.

و بجانب إعدام الناس والقضاء على المؤامرات، وصلت الموجة

٩٦ – زكي عبد الوهاب: محامي، شقيق الكاتب عطا عبد الوهاب، كان عضواً في الوطني الديمقراطي، الجناح اليساري، ترك الحزب ١٩٤٧، أصبح مدير بنك الرافدين عام ١٩٥٨، في عهد عبد الكريم قاسم. القي القبض عليه ١٩٦٩، وأعدم في العام نفسه بتهمة ملفقة.

Twitter: @ketab_n

إلى التدخل في أصغر تفاصيل حياة الناس الخاصة، فشملت حتى مظهرهم وقصة شعرهم.

×××

صالح مهدي عماش، نائب رئيس الجمهورية والمني جوب

كانت الموضة الدارجة آنذاك «الميني جوب»، فكانت بعض فتيات الكليات يرتدين التنورات القصيرة جداً فوق الركبة، كاشفات عن جمال السيقان إن كانت ممشوقة الطول، أو مكتنزة باللحم، وأصبح شباب الكليات يطولون شعورهم كموضة شعر المغنين الإنكليز «بيتلز» حيث ترجمت الكلمة إلى العربية بالخنافس/Beetles، بينما الصحيح هي كما جاءت بالإنكليزية Beatles/القارعون أي (قارع الطبل).

فأصدر نائب رئيس الجمهورية صالح مهدي عمّاش[٩٧]، تعليمات تقضي بمنع الشعر الطويل والتنورات القصيرة ومخالفة تلك التعليمات تترتب عليها عقوبات شديدة، كما اعتبرت مخالفة للأخلاق والعرف في بلد مثل العراق! فهجمت بذلك العقلية الريفية المحدودة النظرة على المدينة، وكانت بداية لاتجاه منحرف خطر، وهو التدخل حتى في القضايا الصغيرة الخاصة التي تتعلق بحرية الفرد، وبذلك حرمت الحكومة الفرد من أبسط حقوقه، وهو حرية مظهره أو زيه.

---

٩٧ - ولد صالح مهدي عماش، عام ١٩٢٤-١٩٨٥، أكمل دراسته في بغداد، والتحق بالكلية العسكرية ودرس فيها (١٩٤٥-١٩٤٨) وتخرج ضابطا. أسهم في الحرب الفلسطينية عام ١٩٤٨. تخرج من كلية الأركان ببغداد ١٩٥٤. اختير وزيراً للدفاع بعد انقلاب ١٤ رمضان (٨ شباط ١٩٦٣)، ثم أقصي بعد عدة أشهر ونفي إلى القاهرة. اختير وزيراً للداخلية عقب انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ وعين نائباً لرئيس الوزراء إضافة إلى منصبه وزيراً للداخلية من المدة ١٩٦٨ لغاية ١٩٧٠. عين سفيراً في موسكو، ثم باريس وفلندا. مات في ظروف غامضة.

Twitter: @ketab_n

كنتُ ذات يوم بعد الظهر في انتظار رفعة في المكتبة، عندما فوجئت بعدد من الطالبات المرتعبات يختبأن في مكتبة الكلية، والقلق باد عليهن، كن ينظرن من نافذة المكتبة المطلة على مدخل باب الكليًة حيث وقفت سيارة للشرطة، تتصيد الفتيات. وعندما نجحت الشرطة في اصطياد إحدى الفتيات، قفزن بين كراسي المكتبة، بفزع وحيرة وقلق، محاولات الاختفاء عن أعين الشرطة. نظرت من النافذة وشاهدت شرطي هجم على فتاة وبيده فرشاة غمسها بطلاء أصفر، ولوث شعرها، فسالت قطرات الطلاء على رقبتها وملابسها، مستغيثة ومحاولة الهرب من بين قبضتي الشرطي. ولكن حاصرها شرطي آخر بفرشاة مغموسة بطلاء أحمر اللون، وغطى ساقيها، فسال على قدميها. علا صراخها مستنجدة بالمارة من الناس في الشارع ولكن ليس هنالك من يحاول إنقاذها من بربرية الشرطة، وامتزج صراخها بضحكات الشرطة الغبية. طلبتُ من الموظفة المسؤولة عن المكتبة بعد الظهر، أن تحافظ على الفتيات ولا تسمح لهن بالخروج إلا بعد أن تتأكد من أن الشرطة قد تركوا باب الكلية. نجت الفتيات المختبئات في المكتبة من براثنهم. كان ذلك السلوك البعيد عن اللياقة والأدب من الشرطة، هو تطبيق لتعليمات نائب رئيس الجمهورية صالح مهدي عماش، وكان العقاب عبرة ودرساً قاسياً للطالبات اللواتي يرتدين «ميني جوب». أما الشباب، فكانوا يجمعون في سيارات الشرطة التي تقف أمام محلات الحلاقين، فلا يتركون المكان قبل حلق رؤوسهم.[٩٨]

٩٨- كتاب "من حوار التفاهم إلى حوار الدم: « شكل عماش جهازاً خاصاً أسماه «شرطة الآداب» وكلفه بمهمة كبح «المتبرجات» وشمل قراره أكثر ما شمل طالبات الجامعة والموظفات وبدرجة أقل عامة الشعب. وصادفت إجراءاته تلك مع عودة شاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري من غربته الطويلة إلى بغداد، ولكم كانت مفاجأة الجواهري عندما سمع بتدخلات عماش ضد الحريات الشخصية، فاضطر

Twitter: @ketab_n

عم الرعب هذه المرة بين شباب وشابات جامعة بغداد، كما شمل المدارس الثانوية والمتوسطة، ومؤسسات الدولة، والمديريات والوزارات.

كان رفعة بشعره الطويل يراجع الدوائر الحكومية المتعلقة بالعمل في مكتبه الاستشاري العراقي، ويظهر أن شعره الطويل أصبح موضوع بحث حتى في مجلس الوزراء، فبعث عليه وزير التخطيط جواد هاشم ودار الحديث بينهما:

قال له: «لقد بُحث موضوع شعرك في مجلس الوزراء ليلة أمس، ولا يدرون كيف يتوصلون إلى حل لهذه المشكلة! فهم من جهة يجمعون الشباب ويقصون شعورهم، ومن جهة أخرى يجدون أن رجلاً بمنزلتك حيث تعتبر قدوة للشباب، ما زال شعرك طويلاً! ولهذا أجد من الأفضل أن تقّصر شعرك ولو قليلاً، وتبعد نفسك عن المشاكل التي أنت في غنى عنها!»

فأجابه رفعة: «بعض المعماريين الأوربيين الذين يزورون العراق، يستغربون من التناقض الموجود في العراق، فهنالك تقدم محسوس في الرسم والعمارة والفنون الأخرى، بينما هنالك تخلف في النواحي الإجتماعية».

وهو الناشد للهدوء إلى الاحتجاج عليه قائلاً:

نبــأت أنك تــوسع ... الأزيـــاء عـتـاً وإعـتـسـافـا

و تقــيس بالافتــار ... أرديـــة بـحـجـة أن تـنـافـا

أترى العفـاف مقاس ... أقـمـشـة؟ ظلمت إذا عفافا

من لم عقبى الضمـير ... فـمـن ســواه لــن يـخـافـا

و استمرت سجالات شعرية بين الاثنين، انتصر فيها الناس والرأي العام للجواهري واضطرت وزارة الداخلية إلى التراجع عن قرارها».

Twitter: @ketab_n

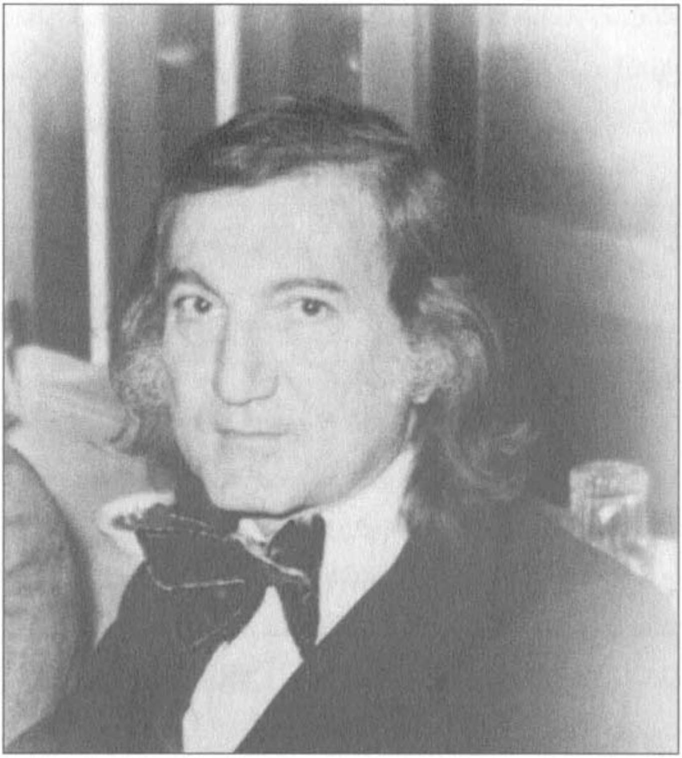

رفعة بشعره الطويل، تصوير: د.علي كمال.

طبعا لم يبال رفعة بهذا التهديد، فلا يسمح لأحد في التدخل في أموره الخاصة ويملي عليه أوامر وتعليمات اعتباطية، تعرضها الحكومة على الناس. كما إن فيها إذلالاً وإهانة للفرد وانها تعدٍ صارخ على أبسط حقوقه.[(٩٩)]

×××

٩٩- عندما كان رفعة زائراً في فلندا، طُلب منه زيارة السفارة بمناسبة الاحتفال الذي تقوم به، قال رفعة: «عندما رآني، عماش، جاء إلي وقبّل يديّ أمام الناس»، واصبحتُ في موقف حرج، لا أدري ما الذي سأقوم به.

Twitter: @ketab_n

مسابقة البرلمان الكويتي

أقامت الحكومة الكويتية في نهاية عام ١٩٦٩ مسابقة دولية، دعت إليها ستة مكاتب معمارية ذات شهرة دولية لتقديم تصاميم مشروع بناية البرلمان في الكويت، ومن بين هؤلاء الستة كان أوتسن والاستشاري العراقي. وبعد الجولة الأولى من تصفية المتسابقين اختارت اللجنة تصميمي رفعة والمعمار الدنماركي أوتسن، وطلب منهما أن يقدما ما يرتيأنه من تعديل على التصميم، لكي تقوم لجنة التحكيم باختيار أحدهما.

كان رئيس اللجنة المعمار الإنكليزي جون لزلي ماتن John Leslie Martin، الذي صمم قاعة الاحتفال الموسيقية Festival Hall في لندن، في أواخر الأربعينيات من القرن العشرين. وعندما مالت اللجنة لاختيار التصميم الذي قدمه رفعة حسبما أخبره رئيس اللجنة البرلمانية آنذاك، وقف جون لزلي مارتن رئيس اللجنة بشدة ضد إعطاء المسابقة لرفعة. وقال نقلاً عن أحد أعضاء اللجنة: "إن حصل مكتب الإستشاري العراقي على هذه المسابقة وهو مكتب عراقي، فأين سيكون موقع المكاتب الإستشارية الأوربية والإنكليزية منها!!»، وأصر أن تحسم المسابقة لصالح أوتسن. وقد ساعد ذلك حدثان آنذاك، إذ ساءت العلاقات بين العراق والكويت، وأغلقت الحدود الكويتية العراقية لمدة وجيزة، حيث لم يتمكن رفعة من الذهاب إلى الكويت عندما دعته اللجنة للحضور لمقابلة أعضائها، أدى ذلك إلى إحالة المشروع على أوتسن، وبذلك خسر مكتب الاستشاري المشروع.[١٠٠]

---

١٠٠ – أقيم معرض بمشروع (البرلمان الكويتي) الذي قدمه رفعة في الجمعية البغدادية في عام ١٩٧٠.

Twitter: @ketab_n

تألم رفعة من رئيس اللجنة جون لزلي مارتن[١٠١]، ومن التحيز الواضح في موقفه، بالرغم من أن التصميم الذي قدمه الاستشاري العراقي كان مدروساً بدقة من حيث المناخ، كما سعى إلى إبتكار معالم معمارية حديثة تعّبر عن المنطقة.

لقد اصطدم رفعة من قبل بمثل هذا التحيز في تصميم مسابقة جامع لندن، حيث منح التصميم قبل اجتماع اللجنة للمعمار الإنكليزي باسل سنبس. وهذا الموقف المتحيز لم يعان منه رفعة فقط بل عانى وما زال يعاني منه المعماريون عامة.

×××

وفاة والدتي

أصيبت والدتي بمرض السرطان في البنكرياس، و لم يمهلها المرض أكثر من ثلاثة أشهر، وقضت الشهر الأخير في المستشفى، وتوفيت في ٩/١٠/١٩٧٠.[١٠٢]

أقيمت الطقوس بعد موتها، وحضر بعض أقربائها من لبنان، والأصدقاء والمعارف من بغداد. كانت طقوس الرجال منفصلة عن النساء. أقيمت طقوس الرجال في أحد الجوامع في حي الكاظمية.

كنا نجلس أنا وأختي حياة وخالتي سكينة التي قدمت من لبنان بهذه المناسبة، صباحاً ومساءً في استقبال المعزيات لنا، كانت بعض النسوة حزينات على فقدانها، والبعض يقمن بتأدية الواجب فقط.

---

١٠١ – إذ كانت لرفعة معرفة سابقة بلزلي مارتن، فقد دعاه عندما كان في لندن للغداء في داره.

١٠٢– كتاب محمد شرارة من الايمان إلى حرية الرأي، بلقيس شرارة، دار المدى، ٢٠٠٩، ص ٣٨٧–٣٩٠.

Twitter: @ketab_n

لم يبكي عليها بحرقة إلا «صديقة» زوجة الدكتور مهدي المخزومي، التي كانت صديقة مخلصة لها، كانتا كالتوأمين يقمن في زيارة الحضرة في الكاظمية أو النزهات المحدودة.

شعرتُ بالجبن عندما لبست الثوب الأسود، لأنني لا أؤمن بتلك العادات والطقوس وأعلم أن اللون الأسود لن يعيد والدتي إلى الحياة. لبست اللون الأسود لأول مرة في حياتي عندما توفي عم رفعة، رؤوف الجادرجي مراعاة لوالده، ولبست الحداد ثانية عندما توفي أبو رفعة مراعاة لعائلته، ولبست الحداد هذه المرة مجاراة لعرف المجتمع وتقاليده. كان رفعة معارضاً لتلك الطقوس، يكره اللون الأسود في مناسبات الحزن. جلبت الكآبة لبيتنا بهذا اللون، لون البؤس والقهر! كنت أتفق معه، وكانت تعوزني جرأته. لكن لم ينقطع تقديم المشروبات من الويسكي والبيرة إلى الضيوف الذين كانوا يزورننا في تلك المدة.

ظل أصدقاؤنا مواظبين على زيارتنا أيام الحزن العميق الذي كنت أعيشه، يجتمعون في دارنا كل ليلة لأربعين يوماً، وكانت زياراتهم تخفف عني الحزن وتزيل الكآبة التي طغت عليّ بموت والدتي.

كان من بين الضيوف أبن خالي الشيخ عبد الحليم الزين،(١٠٣)

١٠٣- أقام معنا أبن خالي حليم الزين لمدة قصيرة في شقة شارع الأمين، قبل التحاقه بمدرسة النجف الدينية وذلك في نهاية العطلة الصيفية ١٩٥١. كان حليم شاباً طويل القامة، أبيض اللون، بهي الطلعة، تتدلى خصلة ذهبية على وجهه كلما التفت أو حرك رأسه حركة غير إرادية، فتضفي عليه جمالاً وسحراً. كان محدثاً لبقاً. حاول والدي أن يثنيه عن الذهاب إلى النجف، وإقناعه ترك فكرة المشيخة وإكمال دراسته في جامعة بغداد. لكنه لم يستطع أن يخالف رأي والده الشيخ حسين الزين، الذي حث ابنه على الذهاب إلى العراق ليدرس في النجف ويصبح شيخاً ليحل محله في جنوب لبنان عندما يتقاعد عن العمل. كان والدي متأسفاً على شباب وذكاء حليم وطمره في مدرسة النجف، التي عانى منها عندما كان طالباً قبل ربع قرن.

Twitter: @ketab_n

الشاب الوسيم الذي قدم إلى العراق منذ عقدين للدراسة على يد رجال الدين في النجف وقضى معنا بضعة أسابيع في بغداد.

ما زال وجهه الجميل يطل علينا من خلال اللحية المقصوصة باعتناء، بعينيه العسليتين وأنفه الدقيق وبشرته البيضاء اللون، ولا تزال الأناقة تضفي عليه الهيبة والوقار. كان مرتدياً جلباباً رمادي اللون فوق قميص منشى وعمامة صغيرة تحلي رأسه. وضع عمامته الصغيرة بجانبه عندما جلس بيننا، ودخل عندئذ صديقنا المحامي أمين رؤوف وحيا جميع الضيوف، وانحنى بصورة خاصة نحو الشيخ مصافحاً إياه، وحالما لفظ جملة «أهلا أبونا!» حتى علت ضحكات الضيوف مرددين: إنه شيخ! أجاب أمين بصوته الجهوري يشوبه التساءل والاحتجاج: «شلون يصير هذا مو معقول؟ هّم شيخ، وهّم نظيف وهّم حلو وفي بيت رفعة؟ ما يمكن كلها أن تجتمع سوية!» فقد اعتبر ذلك شيئاً غير متوقع وبعيد عن الواقع وخاصة في دار رفعة، ولذا أعتبره قساً وليس بشيخ، إذ أن الصورة النمطية للشيخ في العراق، تختلف عما عليها في لبنان.

مرَ عام على وفاة والدتي، وعادت الحياة إلى انسيابها وجريانها، «كنت أزور والدي دائماً، أجلس معه في الحديقة التي كانت تعتني بها والدتي... أجول بعينيّ في الحديقة التي تغيرت بغيابها... وأنا أشرب شاي والدي المشهور بنكهته الخاصة وأنصت لحديثه الشائق، ولكن كان حديث يشوبه الحزن والشعور بلوعة الفقدان. تزوج أخي

سافر حليم إلى مدينة النجف، وظل يزورنا بين الفينة والفينة كلما جاء إلى بغداد، فيقضي بضعة أيام معنا، ولكنه تغير تدريجياً ولم نعد نجرأ على ممازحته كما كنا نفعل في السابق، وهو مرتد زي الشيخ بعمامته وسرواله، عباءته التي أضفت عليه سمة الوقار والاحترام بالرغم من صغر سنه!

Twitter: @ketab_n

إبراهيم بعد عام من أبنة خالي، وأضطر والدي إلى ترك الدار، فعاش في دار مع أخي جهاد في الحي نفسه، كنت أمر عليهما دائما، ولكنني لم أستطع أنا وأختي حياة أن نعوض عن الزوجة والأم. ترك والدي العراق بعد زواج ابنه جهاد، ولم يستقر في لبنان إلا عامين حينما اندلعت نيران الحرب الأهلية، وأبتعد عن بيروت التي اعتبرها مركز الإشعاع الفكري في العالم العربي طيلة حياته!».[١٠٤]

في نهاية العام فقد رفعة صديق الصبا، المعمار قحطان عوني[١٠٥]، كان قحطان من أقرب المعماريين لرفعة من حيث التفكير. متحمس في تنفيذ المشاريع الثقافية، ذا حيوية ونشاط، لا يكل كرفعة عن ابتكار وإيجاد مشاريع جديدة كلما شعر بركود ثقافي في الجو الذي كان يعيش فيه. لهذا فجعنا بموته المفاجئ وكانت صدمة عنيفة لرفعة، وعلمنا أنه أصيب في الصباح الباكر بنوبة قضت عليه ولم يكمل من عمره ثلاثة وأربعين عاماً. كان صديقاً حميماً، سكن في حي المغرب الذي لا يفصله عن شارع طه إلا شارعين. فاستمرت زيارته لرفعة في وقت الفطور، حيث كان يتناول الشاي معه، ويتحدثان عن هموم العمارة ومشاكلها في العراق، ويبحثان آخر التطورات المعمارية الحديثة في العالم. وفقد رفعة بذلك صديقاً وزميلاً مهماً في العمل.

×××

١٠٤ – أنظر كتاب: محمد شرارة من الإيمان إلى حرية الفرد، دار المدى، ٢٠٠٩

١٠٥– قحطان عوني: ١٩٢٦–١٩٧٠، درس العمارة في الولايات المتحدة، عاد عام ١٩٥١ إلى بغداد، وقام بتصميم العديد من البيوت من جملتها دار شقيقته، ومن أهم أعماله المعمارية في الخمسينيات مستشفى سلمان فائق في العلوية ١٩٥٦، وفي الستينيات جامعة المستنصرية ١٩٦٦، التي هي عبارة عن مجمع لأبنية عديدة، يربطها شارع رئيسي.

Twitter: @ketab_n

الدُوبة[١٠٦]/العَوامة

كان رفعة في أعماق نفسه يرغب في أن يعيش في دار تشرف على النهر، وكان باستطاعتنا شراء دار على النهر، لكن والده طلب منه أن يعيش في حديقة الدار لكي لا يبتعد عن العائلة، وهذا ما قام به مع جميع أولاده.

لكن في بداية سبعينيات القرن الماضي، اشترى رفعة دوبتين/ عوامتين، أحدهما صغيرة والأخرى كبيرة. كانت الدوبة الصغيرة لإقامة «الحاج نجم» وحراسة الدوبة الكبيرة. قام رفعة بالتصميم الداخلي للدوبة، فجعل فيها مكاناً للجلوس وآخر للطعام، مع غرفتين للنوم صغيرتين، تحتوي كل منهما على سريرين فوق بعضهما. أما المطبخ فكان حديثاً على صغر حجمه، جلبت أدواته من الدنمارك. فأحتوى على طباخ كهربائي وغسالة كهربائية للصحون، حيث كان استعمال غسالات الصحون الكهربائية نادر آنذاك.

تغير نمط حياتنا في «الدوبة»، وأصبحنا ننتقل بين بيتين، نعيش في «الدوبة» القابعة في نهر دجلة، التي تطل على نخيل وبساتين الكاظمية في العطلة الأسبوعية وفي الدار الأيام الأخرى، فانتقلت جلساتنا الإسبوعية، وأصبح معظم أصدقائنا يزورونا في الدوبة[١٠٧].

١٠٦- الدوبة: هي نوع من العوامات التي تخصص للنقل، مسطحة الشكل، وتختلف احجامها، فتنقل بها المواد والحيوانات في النهر من منطقة لأخرى، في العادة يجرها زورق ميكانيكي.

١٠٧- كان من بين المواظبين على زيارتنا في الدوبة، معظم المعماريين الذين كانوا يعملون في المكتب، ومنهم معاذ الآلوسي وزوجته سوزي، ورعد المميز وزوجته سهير الموصلي، وفرخندة وصفاء الكيلدار وغيرهم. ومن الأصدقاء الدكتور خليل الآلوسي، والكاتب جبرا إبراهيم جبرا، والرسامة سعاد العطار وزوجها جميل أبو طبيخ، والدكتور علي كمال وزوجته ألن، والمغنية عفيفة اسكندر، ويحيى ثنيان

Twitter: @ketab_n

كما اصبح الدكتور علي كمال جارنا عندما اشترى عوّامة ووضعها بجانب عوامتنا في حي الصليخ.

ثم اشترينا قارباً بخارياً، فأصبح في إمكاننا أن نتجول في نهر دجلة. وكنا ننقل أحياناً الأصدقاء إلى الجزرات/ الجزر الصغيرة، التي تظهر في النهر في فصل الصيف، لكي نتناول العشاء محاطين بمياه دجلة. كانت أجمل السهرات تلك التي يكون فيها القمر بدراً، فتنعكس اشعته على ماء دجلة، ويهب هواء عليل، ونجلس ساعات نتمتع بالأحاديث أو الطبيعة، ونحس ببرودة الهواء وارتخاء الأعصاب.

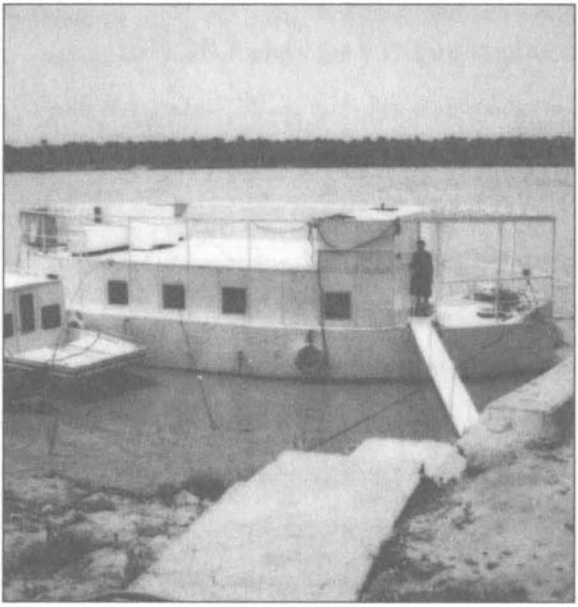

العوامة 1971.

الذي كانت دوبته قريبة من دوبتنا. كما زار الدوبة معماريون أجانب منهم اليوناني كاندلينس، وبنايوتاكس الذي كان رئيس مؤسسة دوكسيادس في الخمسينيات من القرن الماضي، وجورج ددلي وريكاردو بوفيل وروبرت فنتوري وإركسن وغيرهم.

Twitter: @ketab_n

لم تكن «الدُوبة» بعيدة عن الدار، فكان من السهولة نقل الطعام الذي يطبخه الطباخ جعفر لنا، إلى «الدُوبة». واستمرت هذه الحال لبضعة سنين، حتى قررت الحكومة اختيار المنطقة التي تقع فيها «الدُوبة»، لمد مجاري مياه الأمطار من تلك النقطة بالذات، فاضطررنا إلى الإنتقال إلى بستان الفحامة الذي يبعد بضع كيلومترات عن دارنا في شارع طه. وبذلك قلت تدريجياً الزيارات للدوبة، وانتهت بسفرنا إلى الولايات المتحدة.

×××

أبو طبر والرعب الذي عم بغداد

عدت وحدي من إنكلترا عام ١٩٧١، فقد تأخر رفعة لحضور مؤتمر عن العمارة في مدينة كيمبرج، وشعرتُ بوضع غير طبيعي عندما وصلت العاصمة بغداد. المدينة تتلألأ بالمصابيح الكهربائية في شوارعها وأزقتها، وتشع الحزم الضوئية من غرف الدور في جميع أحيائها. وفي ناصية كل شارع مجموعة من الشباب الحزبيين يتناوبون لحراسة الحي! القلق بادٍ على وجوه الناس في السوق والجامع والكلية والبيت، لا تتعدى أحاديثهم غير موضوع «أبو طبر!». طلبتْ مني أم رفعة آلا أنام في الدار وحدي، خوفاً من أبو طبر! لم أهتم لتحذيرها، فقد كنت جريئة لا أخاف من الظلمة أو النوم وحدي في الدار.

و لكن أسلوب الجريمة كان يختلف عن الجرائم التي عرفها الناس، فهذا نوع جديد من الإجرام الذي لم يألفه الناس و لم يتعرفوا عليه، ربما في الأفلام التي تعرض في دور السينما أحياناً. فهنالك نوع من السادية والمتعة في تشويه الجثث، والقتل بسكين المطبخ الكبير الحاد. فارتعب الناس من غرابة حوادث السرقة والقتل في أحياء العاصمة المختلفة التي تركز معظمها في حي المنصور وحي الأطباء والبياع.

Twitter: @ketab_n

توالت الأيام والأشهر والحوادث لم تنقطع، ومرّ عام تقريباً والحوادث لم تنقطع، والناس يعيشون في هلع وقلق، وانتشرت الشائعات التي تغذي مخيلتهم، وبدأ الناس يتركون منازلهم في الليل وينامون بصحبة أقربائهم، فتجتمع عائلتان أو أكثر في بيت واحد، ويعودون في الصباح إلى بيوتهم. ولكن تمادى أبو طبر بأساليبه، فأصبحت السرقة والقتل في الصباح، عندما يذهب الموظفون إلى أعمالهم. واستمر القتل والذبح والتشويه بالجثث و لم ينقطع. والشرطة لم تستطع العثور عليه، وكلما طالت الأيام، ازداد الخوف. وذات يوم شعر الجيران في حي المنصور بحركة غير طبيعية في الدار الملاصقة لدارهم، فأخبروا الشرطة، وعندما قبضوا عليه. كان محتسياً تقريباً قنينة من « الويسكي»، وفي حالة من الثمل لا يعي كثيراً!

لم أكن مهتمة في بادئ الأمر، ولكن هيمن الخوف عليّ بعد أن قبض عليه. كان وسيم المظهر، متقناً للغة الألمانية، يتاجر ببيع وشراء سيارات المرسيدس المستعملة، إنسان طبيعي لا يدل مظهره على الإجرام الذي قام به. كما أشترك بالجرائم التي كان يرتكبها، غالب أعضاء عائلته بما فيهم والدته البالغة السبعين عاماً من العمر، واشقاؤه الثلاثة وأعضاء آخرين من العائلة، الذين القي القبض عليهم واعدم معظمهم.

حصل الدكتور علي كمال[١٠٨] على أذن من مدير الشرطة، فقابل

---

١٠٨ - الدكتور علي كمال: طبيب وعالم نفس فلسطيني الأصل، عاش وعمل في العراق استاذاً ورئيساً لقسم الصحة النفسية في جامعة بغداد، كان طبيباً ذائع الشهرة في عيادته في شارع الرشيد ببغداد، ألف كتب عديدة في اختصاصه منها: "النفس، انفعالاتها وأمراضها وعلاجها"، "النفس والجنس"، و"أبواب العقل الموصدة - باب النوم والاحلام"، و"فصام العقل (الشيزوفرينيا) والعلاج النفسي قديماً وحديثاً"، و"المتنبي والنفس /تحليل لشخصية الشاعر المتنبي من خلال شعره". توفي في عمان ١٩٩٥.

Twitter: @ketab_n

«أبو طبر» قبل إعدامه، وقضى معه ثلاث ساعات في السجن. كان الدكتور علي متعجباً ومندهشاً من شخصيته، وقد أخبره أنه كان يقوم في البداية بسرقة البيوت فقط، ولم يكن في نيته القتل، ولكن عندما سطا على أحد البيوت وتصدى له رجل، أضطر إلى قتله. كان القتل في البداية صعب جداً بالنسبة له ولكن بعد أن تغلب نفسياً على ما قام به، أصبح القتل أمراً هيناً، بل ممتعاً!

تنفس الناس الصعداء، وارتاحوا بالقضاء عليه وعلى عائلته، وزال القلق الذي رافقهم لأكثر من عام تقريباً، ولكن انشغلوا بقضية جديدة أخرى، فقد وزعت الحكومة للفلاحين قمحاً مسموماً لزراعته، وبدلاً من زراعته، فقد زرعوا بعضه، وأطعم ما تبقى منه للغنم، وأصبح أكل لحم الغنم خطراً، فقضينا شتاءً كاملاً نباتيين، إذ شح السمك والدجاج المقنن شراءه من قبل الحكومة لكثرة الطلب عليه. وأصبحت النساء تتفنن بالطبخ، وخاصة وإن موسم الكما كان موسماً جيداً، فحُشيت الكبة بالكمأ، والبورك بالكمأ، توافقاً مع الاعتقاد الخاطئ بأن «الكمأ» مادة بروتينية كاللحم.

×××

حمام الرجال في مدينة حلب

في عام ١٩٧٢، أممت الحكومة شركات النفط، وكانت هذه الخطوة متوقعة ومنتظرة، إذ كان الاتجاه «الاشتراكي» والتأميم من نهج حزب البعث. ولكن كان السفر أول ضحايا تأميم النفط! حيث منع الناس من السفر خارج العراق، باستثناء أصحاب الأعمال والتجار والصناعيين والذين عندهم إقامة خارج العراق. ولكن رفع المنع، بعد عام، فسافرنا إلى بيروت. كنا ما زلنا خارج العراق عندما تناهى إلى سمعنا عن اكتشاف

Twitter: @ketab_n

مؤامرة جديدة، في عام ١٩٧٣ دبّرها ناظم كزار[١٠٩]، الذي حاول القفز إلى السلطة، ولكن قفزته كانت نهايته، ففشل هو وجماعته، وأدت تلك المؤامرة، إلى سلسلة من الإعدامات طالت حردان التكريتي.[١١٠]

ذهبنا ذلك الصيف من لبنان إلى مدينة حلب، ووجدت حلب تختلف عن الحلب التي شاهدتها منذ عقدين، فقد جف النهر، وأصبح ذريعة لرمي النفايات والقاذورات. أقمنا في فندق «البارون» الذي له تاريخ عريق، فقد أقام فيه شارل ديغول أثناء الحرب العالمية الثانية. كنا جالسين في شرفة الفندق عندما، سلّم علينا شاب قائلاً: أستاذ رفعة؟ أجابه نعم! أخبرني إن كان هناك أية خدمة تحتاج إليها؟ عرف رفعة حالاً أنه من المباحث السورية، إذ أننا نعيش ونعاني من نفس النظام في بلدنا. أجابه:

أنا هنا في زيارة لتصوير معالم مدينة حلب، وأرغب أن يرافقني أحد الذين لهم معرفة بمعالم المدينة المهمة. انفرجت أساريره قائلاً: أستاذ أنا حاضر في تلبية ما تحتاج إليه!

١٠٩- ناظم كزار: مدير الأمن العام من ١٩٦٨- ١٩٧٣، شخصية أثارت الرعب في نفوس العراقيين، استلم معتقل قصر النهاية عام ١٩٦٣، كان يتلذذ في تعذيب السجناء. قام بتعذيب اليساريين والشيوعيين، فابتكر تقطيع أوصال الجسد، وقلع العين وكسر العظام، والسير على القير الحار، وإعطاء حقنة طبية للسجين حتى يصاب بالشلل النصفي، ورش الزيت الحار على الفم والأذن، كما ابتكر استعمال الأسيد/ حامض الكبريتك في التعذيب، وأسس محكمة في قصر النهاية يحاكم بها السجناء.

١١٠- حردان التكريتي: ولد عام ١٩٢٥- ١٩٧٠، التحق بالكلية العسكرية ١٩٤٥ وتخرج ١٩٤٩، اصبح ملازماً، التحق بكلية القوة الجوية البريطانية وتخرج برتبة طيار ركن. أصبح آمر قاعدة الموصل الجوية ١٩٥٧- ١٩٦٣. كما أصبح بعد انقلاب ١٩٦٣، وزيراً للدفاع وقائد القوة الجوية ونائب القائد العام للقوات المسلحة، وسفير العراق في السويد ١٩٦٤، وأصبح بعد انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ عضو مجلس قيادة الثورة ونائب رئيس الجمهورية ونائب القائد العام للقوات المسلحة حتى عام ١٩٧٠ حيث تم اغتياله في الكويت.

Twitter: @ketab_n

و بذلك أصبح مرافقنا تلك المدة، يقضي وقته معنا. كانت جولتنا تبدأ في التاسعة صباحاً وتنتهي عند الغروب. زرنا الأحياء القديمة و القلعة والجوامع المهمة، خرجنا من إحد الجوامع، وإذا بحشد من الأطفال والصبية متجمعين حول سيارتنا، التي أضيفت إليها إشارة هيئة الأمم بجانب رقم السيارة عندما سافر رفعة في إحدى سفراته بصحبة مصطفى الجاف الذي كان مسئولا عن الإسكان في منطقة الشرق الأوسط في هيئة الأمم، وتأكدوا أيضاً من ملامح رفعة الأقرب إلى ملامح الأجنبي، فظهر العداء للأجانب بأبشع صوره! وبدأ الأطفال بقذف الحجارة علينا، حاولنا الابتعاد وتفاديها، فالتجأنا بسرعة إلى الجامع، وظل مسؤول المخابرات يتلقى الحجارة، رافعاً صوته مؤنباً مرة ومهدداً مرة أخرى، يتراكضون ويقفزون فوق الخرائب المحيطة بالقلعة. صارخين بأعلى أصواتهم «أجانب، أجانب!» وكأن الأجنبي أفعى سينقض عليهم ويبث سمومه في الهواء الذي يستنشقوه. انتهت لعبة رمي الحجارة من قبل أطفال الحي والتأنيب من قبل مسؤول المخابرات، من دون تفوق فريق على آخر، واتجهنا إلى سوق المدينة المشهور، حتى وصلنا إلى حمام الرجال. سأله رفعة: هل نستطيع أن ندخل إلى الحمام؟ أجاب: نعم. أعاد رفعة: بصحبة بلقيس؟ قال نعم: بلا أي تردد!

دخلت حمام الرجال، كانت القاعة الكبيرة مفروشة بالتخوت المرتفعة المصفوفة حول جدرانها، جلس عليها رجال مغطين أجسادهم العارية بقطعة من القماش «البشتمال» الملون بخطوط متقاطعة من الأحمر والأبيض. فسحوا لي المجال ورحبوا بي، وجلست بينهم، ونادوا على الشاي والعصير! كانوا يشربون الشاي ويدخنون النركيلة/ الأركيلة، ويلتحم دخان النركيلة المتصاعد على شكل غلائل رفيعة ممتزجاً ببخار الحمام. ذكرتني الوجوه والأذرع والصدور العارية وطيات اللحم المتدلية والكروش المرتفعة، بحمام النساء في مدينة صور في لبنان عندما

Twitter: @ketab_n

كنت طفلة. شاهدتُ لأول مرة نساء عاريات، كتل من اللحم! لحوم بيضاء وسمراء، طيات من اللحم المتدلي فوق بعضه البعض، والنهود المتهدلة من الرضاعة مستلقية بارتخاء على تلك البطون. كتل لحمية بيضاء مائلة للاحمرار تبرز من بين البخار المتصاعد من الأحواض، بانت والدتي البدينة نحيفة أمام تلك الكتل اللحمية الضخمة!

عاد رفعة بعد أن تجول في قاعات الحمام الأخرى، وشاركنا في شرب الشاي، وعندما ودعناهم، وتركنا الحمام، قلت لرفعة: ربما أنا أول امرأة أدخل حمام رجال في حلب؟ وربما ستصبح هذه الزيارة تاريخاً! فيقولون: منذ زيارة تلك المرأة لحمامنا! سمعنا ضحكاتنا العالية ترن في آذاننا[١١١]!

×××

صدور تعليمات بالتخلي عن لقب العائلة

توالت التعليمات والقوانين الاستثنائية والشاذة، منها صدور تعليمات في عام ١٩٧٦ التخلي عن أسم العائلة. التي أدت إلى مشاكل كثيرة لتشابه الألقاب في بلد مثل العراق.

رفض رفعة أن يتخلى عن اسم العائلة، فعندما احتاج إلى تجديد جواز سفره، سأله الموظف: ما اسم الجد، أجابه رفعة: ما عندي جد، قال له كيف: قال هذا هو الواقع، فأنا رفعة كامل الجادرجي. وجد الموظف نفسه في حيرة، ولم يجابه أو يتوقع مثل هذه الإجابة، فارتبك ولايدري كيف يحل الموضوع. وأمامه تعليمات لا يمكن مخالفتها. ولحل المشكلة، ذهب الموظف إلى مدير السفر العام لاستشارته،

١١١– دعي رفعة من قبل جامعة حلب لإلقاء محاضرة عن أعماله في عام ٢٠٠٢، وزرنا معظم آثار حلب المهمة، ثم ذهبنا إلى الحمام نفسه بعد مرور ٢٩ عاماً على زيارتنا الأولى، ولكن لم يسمح لي هذه المرة بدخول حمام الرجال.

Twitter: @ketab_n

واخبره بما حدث، فقال له المدير: أعمل كما يريد رفعة، وبذلك لم يرفع اسم العائلة. وكان رفعة من القلائل، الذين اضيف له اسم العائلة، أما أنا فأصبحت بلقيس محمد علي، عندما طلبت جواز سفر جديد، وحذف لقبي العائلي.

قام صدام حسين التكريتي، نائب رئيس الجمهورية آنذاك بإصدار مثل هذه التعليمات، للتمويه على هيمنة قرية تكريت على الوظائف المهمة بالبلد، وأصبح لقب التكريتي – أي القادم من قرية تكريت – منتشراً بشكل واسع في العراق. ولحل هذه المشكلة وجدوا أن التخلص من الألقاب هو الحل الأفضل لهذه المشكلة(١١٢). أدى هذا الإجراء إلى تعطيل التعامل مع النسيج الاجتماعي الطبيعي، بحذف أسماء العوائل، وإرباك سجلات مديرية النفوس.

×××

بعد انتهاء الرحلة التي قمنا بها إلى أفغانستان وباكستان في خريف عام ١٩٧٨، سافرتُ إلى لندن بدل العودة إلى بغداد، وسافر رفعة إلى أبو ظبي لمراجعة الدوائر المختصة بالتصميم الذي قدمه لبنك أبوظبي، ثم عاد إلى بغداد. أما أنا فقدمت استقالتي من الوظيفة وأنا في لندن، إذ قررت آلا أعود إلى العمل، فقد بدأ الضغط على الاساتذة في الكليات لكي ينتموا إلى حزب البعث، كما بدأت تزداد الرقابة والتضييق على الناس من غير البعثيين. وتم في تلك المدة القاء القبض على بعض المهندسين والأطباء والمحامين، وأخذ الخوف بدوره يطرق ابواب الطبقة الوسطى في أنحاء العراق.

١١٢– ما زالت تعليمات صدام حسين نافذة حتى يومنا هذا، فقد طلبنا مؤخراً إخراج وثيقة تثبت وفاة والدي عام ١٩٧٩، بعد مرور أكثر من عام على المعاملة، وصلتنا الوثيقة بأسم: محمد علي أحمد، فرفضتْ في لبنان، لعدم وجود اللقب شرارة.

Twitter: @ketab_n

عندما عاد رفعة إلى لندن في نهاية العام، قام بتأسيس فرع لمكتب الاستشاري العراقي في لندن، بالاشتراك مع بعض المعماريين البريطانيين. إذ كان يفكر أن يكون هذا الفرع في المستقبل هو المركز الذي يقوم بإنجاز التصاميم للأعمال التي يحصلون عليها من مكاتبهم في الخليج.

كما دُعي رفعة من قبل جامعة فينا وجامعة إنزبروك في النمسا لإقامة معرض لأعماله والقاء محاضرات في الجامعتين. كان الاحتفال ناجحاً، ولم يتوقع الطلبة واساتذة العمارة أن يكون في العراق معماريون بهذا المستوى العالي، إذ كانت مفاجأة لهم.

×××

صدام حسين رئيساً للجمهورية

في اليوم التالي لعودتنا إلى بغداد، جاء رجلان من المخابرات في الساعة التاسعة والنصف، وطلبا من رفعة مرافقتهما إلى المخابرات[١١٣]. واختفى في دهاليز المخابرات في ١٦/١٢/١٩٧٨، فساد القلق بين أفراد العائلة، واستمر ليشل القلق حركتنا لأشهر عديدة قبل أن يصدر الحكم بالسجن المؤبد عليه في ٢٣-٥-١٩٧٩، وبين عشية وضحاها وجدت حياتي قد انقلبت رأساً على عقب، بفعل قوى خارجة عن سيطرتي. إذ كان أحمد حسن البكر، رئيس الجمهورية آنذاك، ضد كامل الجادرجي، فأصبح رفعة ضحية هذا الحقد.

بعد أقل من شهرين فقدتُ والدي الذي توفي في ٩/٧/١٩٧٩،

١١٣- تفاصيل إلقاء القبض و إحالته إلى المحكمة في كتاب جدار بين ظلمتين، بلقيس شرارة و رفعة الجادرجي، دار الساقي، ٢٠٠٣.

Twitter: @ketab_n

وكان أقرب الناس إلي، وسنداً لي في تلك المدة العصيبة التي كنت أمر بها[١١٤].

أصبحت أحس بالغربة في داري، في الشارع وفي الزقاق، ولم أعد أحس أن العراق بلدي، بل شعرتُ أنني فقدت بلدي الذي أعرفه! أحسست بوخزة في أعماقي، وخزة الحزن والإحباط، حين يبتعد عنك ويتجاهلك بعض الأصدقاء والمعارف، بسبب الرعب والخوف الذي أخذ يشل كيانهم[١١٥].

محمد شرارة في حالات-لبنان 1974.

أما المسرح العام فكان شبيهاً بما يجري على المسرح الخاص من المفاجآت. فقد شن صدام حسين حملات التهجير الجماعية والاعتقال التي طاولت فئة مهمة من الشعب في عام ١٩٧٩، وكللتها حملة تصفيات بين أعضاء حزب البعث. وذلك بعد الاعتزال القسري لرئيس الجمهورية أحمد حسن البكر في ٢٦- ٧- ١٩٧٩، وانتقال الرئاسة

١١٤- كتبت عن وفاة والدي بالتفصيل في كتاب «محمد شرارة من الايمان إلى حرية الفكر»، المدى، ٢٠٠٩

١١٥- كتبت بالتفصيل عما حدث في تلك الفترة في كتاب جدار بين ظلمتين، الساقي، ٢٠٠٣

Twitter: @ketab_n

لصدام. بعد اسبوعين من توليه المنصب، دارت رحى معركة حامية، «باكتشاف» مؤامرة مزعومة. فوجب قطع رؤوس «أينعت وحان قطافها!» كما يعتقد، وإبعادها عن المناصب المهمة وتصفيتها. وانتهى الصراع بالانتصار على خصومه، بمناوراته ووقسوته في توجيه «التهم الملفقة» لهم، فحكم على المشكوك بولائهم والرؤوس المتلكئة في مبايعته بالموت، في بحر من الرعب والفزع، أمام عدسات الكاميرات.

كانت المسرحية مدروسة ومتقنة إتقاناً تاماً، وأجبر الحاضرون من صفوة القيادة البعثية الحاكمة بما فيهم أعضاء القيادة القطرية، في مبايعته للرئاسة، لكنها لم تكن مبايعة كاملة، عندما طلب بعضهم التريث، متمسكين بالجانب القانوني في تنظيم انتخابات حزبية تشارك فيه كوادر حزب البعث، لإضفاء طابع قانوني وشرعي على انتخابه.

وقف صدام على خشبة المسرح والغضب يتطاير من عينيه، وورقة صغيرة بيد أحد مساعديه، تقرر مصير الحاضرين! وشعر الحاضرون بصغر حجمهم وضعفهم، تجاه الجبروت الاجرامي الشامخ أمامهم، رافعاً رأسه بغرور وعجرفة، يتدلى من فمه «السيكار» المستورد له خصيصاً من كوبا. مبتهجاً بجو الرعب الذي هيمن على الحاضرين، فكل نظرة من نظراته ربما تعني الموت لبعضهم!

عم الوجوم بين تلك الصفوة من الحاضرين من كوادر حزب البعث، وجوه كالحة، عيون محدقة، ونظرات متسائلة، تحولت إلى نظرات متوسلة مستجديه، وأفواه مطبقة، نشف لعابها، شعرتْ بصعوبة تنفس الهواء الملوث بالرعب من حولها. ضاق فضاء قاعة «الخلد» الواسعة، فعم الصمت الأخرس فيها بانتظار مصير كل منهم. متى سيسمعون أسماءهم ويقادون إلى حلبة الإعدام؟ متى يصلهم الدور الذي عليهم أداءه؟ علا الصوت بقراءة الأسماء من الميكرفون، وأصطدمت الكلمات

Twitter: @ketab_n

بأسماء الحاضرين الذين سمعوا اسماءهم، وتحركوا بخطوات وئيدة، خطوات مترددة، واستبد القلق والاضطراب على وجوههم، وجوه ذليلة ممرغة بتراب الخوف. توجهوا صوب البوابة التي ينتظرهم خلفها الجلاد، ومنهم من هتف بحياة القائد الجديد قبل أن تقطع رؤوسهم!

حاول بعضهم أن يُبّرئ نفسه من التهمة التي ألصقت بهم، ولكن كانت براثن المخابرات الخفية أقوى من البراهين التي أتوا بها. وانتهت التراجيديا، بالحكم بالإعدام على ٢٢ قيادياً، بينهم خمسة وزراء وعدد من الأكاديميين وبعض قادة الاتحادات العمالية. وبأحكام سجن تتراوح بين المؤبد والعشرة سنوات على عدد من أعضاء الحزب من سفراء ومدراء عامين. بعد تلك المحاكمة الصورية، طلب من الحاضرين المشاركة في إنهاء الفصل الأخير من التراجيديا. سُلم كل واحد منهم مسدساً ليؤدي دوره، بالمشاركة في المذبحة الجماعية، وإطلاق النار على الوزراء والأعضاء من القيادة القطرية، الذين حكم عليهم بالموت. تساقطت الجثث أمام أعينهم، الدماء تنزف من أعناق رفاقهم، وأصبحوا شركاء بالجريمة، بعد أن لطخوا أيديهم بدم رفاق الدرب الطويل في النضال، الذي تبنوه كجماعة.

عرضت تلك التراجيديا بشريط سينمائي على أعضاء حزب البعث والموظفين المهمين في الحكومة كدرس تثقيفي رادع للذين يفكرون في معارضة سلطة الرئيس الجديد. تسربت الأنباء المفزعة، وبدأت الشائعات تتردد على ألسن الناس همساً، وتحولت إلى مصدر لا ينضب لإشاعة الرعب، رعب ينتقل بين الأزقة والشوارع، من مدينة إلى مدينة، وفتح الرعب فكيه مكشراً في أنحاء القطر، وانتهى الفصل الأول من تلك المرحلة التي حكم فيها حزب البعث الاشتراكي ، وأصبح الناس ممسوخين، مخدرين، أشباحاً من البشر المتحرك في ظل خوف دائم. ثم بدأ الفصل الثاني من المرحلة الجديدة للحاكم المستبد!

Twitter: @ketab_n

لم ينج الذين نقلوا إلى سجن الأحكام الخاصة للإصلاح الاجتماعي من التعذيب الجسدي والنفسي، كان السجانون يرحلون عنهم في النهار ليعودوا ليلاً، فتزداد الحركة في صمت الليل، وتبدأ فصول من التعذيب العنيف! ومات جراء ذلك عدد لا يحصى منهم في السجن. وكلما قضى أحد نحبه، كان يرمى بكيس من قبل شرطة المخابرات، أمام باب داره، كما ترمى النفايات، ويطلب من أهله آلا يقيموا مأتماً له، إذ أصبح الحزن والبكاء نوعاً من أنواع الترف!

وبدأ عهد جديد!.. فالرئيس يملك العراق، بترابه ومائه وهوائه، ويملك مواطنيه، فهم عبيد في خدمته! هيمنت عليه الغبطة بنجاحه في تنفيذ حلمه. يعيش في قصره، بعيداً عن أعين الناس، يخطط، ويبحث عن القوة العسكرية التي عليه الحصول عليها، لينجز أحلامه! وليصبح الأوحد القادر على كل شيء، يصول ويجول في إخضاع الدول المجاورة لرغباته التي لا يحدها حدود، بعيداً عن هموم الشعب ومشاكله، الشعب الذي أصبح يقضي جزءاً كبيراً من وقته في الحصول على طبق البيض وعلبة الزبد والجبن في طابور طويل كما يقف المتسول في طلب الفتات. أصبح الامتثال لأوامره ، الصادرة من القصر وحدها ، وبذلك ضاعت موازين القيم والضوابط الاجتماعية، وإدارة دولة في النصف الثاني من القرن العشرين، وانحدر العراق تدريجياً نحو الهاوية.

×××

رفعة في السجن

كانت الكآبة تهيمن على أجوائي في تلك المدة العصيبة التي كنت أمر بها بعدما حكم على رفعة بالسجن المؤبد، وأغلقت جميع الكوى المضيئة أمامي، شعرتُ بالاختناق، حصار من كل جانب، واقتصرت أجوائي الضيقة على التنقل بين الدار ومكتب الاستشاري العراقي،

Twitter: @ketab_n

لتنفيذ ما يطلبه رفعة مني. أصبحت المطالعة والكتابة بالنسبة له، الوسيلة والنافذة الوحيدة التي يطل من خلالها على العالم، خارج أسوار السجن.

كانت أشباح السجن واعتقال الناس المحيطين بنا مهيمنة على الأحاديث التي تدور بيننا. وفشلت محاولتنا في الابتعاد عن هذه الأجواء. كيف لنا أن نعيش خارج طوق الخوف والرعب والذعر المتواصل الذي أصبح يهمن علينا؟ لذا أصبحت زياراتي لشقيقتي حياة، نوعاً من التغيير وكسر رتابة الحياة، ولكنها لم تكن في معظم الحالات تخفف العبء الذي كنت أرزح تحته. فحياة كانت بدورها تعاني من مشاكل كثيرة، في البيت والعمل، فقد اعتقل زوجها مرات عديدة، تعيش في قلق متواصل عليه وعلى طفلتيها، إضافة إلى مشاكل عملها في الجامعة. إذ بدأت حملة (تبعيث) الجامعة، وتعرضت حياة إلى مضايقات كثيرة من قبل رئيس القسم وعميد كلية الآداب. وأصبحت التظاهرات المليونية ظاهرة جديدة، وأجبر أساتذة الجامعة والطلبة في المشاركة في هذه التظاهرات. إلا أننا بالرغم من ذلك، كنا نتحدث عن صدور كتاب لها أو مقالة، تبعدنا عن الجو المحزن الذي نعيشه.

كانت زيارة رفعة في السجن في الأيام التي خصصت من قبل الإدارة لهذا الغرض، (المقابلة/ المواجهة) تخفف من الرتابة التي أعيشها، بالرغم من الجو الكئيب المهيمن على السجن. كانت الكآبة تطوقني عندما تحل لحظة الوداع، وتظل عيوني تتابع خطواته وهو يبتعد عني ويختفي في الرواق الطويل. فتتجهم وجوه السجناء وتتلاشى فرحة اللقاء، وتجف الضحكات الحزينة، لا نسمع إلا الآهات

Twitter: @ketab_n

والحسرات. ويتكرر المنظر في كل زيارة، تمسح الدموع المنسابة على الخدود، وتجفف عند عتبة بوابة السجن، لتعود وتنساب في زيارة أخرى ووداع ثان![١١٦]

كسرتُ طوق الكآبة بالعمل المتواصل، في تأمين ما يحتاج إليه رفعة من كتب ونسخ وتجليد وتنظيم، ولكنها لم تبعدني عن المعاناة والوحدة المخيفة التي كنت أعيشها بلحظاتها العصيبة. كان اليأس يدب أحيانا بإيقاع بطيء، ويعود الأمل فيتسرب ثانية في أعماقي، وأحس كأرجوحة تتقاسمها رياح الأمل واليأس.

×××

انتخابات ١٩٨٠

لا ندري السبب وراء قرار السلطة ذات يوم في منتصف عام ١٩٨٠ اعتماد آليات انتخابات برلمانية! فهل أصبحت تقليعة من تقليعات الموضة؟ أم لإسباغ الشرعية المزيفة بممارسة الديمقراطية؟ كما لو كانت الديمقراطية تنحصر في الانتخابات فقط. أصبح واجب على كل عراقي بلغ سن التصويت، الذهاب إلى صناديق الاقتراع للإدلاء بصوته، فليس له حق في الرفض أو المقاطعة. وليس هنالك قواعد دستورية لكي تقوم عليها الانتخابات، ويتاح للمواطن العراقي حرية الترشيح في الانتخابات بصورة فردية أو من خلال الأحزاب السياسية، إذ ليس هنالك أحزاب سياسية أصلاً، وإنما فرضت قوائم مسبقة تمثل وجهة نظر السلطة، وهي تدابير شكلية للتظاهر بولاء الناس للسلطة. فالسلطة لها الحق في الانفراد بالقرار، من خلال إشاعة الإرهاب الفكري وقمع أي اتجاه معارض، وزج الناس في السجون.

١١٦- أنظر «جدار بين ظلمتين»، دار الساقي، ٢٠٠٤.

Twitter: @ketab_n

إنها انتخابات بعيدة كل البعد عن أي تجسيد لقيمة الفرد كمواطن وإنسان، وإنما هي تأكيد على جانب آخر من تقديس وتعظيم شخصية الحاكم الذي أمر بإجراء مثل هذه الانتخابات.

فكرتُ في بادئ الأمر ألا أشارك في هذه المهزلة! فلم أمارس حق الانتخاب في حياتي، إنها المرة الأولى التي فُرض عليّ أن انتخب نواباً للمجلس النيابي، ونصحني نصير، شقيق رفعة، أن أشارك في الانتخابات، فربما أحاسب من قبل السلطة عن عدم اشتراكي، وما زال زوجي رهينة في السجن!

ذهبت إلى مقر التصويت في حي المغرب، واستقبلني الحزبيون المشرفون على الانتخابات، تسلمت قائمة بأسماء المرشحين، قرأت القائمة، جميع الأسماء يمثلون الحزب الحاكم. طويت القائمة من دون أن أنتخب ووضعتها في صندوق الاقتراع، وهو موقف سلبي ونوع من الاحتجاج، وفي اليوم التالي بعد انتهاء فرز الأصوات، انفرجت شفتي عن ابتسامة الانتصار، عندما شاهدت على شاشة التلفزيون، الرئيس صدام حسين، غاضباً، منددا بالذين وضعوا أوراقاً بيضاء في صناديق الاقتراع، فقد كنت أحد أولئك الذين وضعوا تلك الورقة البيضاء في صندوق الاقتراع، فلم يبق أمامنا إلا التمسك بالموقف السلبي وهو الاحتجاج الوحيد للمواطن المسلوب الحقوق!

و لكن تعود الحياة وتتجدد، فينساب الزمن دقائق وساعات وايام. تتبدل الصور التي مرت عليّ وترتفع الستارة ثانية عن مشهد جديد، عندما أفرج عن رفعة فجأة، بعد أن قضى عشرين شهراً داخل زنزانات السجن في ٢٠/٨/١٩٨٠. كانت فرحة مفاجئة بعد القلق المضني والخوف المريع الذي عانيته، واليأس الذي هيمن على أجوائي في تلك المدة القاتمة التي كنت أعيشها. لقد أفرج عن رفعة بنفس الطريقة

Twitter: @ketab_n

الغريبة التي ألقي القبض عليه. وأقتيد رفعة في ذلك اليوم بملابس السجن إلى القصر، وأعلم أن الرئيس صدام حسين يطلب منه أن يقوم بدراسة وتصميم بعض المشاريع في بغداد.

×××

الحرب الإيرانية ١٩٨٠

مضى أقل من أسبوعين على إطلاق سراح رفعة من السجن، حتى علا قرع الطبول، وبدأت سيمفونية الحرب المتعددة الآلات بضجيجها، حلقت الطائرات الإيرانية في سماء العراق، وفجّرت الصواريخ المضادة للطائرات. وعلت أصوات صافرات الإنذار تجرح الهواء في أحياء بغداد التي خلت شوارعها من الناس، ملتصقة أذانهم بالراديو ومسّمرة عيونهم بشاشة التلفزيون، تبث البيانات عن الانتصارات الباهرة في أرض إيران! وأعلن عن احتلال الجيش العراقي لمنطقة المحمرة في إيران. واستبشرت السلطة، مهللة في التلفزيون: انتصرنا على العدو الغاشم. ستنتهي الحرب بستة أيام! وأصبح كورساً يصم الآذان، الحرب ستنتهي بعد ستة أيام!

لكني سمعت في تلك الأيام، معلقاً حربياً من محطة بي بي سي، قائلاً: إن الحرب لن تنتهي بأقل من أربعة أعوام. فاستحوذ عليّ قلق عميق، أربعة أعوام! من الخراب والدمار؟ لا، لا يمكن ذلك، أسلي نفسي وأعزيها، ربما المعلق خطآن! وعلا صوت الرئيس في المذياع يؤكد النصر على الأعداء. وأنا لا أدري من أصدق المعلق الحربي في محطة بي بي سي أو الرئيس المستبشر بالنصر!

أصبحت صافرات الإنذار المفاجئة روتيناً، تخترق أجواء الصباح الهادئ، فتتوقف الحركة، وتخلى الشوارع من المارة والسيارات، ويعم سكون مخيف يتلاشى معه كل صوت. الناس قابعون في بيوتهم

Twitter: @ketab_n

بانتظار انتهاء الإنذار، لتعود الحياة إلى مجراها ثانية قبل أن تتعالى صافرات الإنذار ثانية، كنا نهرع إلى الدار، نسمع أحياناً الطائرات، يتبعها دوي انفجار القنابل والصواريخ. لم تتهدم بيوت تذكر في بغداد من القصف، لكن تساقطت شظايا طائرة في حديقة دارنا، فاهتزت لأزيزها النوافذ وهوى بعض زجاجها، والتوى سعف نخلة أصابتها بقايا الطائرة فهوت إلى الأرض، كما ضربت شظية جدار دار غرفة كامل الجادرجي. ركضنا إلى الحمام بصحبة الراديو الصغير، بعيداً عن النوافذ، ثم عمّ السكون ثانية، وأعلن الراديو عن انتهاء معركة ذلك اليوم. وإذا بجعفر الطباخ أمامنا بيده شظايا من فتات جناح الطائرة، وعدد من القنابل.

استمرت أصوات الطائرات وأزيزها في سماء بغداد لأسبوعين تقريباً، وأخذت المسافة تطول بين انفجار وآخر، حتى قلت تدريجياً صفارات الإنذار وتلاشت، وأعلن إن جميع طائرات العدو قد قضي عليها! لكن الحرب لم تنتهي، وانتهت بالنسبة لأهل بغداد، وبقيت بين حدود البلدين، واستمرت لثمانية أعوام، وليس لأسبوع واحد كما أعلنت السلطة، وأكثر من أربعة سنوات كما تنبأ المعلق العسكري في محطة بي بي سي، حيث مات بنيرانها وجحيمها أكثر من مليون إنسان من الإيرانيين والعراقيين.

×××

تعيين رفعة مستشاراً لأمانة العاصمة

أنعقد مؤتمر العمارة في تلك الظروف، وحضر العديد من المعماريين العالميين، رفعة استغرق في دوامة من العمل والواجبات التي ينوء تحت عبئها. يرأس جلسات المؤتمر في النهار، ويشرف وينظّم

Twitter: @ketab_n

ويوزع الأعمال من دائرته في أمانة العاصمة. إذ عين مستشاراً لأمين عاصمة بغداد(١١٧).

قدمت الوفود الأجنبية من الاستشاريين إلى بغداد الذين رشح أسماءهم رفعة، التخطيط يسير بخطى سريعة في إعادة بناء العاصمة، قبل أن يحل موعد انعقاد مؤتمر عدم الانحياز.

أصبحت دارنا خلية نحل، المطبخ في حركة متواصلة، الطباخ جعفر، يحضر يومياً ألوان الطعام المتنوعة ليتذوقها الاستشاريون الأجانب، ويحملوا معهم نكهتها إلى بلادهم. زيارات متواصلة، كما أصبحت سفرة العشاء روتيناً يومياً في بيتنا.

لم يعلم رفعة عندما عين مستشاراً لأمين العاصمة، من هو صاحب فكرة بناء شارع حيفا، فقد كان أغلبه مهدم. و لم يكن هنالك مجال للمحافظة على البيوت القديمة، إذ كان معظمها مهدم أيضاً. و لم يخطر بباله أنه يتعين عليه أن يكلف مساعد مهندس في تخطيط المدن، إذ لم يكن له علاقة مع مخططي المدن. وكان سهواً منه في معالجة هذا الموضوع، كما أخبرني فيما بعد. إذ حصل في بناء شارع حيفا، ما حصل من قبل في فتح شارع غازي والجمهورية وشيخ عمر. وقبلها شارع الرشيد الذي أفتتح أثناء الحكم العثماني في العراق. لذا عندما فتح شارع حيفا وتم إكساؤه، حصل ذلك دون جهة مختصة للقيام بالتخطيط، سوى أن رفعة معمار وله علاقة بالمعماريين، وهذا ما جعله يعتمد المساعدين والمعماريين أو المهندسين المدنيين الذين اختارهم.

١١٧- دعي عدد من المعماريين لحضور المؤتمر، من بينهم جون ورن من إنكلترا، و جارلس كوريا عن مؤسسة العمارة للأغا خان، و معماريين من لبنان و الأردن، كما شارك محمد مكية في المؤتمر، بعد عودته إلى العراق.

Twitter: @ketab_n

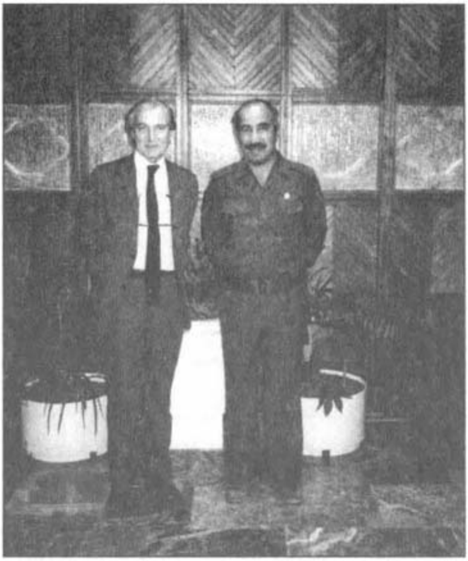

أمين العاصمة سمير الشيخلي ورفعة 1982.

كانت المهمات التي أنيطت به، حين عين مستشاراً، المسؤولية عن جميع نواحي التخطيط والعمل والتنفيذ. عقب استدعائه من سجن أبو غريب إلى مجلس الوزراء، ومقابلته طارق حمد العبد الله، مدير مكتب صدام حسين آنذاك. حيث أخبره أن الرئيس يريد منه تحسين مدينة بغداد، وتخليد اسمه في التاريخ. فشكره وقال له ما هي صلاحياتي المالية؟ أجاب: صلاحياتك مطلقة، من غير تحديد.

كانت علاقة رفعة بأمين العاصمة سمير الشيخلي، علاقة ودية، وجيدة، لأنه كان كفوءاً كإداري. وأصبح بينهما انسجام كامل، و لم يتدخل الأمين في اختيار الاستشاريين. كان يمر عليه دائماً قبل نهاية الدوام، يقوم بتوقيع التقارير التي يكتبها رفعة[١١٨].

١١٨- لم يستمر سمير الشيخلي أميناً للعاصمة، فقد نقل إلى مؤسسة أخرى، و حل محله خالد الجنابي، ثم عبد الحسين الشيخ علي، لمدة قصيرة أيضاً، حتى ترك رفعة

Twitter: @ketab_n

رفعة مع معاذ الآلوسي وبعض موظفي امانة العاصمة 1982.

أما الخبراء الذين عينهم رفعة ليكونوا مساعدين له، فهم الخبير الأمريكي جورج ددلي[119] Goerge Dudley، الذي رشحه المعمار رعد المميز. ثم عين رفعة، المهندس المدني هشام المدفعي ليكون مسئولاً عن المشاريع المدنية من حيث التنفيذ بصورة عامة، وبذلك يتفرغ رفعة إلى لقاء وتكليف الاستشاريين. كما عين المعمار معاذ الآلوسي في الإشراف على شارع حيفا، وأداء الاستشاريين. أما الموظفون الآخرون في الدائرة، فعين أغلبهم، بعد أن تخرجوا مباشرةِ من القسم المعماري في جامعة بغداد، وكان معظمهم جيدين من الناحية الإدارية.

كانت التقارير التي يكتبها رفعة مختزلة، لا تتجاوز الثلاث أو أربع صفحات، مكونة غالباً من ثلاثة فقرات: الفقرة الأولى: لماذا اقترح

المديرية، و سافر إلى الولايات المتحدة.

١١٩- جورج ددلي George Dudley: ١٩١٥-٢٠٠٥، أسس المعمار جورج ددلي قسم الماجستر للعمارة في جامعة يل في عام ١٩٤١، و أصبح رئيس مجلس التخطيط لهيئة الأمم بعد الحرب العالمية الثانية. و أسس مدرسة العمارة و التخطيط في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجليس ١٩٦٣.

Twitter: @ketab_n

المشروع المعين وفائدته لمدينة بغداد، وثانياً: من هو الاستشاري الذي سيكلف في المشروع وأجوره، ثالثاً: كلفة المشروع التقديرية.

أما المشاريع فلم تتحدد على شارع حيفا فقط، وإنما شملت بغداد بصورة عامة، منها ساحة الميدان، حيث بنيت عمارة من قبل المؤسسة الاستشارية المعمارية تاك TAC، وأعطي شارع أبو نؤاس للدنماركيين Danish Consult، كما أعطي مشروع الكاظمين المحاط بالصحن ومشروع عبد القادر الكيلاني، إلى جون ورن John Warren.

رفعة مع المعمار ددلي والاستشاريين في دائرته في أمانة العاصمة.

و لم تطبق مشاريع بعض الاستشاريين، إذ بدأت الحرب العراقية الإيرانية، التي أخذت تستنزف قدرات العراق المالية. وأجل تصميم المعمار الأمريكي فنتوري Venturi، والكندي أركسن Erikson، والأسباني ريكاردو بوفيل Ricardo Boffill. وقد نُفذت المشاريع من تصميم المعمار معاذ الآلوسي وريشارد إنكلاند Richard England، وأوف أرب Ove Arab. وبوشر بمشروع الكاظمية، وكلف بتزيين مدينة بغداد مؤسسة استشارية يابانية يرأسها يمادا Yamada، وأخوه.

Twitter: @ketab_n

المعمار ريشادر إنكلند ورفعة 1982.

تغيرت سماء بغداد، وعلت الرافعات الحديدية في كل صوب وحي من أحياء العاصمة، وأصبحت الشركات الانشائية تعمل ليل نهار، لتنهي أعمالها في الموعد المحدد لها قبل عقد مؤتمر عدم الانحياز.

×××

كما اختفت الطائرات المحلقة في سماء بغداد، وعادت الحياة إلى مجراها الرتيب في العاصمة، وهيمن السبات على أخبار الحرب، لا تذكرنا بها إلا البيانات التي تذاع من الإذاعة والتلفزيون، فنحس أن المعارك الحامية مستمرة على الحدود الشرقية، وإن الحرب تقتات الشباب في الجبهة. ولكن بعد مدة قصيرة ظهرت آثارها واضحة في أحياء المدن في العراق. فانتشرت الرايات السوداء في أنحاء البلاد. و لم نسمع أحداً يحتج، في مقالة أو حديث، إذ كان الخوف راية الجميع.

انهالت هدايا الرئيس على أهالي الشهداء من السيارات، ووزعت عليهم قطع الأراضي، وتشاغل الناس الذين فقدوا أعزاءهم، بهدايا الرئيس، فزادت النياشين وارتفعت الرتب العسكرية في الجيش!

Twitter: @ketab_n

وضاعت المقاييس، وفسدت الأخلاق، وزاد الجشع والطمع للحصول على قطعة أرض وسيارة وعشرة آلاف دينار، التي كانت تسلم بعد أن يفقد أحد أفراد العائلة في الحرب الطاحنة.

بدأت سلسلة جديدة من مسلسلات تخريب وتدمير بنى المجتمع! فاخترع البعض الطرق الملتوية، وإهانة الذات، للحصول على هدية الرئيس! وأصبحت زيارات أهالي الشهداء للرئيس من الطقوس اليومية التي نشاهدها على شاشة التلفزيون. وأفترت شفتا الرئيس عن ابتسامة تحولت إلى ضحكة، عندما دغدغت أذنيه كلمات النفاق، مطبطباً على كتف امرأة فقدت لتوها ثلاثة من أبنائها في الحرب، وهي تردد أمامه: «يروحون أولادي فدوة إلك»! دمّر الرياء أخلاق الناس، وغلب حتى على العاطفة الطبيعية، العاطفة الصادقة والعلاقة بين الأم وأولادها! كيف تهلهل أم خسرت ثلاثة أولاد للرئيس الذي كان السبب في قتلهم! في حرب عبثية، لا هدف لها سوى إشباع ذات مريضة!

كما تفاقمت حوادث الدهس والتعدي على الناس وأصبحت ظاهرة جديدة، لانعدام المعرفة بأصول قيادة السيارة، ومنهم من أدى جهلهم بقيادة السيارة الطائشة إلى حتفهم.

×××

الخوف من آلة التصوير

منذ سنوات، كان رفعة يتجول بكاميرته في جميع أنحاء العراق، يصور الحياة اليومية، من الأزقة إلى العمارة والأسواق والجوامع والمراقد الدينية والمقابر والطقوس الدينية. جلسنا ذات يوم من أيام الجمعة[١٢٠]، مع الأصدقاء والأقارب حول مائدة الغداء في انتظار رفعة، أصابني القلق، فهو لا يتأخر عن مواعيده، وصل هذه المرة

١٢٠- يوم الجمعة: هو اليوم الذي نجتمع بأصدقائنا المقربين من العائلة، اسبوعياً.

Twitter: @ketab_n

متأخراً أكثر من ساعة عن الموعد، وإذا به كان معتقلاً لأنه رفع كاميراته ووجه عدستها فوق جسر باب المعظم! كيف يتجرأ إنسان بالتصوير من على جسر في العراق؟ إنها من المحرمات! بل تعتبر جريمة بنظر السلطة يستحق عليها العقاب، فربما سيفشي الأسرار للعدو القابع في مخيلتها. رغم أن رفعة كان بوظيفة مستشار لأمانة العاصمة، والمسؤول عن تخطيط مدينة بغداد، وحصل على موافقة التصوير مسبقاً، من قبل أربعة دوائر حكومية، بما فيها المخابرات والدفاع!

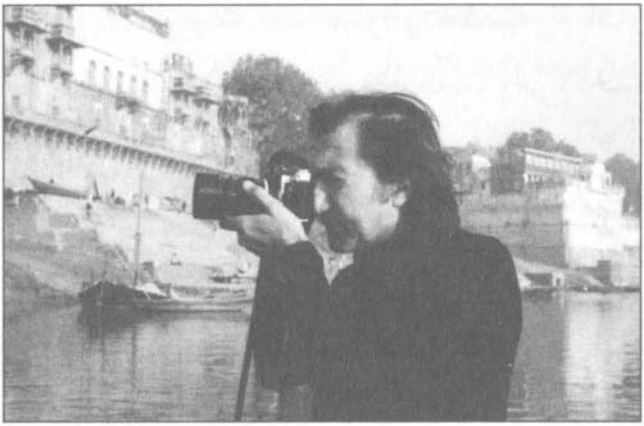

رفعة مع الكامرة، تصوير: بلقيس شرارة.

قلت له: هل ستتوقف عن التصوير، بعد ما ألمّ بك، قال: لا، ولكنه طلب من المعماريين الاستشاريين الأمريكيين الذين كانوا في بغداد، صورة العراق التي تم تصويرها من خلال «الستلايات/الأقمار الصناعية» فوق الكرة الأرضية. تسلمها بعد بضعة أسابيع من قبل بعض المعماريين الذين طلبوا الخريطة من مؤسسة الفضاء NASA . كانت الخريطة عرضها متر وطولها ثلاثة أمتار، علقها في غرفته في أمانة العاصمة. بدا الاستغراب على تقاسيم وجه أمين العاصمة سمير الشيخلي، عندما شاهد الصورة المعلقة على الجدار، فسأل رفعة عنها،

Twitter: @ketab_n

قال له: إنها صورة لمطارات العراق والثكنات العسكرية وأنابيب النفط! رد عليه مندهشاً: «هل الكواويد مخوفينا ويحاسبون الناس على صورة يأخذوها بكاميرا البلوريد؟» تحمس أمين العاصمة، وأخذها إلى القصر، ليروا بأم أعينهم أنه ليس هنالك سر بعد اليوم!

لم تكن هي المرة الأولى التي يعتقل فيها رفعة، فللكاميرا تاريخ طويل وأحداث كثيرة تعّرض لها. فقد غادر الدار صباح عيد الفطر ليلتقط صور العيد بصحبة الدكتور علي كمال. كان جميع افراد العائلة وأصدقاؤهم بانتظار عودته، فقد حضروا بهذه المناسبة و لم يأت رفعة!

وصل رفعة بعد أن بدأنا بتناول غداء العيد، وهرع الجميع في توجيه الأسئلة إليه، و لم يخطر ببال أحد من الحاضرين أنه أعتقل والدكتور علي لأنهما صورا المراجيح/ الأرجوحة، في حدائق السعدون. فاعتقلا لأكثر من ساعة، واستمر التحقيق حول الكاميرا، هذه الآلة الصغيرة التي حجمها بحجم اليد مع ذلك تخافها السلطة وجبروت مخابرات وأمن صدام حسين. هذه الآلة التي يكن لها العداء ويخاف منها حتى عامة الناس! فالشك والنظر إليها بعين ارتياب دائم في جميع أنحاء العراق، وفي جميع الأقطار العربية والعالم الثالث. والخوف من الكاميرا ليس بالأمر الجديد، لأن مصدره الجهل، واعتبار الكاميرا آلة تجسس من قبل السلطة والعامة.

كان رفعة خلال السبعينيات من القرن الماضي، يصور منطقة القصابين في مدينة الموصل بصحبة أحد رجال الأمن، عندما رفع أحدهم سكيناً قائلاً: سأضرب هذا الأجنبي بهذا السكين! شعر رفعة بالخطر عندما نظر إليهم من خلال عدسة الكاميرا، وهيمن الصمت على الجميع، وما هي إلا لحظات أمام رفعة قبل أن يُعتدى عليه، فأجابه باللغة العربية: أتحداك! أنقذ رفعة نفسه بتلك الكلمة السحرية،

Twitter: @ketab_n

وانقلب جميع القصابين ضد ذلك الشخص الذي هدد بضربه، وتحول ذلك الشخص إلى كتلة من التوسل والاعتذار!

أما في مدينة أربيل فقد دارت رحى معركة بالحجارة بين رجل الأمن الذي كان بصحبة رفعة، وأطفال الحي، عندما كان يصور مقبرة المدينة، فحتى الأطفال نشأوا على الخوف والنظرة المريبة من تلك الآلة في سن مبكرة.

و لم تنج هذه الآلة الصغيرة من ردود فعل منظفي أزقة وشوارع بغداد. عندما كان رفعة في إحدى الجولات يصور محلة الحيدرخانة، لمحت الرسامة وداد الأورفلي التي رافقته في تلك الجولة، مكنسة كبيرة يرفعها كناس المفروض أن يكنس بها أزقة بغداد الضيقة، لكنه كان يريد أن يضرب بكل قواه ذلك الأجنبي، فهجمت وداد عليه في الوقت المناسب، وتحولت إلى درع تحميه من المكنسة. لقد انطبع شبح الخوف القابع في الأعماق من هذه الآلة حتى بين عامة الناس، فهي التي ترى من خلالها عيوب البلد وتأخره إن صورت عدستها الأزقة والشوارع.

×××

كانت القرارات تتخذ في بعض الأحيان حسب مزاج الرئيس، ثم تختفي بعد مدة وجيزة كما ظهرت! كنت في سيارتي متجهة نحو حي المستنصرية لزيارة أختي حياة، عندما أشار لي الشرطي بالوقوف، نظرتُ إلى يد بضة، حدقتُ ثانية في الشرطي و لم تصدق عيني ما ترى، إنها فتاة؟ كيف انقلبت الأمور فجأة يا ترى! متى صدرتْ الأوامر في تدريب الفتيات كشرطة مرور؟!

كانت الشرطية مرتدية تنوره كحلية وقميص أبيض نظيف، وقبعة كحلية، علامات الجد بادية عليها، في إشارتها للسيارات التي توقفها.

Twitter: @ketab_n

واستغربتُ من هذا التناقض، فقد قرر الحاكم إنخراط الفتيات في سلك الشرطة، كخطوة على طريق التقدم الذي يتجه البلد نحو! ولكن تلك الخطوات ظلت طافية على السطح وليس في عمق المجتمع، لهذا فشلت تلك التجربة و لم تستمر الفتيات في تلك الوظيفة إلا لشهرين أو أكثر، وعادت الوجوه العبوسة في تنظيم المرور في شوارع بغداد. كنا نتساءل لما ظهرت فجأة الشرطة من الفتيات في شوارع بغداد؟ لا ندري، ولماذا اختفت الفتيات الرقيقات فجأة يا ترى؟ لا ندري أيضاً؟ وهل هي أوامر تتغير بنفس السرعة التي تصدر بها، حسب مزاج الحاكم(١٢١)!

×××

هدية الرئيس وهدم نصب الجندي المجهول

رن جرس التلفون، رفع رفعة السماعة في دائرته، ليستمع من يقول له: إنهم يطلبون حضورك إلى القصر، لم يكن سائقه موجوداً، فقد أرسله بمهمة، وليس هنالك سيارة تقله إلى القصر! وجد رفعة موظف في دائرة الاستعلامات، فطلب منه أن يوصله إلى القصر. كانت سيارة هذا الموظف « فيات» قديمة، تحول لونها الأحمر، إلى حمرة باهتة. كما كانت مقاعدها رثة، من طول استعمالها.

ظلت الأسئلة الحائرة تتزاحم في ذهن رفعة في طريقه إلى القصر! لا يدري ما ينتظره؟ فكّر في جميع المشاريع التي كان مسؤولاً عنها في مديرية أمانة العاصمة، واحداً بعد الآخر، جميعها كانت سائرة على ما يرام وليس هنالك أية مخالفة أو مشكلة! ولكن الأسئلة القلقة ظلت تدور

١٢١- علمنا بعد مدة أن السبب في إلغاء وظيفة الفتيات كشرطة في بغداد، يرجع إلى عدم وجود المراحيض العامة في شوارع بغداد، لكي تلتجيء إليها الشرطية عند الضرورة.

Twitter: @ketab_n

في رأسه بلا جواب. لِماذا أرسل بطلبه من القصر، وما الذي يريدونه منه، ولِماذا هذه العجلة يا ترى؟ وصل بوابة القصر، ففتح الباب على مصراعيه عندما أعطى اسمه في الاستعلامات. انقلبت الحيرة إلى دهشة، سارت السيارة داخل حدائق القصر فقطعت الحاجز الثاني والحاجز الثالث. كانت عيون الحرس تنم عن علامات الاستفهام، بعد عبور كل قاطع! سيارة «برشقة» تدخل القصر! سيارة فيات موديل الستينيات تتخطى باب القصر! فأرض القصر معتادة أن تطأها سيارات المرسيدس الفخمة التي تتهادى في داخله!

دخل رفعة القاعة الواسعة، واقتيد نحو طارق حمد العبدالله[١٢٢]. بعد تبادل التحية، بدأ طارق العبد الله كلامه: «إن الرئيس يرغب في تكريمك على الخدمات والعمل الذي تقوم به في أمانة العاصمة، ورصد لك هدية خمسين ألف دينار عراقي، وسيارة «تيوتا كرونا»». وتوقف لحظة، ثم سأله: « وأين ترغب في تسلم الخمسين ألف دينار، في الداخل أم في الخارج؟»[١٢٣].

فوجئ رفعة بكلام طارق حمد العبدالله، فكّر ملياً خلال الثواني التي عليه أن يجيبه. فرفض هدية الرئيس ذنب لا يغتفر! وما سيؤول إليه مستقبله بل مصيره! إعادته إلى السجن، أو التلاشي من الوجود! من له القدرة والجرأة على رفض هدية الرئيس؟ وما هي النتائج المترتبة على قبول الهدية؟ وإن قبلها فهل سيصبح من تابعي السلطة؟ وضع لا يحتمل أو يطاق، لا يمكن لأحد أن يشتريه! شعر بالحرج، ووجد نفسه أمام مشكلة لا يدري كيف يحلها بطريقة يتفادى بها الأذى!

١٢٢- كان طارق حمد العبدالله السكرتير الخاص لصدام حسين آنذاك.

١٢٣- كان الدينار العراقي يعادل ٣ دولارات أمريكي، أي الخمسين ألف دينار كانت تعادل ١٥٠ ألف دولار آنذاك.

Twitter: @ketab_n

ثم أجاب رفعة بعد لحظات: «خليني أفكر». وخطرت له فكرة تخرجه من المأزق الذي وجد نفسه فيه. وقال له: «إن الخمسين ألف دينار أريدها في الداخل، وسأصرفها على تجديد دار والدي، الذي سأجعله متحفاً للشعب».

وصل رفعة الدار، وأخبرني بما دار بينه وبين طارق حمد العبدالله، قائلاً لي لقد عرض عليّ هذا المبلغ في الداخل أو في الخارج، بالرغم من عدم السماح لأي عراقي في أن يكون له حساب في الخارج! ونعلم جيداً إن بعض الناس اعتقلوا وصدرت بحقهم أحكام سجن متفاوتة لهذا السبب. أحس رفعة براحة نفسية بعد الحيرة التي مرّ بها، كان مقتنعاً بالأسلوب الصحيح الذي سلكه في حل المشكلة، بل شعر بنشوة في أعماقه، فبإمكانه الآن إنجاز الحلم الذي ظل يراوده منذ وفاة والده، الحلم الذي سيجعل من دار والده مركزاً، من خلال المحافظة على الوثائق والأوراق والكاميرات ومكتبة الجادرجي.

ذهبتُ في اليوم التالي بصحبته إلى مصرف الرافدين فرع العلوية، وفتح رفعة حساباً خاصاً باسمي، ووضعنا المبلغ فيه، كي يكون منعزلا عن حسابنا المشترك، ويكون خاصاً بالصرف على دار والده. وبدأ التحضير لإصلاح الدار، فانتقلتْ أم رفعة إلى دار ابنها نصير، وبدأ العمل فيه تدريجياً، غرفة بعد غرفة. أشرفتُ على نقل جميع الاثاث والكتب من كل غرفة من غرف الدار. كان عملاً متعباً وشاقاً دام حوالي العام تقريباً. لم تكن أم رفعة مرتاحة نفسياً، خاصة عندما علمت أن الدار ستصبح متحفاً لتخليد أسم زوجها. واعتبرت العملية تحدياً لها، واعتداء على حقوقها وحقوق أولادها وأحفادهم الذين هم الورثة الحقيقيين بالنسبة لها وليست الدولة. كانت متألمة، لا تدري كيف تقنع رفعة، لردعه عن هذه الخطوة. إنها مفاهيم جديدة لا تعرف عنها شيء! والحقيقة إنها مفاهيم غير مقبولة بين معظم الناس الذين يعيشون في المجتمعات

Twitter: @ketab_n

التقليدية، فهم معتادون على وقف جامع أو حسينية وربما مدرسة! واعتبر تحويل دار العائلة إلى متحف ترثه الدولة، وتحفظ فيه جميع وثائق وصور وكتب الجادرجي خطوة جديدة لم يقدم عليها إلا قلة من الناس، ومعظمها فشلت في تحقيق الهدف. واستغرب حتى بعض الأصدقاء من هذا التوجه و لم يتقبلوا الفكرة أيضاً، لأنها فكرة جديدة بالنسبة للشعب العراقي عامة.

و بدأت دورة السباق بين الطرفين، حاولتْ أم رفعة تخليص بعض الأغراض العزيزة عليها في الدار. كان رفعة في حيرة من أمره، لا يحب أن يغيض والدته، ويكون السبب في إزعاجها. فقد قضّت مضجعها فكرة تحويل الدار إلى متحف، وتفقد بذلك العائلة ملكيتها، وتصبح الدولة مسئولة عنها. فكرة لا يمكن لها أن تستوعبها وتوافق عليها، فلجأت إلى الصمت. وأحست بالغربة والانسلاخ عن أعز ما تملكه في هذه الدار. وأصبحت أم رفعة تنام الليل في دار نصير، ولكنها أصرت على قضاء النهار في شرفة أو حديقة الدار، تتطلع عن بعد إلى العمال الذين يقتلعون الكاشي الأخضر اللون الذي عاصرته لربع قرن، والكهربائي يمد خطوطاً كهربائية جديدة.

و بدأت مرحلة ثانية بالنسبة لرفعة وهو تسجيل الدار ومحتوياته بوزارة المالية، وجعله « trust »[١٢٤] لكن ليس هنالك قانون يمكن بها أن يسجل الدار على هذه الشاكلة. فرفع رفعة رسالة لوزارة المالية بهذا الشأن، وتركنا العراق و لم يحل الموضوع. وفي النهاية أصبح الوضع

١٢٤- trust : هو مسؤولية يحملها الشخص بحكم الثقة التي يتمتع بها، و تتكون عادة من هيئة من الاشخاص.

التقى رفعة بوزير المالية أمين القلمجي في دار صديقنا محمود عثمان، و بحث الموضوع معه، لكن نصح وفعة من قبل موظفي المالية بآلا يقدم على هذا العمل، لأن الموظفين المسؤولين هم الذين يستفيدون من البيت، و ليس هنالك ثقة بالحكومة.

Twitter: @ketab_n

خطراً بعد حرب الخليج للتصرفات ألَّلا شرعية من قبل المسؤولين، فقد استولى مدير الأوقاف على دار منير القاضي ونقلت مكتبة الدار إلى المكتبة الوطنية[١٢٥]. كان نصير غير مرتاح من أن يصل دار الجادرجي إلى نفس المصير، فاقترح أن يجعله وقفاً وتصبح بذلك العائلة مسؤولة عنه حتى عام ٢٠٢٠. رفض رفعة ذلك، لأن الوقف يتضمن صفة دينية.

كنت أقضي وقتي في النهار في تنظيم الكتب حسب تصنيف «دوي Dewy»، وكان عملاً شاقاً ومضنياً، ولكنه ممتع في الوقت نفسه. فقد قضيت ما يقارب ثمانية أشهر في ترقيم كل كتاب ووضعه في محله الصحيح في الرف الذي يعود إليه. وشملت كتب رؤوف الجادرجي وكامل الجادرجي. وفي المساء كانت تتعالى بين جدران دارنا أحاديث وضحكات الأصدقاء والأقارب وأحياناً الاستشاريين الأجانب المدعوين لتناول العشاء.

أصبحت سيارة «التويوتا» التي أهداها الرئيس صدام حسين لرفعة من نصيبي، فقد سجلتُ على سيارة في بداية عام ١٩٧٩ و لم استلمها إلا بعد خمسة أعوام[١٢٦]، و لم يكن رفعة بحاجة إلى السيارة إلا ليلاً، فقد خصصتْ له أمانة العاصمة أثناء العمل سيارة مع سائقها.

و في عام ١٩٨٢، قبل سفرنا بشهرين تقريباً، قضينا السهرة مع بعض الأصدقاء في فندق «المريديان» في عيد الفطر، وترك رفعة السيارة في الجهة الثانية من الفندق. خرجنا في منتصف الليل و لم نجد السيارة،

١٢٥- أوصى منير القاضي الذي كان عميد كلية الحقوق، داره إلى مديرية الأوقاف، و عندما علم صدام باحتلال الدار، أخرج المدير من الدار حالاً.

١٢٦- سجلتُ على سيارة عام ١٩٧٩، و سافرنا إلى الولايات المتحدة عام ١٩٨٢، فأخبرني نصير الجادرجي باستلامها عام ١٩٨٤، و اصبحت من نصيب إبنته مي.

Twitter: @ketab_n

فاستغربنا من اختفائها! ذهبنا حالاً للشرطة في المنطقة وسجلنا حادث فقدان السيارة.

كنا رفعة وأنا، في حيرة من الأمر، كيف يمكن أن تسرق السيارة أمام فندق كبير! قضينا العيد والسيارة ما زالت مفقودة. ولكن بعد العيد بيوم، وجد صديق لنا السيارة في موقف باص العلوية قرب فندق المريديان، الذي لا يبعد أكثر من خمسين متراً، مع غرامة عشرة دنانير من قبل شرطة المرور! جلب السيارة المتعهد علي الناصر. وهيمن علينا الاستغراب والتعجب، عندما وجدنا كل شيء كما تركناه، فلم يؤخذ منها شيء، حتى كاسيتات الموسيقى التي كنا نستمع إليها لم تحرك من موضعها.

أصبحنا نشكُ في أسلوب اختفاء السيارة، إنها ليست سرقة اعتيادية، فلو قامت بالعملية عصابة من المحترفين، لأختفت وبيعت السيارة خارج الحدود. ولو قام بها حرامي لسرق الراديو. كما إن باب السيارة مفتوح بمفتاح، فليس هنالك خدش أو استعمال قوة في فتحها! فكرنا بالأمر بصورة جدية، فالسيارة هدية من الرئيس، ورفعة في مركز مهم، يزوره يومياً عدد كبير من الاستشاريين الأجانب الذين كلفوا بالعمل من قبله، ويقوم بدعوتهم للعشاء في داره! في بلد مصاب بمرض الحساسية من الأجانب! فهم تحت رقابة مستمرة في كل خطوة من خطواتهم! عيون المخابرات مفتوحة في تتبع جميع حركاتهم. هذا بالإضافة إلى رفض رفعة استلام المبلغ الشهري الذي خصصته أمانة العاصمة له ليضفي صورة رسمية على دعوته للاستشاريين، كما رفض تواجد المخابرات في دائرته. أفترضنا عندئذ أن السيارة لم تسرق وإنما اختفت لمدة أربعة أيام من قبل مسؤولين في مديرية المخابرات، وربما قد وضعت آلة تسجيل في داخلها مرتبطة بالمديرية، ليتجسسوا ويطلعوا على ما يجري من حديث في السيارة، ولا ندرى مدى صحة فرضيتنا.

Twitter: @ketab_n

أدى ذلك الوضع إلى التزام الصمت القسري، لا نتحدث في السيارة خوفاً من زلة لسان تؤدي بنا إلى السجن أو المشنقة، وإن بدأ أحدنا واسترسل في الحديث، فحالما ينبه الآخر بالإشارات، فلا جرأة لنا في نطق كلمة «اسكت» خوفاً من تسجيلها. شعرتُ أنني أفقد حق الخصوصية حتى مع نفسي! توالت الأيام وأصبح الصمت المطبق في السيارة عادة تعودنا عليها. إنه الخوف المدمن القابع في أغوار الذات العراقية. بان أمامي كتاب الكاتب البريطاني «أورويل» «١٩٨٤» حيث اللاقطات تراقب الناس وتحصي حركتهم حتى في بيوتهم، ومن حسن الحظ أن المدة المتبقية لنا كانت قصيرة، فلم تكن أكثر من شهرين أو ثلاثة، قبل أن نترك الوطن!

كانت خيبة رفعة كبيرة ومؤلمة، عندما أمر الرئيس صدام حسين بهدم نصب الجندي المجهول الذي كلفه في تصميمه رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم عام ١٩٥٨، فلم يتحمل نصباً في ساحة جميلة تحيطها أبنية مهمة من جامع وفنادق، يمر بها الناس، فتذكرهم برئيس آخر غير رئيسهم صدام، ولذا وجب هدمه وإنشاء نصب جديد يخلد اسم الرئيس الجديد، فكان هدم نصب الجندي المجهول وداعاً مؤلماً لرفعة على ما قام به من خدمة بلده قبل تركه العراق.

أطفأت الشعلة التي كانت تنير النصب، وربما رفع رفات الجندي المجهول من تحت النصب، أخبر رفعة عن النصب بعد انتهاء الهدم. عندما وصل رفعة ساحة الجندي المجهول، صّور حطامه مع المتعهد الذي قام بهدمه. وشاهد رخام «كرارة Carara» الفضي اللون منتشراً في كل صوب، بعد أن نهش البلدوزر البناء بضرباته. لقد قضى رفعة وقتاً في تصميمه وأشهراً في تنفيذه، والآن أصبح أمام عينه حطاماً من الأنقاض!

Twitter: @ketab_n

أضيئت شعلة الجندي المجهول في النصب الجديد، النصب الذي صممه النحات خالد الرحال[١٢٧]، نصب ضخم واسع المساحة، وأفتتحه الرئيس صدام حسين، فقد تخلص من نصب عبد الكريم قاسم، إذ كان صدام من بين المشاركين في الاغتيال الفاشل لرئيس الوزاء عبد الكريم قاسم عام ١٩٥٩، فكيف له أن يظل نصب يذكره به؟ هذه هي السُنة التي سار عليها حكام العراق، فاغلبهم يدمر آثار ما تركه الحاكم الذي سبقه، ولهذا ليس هنالك استمرارية لحفظ تراث البلد والاعتزاز به كما هو الحال في البلدان الأخرى من العالم. كانت الحجة في هدم الجندي المجهول أنه لا يمكن أن يكون هنالك نصبان يمثلان الجندي المجهول، وهي حجة واهية.

تمثل مثل هذه الأنصبة استقرار المجتمع والسلطة، بينما ما جرى كان بعيداً عن الاستقرار والرسمانية التي تتحلى بها الأنصبة وخاصة نصب الجندي المجهول.

×××

١٢٧- خالد الرحال: (١٩٢٦ - ١٩٨٦)، نحات و رسام، يعتبر أحد ابرز رواد الحركة الفنية في العراق، حصل على دبلوم النحت من معهد الفنون الجميلة ١٩٤٧، تخرج من أكاديمية الفنون الجميلة بروما، عام ١٩٦٤ و نال شهادة التخصص. انتمى إلى جماعة بغداد للفن الحديث عام ١٩٥٣ و شارك في معارضها. أهم أعماله الجندي المجهول، و تمثال الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، و تمثال الأم في حديقة الأمة و قوس النصر. تحدث عن ظروف إقامة قوس النصر قائلاً: إنه قدم نموذجاً ضمن مسابقة شارك بها عدد كبير من الفنانين، إلى دائرة الفنون التشكيلية عام ١٩٨٣، بناء على دعوة رئاسة الجمهورية، لتصميم قوس نصر عراقي تستعرض من تحته القوات المسلحة. و عرضت النماذج على صدام، فاعجبته فكرة خروج ذراعه من الأرض و كفه اليمنى تمسك بالسيف العربي، فوافق عليها و أمر بتنفيذها عام ١٩٨٥.

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع

السفر إلى الولايات المتحدة

تسلم رفعة دعوة من جامعة هارفرد، Loab fellow لمدة عام، وافق رفعة على الدعوة. وبدأت تهب رياح الرحيل، وأقترب الموعد، يوماً بعد يوم، تناقصت الأيام في الشهر الأخير بسرعة.

كنت أجلس صباحاً أمام ماكينة الخياطة، أخيط أمتاراً من قماش «خام الشام»، انتهت أول وجبة، وطويتها، متوجهة إلى غرفة أبو رفعة، أغطي رفوف مكتبته، الكتب التي نظفتها ورقمتها وأعدتها إلى رفوفها، لأعود ثانية وأجلس أمام الماكينة، أضغط بقدمي على الزر الكهربائي، وتدور الماكينة، يدي ملتصقة بطوية القماش، أسمع صوتها الرتيب ثانية، وتنتهي الوجبة الثانية من قماش «خام الشام[١٢٨]»، أتوجه نحو دار أبو رفعة لأبدأ بتغطية مكتبة رؤوف الجادرجي، رفاً بعد رف، وغرفة بعد غرفة، والساعات تمر، والأيام تتوالى، والرحيل يقترب.

عادت أم رفعة لدارها، بعد أن تركته عاماً كاملاً تقريباً، حولت بعض غرف الدار بعد أن اجري عليه التصليح إلى مكتبة ضخمة، ضمت كتب العائلة. رتبتُها كتاباً بعد كتاب، وامتلأت رفوفها، رفاً بعد رف. غطت الكتب جدران المجاز وغرفه، ولم يبق من الدار إلا غرفة الاستقبال والنوم، وغرفة الطعام. وشعرتْ ام رفعة أن الدار لم تعد

١٢٨- «خام الشام»: هو قماش أبيض، مائل للسمرة، يستعمل عادة لتغطية الأثاث ولف السجاد.

Twitter: @ketab_n

دارها، بل أصبحت متحفاً، وأحست بالغربة، وشعرت ببرودة جدرانه.

شعرتُ بما أحست به أم رفعة من الغربة في الدار التي سكنتها منذ عام ١٩٣٦، الدار التي توالت عليها الأحداث وعصفت بالعائلة وبالعراق. وأصبحت جدرانها تاريخاً وشاهداً على ما جرى فيها لنصف قرن. وسجلت فيه مذكرات الحزب الوطني الديمقراطي وافتتاحيات جريدة الأهالي. مرّ على عتبة الدار مزيج من الناس، وأصبح مرآة المجتمع العراقي بصوره المتنوعة المعقدة.

حان الرحيل، ولم يبق من الوقت إلا ساعات، واتشحت رفوف مكتبة دارنا وأثاث غرفه بوشاح من خام الشام الأبيض. وأسدلت الستائر على النوافذ، وحجبت نور الحديقة. نظرتُ إلى دارنا وتراءت أمامي البيوت المهجورة في أفلام المخرج الايطالي فزكونتي Visconti.

رفعة ووالدته قبل الرحيل 1982.

Twitter: @ketab_n

باب دارنا مفتوح على مصراعيه، تقاطر الأصدقاء والأقارب والاستشاريون الأجانب، وجوه متنوعة، أحاديث متنوعة بلغات مختلفة، حركة دائبة، كحركة خلية النحل، لا تتوقف. طفحت الكؤوس بالنبيذ والبيرة والويسكي، وتعالت الضحكات والقهقهات، والمرح بادٍ على وجوه الجميع كأنهم في عيد متواصل، إلا أم رفعة، كانت صامتة، تنظر بعينيها الباهتتين، تتطلع إلى الجدران وأثاث الدار المغطى بالقماش الأبيض، وكأنه يدق ناقوس الفراق الأبدي! كما شاركتْ هذا الشعور شقيقتي حياة، التي شعرتْ أنها ستبقى وحيدة في العراق، فقد كنتُ آخر من سيترك العراق من العائلة. و لم يبقَ إلا شقيقي جهاد، وليس هنالك تقارب فكري بينهما. كانت متألمة لسفري والابتعاد عن بغداد.

×××

وصلنا لندن في نهاية الشهر العاشر من عام ١٩٨٢، وقررنا أن نقضي فيها ثلاثة أشهر قبل الرحيل إلى الولايات المتحدة. إذ كنا نقضي معظم وقتنا عند زيارة لندن أثناء العطل الصيفية، في زيارة المتاحف والمعارض الفنية، نطلع على آخر التطورات الفنية. كما كنا نحضر معظم المسرحيات المهمة، خاصة المسرح الحديث، فنطلع بذلك على ما توصل إليه المسرح من تقدم وتطور في التمثيل والإخراج. كما كانت السينما مهمة لكلينا، فكنا نحضر معظم أفلام دور سينما الاكاديمي الثلاثة الواقعة في شارع أكسفورد وسينما كرزن Curzon . إذ كانت معظم دور السينما تعرض الأفلام الأمريكية والإنكليزية عامة، ولا تعرض الأفلام الأجنبية إلا في دور السينما التي تهتم بالفن السينمائي في العالم، وبذلك اطلعنا على ما كان يجري في السينما من تقدم في الاتحاد السوفياتي واليابان والهند، والبلدان الأوربية الأخرى.

Twitter: @ketab_n

عندما وصلنا لندن هذه المرة، أقام Royal Institute of British Architects، أو المعروف بـ RIBA، حفلاً لتكريم رفعة، مع عدد من المعماريين العالميين، إذ انتخب رفعة عضو شرف في المؤسسة، وألقى كلمة بهذه المناسبة عما أنجزه في تطوير العمارة المحلية، وعن نظريته في العمارة. كما حضر التكريم عدد من المعماريين والاستشاريين الذين زاروا درانا في بغداد.

علمتُ وأنا في لندن، أن الدكتور محمد صالح سميسم زوج شقيقتي حياة، قد توفي على أثر انفجار في الدماغ بعد خمسة أيام. تألمت كثيراً، إذ أصبحت حياة وحيدة في بغداد، وليس هنالك سند لها، تتكئ عليه في مواجهة المشاكل والأعاصير التي بدأت تغلف أجواء العراق. و لم تبق أداة اتصال بيننا إلا التلفون. كنت قلقة عليها، أحاول الاتصال بها، بالرغم من صعوبة الاتصال آنذاك.

×××

عودتنا إلى بغداد لمدة اسبوع ١٩٨٣

سافرنا صيف ١٩٨٣ إلى كاليفورنيا، زرنا الساحل الغربي للولايات المتحدة، ثم قضينا أسبوعاً في منطقة pebble Beach الواقع على الساحل في كاليفورنيا، حيث كان المصور أنسل آدمز Ansel Adams، مع مجموعة من أساتذة التصوير، يديرون حلقات دراسية في التصوير workshop لمدة أسبوع. اشتهر أنسل آدمز بتصوير المناظر الطبيعة، خاصة Yosomite National Park، وقد طور Zone System، وأصبح من أهم المصورين الذين استعملوا الكاميرا باللون الأبيض والأسود في الولايات المتحدة.

حضر رفعة تلك الحلقة الدراسية، فكان يخرج في الصباح الباكر مع مجموعة من هواة التصوير، ولا يعود قبل السادسة مساء. تعلم رفعة

Twitter: @ketab_n

التقنية التي اتبعها أنسل آدمز في التصوير. كما كانت تعرض صورهم للنقد من قبل الأساتذة. واستفاد من تلك الأجواء المهيمنة على الحلقة الدراسية في التصوير. كانت آخر حلقة دراسية يشترك بها أنسل آدمز، فقد توفي بعد أقل من عام، في ١٩٨٤.

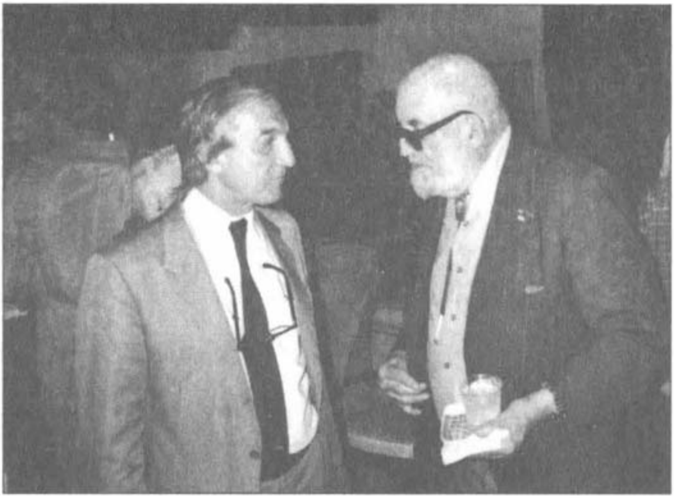

المصور أنسل آدمز ورفعة 1983.

عدنا إلى بغداد في تشرين الأول عام ١٩٨٣، لمدة اسبوع لحضور المؤتمر الذي عقد عن تعمير شارع حيفا. كنت أزور عصر كل يوم شقيقتي حياة، التي ترملت بعد أن تركنا العراق بستة أسابيع. فوجدتها متشحة بالسواد، وبان النحول على وجهها وجسدها. كانت متعبة من المسؤوليات الجديدة الملقاة على كاهلها، فقد أصبحت الأم والأب لطفلتيها مها وزينب، وبانت الكآبة المهيمنة على الدار. وبان لي اهتمامها في تربيتهما، وقضاء وقت أطول معهما، وأصبحت تحس بحمايتهما من المشاكل اليومية، تحاول أن تكون الدرع الذي يقيهما من مصاعب الحياة، إذ كان موت زوجها المفاجئ صدمة كبيرة لها ولطفلتيها.

Twitter: @ketab_n

كنت أعود في المساء إلى دار أم رفعة، أجلس بجانبها نستعيد ذكريات العام الماضي الذي غبنا فيه عنها. وجدتها متعبة وشاحبة اللون، وأصبح النسيان، مرض الشيخوخة المزمن مستأثراً بذاكرتها، تعيد القصص والأحداث، مرات ومرات، وتنسى أنها قد قصتها عليَ قبل مدة وجيزة. أصبحتْ تجيد التحدث عن طفولتها، فحدثتني عن عرسها وعن معاملة آل الجادرجي لها كفتاة صغيرة غريبة لم تتجاوز بعد سن السادسة عشر. كانت شفتاها تفتران عن ابتسامة رقيقة عندما تتحدث عن تلك المدة.

ولكن أحست ابنتها أمينة أن النسيان أخذ يهيمن تدريجيا على ذاكرة والدتها، وأصبحت لا تتحدث إلا عن الماضي البعيد الذي تجتر قصصه وأحداثه. وهذا شيء طبيعي في عمر الشيخوخة ولكن مجتمعنا لا يفقه حتى ذلك، بل يجهله تماماً، فيعتبرون أن الشخص «مخرف» ويتعامل معه المجتمع التقليدي المتخلف، مع المسن أو صاحب عاهة بدنية «عالة على المجتمع».

تألمت لتردي صحة أم رفعة خلال العام الذي غبنا فيه، إذ كانت تعتبر أبنها البكر سنداً لها. لم تكن هنالك علاقة فكرية بينها وبين أبنها رفعة كما كانت بينه وبين والده، ولكن كانت تربطها به عاطفة الأم الجياشة التي تقبع في أعماقها وتستحوذ على مشاعرها.

كانت دار أم رفعة تكتظ بالضيوف مساء كل يوم، وكانت مسرورة بوجودنا، ولكنها تألمت كثيراً لأننا أقمنا في فندق «الميليا» بدل دارها! أقمنا في الفندق لقربه من مجلس قيادة الثورة الذي أقيم فيه المؤتمر، كنا تحت حراسة شديدة، عندما ننقل صباحاً إلى مجلس قيادة الثورة.

حضر افتتاح المؤتمر الرئيس صدام حسين، وتكلم عن خصوصية العمارة، واستغربتُ من استعماله كلمات ومصطلحات يستعملها قلة من المعماريين، كنت أحدق فيه، غير مصدقة ما اسمع وأرى، أهذا هو

Twitter: @ketab_n

الرجل القابض على العراق وعلى مصيره ومستقبله. الرجل الذي بذر الخوف والرعب بين أبناء هذا البلد!

×××

وفاة أم رفعة

لم أكن أعلم أنني لن أرى أم رفعة ثانية، وإن تلك الزيارة كانت الأخيرة لنا. كنا نحاول الاتصال تلفونياً ببغداد، بالرغم من صعوبة الاتصال، لم تعجبني نبرة صوتها عندما كلمتها آخر مرة بالتلفون، كان صوتها ينم عن اليأس والخضوع للقدر. وودت لو كان باستطاعتي أن أكون بقربها وأنصت إلى ما يدور في أعماقها من خواطر وأفكار.

لم تمر إلا بضعة أشهر على عودتنا إلى كيمبرج/ ماساشوست، حتى أخبرنا نصير، أن أم رفعة قد توفيت أثناء إجراء عملية جراحية في الورك، وذلك بسبب خذلان القلب الذي كانت تشكو منه. كانت تنام على إحدى الكنبات في غرفة الضيوف عندما سقطت على الأرض كاسرة وركها. فقد رفضت النوم في سريرها منذ وفاة زوجها عام ١٩٦٨. ومن غريب الصدف أنها توفيت في نفس الشهر الذي توفي فيه أبو رفعة قبل ستة عشر عاماً. كانت تتجنب النوم في السرير، وتجد الأعذار لكي تنام في غرفة الضيوف بدل غرفة النوم. ومن سخرية الأقدار أن غرفة الضيوف أصبحت السبب في موتها.

لم نكن في كيمبرج، إذ كنا في سفرة لبضعة أيام خارج ولاية ماساشوست، وباءت محاولات نصير، بالاتصال بنا بالفشل. عدنا بعد خمسة أيام، وكانت أم رفعة قد دفنت في مقبرة الشيخ عبد القادر الكيلاني قرب زوجها(١٢٩). واغرورقت عينا رفعة بالدموع

١٢٩- حيث دفن في مقبرة الشيخ عبد القادر الكيلاني، رؤوف الجادرجي شقيق كامل الجادرجي ووالدهما رفعت الجادرجي.

Twitter: @ketab_n

عندما أخبرني بوفاة والدته صباح يوم بارد من أيام شهر شباط عام ١٩٨٤. قال لي: ماما ماتت!.. ثم سكت و لم ينبس بكلمة أخرى، بل دب حاجز الصمت بثقله بيننا. كان رفعة كوالده يكبت عواطفه ومشاعره. حاول أن يبتلع حزنه وألمه، ولكن مشاعر الحزن تخونه وتظهر على قسمات وجهه الكئيب. كنت على العكس منه تماما، أشرك الجميع بمشاعري، إن كانت مشاعر فرح أو حزن!

تركتُ رفعة جالساً قرب النافذة المطلة على نهر تشارلس، عيونه شاردة عبر النهر المتجمد، يتطلع إلى بوسطن في الجانب الآخر من النهر، اللون الأبيض طغى على جميع الألوان، الأشجار والشوارع والسيارات، كل شيء هادئ، ساكن في شارعنا، ابتعدتُ عنه وتركت له فسحة من الحرية ليستعيد الذكريات، ويحزن على فقدان والدته.

تألمتُ وحزنتُ على فقدانها، فقد كانت ذبالة النور التي تنجذب العائلة إليها، وتجتمع في دفئها، حول المائدة العامرة، تعلو وترتفع ضحكات وأحاديث الكبار المختلطة أحياناً بمناداة الصغار حول الطاولة الجانبية. بانت أمامي الدار الكبيرة، بغرفها الواسعة التي كانت تنبض بضجيج الحياة وصخبها، والتي أحيلت بموتها إلى جدران باردة صامتة، بعيدة عن الحياة. وأوصد الباب الكبير الذي كان يفتح في الصباح الباكر لتستقبل كل من أراد زيارتها من دون أن يطرق باباً.

غربت الشمس قبل الساعة الرابعة مساء. وحل الظلام وابتلعنا بكآبته، كنتُ غارقة بصمت الوحدة التي هيمنت عليّ، عندما التقت عينيّ بعيناي رفعة الحزينتين، زفر بعمق من لوعة الفقدان، وخسارة أعز إنسان له. حاولتُ أن أبعد الكآبة التي هيمنت علينا، واقترحت

Twitter: @ketab_n

أن نتناول الطعام في أحد المطاعم في كيمبرج لنغير رتابة الحياة، فوافق، محاولين بذلك إبعاد شبح الموت عن أجوائنا.

×××

مرّت ثلاثة أعوام على إقامتنا في مدينة كيمبرج، في ولاية ماساشوست، ولم نكن نعلم أنها أصبحت هي مدينتنا والبلد الذي نعيش فيه ووطننا الجديد! فقد تأقلمنا في أجوائها. ننهل العلم والمعرفة من جامعاتها، وأصبحت حياتنا منتظمة لدرجة نعرف بها الساعة التي نحضر المحاضرة لفلان والساعة التي نتناول فيها الطعام والوقت الذي نذهب فيه لمشاهدة مسرحية أو حفلة موسيقية. كانت حياتنا مبرمجة لعام كامل تقريباً، وشملت البرمجة حتى السفر والتجوال في الولايات المتحدة، فليس هنالك وقت لإضاعته! فكنا نركض من محاضرة لأخرى، ونحضر كثيراً من نشاطات جامعتيّ هارفارد وMIT الثقافية، إضافة إلى الأفلام الفنية التي كانت تعرض في سينما براتل Brattle (١٣٠)، صرنا نجلس على الكرسيين نفسيهما، واعتدنا على الوجوه التي ترتاد السينما ، فهم من متتبعي الأفلام التاريخية والفنية، تختص هذه السينما بعرضها.

توسعت معلوماتي من خلال حضوري «كورسات» في مواضيع مختلفة في جامعة هارفرد، ولم يعد إطلاعي مقتصراً على الشعر والمسرح والقصة والنقد، وإنما ركزتُ على علوم أخرى، كعلم الأنثروبولوجي والسسيولوجي والآثار وأصل الأديان.

أما رفعة فكان مشغولاً أكثر مني. فبالإضافة إلى المحاضرات الأسبوعية التي كانت تلقى في القسم المعماري في جامعة هارفرد، من قبل أحد

١٣٠- سينما براتل Brattle : أقدم سينما في كيمبرج، تأسست في نهاية القرن التاسع عشر ١٨٩٠، واحتفل بمرور مئويتها عندما كنا في كيمبرج ١٩٩٠. اعيد ترميمها وأصبحت جزءا من مجمع كبير، جرت المحافظة على قاعة السينما.

Twitter: @ketab_n

العلماء، أو أحد المعماريين العالميين، التي كان يحضرها، كان يكلف في المشاركة في Seminars/الحلقات الدراسية، المتعلقة بفلسفة الجمال وتاريخ الفن في جامعة هارفرد، والعمارة في جامعة MIT. فكان يقضي معظم وقته في الجامعة. بالإضافة إلى أنه كتب عدة كتب، وصدر بعضها في تلك المرحلة.

ومن بين المعماريين المهمين المعمار البريطاني جيمس سترلنك Sterling James[١٣١] ، الذي دعي لإلقاء محاضرة في جامعة هارفرد. ويعتبر سترلنك من أهم المعماريين الذين أثروا في اتجاه العمارة منذ خمسينيات القرن العشرين، وكانت تصاميمه ثورة ضد ما كان متفق عليه من قبل المعماريين الحداثيين قبله. كنت جالسة بجانبه في العشاء الذي أقيم على شرفه، فالتفتَ نحوي وسألني عن البلد الذي اقطنه، أجبته العراق، فاستغرب، وهذا النوع من الاستغراب كنت اجابهه دائماً، وذلك للصورة النمطية المهيمنة على عقول حتى الطبقة المثقفة في الغرب.

كما دعي الرسام البريطاني ديفيد هوكني David Hockney لإلقاء محاضرة عن أعماله، والذي كان له دور مهم في حركة فن البوب/ الشعبي Pop Art في الستينيات من القرن الماضي، ويعتبر من أهم الفنانين المعاصرين وله تأثير كبير على الحركة الفنية. كانت تباع لوحاته بملاين الدولارات آنذاك، لكني اعجبت بدماثته، وإجابته عن الأسئلة التي كانت توجه له من قبل الحاضرين بكل تواضع. ظل ديفيد هوكني متعلقاً بجذوره التي ترجع للطبقة العمالية، ويعود إلى المنطقة التي نشأ بها رغم إقامته منذ الستينيات في مدينة لوس أنجلس.

و كنا رفعة وأنا من المحظوظين، عندما استطعنا أن نحضر محاضرة عالم

١٣١- لأهمية المعمار جيمس سترلنك، خُصصت جائزة سنوية باسمه، تقدم لأحسن مشروع معماري في إنكلترا

Twitter: @ketab_n

الفيزياء وعالم الكوزمولوجيا ستيفن هوكنك Steven Hawking التي القاها في الجامعة عن الكون. كنت معجبة بمنجزاته، وقرأت كتابه الذي صدر عام ١٩٨٨، بعنوان «التاريخ المختصر للزمن Brief History of Time» الذي قرأ من قبل ما يقارب من عشرة ملايين شخص في العالم، فهمت بعضه، لأنه بعيد عن اختصاصي. لذلك عندما القى محاضرته، استطعت أن أتتبع وأفهم بعض ما تكلم عنه.

كما كنا نحضر أيضاً مؤتمر العمارة والتصميم الذي يعقد كل عام في الصيف، في مدينة آسبن Aspen في ولاية كولارادو، وكان يدعى أحياناً علماء أو كتّاباً للمشاركة في المؤتمر. ومن جملة المحاضرين كان عالم الفيزياء ستيفن فينبرك Steven Weinberg، الذي حصل على جائزة نوبل عام ١٩٧٩، في توحيد الطاقة الضعيفة، والجذب المغناطيسي بين جزيئات المادة.

و لم تكن المحاضرات تتعلق بالعمارة والتصميم فقط، أنما شملت البيئة والحلول الاجتماعية. كان من بين المحاضرات التي أثرت بي، محاضرة لكاتب استرالي الأصل، هاجر إلى كندا[١٣٢]. فكتب كتاب عن معاناته عندما وصل كندا، وشعر بالغربة، فقد ترعرع في قريه يعرف معظم سكانها. وعندما وصل العاصمة أوتوا، لا أحد كان يعرفه، وأحس أنه ليس سوى رقماً وليس بإنسان. وإن حدث له شيء، فمن الذي سيعتني به، وبمن سيتصل، بل شعر أنه ضائع في هذا البلد الواسع. وعندما أنهى محاضرته، شعرتُ كأنه يتكلم عني، عن احساسي بالغربة والوحدة في الاشهر الأولى، عندما وصلت مدينة كيمبرج في الولايات المتحدة. إنها الغربة القاتلة التي تواجه المهاجر في العالم!

×××

١٣٢– لا اتذكر اسم الكاتب أو عنوان الكتاب مع الأسف

Twitter: @ketab_n

كنتُ أحب السفر وزيارة الأقطار الأخرى والتعرف على تقاليدهم وأسلوب معيشتهم. فكنا نسافر في عطلة الصيف، نطلع على معالم الولايات المتحدة، البلد الواسع الضخم، المتشعب بلهجاته التي تتغير من منطقة إلى أخرى. فزرنا خلال إقامتنا أكثر من ثلاثين ولاية، من بينها مدينة شيكاغو في ولاية إلينوي Illinioisء كنا في زيارة إلى بعض الأبنية التي صممها المعمار لويس سوليفان والمعمار فرنك لويد رايت، وإذ بنا نلتقي ببطل الملاكمة، محمد علي كليّ، الذي تبرع آنذاك ببناء جامع للجالية المسلمة في شيكاغو، ودار الحديث بيننا، فقد كان عائداً من زيارة بيروت، أثناء الحرب الأهلية في لبنان. ثم التقط رفعة لي ولشقيقتي مريم صورة معه.

بلقيس ومحمد علي كلاي 1985.

Twitter: @ketab_n

كما حاولنا في الوقت نفسه زيارة وسط أمريكا وجنوب أمريكا، الغنيتين بحضارتهما القديمة. فسافرنا في عام ١٩٨٥، مع مجموعة من السياح إلى أمريكا الجنوبية. زرنا خلالها معظم الأقطار المهمة في القارة، وبدأنا في زيارة البرازيل وبيرو حتى شيلي، وانتهت رحلتنا في الأكوادور، حيث زرنا جزر الكلاباكوس Galapags. قضينا ثلاثة أو أربعة أيام على ظهر الباخرة. كنا نخرج صباحاً في زيارة علمية إلى الجزر، ومشاهدة الحيوانات الغريبة التي تعيش فيها. اشتهرت تلك الجزر بعد أن زارها عالم البيولوجي تشارلس داروين Charles Darwin في القرن التاسع عشر، وقضى فيها خمسة أسابيع، سجل ملاحظاته عن الحيوانات الغريبة وتنوعها بتنوع البيئة، التي تتميز بها تلك الجزر. وكتب كتابه أصل الأجناس Origin of Species ، الذي غيّر بصدوره مفهوم البيولوجي في العالم. حيث أكد على التطور التدريجي البيئي في الطبيعة، والاصطفاء الطبيعي. وبهذا قلب الموازين بالنسبة للدين، حيث كان الاعتقاد السائد في الأساطير الدينية، المتعلقة بقصة الخلق عن أدام وحواء في الغرب.

رفعة وبلقيس في جزيرة الكلاباكوس مع عدد من السياح 1985.

Twitter: @ketab_n

عدنا في العام نفسه إلى بغداد، حيث قضينا شهرين في نهاية عام ١٩٨٥، فقد كانت هنالك بعض المشاكل في بناية مجلس الوزراء الذي قام بتصميمها رفعة في منتصف عقد السبعينيات، ولم يكن هنالك من يحل محله في معالجة تلك المشاكل. أقمنا هذه المرة في دارنا، ولكننا كنا مدعوين طيلة إقامتنا من قبل الأصدقاء والأقارب، فلم يمر يوم واحد بلا دعوة عشاء، وكان الغداء يقام في دار نصير يومياً، فيبدي جعفر الطباخ ابتكاره ومهارته.

سرتُ في الحديقة الواسعة التي كنت أقطعها عشرات المرات، وذهبت لأول مرة إلى دار أم رفعة، كانت «الكرويتةْ الخشبية» التي تجلس عليها ما تزال في نفس المكان في الطارمة، ولكنها خالية من «المندر الأحمر» الذي كانت تجلس عليه. رافقني شبحها يتجول معي في الدار الخالية من نبض الحياة. نظرتُ إلى كل زاوية في غرفة الاستقبال، دارت عيني في الغرفة، أشم رائحة الهواء الذي احتفظ بذكراها، اسمع صوتها وبيدها استكان الشاي منادية: «بلقيس ما تشربين شاي؟» لم يتغير شيء سوى الصمت والسكون المطبقين على غرف الدار، والستائر التي أسدلت على نوافذها.

سرتُ في المجاز الطويل الذي يؤدي إلى المطبخ، فوجدته ينبض بالحيوية والحركة كما كان عليه في الماضي القريب، فالطباخ جعفر منهمك بتحضير الغداء لعائلتي نصير ويقظان، وطاولة المطبخ مليئة بمواد الطبخ من اللحم والخضراوات المختلفة، والفرن تشع حرارته بأنواع المآكل، والقدور يتصاعد بخارها بنكهة الأطعمة المتنوعة، ولكن اختفى الكرسي الذي كانت تجلس عليه أم رفعة قرب باب المطبخ!

ذهبنا بصحبة نصير لزيارة حسين السائق في داره، فقد أصيب بنوبة قلبية، أدت إلى شلل بسيط في قدمه ويده اليسرى، مما أدى إلى عدم قدرته على المشي بصورة طبيعية، فأصبح يعرج ويحتاج إلى عصا يتكئ

Twitter: @ketab_n

عليها، ولكنه بدلاً من الالتزام بتعليمات الدكتور، في المشي اليومي وإتباع نظام معين في الأكل، اعتبر العرج انتقاصاً من هيبته إن سار أمام الناس الذين يعرفونه في المقاهي وشوارع الكرخ التي ولد وترعرع فيها. والمشكلة إن عامة الناس لا تتعاطف مع المصاب بعاهة أو مرض، لأنه يعتبر عالة على المجتمع. فأتخذ حسين السرير ملجأً يلوذ به، فساء وضعه الصحي تدريجياً، و لم يعد قادراً على المشي وتردت صحته، حتى أصبح مقعداً في الفراش.

انسابت الدموع من عينيه عندما شاهدني برفقة عمه رفعة، وبكى كالطفل، أشحت بوجهي لكي أتجنب ما يشعر به من ضعف معنوي، فقد كانت الكبرياء والتفاخر من شيمه قبل مرضه، وليس هنالك بين أهله من يدرك ذلك ويستطيع أن يرفع من معنوياته. لم يكن باستطاعته زيارتنا، ولكنه لم يكن يرغب في أن نراه على هذه الحال. تألمت لحاله وحزنت عليه.

أطلق عليّ اسم «مرت «عمي»/ أي امرأة «عمه»» ويعتبر هذا اللقب منزلة عالية أسبغها عليّ منذ خطبتي لرفعة. و لم يطلق هذا اللقب إلا على أم رفعة. كان حريصاً على خدمة جميع أفراد أسرة الجادرجي، واعتبرني أحدهم منذ اليوم الأول الذي صرت فيه «مرت عمه!». كان جميع أفراد الأسرة يحبونه ويحاولون أن يحصلوا على رضاه، وكان يقوم بتلبية رغبات جميع أفراد العائلة. لم أكن أعلم أنها ستكون آخر زيارة لي إلى بغداد، بعد سفرنا بعام ونصف، رن جرس التلفون واخبرنا نصير بوفاة حسين. وبذلك انطوت ورقة عاصرت عائلة الجادرجي مدة أربعة عقود ونصف تقريباً.

×××

انقطعت علاقتنا ببعض المعماريين العالميين الذين تعرفنا عليهم في

Twitter: @ketab_n

بغداد، وهذا شيء طبيعي، فكثير من هذه العلاقات مبنية على المصلحة المتعلقة بالعمل، ولكن العلاقة بالمعمار جورج ددلي Dudley تجاوزت المصلحة. كان يقطن وزوجته في أولبني Albany، عاصمة ولاية نيويورك. فكانت الزيارات متبادلة بيننا. واستمرت العلاقة بيننا حتى وفاته. كما توطدت علاقة الصداقة بيننا وبين أندرسن رئيس قسم العمارة في جامعة MIT، وزوجته.

المعمار جارلس كوريا ورفعة وأندرسن رئيس قسم العمارة في MIT.

و استمرت صداقتنا بالمعمار روبرت فنتوري Venturi Robert وزوجته المعمارية وشريكته في المكتب دينس سكوت براون Denis Scott Brown. إذ كان رفعة معجباً بشخص فنتوري ووقاره، وقرأ كتابه، الذي أصبح مرجعاً للمعماريين في التنظير واعتبر من أهم ما كتب عن العمارة آنذاك، وقد نشره في عام ١٩٦٦ بعنوان: Compextiy & Contradiction in Architecture. أي التعقيد والتناقض في العمارة.

Twitter: @ketab_n

المعمار فنتوري ورفعة، في دار فنتوري 1985.

كنا نلتقي في المؤتمرات المعمارية، ونقضي معظم الوقت سوية، كما زرنا فلادلفيا عاصمة ولاية بنسلفانية عدة مرات، كان روبرت فنتوري يرافقنا ويقوم بالتعريف عن الأبنية المهمة في المدينة. قضينا إحدى المرات عطلة الأسبوع بصحبتهما في دارهم الجميلة. فنتوري رجل هادئ بكلامه، مؤدب، دمث الأخلاق، والداه من أصل أيطالي، ينتميان إلى جماعة الكوكيرز Qauquers. ، كانت زوجته دنيس لا يهمها الاهتمام بالدار فهي ملقية جميع أعباء الدار على امرأة تقوم بالطبخ والتنظيف وترتيب الدار، ولكنها تغيب في عطلة الأسبوع، ولا تحاول دنيس أن تقوم بتنظيم الدار في غيابها، بل تترك كل شيء في مكانه. لكن اختلف الأمر عندما كان عليها أن تحّضر لوناً من ألوان الطعام، الذي يطبخ في عيد من أعياد اليهود. فقامت في الخامسة صباحاً وطبخت الطعام المخصص لذلك العيد، وحضّرت كل شيء، لتصل في الوقت المعين لإقامة الإحتفال.

Twitter: @ketab_n

ظلت دنيس تشعر أن الأضواء مسلطة على زوجها بالرغم من أنها لا تقل عنه كفاءة حسب اعتقادها. وزاد هذا الشعور بالغبن عندما حصل فنتوري على جائزة Pritzker، في عام ١٩٩١، ولم يضيفوا اسمها للجائزة، وتعتبر هذه الجائزة كجائزة نوبل بالنسبة للمعماريين. المعمار فنتوري، كان يقدمها في كل شيء ويعطيها الأفضلية، ولكنها ظلت تشعر في أعماقها أن حقوقها مستلبة، وهذا الشعور هو شعور متأصل غالباً في السيكولوجية اليهودية. وذلك للغبن الذي أحاق بهم خلال القرون الطويلة من الاضطهاد، خاصة ما حل بهم في الحرب العالمية الثانية. فقد أخبرتني والدة دنيس، أن أغلب أفراد أسرتها قتلوا في المحرقة، ولم يبق من العائلة إلا أحد أقاربها الذي كان يعيش في جنوب أفريقيا، فذهبتْ مع أخيها واستقرت في جنوب أفريقيا. هذا الشعور متأصل عند اليهودي ومن الصعب التخلص منه ، وهو يعلّم أطفاله آلا ينسوا ما حل بهم في المحرقة التي قضت على الملايين منهم.

وعندما انتقلنا إلى لندن، استمر فنتوري ودنيس في زياراتهما لنا، خلال مدة التسعينيات عندما كلف فنتوري بتصميم جناح سينبري كإضافة إلى National Gallery. وفي عام ٢٠٠٤ دعي لإلقاء محاضرة عن تصاميمه المعمارية الأخيرة من قبل RIBA، وبعد الانتهاء من المحاضرة التقينا به، وقال لنا، إنه غير مرتاح من اجتياح الجيش الأمريكي للعراق، واعتبر الاحتلال مغامرة من قبل الرئيس بوش وإدارته تجاه العراق وشعبه. كان فنتوري انساني لا يؤمن بالعنف، وذلك لأصوله التي ترجع إلى جماعة Quequers، والتي هي ضد العنف.

Twitter: @ketab_n

بلقيس ورفعة والمعمارية دنيس زوجة فنتوري في دارهم، 1985.

اما بالنسبة للمعمارية زهاء حديد، فقد كُلفت في تلك المدة، الاشراف وتنظيم معرض للحركة الفنية الروسية التي عرفت بـ constructivism في عشرينيات القرن الماضي، في متحف الكوكنهايم في نيويورك، كان أول تكليف لها في الولايات المتحدة، حيث كتبت عنها مجلة التايم الأمريكية مقالاً مهماً، أطرت به على الأسلوب الذي عرضت به الصور. ومن ثم كلفت في تدريس كورس في القسم المعماري في جامعة هارفرد وزارتنا في تلك المدة إذ كنا نقطن في كيمبرج/ ماساشوست. كانت هي البداية لزهاء في إرساء اللبنة الأولى في نشاطها المعماري ولو لم تكن آنذاك قد حصلت على تصميم مشاريع عمرانية، ولكنها كانت بداية مهمة لها.

×××

صدر في عام ١٩٨٦ كتاب رفعة بعنوان: Concepts and

Twitter: @ketab_n

Influences، عن أعماله المعمارية، كما صدر له في العام نفسه، كتابان باللغة العربية كتبهما عندما كان في السجن، أحدهما بعنوان: "صورة أب" والآخر " شارع طة وهمرسمث"، بحث في الكتاب الأول عن العيش في دار كامل الجادرجي من الناحية الاجتماعية والثقافية والسياسية. أما الكتاب الثاني فتحدث عن شارع طه في اربعينيات القرن الماضي وعن علاقاته بالفنانين والمعماريين الذي عادوا من إنكلترا وعن كلية همرسمث التي درس فيها في لندن، وكتب اطروحته عن العمارة.

دعينا في العام نفسه إلى حضور مؤتمر، من قبل مؤسسة الأغا خان للعمارة في غرناطة في أسبانيا. وأقيم المؤتمر في قصر الملك جارلس الخامس الملاصق لقصر الحمراء أو الذي كان جزء منه. لم يكن عدد المشاركين يتجاوز الثلاثين شخصاً. وافتتح المؤتمر في حدائق قصر الحمرا من قبل ملك أسبانيا خوان كارلوس وزوجته صوفيا. ومن بين المشاركين في المؤتمر المعمار والمؤرخ النرويجي كريستيان نوربرغ-شولتز Christian Norberg-Schulz، وذكر أثناء القائه المحاضرة من أن سبب قبة الجوامع الإسلامية زرقاء اللون، يعود إلى أن النبي محمد كان يعيش في الصحراء وتظهر السماء بزرقتها كقبة كبيرة. لم يستطع رفعة الصمت أو السكوت عن هذا الكلام غير العلمي، فوجه له سؤالاً: إن كان محمد بالصدفة قد ولد في النرويج، فماذا سيكون لون القبة؟ امتعض شولتز من السؤال و لم يجبه.

كان رفعة يعترض على الصورة النمطية المهيمنة على عقلية بعض المشاركين في المؤتمرات، فعندما ألقى أحدهم محاضرة، اعتبر فيها عمارة الطين الموجودة في أفريقيا، هي التي تمثل العمارة الإسلامية، أجابه رفعة: إن العمارة الإسلامية، هي ليست عمارة الطين الموجودة في أفريقيا، وإنما العمارة الإسلامية لها تاريخ عريق متجسد في المدارس

Twitter: @ketab_n

والجوامع والقصور الإسلامية التي ما زال بعضها شاخص حتى الآن، في تونس وسوريا والعراق ومصر.

رفعة وملك أسبانيا خوان كارلوس في غرناطة 1986.

لذا كان أستاذ الفن الإسلامي أولك غرابار [١٣٣] Olec Grabar، الذي كنا نلتقي به في جامعة هارفرد وفي المؤتمرات التي تعقد من قبل مؤسسة الأغا خان، حيث عُين فيه أستاذ كرسي الأغا خان في

---

١٣٣ - أولك كرابار: ١٩٢٩-٢٠١١، أستاذ في جامعة هارفرد للفن الإسلامي، كما أصبح أستاذا في جامعة برنستون، ألف ما يقرب من ثلاثين كتاباً عن الفن الإسلامي، وقد غير مفهوم التدريس في حقل الآثار الإسلامية والفن الإسلامي والعمارة من خلاله كتاباته وتدريسه، تخرج أجيال من الطلبة من الجامعات التي كان يدرس فيها. كان يوجه الاسئلة عن طبيعة الفن الإسلامي، محاولاً أن يكتشف الدوافع التي انتجت الأشكال المعينة وديناميكية نموها. وأهم الكتب التي كتبها هي: «تكوين الفن الإسلامي»، »الحمرا«، »جامع إصفهان العظيم»، «شكل قبة الصخرة». حصل على جائزة الرئيس في العمارة للآغا خان عام ٢٠١٠.

Twitter: @ketab_n

الفن والعمارة الإسلامية في جامعة هافرد، يرتاح لموقف رفعة المرن والجريء في تحليل الفن الإسلامي.

كما كان يتفق معه محمد آركون، استاذ الدراسات الاسلامية في جامعة السوربون، الذي ألف كتاباً بعنوان: "نقد العقل الإسلامي"، حيث بحث الموضوع من الناحية الأنثروبولوجية، ولم يكتف بمعلومات تاريخ الراوي، وإنما يتساءل عن تاريخ المفاهيم الأساسية المؤسسة، كالدين والدولة والمجتمع والمقومات والحقوق والحلال والحرام والمقدس والعقل والمخيال والضمير والمعرفة القصصية أي الإسطورية، والمعرفة التاريخية والعلمية والفلسفية.

الاستاذ محمد آركون ورفعة في مراكش 1986.

عقد في تلك المدة في السنة نفسها في مدينة مراكش في المغرب،

Twitter: @ketab_n

مؤتمر عن العمارة، شمل توزيع جائزة الأغا خان، التي كانت تعطى كل ثلاث سنوات، لأحسن تصميم في العمارة التي بنيت في العالم الإسلامي. وكان يدعى لحضوره عدد كبير من المعماريين العالميين والمؤرخين.

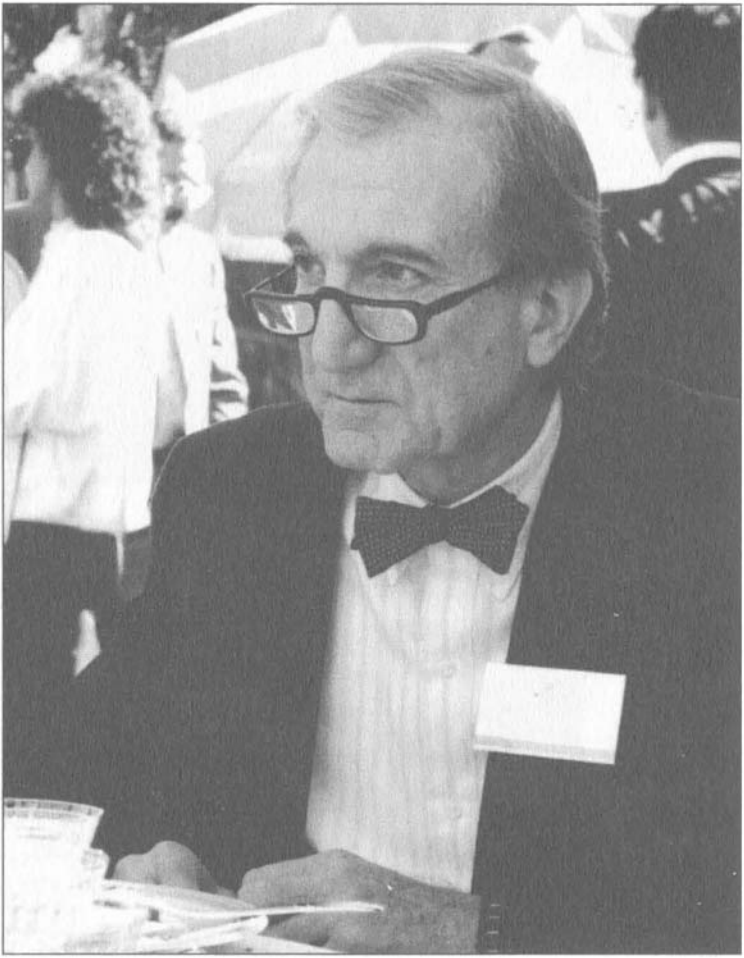

رفعة أثناء حفل تسلم جائزة الأغا خان 1986.

وتسلم رفعة في ذلك العام بالمناسبة نفسها، جائزة الرئيس

Twitter: @ketab_n

Chairman Award للإنجاز الذي قدمه في العمارة. هذه الجائزة لم يحصل عليها قبل رفعة، إلا المعمار المصري حسن فتحي. كما قام بتقديم الجائزة له الأمير محمد- الذي أصبح ملكاً، بعد وفاة والده الملك الحسن.

وزير الثقافة في المغرب محمد بن عيسى وبلقيس في حفل الأغا خان.

وفي عام ١٩٨٧، رشح رفعة من قبل الجمعية المعمارية الأمريكية AA، وأصبح عضواً فخرياً فيها، واقيم الحفل في ولاية فلوريدا، وحضرها معنا المعمار فنتوري وزوجته دنيس. كان فنتوري مسروراً لأن رفعة أصبح عضو شرف في جمعية المعماريين الأمريكية، وقال له بعد أن تسلم رفعة المدالية: "لقد تأخروا في منحك عضوية الشرف، فأنت تستحقها منذ أمد طويل."

Twitter: @ketab_n

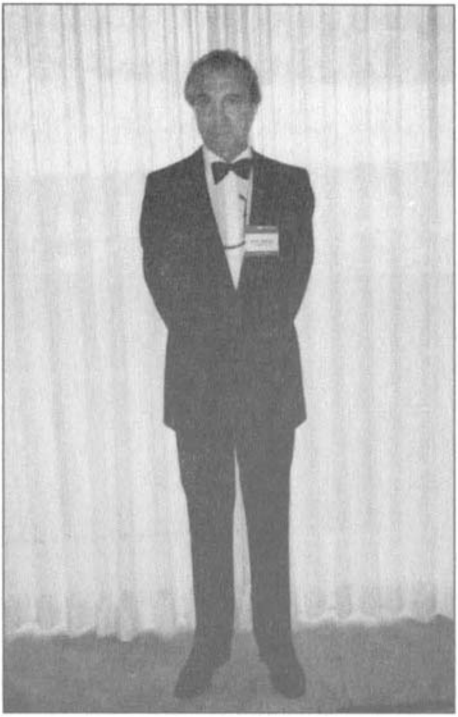

تكريم رفعة من قبل الجمعية المعمارية الأمريكية 1987.

×××

انتهاء الحرب العراقية الإيرانية

مرت السنين ونحن نتسقط أخبار الحرب الدائرة بين العراق وإيران، واندثرت أخبار الحرب تدريجياً واختفت أخبار البلدين من الإذاعات، و لم تعد تظهر إلا فيما يتعلق الأمر بفضائح بيع الأسلحة من قبل أعظم دولة للدولتين المتحاربتين. لم تمض إلا بضعة أشهر على فضيحة الأسلحة التي عرفت في الولايات المتحدة بـ Iran Gate، حتى خمدت الحرب وانتهت، وطمست الجرائم التي ارتكبت بحق الشعبين اللذين دفعا ضريبة تلك الحرب.

Twitter: @ketab_n

في شهر آب عام ١٩٨٨ انتهت الحرب العراقية الايرانية، وعم الفرح واستبشر الناس، فقد توقفت المجزرة البشرية التي طحنت أجيالاً من شباب العراق وإيران بنيرانها، وأحرقت المدن وغابات النخيل على شاطئ شط العرب، وتركتها صحراء بأشجار محروقة وأرض رمادية قاحلة، لإشباع طموح الحاكمين في العراق وإيران، وإضعافهما.

سافرنا تلك السنة لأول مرة إلى الصين لمشاهدة معالمها الحضارية. كانت الصين ما زالت مغلقة على السياح، وعددهم قليل جداً، كما لم يكن في تلك المدة إلا عدد قليل من الفنادق الجيدة التي تعد على عدد الأصابع. إذ لم يبدأ التعمير الحقيقي في الصين إلا في التسعينيات من القرن الماضي.

رغم ذلك قوبلن بحفاوة من قبل المشرفين، فقد سافرنا مع مجموعة مكونة من بعض أعضاء المتحف. إذ نظمت السفرة خصيصاً لأعضائه، من قبل متحف بوسطن للفن الحديث Museum of Fine Art. وكان أول شرط لهم، هو تجنب زيارة المعامل التي كانت تحشر في جميع زيارات الأجانب، وطلبنا التركيز على زيارة المناطق الأثرية، وكنا محظوظين فقد فتحت لنا أبنية أثرية لا يتمتع بزيارتها إلا رؤساء الدول، ومنها زيارة الجناح الخاص للإمبراطور Puyi الذي كان آخر إمبراطور سكن المدينة المحرمة، كما زرنا شيان وشاهدنا التماثيل الفخارية Terracotta soldier التي هي بالحجم الطبيعي لجيش الإمبراطور، ويبلغ عددهم حوالي ثمانية آلاف جندي. قضينا ثلاثة أسابيع وعدنا إلى بوسطن.

كنا في تلك المدة نقضي أحياناً الصيف في لندن، ونبتعد بذلك عن حرارة ورطوبة بوسطن التي تحتاج إلى استعمال مكيفات، وأنا

Twitter: @ketab_n

لا أرغب في استعمال مكيفات التبريد، إذ عشنا معظم حياتنا في صيف بغداد بالمكيفات. والتقينا في تلك الايام بالصديق النحات محمد غني حكمت[١٣٤]، الذي كُلف من قبل صدام حسين بالاشراف على إكمال نصب قوس النصر، الذي صممه خالد الرحال وتوفي قبل إكماله. وقوس النصر، يرمز للنصر الذي حققه صدام على «عدوه الخميني». صنع قالباً جبس لساعديه، ليمثلا قوس النصر. واضطر محمد غني حكمت للسفر إلى إنكلترا مرات عديدة لكي يكون باستطاعته الإشراف على صب النحاس في إنكلترا. فالحاكم يتوق إلى تخليد حروبه وانتصاراته على العدو! ووضعت خوذ الجنود الإيرانيين الذين قتلوا أثناء المعارك، كجزء من النصب، رمزاً للخسارة التي تكبدوها! وبذلك خالف ما يتعين أن يكون شكل النصب عليه، إذ يتعين أن يوحي بالاستقرار، وهذا ما يخالف جذرياً هدف ووظيفة الأنصبة التي تمثل الاستقرار.

كان النحات محمد غني غير مرتاح لتكليفه بهذا العمل، ولكن ليس باستطاعته الرفض في بلد شمولي، تكون عاقبته وخيمة، إما في غياهب السجن المظلم إن كان من المحظوظين، أو يختفي من الوجود مع من اختفى قبله!

شاهدنا العمل الكامل للنصب من خلال شاشة التلفزيون. وأصبح نصب النصر الذي يطوق الشارع العريض رمزاً للرعب والفزع

١٣٤- محمد غني حكمت: ١٩٢٩-٢٠١١، من أهم النحاتين في العراق. تخرج من معهد الفنون ١٩٥٣، ومن أكاديمية الفنون في روما ١٩٥٩، عضو في جماعة بغداد للفن الحديث، حصل على جائزة مؤسسة كولبكيان لأحسن نحات ١٩٦٤. شارك في جميع المعارض في داخل القطر وخارجه. من اعماله شهريار وشهرزاد، علي بابا والأربعون حرامي، حمورابي، جدارية مدينة الطب. تأثر بالفن السومري والبابلي والأكدي والاسلامي. ويقول عن نفسه: «من المحتمل أن أكون نسخة أخرى لروح نحات سوري أو بابلي أو آشوري أو عباسي».

Twitter: @ketab_n

والهلع الذي يطوق الشعب العراقي! توفي الخميني بعد عام، وانتهت مدة السجال الحادة التي سيطرت على مسرح الدولتين!

×××

أوجاع الظهر

كنت أقضي بعض الوقت في «الجيم» وهو نادي الرياضة، القريب من شقتنا في كيمبرج. وأسير يومياً ميلين أو أكثر، إذ كانت رياضتي المفضلة، أسبح أحياناً في المسبح القريب منا، وأصبحت رياضية وأنا البعيدة عن الرياضة، إذ كنت أهرب من درس الرياضة في الثانوية الشرقية. وعندما وصلنا لندن اشتركت بجيم/نادي رياضي قريب من دارنا. يظهر أنني أجهدت ظهري فوق طاقته الطبيعية، فزحف «الديسك» الغضروف وأقعدني في الفراش، ولم يعد ثمة مهرب من أجراء عملية جراحية. فأجريت العملية بنجاح في لندن، وعدت إلى بوسطن، ولكن بعد بضعة أشهر ضغط التليف من جراء العملية على العصب في القدم اليمنى، وأقعدني في الفراش، فقررت لجنة من الأطباء إجراء عملية ثانية، وكان ذلك خطأ كبيراً.

أصبح المرض هو الحالة الدائمة التي تلازمني في حياتي، أتحسس الألم الذي ينزف من جسدي، نوم متقطع في الليل من شدة الألم. فكان ذهني يحتاج إلى ترويض وتمرين على الألم، واستعملت في البداية سلطة العقل والإرادة، وبدأت أحاول أن أركز على ما اقرأ واكتب من ملاحظات، وأتحكم بذلك في آلام بدني، أتاح لي ذلك الشعور بالانعتاق وتفادى الألم الذي يضغط في رأسي لمدة ما.

كانت كل حركة عملية شاقة، أنام على ظهري، تحت ركبتيَّ وسادة، وتحت ظهري منشفة صغيرة، فيصبح الجسم مستقيما متصلباً

Twitter: @ketab_n

بلا حراك، كالتمثال الجامد، ولكن الفرق هو أحساسي بالقلب النابض بين ضلوعي، مع تعذر الحركة.

أصبحت أقيس حجم قوتي وطاقتي على مقاومة المرض كل يوم جديد حينما أفتح عينيّ، أحاول التخلص من الجحيم الذي أعيشه. ووجدت أن هناك حدوداً للمقاومة عندما أستيقظ من كوابيس الليل التي سطت على كياني، فالجأ حيناً إلى المسكنات والمهدئات فأنسى نفسي في سبات عميق يعينني على تحمل الألم! لكني كنت دائماً أحاول تخطي الألم الذي يقضي بي إلى اليأس! لا أريد أن أكون أسيرته! ولكن بالرغم من تلك المحاولات، أصبح نهاري متصلاً بليلي، أرق في الليل والنهار، لا أستطيع النوم من غير المهدئات. أحس بنحول بدني، أحاول أن أبقى بلا حركة، كالجثة الهامدة. أصبحت الكوابيس تيبس ريقي من الألم الذي يطوقني، فأصرخ أحياناً بأعلى صوتي مستنجدة. فتحت عيني ذات ليلة وإذا برفعة واقف بجانب سريري، قفز من فراشه في الغرفة المجاورة لغرفتي عندما سمع صراخي، سمعته ينادي: «بلقيس، بلقيس ليش دة تصرخين»، سألته فقط عن الساعة، أجاب: الرابعة صباحاً.

كل حركة كانت تثقل كاهلي، حتى الذهاب إلى دورة المياه. كنت أنقلب ببطء تدريجي على جنب اليمين، يندلق الألم العنيف ثانية على جسدي، فأتجمد بلا حركة! أحاول مرة ثانية، أرفع رأسي عن الوسادة ببطء، أتكئ بيدي اليمنى على السرير، وأنزلق تدريجياً، فتطأ قدمي اليمنى أرض الغرفة، ثم أتكئ بثقل جسدي على الجدار، وأقبض على العصا باليد اليسرى وعلى جدار الغرفة باليد اليمنى. أترنح في وقفتي وأشعر بضعف في ساقي، أسير بخطوات ثقيلة، أتجنب الألم الذي يخزني بكل حركة وخطوة حتى أصل الحمام الذي لا يبعد أكثر من

Twitter: @ketab_n

ثلاثة أمتار! وأعود ثانية إلى استخدام ذراعي والعصا كسند حتى أصل فراشي.

كنت أنام على ظهري، أنظر إلى السقف الأبيض، لا أرى شيئاً، أحدق وأطيل النظر لعلي أرى بقعة سوداء. ربما حشرة صغيرة عالقة في السقف الناصع البياض، بعوضة أو عنكبوت صغير! شعرت بالغبطة عندما لاحظت نقطة سوداء في سقف الغرفة، هل هي حشرة ميتة؟ أم عنكبوت صغير يحاول أن يشاركني الغرفة في زاوية من زواياها؟ لكن لم تتحرك تلك النقطة بل ظلت ثابتة، وافترضت إنها حشرة ميتة لا روح فيها!

لم يعد للوقت قيمة، فقد فقَدَ معناه، أحاول أن أنأى عن كل شيء حتى عن ذاتي، وكأنني غارقة في حلم لا نهاية له حتى يدق الألم والوجع ناقوسهما ثانية ويعيداني من تلك الغيبوبة. كم مرة كنت أتمنى آلا أفيق من ذلك الحلم الخالي من الأوجاع، وينتهي الجحيم الذي أعيشه في كل لحظة ودقيقة. وكما يقول الكاتب النايجري بن أوكري Ben Okri عن الألم «أما تعطيني الحياة أو تقتلني».

كنت أرى جسدي الممد بلا حراك في المرآة التي على جانب جدار الغرفة، يوماً بعد يوم وأسبوعاً بعد أسبوع، وشهراً بعد شهر، صارعت وقاومت المرض بكل أشكاله، وحاولت تدجين الألم، ففرضت عليه إرادتي أحياناً. بدأت بإطالة المدة التي أتناول بها المسكنات، وصف لي الدكتور تناولها كل أربعة ساعات، فمدّدت المدة إلى ثماني ساعات، ثم عشرة ساعات، وشعرت بالانتصار على المرض، حينما مددت تناول المسكنات إلى نصف يوم. نصف يوم بلا سموم أدسها في جسمي النحيل.

أصبحت أحس بتغير الفصول من خلال نافذة غرفتي. كانت الشقة

Twitter: @ketab_n

في أعلى طابق من العمارة التي نسكنها في كيمبرج، حل الشتاء وغمر الثلج كل شيء، سطوح المنازل مغطاة بالثلج، السيارات والشوارع. تعرت الطبيعة من ثوبها الأخضر، لا أرى إلا رؤوس أشجار عارية، واسمع صفير الريح، فأحس ببرودة كياني والثلج الذي خلفه شتاء العمر.

مرت الأيام برتابتها، لكن الزمن قد تجمد بالنسبة لي وأنا مستلقية على السرير نفسه والغرفة نفسها، كل شيء في هذه الغرفة جامد وصامت. أطل من نافذتها على العالم!

بدأ الثلج يذوب ببطء عن سطوح المنازل، أغمضت عيني لأتجنب ضوء الشمس الساطعة، سمعت زقزقة العصافير، فتحت عينيي ثانية، العصافير تفر من بين أغصان الأشجار. وارتدت الطبيعة ثوب الربيع الأخضر، وبانت بأحلى ثيابها، وزادت الحركة في الشارع، أصوات الأطفال يضحكون ويلعبون، سرت موسيقى الشباب من بعيد، إنه الربيع الذي يملأ الحياة بالتفاؤل. كست الأوراق الخضراء الغامقة أغصان رؤوس الأشجار، متلألئة بحفيف النسيم الذي يحركها ويداعبها. أصبح النهار أطول من السابق، لا تغيب الشمس قبل الثامنة مساء، شعرتُ بحر الصيف الرطب في مدينة كيمبرج. وضع رفعة في غرفتي مبردة لتساعدني على قضاء فصل الصيف براحة.

مرّ معظم العام وأنا طريحة الفراش لا أتركه إلا عندما أذهب إلى المعالجة الطبيعية، أصبحتُ أتكئ على عكازة في الشقة التي تشرف على نهر تشارلس وحدائق جامعة بوسطن. أنظر إلى التلال المحيطة بتلك الحدائق التي قطعتها مراراً على الأقدام، كم بعيدة أصبحت الآن!

و أعلم أن الذين يعانون من آلام الظهر، يحسون في أعماقهم

Twitter: @ketab_n

بتجربتي التي مررت بها، والتي ما زالت تقض مضجعي أحياناً، عندما أحس بسياطها فجأة، بين آونة وأخرى.

×××

حرب الخليج ١٩٩١

عشت بعيدة عن الوطن في تلك المحنة، أشاهد المأساة التي خاضها أهل العراق من خلال شاشة التلفزيون، أحس بألم دفين، وأنا في مدينة كيمبرج بعيدة عن شواطئ بلدي الذي ولدت وترعرعت فيه، أحن إليه بالرغم من المأساة التي يعيشها، وأشعر أني مقيدة لا استطع العودة إليه.

بدأ عقد التسعينيات، بالهجوم على دولة الكويت واحتلالها من قبل الجيش العراقي، وبأمر شخصي من صدام حسين. كنا نقضي الصيف في لندن، عندما شاهدنا المذيعة في قناة بي بي سي BBC معلنة « لم يعد هنالك بعد الآن ما يسمى بدولة الكويت، فقد أصبحت جزءاً من العراق !» وصعقنا من هول المفاجئة، واعترانا الذهول والحيرة، توقعنا – رفعة وأنا – نتائج وخيمة ستحل ببلدنا وتعم المنطقة. وتلاها تصريح «اسحاق شامير Yitzhak Shamir» رئيس وزراء إسرائيل قائلاً: "إنها منتهى السعادة لنا".

أسدى عدد من قادة الجيش النصائح لصدام، آلا يقدم على مثل هذه الخطوة، كان جزاءهم تخفيض رتبهم العسكرية ونقلهم من مناصبهم أو تصفيتهم. أصبح هو القائد الأعلى للجيش، واضعاً الخطط للمعركة التي سيخوضها بلده الصغير، مع أكبر قوة حربية في العالم! متصدراً جلسات مجلس الوزراء ومجلس قيادة الثورة ببزته العسكرية المرصعة بأعلى الرتب العسكرية، ووزراءه الجالسون من حوله بملابسهم

Twitter: @ketab_n

العسكرية التي فرضها عليهم، هم الذين لم يطلقوا طوال حياتهم رصاصة من بندقية صيد. فلا يجرأ أحد على مخالفة أوامره أو مناقشته.

أصبح العراق المركز الرئيسي، الذي يحتل المساحة المهمة من أخبار العالم يومياً، هجم مراسلو القنوات التلفزيونية المهمة في العالم والصحفيون والوفود من جميع أنحاء العالم، كل منهم يمني نفسه بمقابلة الرئيس العراقي! أصبح الرئيس يعيش أوهام العظمة. فصورة الحاكم المطلق تخيم على أرض العراق منذ آلاف السنين، تتغير وجوه الحكام ولا يتغير الجوهر.

عدنا إلى بوسطن بعد أن قضينا عطلة الصيف في لندن، واستلم مسؤول الجوازات جوازيّ السفر العراقي، فطلب منا أن ننتظر على جهة، فنحن في عداد الأعداء الآن! واعتبر العراق العدو الأول للولايات المتحدة بعد احتلاله الكويت. بان القلق علينا ونحن جالسون في غرفة الانتظار، لا ندري إن كان سيسمح لنا بالدخول إلى الولايات المتحدة ثانية، أو سنعاد بنفس الطائرة إلى لندن بالرغم من الفيزا الجديدة على جواز السفر لمدة ثلاثة أعوام. توجه جميع ركاب الطائرة الذين كنا معهم نحو استلام حقائبهم، ونحن ما زلنا في الانتظار! وإذا بشرطيين طلبا منا مرافقتهما، وجوازيّ السفر العراقيان بيد أحدهما، توقعنا تحقيقاً دقيقاً سيجري مع كلينا، سؤلنا فقط إن كنا نحمل أشياء ممنوعة في حقائبنا، فأجبنا بالنفي، وتوقعنا أن تنبش حقائبنا قطعة قطعة، ولكن استغربنا عندما لم تفتح حتى حقيبة واحدة، بل رافقنا الشرطيان إلى خارج المطار وسُلمنا الجوازات، بعد أن تمنيا لنا إقامة مريحة في بوسطن! ارتسمت علامات الاستفهام والاستغراب والدهشة على تقاسيم وجهينا من تلك المعاملة الحسنة غير المتوقعة، ولكن يظهر أن ارتباط رفعة بجامعتي هارفارد وأم أي تي MIT كان

Twitter: @ketab_n

لهما أثر في هذه المعاملة غير المتوقعة. ثم توالت علينا التلفونات من الصحافة ومحطات الراديو، موجهين لنا السؤال نفسه، هل تعرضنا للتعدي لأننا عراقيون؟ كانت الإجابة دائماً بالنفي.

تصدرت أخبار العراق المحطات والفضائيات في أنحاء العالم، تعدد ما قام به صدام من جرائم أثناء الحرب الإيرانية، ولم تفح رائحتها إلا عندما هجم على الكويت. إذ ظلت سراً طيلة هذه المدة، فقد اعتبر صدام عميلاً لهم، في غزوه إيران. وشاهدنا على شاشة التلفاز جثث الأطفال والنساء والشيوخ ممدين في شوارع حلبجة. فقد استعمل صدام حسين الغاز السام لقتل أكبر عدد من الأبرياء والتخلص منهم وإرهاب الناس! فقد أصبح الموت مبتذلاً في عهده.

فتحتُ التلفزيون على محطة «سي ان ان CNN » في الساعة السادسة مساءً حسب توقيت بوسطن، الساعة الثانية صباحاً في بغداد، فشاهدت الصواريخ تنهال كالمطر بغزارتها على بغداد، والمدفعية المضادة ترد عليها بنفس الغزارة، سماؤها مضاءة بالنجوم المتلألئة أمامي لتنطفئ بعد لحظات، فندق الرشيد يرتج من هول قوة انفجار الصواريخ، وبينها يتراكض مراسلو المحطات الأجنبية في سطح الفندق ليتخذوا زاوية جيدة، صرختُ بأعلى صوتي: رفعة بدأت قوات التحالف قصف بغداد! وعم صمت طويل بيننا.

جلس رفعة على كرسي بجانب سريري، عيناه مسّمرتان على شاشة التلفزيون، نشاهد كلانا قصف مدينتنا العزيزة علينا، بغداد، مدينة السلام! صوت المذيع يصف المعارك، تنتقل عدسته بين سماء بغداد وشوارعها التي لا ينيرها إلا الانفجارات المدوية. لم تقتصر الخطة الأمريكية على قصف المعسكرات والتخلص من اسلحة الجيش العراقي، وإنما شملت شل الحياة اليومية للفرد العراقي. فقد قصفت

Twitter: @ketab_n

محطة الكهرباء ومصفى نفط «الدورة». وعم الظلام في فندق الرشيد. لكن استمر البث من قبل المراسلين. وهربوا من سطح الفندق، واتخذوا درج الفندق ملجأً لهم اتقاءً من شظايا زجاج النوافذ وغضب الغارات المنهمرة على المدينة في كل مكان. انبلج الصباح في بغداد، وعم السكون، وتوقف القصف، ودبت الحياة في شوارع المدينة ببطء، وظهر صدام حسين بملابسه العسكرية، يتجول في بعض شوارع بغداد بصحبة التلفزيون العراقي، ولكنه رئيس مهزوز، متعب، بانت تجاعيد القلق حول عينيه الباهتتين، قائلاً للمارة: سننتصر بإذن الله!

كان لمحطة CNN الحظ في البث المباشر، ثم وضعت الرقابة على المراسلين الأجانب والعرب، وأصبح البث بعد ساعات من عمليات القصف والتدمير الذي كان يعاني منه العراق. نشاهد ما تسمح به الحكومة العراقية من مشاهد الدمار والتخريب. كانت أول ضحية بناية البرق والبريد وهي الشريان الثاني الذي قطع بعد قصف الرادار. وصرختُ بأعلى صوتي ثانية: رفعة، قصفت بنايتك! فهرع إلى غرفتي، وجلس صامتاً يشاهد الصواريخ والقاذفات التي بدأت تنهال على عمارة البرق والبريد. لم تتهاو العمارة، بل ظلت شامخة جدرانها المرتفعة بعشرة طوابق أو أكثر، رغم الجروح القاتلة التي أصابتها. اخترقت الصواريخ قلب البناية، ولكن لم تتساقط ركاماً على الأرض بل ظلت شاخصة، أصبحت قشراً بلا أحشاء وهيكلاً بلا روح. لا أدري شعور رفعة في تلك اللحظات التي كان يشاهد فيها موت ثمرة من ثمرات أتعابه!

مرت الأيام ونحن نعيش أمام شاشة التلفزيون ونشاهد فضائية سي أن أن. أصبح أليفاً وجه وصوت «بيتر أرنت Peter Arnet» الذي كان مراسل الفضائية آنذاك. "لا نرى على شاشة التلفزيون إلا نقطاً تنفجر بدخانها الأسود المتصاعد في السماء السوداء، محاطة بخطوط

Twitter: @ketab_n

بيضاء على شكل مربع، صورت من قبل كاميرات الطائرات من ارتفاع آلاف الأمتار، وأبعدت بذلك الحرب الحقيقية، وأصبحت الحرب لأول مرة «حرب نظيفة» كما أطلقت عليها وسائل الإعلام في الولايات المتحدة! شعر الشعب الأمريكي بالارتياح لهذا النوع من الحرب، فلم يشاهد معركة حقيقية على الأرض، وإنما حرب أقرب منها إلى ألعاب الكمبيوتر".[١٣٥]

و لكن بعد بضعة أسابيع شعر الأمريكيون لأول مرة أن هنالك حرباً حقيقية، عندما قصف ملجأ «العامرية» بصاروخين، وقتل ما يقارب ٤٠٠ أربعمئة شخص من المدنيين. أشلاء وجثث الأطفال والنساء والشيوخ، شوهتها نيران الصواريخ، وعلا صراخ وولولة النسوة على من فقدوا من أحبائهم، وانهمرت الدموع من العيون الحزينة بغزارة حول الجثث المشوهة

و الرئيس يتسلل متخفياً، يقضي ليلته في بيت بين بيوت الناس، حماية لنفسه من الصواريخ التي كانت تفتش عنه. قصف قصره و لم يبق منه إلا حطام. لم يعد هنالك مكان آمن له. «و انتهت الحرب بعد ستة أسابيع، واستسلم الجيش العراقي، الآلالف من الجنود البائسين الجائعين المهانين. غطت السيارات والدبابات المحروقة أراضي الكويت، الجنود والناس يحاولون الهرب، طابور من السيارات الهاربة من أرض الكويت وسيارات مكدسة بالأغراض والأشياء التي حرموا منها في العراق. لكن الطائرات الأمريكية لم تمهلهم ليصلوا الحدود، كانت صواريخها تصطادهم، فأصبحوا أشلاء متناثرة تغطي الأرض»[١٣٦]. واستعملت الولايات المتحدة آخر ما في جعبتها من

١٣٥- محمد شرارة من الايمان إلى حرية الفكر، ص-٤٢٢.

١٣٦- المصدر نفسه ص-٤٤٣.

Twitter: @ketab_n

أسلحة متطورة، فحوّلت الجنود إلى تماثيل متفحمة. تقرأ الفزع في عيونهم الجامدة ووجوههم المستغيثة، تجمد الزمن على وجوههم، ليصبح سجلاً فاشلاً لمغامرة «أم المعارك»، كما جمد الزمن ما فعله بركان «فيزرف» الغاضب بأهالي بومبي في إيطاليا وحولهم إلى تماثيل حجرية، وهم قابعون في بيوتهم أو متجولون في شوارع المدينة أو جالسون في أسواقها.

وصل الجنود الذين هربوا من الجحيم إلى البصرة، فخرجت حشود الناس لاستقبالهم، معتبرة وصولهم الضوء الأخضر للثورة على النظام. هجمت الحشود التي لا تعرف كيف تعّبر عن غضبها الكامن في أعماقها، على مخافر الشرطة، فأصبحت الضحية الأولى، وقتلوا بعض أفرادها ودمروا بعض مبانيها، لطخوا صور صدام الضخمة وصلوها برشاشاتهم. وانتشرت الثورة وعمت الفوضى في كل مكان.

أما في شمال العراق، فهجر الناس مدنهم وقراهم وبيوتهم، وفروا بأرواحهم متجهين نحو الجبال، قطار من السيارات الصغيرة المحملة بالعائلات، التي علت رؤوسها فوق العفش المكدس بينهم، سيارات البيكب واللوريات مملوءة بالبشر، وعربات تجرها الأحصنة بالعفش والأطفال. هيمن الخوف على وجوههم، من بطش الرئيس الذي خاض المعارك. وظلت تتعالى صرخات النسوة اللواتي فقدن أطفالهن في الزحام، يفتشن عن فلذات أكبادهن.

زار وزير خارجية أمريكا « بيكر Baker» حشود الناس، في ربيع الشمال الذي انقلب إلى خريف مقفر إلا من آلالاف الناس. كما زارت هيئة إغاثة اللاجئين الناس الهاربين، الذين تركوا بيوتهم خوفا من قصاص الحاكم، وانتشرت المخيمات البيضاء كالحمام الأبيض

Twitter: @ketab_n

التائه في السهول والتلال. ولكل خيمة قصة وحكاية. قصص مؤلمة انتهت بفاجعة، وقصص انتهت بجمع شمل العائلة والأحباء.

و اعتبرت المنطقة بعد زيارة وزير الخارجية، منطقة آمنة، محمية من قبل القوات البريطانية والأمريكية. أما أهل الجنوب فلم يكن حظهم كأهل الشمال، فلم تصبح منطقتهم آمنة، وإنما أصبحت الأجواء محمية من بطش الحاكم، ولكن ما قيمة حماية الأجواء إن لم تكن الأرض محمية وآمنة. هرب الناس، وتركوا بيوتهم الطائفة على الماء، وهجروا الأرض التي عاشوا فيها منذ مئات السنين.

جفف الحاكم الاهوار، وقطع عن سكانها مصدر العيش، وصارت مياه الاهوار تنصب في قناة رئيسة. انحسر الماء فانحسرت الحياة، هاجر الناس والجاموس والطيور، واختنقت الأسماك، وماتت الحياة في تلك الأرض. وانتهت الحرب ولكن المآسي التي خلفتها وراءها لم تنتهي.

×××

عيد ميلاد صدام وبناء القصور والجوامع

و لأول مرة بعد «أم المعارك» ظهر صدام حسين في ٢٨ نيسان ١٩٩١، ممتطيا فرساً بيضاء، والناس ما زالوا بين المخيمات والدور المهجورة، محتفلاً بعيد ميلاده الرابع والخمسين، السيف بجانب والمسدس بجانب آخر، فقد خاض حربين، « قادسية صدام وأم المعارك» وما زال حياً، واعتبره نصراً عظيماً! ولذا يجب أن يكون عيد ميلاد باهر! فتهادى بفرسه البيضاء أمام الأهل والمقربين، وعلا التصفيق والهتاف بحياته، حتى وصل أمام كعكة عيد الميلاد المكونة

Twitter: @ketab_n

من سبع طبقات، كطبقات السماء السبع، وقطعها بالسيف، علت الزغاريد والهلاهل بحياته.(١٣٧)

و لم يقتصر الاحتفال بعيد ميلاده، وإنما شمل بهذه المناسبة الاحتفال بزواج ٣٠٠ عريس وعروس على حساب الدولة كإكرامية لهم. أصبحت تلك الإكرامية قاعدة متبعة في كل عام، في عيد ميلاده.

كما بدأ في بناء سلسلة من القصور الضخمة في جميع أنحاء العراق، بالرغم من الحصار الذي طوق الشعب، وعذاب الناس في الحصول على لقمة العيش. وجد طريقة ليطفأ بها الرغبة الجامحة في أعماقه، وأخذ يقلد في البناء الطرز الدمشقية والبغدادية والقاهرية. لكن الحصار لم يطوق شعبه فقط وإنما شمله أيضاً، فمن أين سيأتي بالرِخام الأبيض الذي يطرز به قاعات قصره وجدرانه، والحصار قابض بفكيه على بلده!

فخطرت له فكرة في رفع رخام بناية مجلس الوزراء. صدرت الأوامر حالاً، ومن يستطيع مخالفة أوامر الحاكم! فمصير الأمة بين قبضتي يديه. رفع الرخام الأبيض الناصع الذي حلى قاعات وأروقة مجلس الوزراء، الذي صممه رفعة في نهاية السبعينيات. رفعت كل قطعة باعتناء، لئلا تنفطر واحدة وأو تنكسر أخرى. ونقل الرخام إلى قصره الجديد. فأصبحت أروقة مجلس الوزراء جرداء، مشوهة بالثقوب الحديدية التي ثبت الرخام المنزوع منها. بهتت أشعة الشمس النافذة من خلال أقواسه، وبدت أروقته كئيبة متمثلة بكآبة ما حل بالبلد. فلم تنجُ أعمال رفعة المعمارية من القصف العنيف فقد كانت بناية البرق والبريد أول ضحايا القصف، وبناية مجلس الوزراء ثاني ضحايا الحرب.

١٣٧- كان الاحتفال بعيد ميلاد صدام حسين يقام في ٢٨ نيسان من كل عام.

Twitter: @ketab_n

سمح السفر خارج العراق[١٣٨] بعد منعه عقداً كاملاً خلال حرب إيران، فهجم الناس على مديرية السفر، محاولين الحصول على جواز سفر الذي أصبح رمزاً للحرية، وللتخلص من قيود الكبت الذي جثم على صدورهم. كان موظفو هيئة الأمم في بداية الأمر يقومون بزيارات مفاجئة لمديرية السفر، فيختفي عندئذ طابور الناس الطويل بسرعة، وينقلب الموظف وديعاً، دمثاً في سلوكه مع الناس، تفتر شفتاه عن ابتسامة مصطنعة أمام مسؤولي هيئة الأمم، وبمجرد أن يغيب المراقبون، تعود القسوة في معاملة الناس إلى ما كانت عليها، فيتجهم وجه الموظف، ويترك مكانه، ويخترع لنفسه مشاغل أخرى بعيدة عن عمله وواجبه، فيمتد الطابور الطويل ويمتص نهار الناس في الوقوف أذلاء، متعبين في شمس بغداد المحرقة. تتقدم خطوات الأقدام الثقيلة المتعبة ببطء، ويتحرك الطابور، فتبدوا أمارات التفاؤل على وجوه الناس المرهقة من الانتظار، وتمر الساعات الطويلة وتغلق النافذة، ليوم آخر من الانتظار ويبدأ طابور جديد!

حياة وإبراهيم وبلقيس ومريم 1991.

١٣٨- سافر عدد كبير من العراقيين ومنهم من لم يعد بل استقر في البلد الذي سافر إليه. جاءت شقيقتي حياة وأبنتاها مها وزينب إلى لندن لقضاء العطلة الصيفية، وكانت هي المرة الأخيرة التي التقي بحياة وابنتها مها.

Twitter: @ketab_n

و استطاعت شقيقتي حياة وابنتاها مها وزينب الحصول على جواز سفر، وسافروا إلى بريطانيا، وكانت هي آخر مرة التقي بها.

انساب الزمن، وجرت الأيام بسرعة، الناس يعيشون الكارثة والمأساة التي حلت ببلدهم العراق. مضت السنون وتوارى الكثير من أبناء هذا البلد في حربين، أشعلها حاكم لا يعرف إلا المقامرة بمصير أبنائه. هجرت العقول وطنها، وبدأت تنضب في جميع الحقول، الجامعات فرغت من خيرة أساتذتها والمستشفيات من خيرة أطبائها، والمهندسون مشتتون في جميع بقاع العالم. استقبلهم العالم في البداية بأذرع مفتوحة، ولكن بعد مدة وجيزة نسي المأساة وأصبح العراقيون عالة أينما يرحلون ويلتجئون، لا ينظر لهم بعين العطف.

استمر البطش بالناس. وطأطأ الشعب رأسه حين شعر بالخطر وتكور كما يتكور ألبزاق، وأصبح الإدمان على الخوف مرضاً مزمناً يعاني منه الفرد العراقي، لا يستطيع التخلص منه.

في تلك المدة، اتجه صدام لبناء الجوامع، جوامع كبيرة ضخمة، بعد حملته الايمانية وإدعائه التدين ، لكن تدينه لم يخفف القتل والانتقام المستمر من قِبَله، فالقضاء على «الخونة المتآمرين» واجب يحلله الدين والشريعة! فحولت بعض ساحات المدينة إلى جوامع، واصبح في كل حي جامع، ربما ليغفر الله له ذنوبه!

كما منعت المشروبات في المحلات العامة، النوادي والفنادق، واصبح العراق جافاً كالسعودية. لم يمنع شرب الكحول عبر العصور، فبلد الرافدين مهد الحضارة، والجعة والنبيذ، وكان أول من أبتكر تخميرها. أنواع البيرة السومرية منذ آلاف السنين أنتجها أهل هذه البلاد، يفتخرون بأنواعها وأسمائها وألوانها. أما الآن فأصبح الناس يدفنون همومهم بالشرب في الخفاء، قابعين في زوايا البيوت، بين أصدقائهم.

Twitter: @ketab_n

وظهر الحجاب في شوارع بغداد، بنات المدارس، طالبات الجامعات، المهنيات من الطبيبات والمهندسات والمدرسات، معظمهن مرتديات الحجاب. اختفت الألوان الزاهية من المدينة لتحلِ التراجع الحضاري، وحلت الألوان الرمادية، كأبنية بغداد الكونكريتيِّة التي لا لون ولا طابع لها، وانعكست الكآبة على المدينة بشوارعها وأبنيتها وأهلها.

بدأ التقتير وشحة المواد الغذائية بعد ستة أشهر من حرب الخليج، نفذت المواد الغذائية التي سرقت من مخازن الكويت، وخلت رفوف المخازن، وطال طابور الناس في الانتظار. وأصبح الدينار الذي كانت قيمته ثلاثة دولارات، ضحية الحرب أيضاً لا يساوي شيئاً. وانعكس الوضع الاقتصادي السيئ على الناس، وبان التقتير في جميع مرافق الحياة اليومية بالرغم من زيادة رواتب الموظفين الضئيلة، والبطاقة التموينية للناس، و لم تكن تكفي، فينتهي معظمها قبل منتصف الشهر.

تخلى الفرد العراقي عن ضميره في سبيل لقمة العيش، وانتشرت الرشوة بين الناس، وشملت جميع مرافق الحياة، وأطلق الرئيس عليها «الهدية!». فشملت القضاء والتعليم والتجارة والمصارف والسفر، وانقلبت حياة المواطنين إلى حياة هشة، غير متماسكة.

أصبح أساتذة الجامعة، ومدرسو الثانوية، ومعلمو الابتدائية، تجابههم مشكلة التقتير، وأصبحت الدروس الخصوصية حجة مشروعة وقانونية. وانتشرت وتفشت بين الطلبة كالوباء، وعرف الطلبة الطريق إلى النجاح! إذ أصبحت الدروس الخصوصية نوعاً من رشوة للإساتذة.

لكن الرئيس لا يرى ولا يسمع ما يحدث في بلده، يعيش بعيداً في قصره أو قصوره، التي انتشرت في جميع أنحاء العراق من جنوبه إلى

Twitter: @ketab_n

شماله. لم يكتف بالقوانين الشاذة التي أصدرها، بل جعل من القوانين الشاذة مهزلة، عندما أصدر قانوناً يشمل الوزراء والمدراء العامين في أن يخفضوا وزنهم، والذي يتقاعس عن تخفيض وزنه، تخفض رتبه.

×××

مدينة كيمبرج - ماساشوست

قرر رفعة ترك الولايات المتحدة والعيش في لندن، بعد أن قضينا أكثر من عقد. كان ترك الولايات المتحدة ضد رغبتي رغم آلام الظهر وقضاء سنة في جحيمه، فقد تأقلمت في مدينة كيمبرج وأصبحت المدينة جزء مني وأنا جزء منها. إنها وطني الجديد، عشت أكثر من عقد فيها، والآن عليّ تركها! حاولتُ إقناعه ولكن باءت محاولتي بالفشل، فقد أتعبه العمل المتواصل في جامعة هارفارد، وصمم أن يؤسس في لندن مؤسسة أبحاث الجادرجي.

حاولت أن احتضن المكان بعيني، ألتفتُ نحو النافذة التي أشرفت من خلالها على عالمي المحدود، ساعات وأيام وشهور، أراقب من خلالها تغير فصول السنة، رفعت رأسي، وجالت عيني في كل زاوية من زوايا الغرفة، أودع الرفوف الفارغة التي خلت من الكتب، الكتب التي قضيت الساعات أقلبها قبل أن أدفع ثمنها وأحملها على صدري، لتحتل محلها في تلك الرفوف، والخزانة العارية التي خلت من ألوان الملابس. أودع الشقة التي تعلقتُ بها والتي تشرف على أجمل مناظر الطبيعة في كيمبرج. فالرحيل موجع عن مدينة كيمبرج، عندما قررنا الانتقال في بداية عام ١٩٩٣ إلى لندن.

عشقت المدينة، أحببت مكتباتها ومطاعمها وساحاتها وحدائقها، أحببتها بشتائها القارص وصيفها الحار اللزج، وخريفها المتقلب بجماله الرائع وربيعها الحلو القصير. ألتجيء إلى مكتباتها الدافئة

Twitter: @ketab_n

في الشتاء وأندس بين حشود الناس في الصيف في ساحة هارفارد، استمع إلى موسيقى الجاز في زاوية، وأتطلع بإعجاب إلى النار الملتهبة التي ينفثها أحد المهرجين من فمه، وآخر يسير بعكازيتين طويلتين، والناس تضحك وتصفق إعجاباً، وجوهها ضاحكة مبتسمة غير متعبة.

أحببت المدينة وأهلها، كنت ضد فكرة العيش في لندن والإقامة فيها، لم أرغب بترك مدينة كيمبرج التي أصبحت وطناً ثانياً لنا. تعرفتُ فيها على أصدقاء لطيفين عوضوا عن أصدقائنا في بغداد، حفظتُ معظم شوارعها وأسماء مكتباتها، نتعشى في المطاعم نفسها ونحتسي القهوة في المقاهي نفسها. وجلسنا غالباً في الكرسيين نفسيهما، لمدة عشرة أعوام في قاعة سيمفونية بوسطن وفي سينما «براتل»، تعرفنا على وجوه الحاضرين بالرغم من الصمت بيننا. أخطأت ذات يوم في قاعة سمفونية بوسطن، وجلست في مكان آخر، وعندما جاءت صاحبته، قالت: هذا مكاني وأظهرتُ لها بطاقتي، قالت لي: مكانك في الصف الذي أمامي، «فأنا أجلس في هذا الكرسي منذ أثنين وعشرين عاماً ولا يمكن لي أن أكون مخطئة!» استغربت من قولها في البداية، ولكن عندما تركت كيمبرج كنت أجلس في نفس الكرسي طوال عشر سنوات في قاعة سيمفونية بوسطن.! كان حزني عميقاً عندما فارقتها كحزني لفراق بغداد.

لقد تأثرت بروح الشباب الطاغية على المدينة، الوجوه النظرة الضاحكة، الشباب الأبدي. وظلت الشقة فارغة ثلاثة أعوام أخرى بعد أن أقمنا في لندن، لتعلقي بها كما يتعلق الطائر بعشه، تغيرت وجوه الناس في العمارة، كما كانت تتغير ألوان الأشجار في فصل الخريف وتنقلب إلى غابات حمراء وصفراء وبنية. فالأمريكي متنقل دائم الحركة، لا يرتبط بالمكان، ولا يحن إليه كما نرتبط به نحن في

Twitter: @ketab_n

الشرق! يزن الأشياء بمنظار عمله ومصلحته. وعندما بعنا شقتنا، بعد ثلاثة عشرة سنة، لم يبق في العمارة من الوجوه التي عرفناها عندما عشنا في كيمبرج إلا امرأة مسّنة تقطن وحدها في الطابق الأرضي!

×××

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن

الإنتقال إلى لندن

سافرنا في بداية عام ١٩٩٣، وعادت آلام الظهر تقض مضجعي. فانتقلت من غرفة النوم في كيمبرج إلى غرفة النوم في كينكستن التي تشرف على نهر «التيمز». وأصبح النهر التسلية الرئيسة لي، أراقب البط والبجع، وضربة المجداف الممزوجة بتعليمات المدرب. زوارق رشيقة ذكرتني «بمشاحيف» الأهوار، عندما قضينا بضعة أيام في هور العمارة بصحبة الدكتور علي كمال والدكتور ليث الكندي، كان ذلك عام ١٩٧٦. كانت رحلة فوتوغرافية، فكل منهم محمل بأنواع الكاميرات والعدسات، ليلتقطوا جمال الطبيعة الأخاذ.

أكواخ عائمة من قصب البردي، وأناس كانوا يعيشون في عزلة تامة عن عالم اليابسة، حتى غزتهم الحضارة! الزوارق البخارية تجرح صمت الطبيعة بهدير موتوراتها المتواصل، شاقة بسرعة الماء المنساب بهدوء بين قصب البردي الشامخ على جانبي الهور والممتد بامتداد البصر، فتهرب الأسماك وتحلق الطيور بأجنحتها بعيداً عن عبث يد الإنسان الذي غيّر رتابة الحياة في تلك البقعة النائية المنعزلة عن العالم. يتسع الهور أحياناً فيصبح بحيرة كبيرة ويضيق أحيانا ويتفرع إلى سواقي وجداول، لا تعبر فيها إلا مشاحيف الأطفال، يتنقلون بخفة ومهارة بين أكواخ القصب العائمة فوق الماء كما ينتقل الأطفال بدراجاتهم الصغيرة في شوارع وأزقة بغداد. مشاحيف بأشكالها وأحجامها المختلفة، منتظرة عبورنا، نسوة ورجال جالسين بصحبة الحيوانات وأكياس النايلون المملوءة بمواد

Twitter: @ketab_n

الأكل اليومية. أكياس النايلون بألوانها البراقة تتراقص في الهواء الطلق في هذه البقعة الجميلة، أكياس ملتصقة بقصب البردي، ونتف من أكياس ذرتها الرياح فنشرتها على المساحات الواسعة، تشعرك بالجانب السلبي لرموز الحضارة!

برزت المدارس الابتدائية الكونكريتية، الرمادية اللون بين مساحات الهور الواسعة، فغيرت رتابة الحياة وبطأها الوئيد لآلاف السنين. الأطفال يتأبطون الكتب بيد والمجداف بيد، متجهين إلى المدرسة. والنسوة في الأكواخ العائمة الصغيرة المنتشرة على المياه، منهمكات بالعمل اليومي، خبز الرز على الصاج، وإطعام الحيوانات وغسل الملابس على حافة الهور، والرجال منهمكون في إصلاح أو بناء صريفة جديدة، أو صيد السمك بالفالة بأنواعه وأحجامه.

ودعتنا أشعة الشمس الصافية ببطء، فانعكست، حزم ملتهبة على الماء المنساب بهدوء، وتغيرت رتابة الحياة فجأة في الهور. ارتفعت عدسات الكاميرات لتلتقط الصور مسجلة اللحظات الجميلة قبل ان تفلت وتغيب عن أعيننا وتزول إلى الأبد في دهاليز الزمن. نسمع ضربات المجاديف السريعة، وقطرات الماء المتساقطة منها كدموع الفرح، وعلت أصوات الجواميس معلنة العودة إلى زرائبها. حلقت الطيور بأجنحتها متجهة نحو الأرض اليابسة، وحلت العتمة في كل صوب إلا من بعض الفوانيس الخافتة المعلقة أمام المشاحيف التي ينجذب السمك إلى نورها وتصبح لقمة سائغة للصياد، وخلا الهور إلا من نقيق الضفادع وطنين البعوض اللذين كوّنا فرقة موسيقية طيلة الليل، كفرقة موسيقى الشحارير في حديقتنا المطلة على نهر «التيمز» التي استيقظ على أصواتها في الصباح الباكر.

أما في كنكستين، فالنهر ينوء تحت الحركة المستمرة، العشب

Twitter: @ketab_n

المقصوص كسجادة خضراء وأشجار الصفصاف الغافية تتدلى أغصانها نحو ماء شاطئ التايمز تطوقه بحنان على امتداد ضفتيه. ونوادي الزوارق تحيطه من كل جنب، وتزداد الحركة في عطل الأسبوع، هواة صيد السمك يجلسون مع الفجر، يحتضنون بأيديهم الصنارة، شاردين بنظراتهم نحو النهر الهادئ، أو مصغين للمذياع الذي بجانبهم، وتزداد الحركة، فتنزلق الزوارق الشراعية بألوانها البيضاء والزرقاء والوردية نحو الماء، وتتجه نحو الجسر، يهدهد أشرعتها النسيم العذب، وتعترضها سفن السائحين بأبواقها التي تعلو على حركة النهر، وموسيقاها الصاخبة، وصراخ الأطفال عندما تنقلب زوارقهم الصغيرة تحت أعين المدرب الحادة، فيهرع لمساعدتهم وإنقاذهم، وأحاديث وضحكات المارة في الشارع المطل عليه. هذا التزاوج بين الحركة والهدوء، وبين الصخب والصمت، حوّل حياة نهر «التيمز» إلى كيان متميز عن غيره.

أطّرتُ عالمي من خلال النافذة الواسعة التي تطل على النهر، تتغير ألوانه وحركته بتغير الفصول، كان كئيبا عندما وصلنا لندن في شهر شباط. النهار قصير، ينبلج الضوء بعد الثامنة صباحاً ببطء من بين الضباب الجاثم على صدره. ويسود الظلام في الرابعة بعد الظهر، فأشعر بكآبة عميقة تهيمن عليّ. أتوق لشمس بغداد أو كيمبرج، فبالرغم من شتاء كيمبرج القاسي، إلا إن أشعة الشمس تسطع بصفاء فوق الثلوج التي تغمر المدينة. كل شيء في لندن رمادي حين وصلنا إليه..

زيارات الأصدقاء مستمرة لي في لندن، من العراقيين الذين هجروا وطنهم كما هجرناه. يعيشون في المنفى، تدور الأحاديث دائماً عن العراق، فليس باستطاعتهم الابتعاد عن أجواء الوطن، كل يحمل حقيبة حنينه وشوقه في أعماقه. بغداد قابعة في اللاوعي فكيف لنا أن ننساها؟

Twitter: @ketab_n

نستمع إلى أخبار بلدنا عبر شاشة التلفزيون، ولا يذكر ذلك البلد على شاشات التلفزيون الغربية، إلا عند قصف جديد أو تدمير وخسارة أرواح. كانت عيناي شاخصتان الى شاشة التلفزيون عندما قصف العراق ثانية بعد حرب الخليج، بعدما تسلم الرئيس كلينتون الرئاسة ببضع أشهر، لا لشيء مهم إلا ليثبت قوته أمام كثير من الشعب الأمريكي الذي يقدس العنف والقوة! ولكن لم تذكر الخسائر التي تكبدها الشعب العراقي في ذلك القصف. قصفت بناية الاستخبارات في حي المنصور، وأصاب أحد الصواريخ دار الرسامة سعاد العطار. فقتلت شقيقتها الرسامة ليلى العطارا التي كانت تقطن في الدار مع عائلتها.

كان لموت ليلى صدى بين عراقي المنفى، واستغرب الأمريكيون عندما نشرت بعض الجرائد صورتها مع عائلتها، فشاهد الأمريكي عائلة لا تختلف عنهم، في لباسهم وشكلهم. لأن الصورة النمطية التي يشاهدونها ويؤكد عليها الغرب وخاصة الإعلام الأمريكي، تختصر دائماً بأربعة أشياء: الجمل والصحراء وخيمة الشعر والمرأة المحجبة تحت برقع أسود، هذه الصورة هي المخيمة على أغلب عقول الناس في الولايات المتحدة.

×××

جواز السفر العراقي

أصبح جواز السفر العراقي عبئاً على حامله بعد حرب الخليج، تتطلع عيون الموظفين في الخارج باستغراب عندما تقع عليه، وكأن جميع سفارات العالم أصيبت بالحساسية تجاه لونه وحجمه. فينتظر صاحبه بحيرة أمام أبواب السفارات، ليعود الموظف المسؤول ويخبره أن عليه الانتظار شهراً أو شهرين، وكثيراً ما يوافق العراقي على مهانة

Twitter: @ketab_n

الانتظار، يريد الهرب من جحيم العراق، وينتهي انتظاره بالرفض وخيبة الأمل في بعض الأحيان، فيعود ثانية ويحاول مع سفارات أخرى عله يحصل على ما يبتغيه.

أصبح طابور العراقيين من المناظر المألوفة في مدينة عمان، يقفون يومياً أمام أبواب السفارات، سفارات بلدان العالم المتحضر التي تنادي بتطبيق حقوق الإنسان في عالمنا المتخلف، الخارج عن التزام القوانين المشروعة في عالمهم، ولكنهم يعاملون العراقيين كبشر من الدرجة الثانية! ينتظر الطابور الطويل تحت أشعة الشمس المحرقة في صيف عمان، وتمر الساعات ويمضي النهار وتغلق أبواب السفارات في وجوههم، لتعود الوجوه الكالحة المتعبة من طيلة القلق والانتظار، في صباح اليوم التالي للوقوف ثانية في الطابور. أصبح الوقوف في الطابور جزءاً من طبيعة العراقيين، يلازمهم في داخل بلادهم وفي الخارج.

بعد حرب الخليج وفشل صدام حسين في حرب «أم المعارك»، أصبح وزن الجواز العراقي بوزن الحجارة الثقيلة. لم نشعر طيلة إقامتنا في بوسطن أننا غرباء، ولكن بين ليلة وضحاها، أصبحنا بشراً من كوكب آخر. الشعور أنك مشتبه بك، لأنك تختلف عنهم، الشعور بأنك أقل منهم، لون جواز سفرك يختلف عنهم، إنك تحمل جواز سفر بلد أدانه العالم، تقرأه في عيون الناس حولك، وفي الواهمة التي سيطرت عليهم.

أصبحنا كلما نصل إلى نقطة تدقيق الجواز من قبل ضابط المطار، يتكرر المشهد الذي يبدأ في تقليب أوراق الجواز ورقة ورقة، وبين تقليب أوراق الجواز والنظر إلى سحنتك وعينيك وتقاطيع وجهك، علك قد زوّرته، يمر الركاب بسرعة إلى الجهة الأخرى، بيدهم الجواز السحري، الجواز الذي لا يحتاج حتى إلى فتحه وتدقيق صور أصحابه، ونحن

Twitter: @ketab_n

واقفون كأننا في قفص الاتهام. انتهت مرحلة تدقيق الصورة وتقليب أوراق الجواز، وبدأت الأسئلة عن أسباب الرحلة وزيارة البلد. تشعر بالارتياب من الأسئلة الموجهة إليك، وكأنك في محكمة وتحاول أن تصر على براءتك، ولكن كلما تصر على براءتك يزداد الشك من حولك. تتوالى الأسئلة عليك حتى ينساب صوت طبع الختم على الجواز كما تنساب الموسيقى العذبة على السمع.

تصل منطقة الحقائب، لا تجد إلا حقيبتك، يتيمة تدور وتدور فوق الحزام الأتوماتيكي، ترفعها وتخرج بسرعة تجنباً للشك والريبة. يصاحبك شعور من أنك طائر غريب في هذه المزرعة الواسعة، التي تشعرك بضيقها مهما عشت بين أهلها، شعور يجرحك في الأعماق كالسكين الحادة، تحسه في نظرات العيون من حولك.

أصبح رفعة يرفض حضور المؤتمرات والندوات التي كان يدعى لها في البلدان الأخرى، تجنباً للإهانة التي ترافق الحصول على فيزا والتعرض إلى الأسئلة والوقوف في المطارات، حتى يثبت العراقي براءته. فقررنا، رفعة وأنا، التخلي عن جواز السفر العراقي واللجوء إلى الحصول على جواز سفر بريطاني.

كنا رفعة وأنا، متمسكين بجواز سفرنا العراقي، فهو رمز بلدنا وهويتنا، رفضنا الفرصة التي أتيحت لنا في الحصول على جواز سفر أمريكي، عندما كنا نقطن في الولايات المتحدة، كنا في خوف دائم على جواز السفر العراقي من الضياع، نضعه في حقيبة صغيرة مقفلة بمفتاح، داخل خزانة مقفلة بمفتاح آخر، لأننا نعرف أن الحساب عسير، والسجن بانتظار من يفقد جواز سفره! فقد أصدرت مديرية السفر في بغداد تعليمات تقضي بغرامة وحبس لمدة ستة أشهر لمن يفقد جواز سفره. وأصبح العراقي بين محنتين متناقضتين، الخوف من فقدان جوازه العزيز

Twitter: @ketab_n

عليه، والتخلص من جوازه المرفوض في جميع أقطار العالم بعد حرب الخليج! لأن العراقي تلاحقه سمعة دولته التي تنعكس على جواز سفره.

دعي رفعة بعد حرب الخليج لإلقاء محاضرتين عن أعماله في النرويج، وصلنا مطار أوسلو، سار عبرنا جميع ركاب الطائرة، تلفتُ خلفي و لم أجد أحد، إلا رفعة وأنا أمام ضابط السفر، تصنّع الابتسامة عندما أبرز له رفعة أوراق الدعوة من جامعة أوسلو ونقابة المعماريين في أوسلو. تطلع إلى الجواز بدقة وهو يوجه الأسئلة لكلينا، تراءى أمامي شرطي الجوازات في برلين الشرقية، عندما زرنا المدينة ليوم واحد عام ١٩٧٦، إذ كنا متشوقين لزيارة متحفها الذي يضم بين قاعاته الواسعة الرحبة باب عشتار الشهير. أدهشني ضابط الجوازات بتدقيقه الغريب عندما تركنا المدينة، مسك الجواز بيده، وبدأت عيناه تتجول بين صورة الجواز والوجه الذي أمامه، بادئاً بالجبهة والحاجبين، منتقلاً إلى العينين والأنف والفم، وكأنه رسام يحاول رسم وجه الموديل الواقف أمامه بذاكرته!

سرنا في مطار أوسلو نحو تسلم الحقائب، ووجدنا حقيبتنا، وحيدة مهجورة في انتظارنا، تدور فوق حزام الحقائب. تكررت الدعوات لحضور المؤتمرات والندوات، وكان رفعة في كل مرة يرفض حضورها، ليبتعد عن الإهانة التي يشعر بها حامل الجواز العراقي عندما يقدم على طلب فيزا! كان جميع العراقيين القاطنين في المنفى يعانون من عبء جواز السفر العراقي، كان يصفه رفعة : «مثل واحد حامل حفنة من الحجارة في جيبه!» ولذا فكر عدد من أصدقائنا الحصول على جواز البلد الذي يقيمون فيه. ووجدنا أنفسنا في وضع مشابه للعراقيين الساكنين في المنفى، فقدمنا على جواز سفر بريطاني.

Twitter: @ketab_n

لم أشعر أنني اصبحت بريطانية، فهذا شعور بعيد عن ثقافتي ونشأتي وجذوري الممتدة في وادي الرافدين والمتشربة بحضاراته العريقة، ولكن الجواز البريطاني أصبح واسطة لتنقلنا بحرية كنا نفتقدها. سافرنا - رفعة وأنا - بعد الحصول عليه بمدة قصيرة، وشعرت كأنني إنسان آخر، لا علاقة لي بالإنسان الذي كان حاملاً جواز السفر العراقي الزيتوني اللون! لم يطلب مني ضابط الجوازات هذه المرة الانتظار على جهة، ليبدأ التحقيق معي. عادت الثقة لي، اشعر بالاعتداد بدل الخوف، عندما يتسلم جوازي موظف الجوازات، بل لا ينظر إليه في معظم الحالات عندما أترك البلد.

×××

زادت القيود على الناس في العراق، فصدرت في البداية تعليمات بمنع العسكر والوزراء السابقين والمدراء العامين من السفر، ولكن بمرور الوقت بدأت القائمة تطول، فتبعهم أساتذة الجامعة والأطباء والمهندسون، والفتيات دون عمر الخامسة والأربعين، ولم يبق إلا المتقاعدون من المدنيين الذين لهم الحق في مغادرة البلاد بعد أن يدفعوا ضريبة السفر، التي بدأت تتضخم يوماً بعد يوم، ولكن بالرغم من جميع المعوقات التي وضعت أمام الناس، أصبحت هجرة العقول من بلد الحضارات سيلاً عنيف التدفق، يصب في بحيرة التخلص من العيش في وادي الرافدين!

ففي بداية القرن العشرين هربت العقول من ألمانيا، بسبب الرعب الذي نشره هتلر في البلاد، وانتشرت في العالم كما انتشرت العقول العراقية الآن، تفتش عن ملجأ آمن تلتجئ إليه بعيدة عن أعين الجستابو التي زرعت الخوف والرعب في نفوسهم.

Twitter: @ketab_n

أصدرت السلطة تعليمات تحاول بها إغراء ورشوة العقول بالعودة، ولكن العقول العراقية انتشرت مع الهواء في أنحاء العالم، مفضلة منفاها على العودة إلى الوطن، بعيدة عن أعين المخابرات، التي زرعت الهلع في نفوسهم، والتي يخشاها كل عراقي، فهي بانتظار زلة لسان، إن تخطى الخط الذي رسمته له السلطة. وارتسمت بناية سجن الجامعة في اللاوعي، كالوشم في أذهان أساتذة وطلبة جامعة الموصل عندما يلقون محاضراتهم أو يقدم الطلبة بحوثهم، بعد أن عوقب عدد منهم ووضع بداخل «السجن الخاص بالجامعة»!

×××

لندن

مرّت مدة وأنا في لندن، أتغذى بثقافاتها وأنهل من مهرجاناتها، وكأنها تقول لي كل يوم من خلال رذاذها المتواصل صيفاً وشتاء إنك لست غريبة في هذه المدينة!

كنا نذهب للمسرح اسبوعياً تقريباً، وكنا وما زلنا أعضاء في مسرح National Theatre، الذي هو المسرح القومي، الذي يعرض فيه أهم ما يكتب في المسرح البريطاني والعالمي. ذهبنا ذات مرة إلى مسرح الأوليفة Olivier Theatre لمشاهدة مسرحية لشكسبير، بعنوان بركليس Perclis، والمسرحية من المسرحيات التي لم تمثل إلا قليلاً جداً، و لم تضف إلى مسرحيات شكسبير، إلا بعد وفاته عندما جمعت أعماله في طبعة كاملة بعد سبع سنوات من وفاته، وظهرت في الطبعة الثانية.

شعرنا بجو غير اعتيادي قبل أن تبدأ المسرحية، جاء شخص بلباسه الأسود الرسمي مع البوتاي السوداء/ربطة العنق، وتأكد من الأماكن الأربعة التي أمامنا. وعندما بدأت الإضاءة في الخفوت،

Twitter: @ketab_n

رافقه رجل وامرأتان، وأشار إلى أماكنهم. عندما خرجنا أثناء الفاصل في المسرحية، قال لي رفعة، هناك حركة غير طبيعية ويظهر إن بعض الأشخاص المهمين موجودون في المسرح، جالسون أمامنا.

قلت له كيف عرفت ذلك، أجابني: عندما كنت متجها اصعد درج المسرح، كان يقف الناس منتظرين، ويظهر انني كنت اسير أمام شخص مهم. وقبل أن يبدأ العرض، خفتت الأضاءة، وإذا بالأميرة «ماركريت» شقيقة الملكة هي التي جلست أمامنا بفستانها الأحمر، وشال بيجي اللون على كتفها.

قلت لرفعة: هذه «ماركريت» أخت الملكة اليزابيت، أجاب مستغرباً، صحيح. يظهر أنه كان يسير أمامها، ويفتح أمامه الطريق، وينسحب الناس في انتظار الأميرة قبل أن يبدؤا في الخروج.

كان إخراج المسرحية رائعاً جداً بالرغم من تفاهتها إذ أنها خيال واسع في الخلط التاريخي لتلك المنطقة وهي بين صور وأنطاكية وطرطوس. التي يجهلها شكسبير على ما يظهر.

كانت الأميرة ماركريت معجبة بالإخراج وكلما تغير مشهد في المسرح، كانت تعلق مع الشخص الذي بجانبها. وأخيراً عندما عثر بركليس على ابنته، كان المشهد مؤثراً بالنسبة للمشاهدين. وانتهت المسرحية وصفقنا بحرارة للممثلين، خرجت الأميرة ورفاقها، وتأخرنا قليلاً، حتى أخذت المصعد مع الذين رافقوها.

تعجبتُ من بساطة الأميرة، وتنهدتُ متى سنصل في بلادنا والحاكم أو من له علاقة به لا يثير الضجة أو الاهتمام به، وإنما يتصرف كإنسان مثل البشر الآخرين. ويدخل قاعة العرض، عندما تكون الإضاءة خافتة، حتى لا تتركز أنظار المشاهدين عليه.

×××

Twitter: @ketab_n

بدأت رياح خريف العمر بصريرها المتزايد تختطف الأصدقاء والأحباء، وتزاحم الموت في سماء بغداد، ونحن بعيدون عن الوطن، فتساقط الأصدقاء كما تتساقط أوراق الأشجار اليابسة في الخريف، فخسرنا عدداً منهم لا يمكن لنا تعويضهم، وسنبقى نعيش معهم في دهاليز الذاكرة فقط. طفت في الذاكرة، سلسلة من أسماء الأعزاء الذين فقدناهم في السنوات الماضية، ستائر أسدلت على نافذة الحياة، واحدة بعد أخرى. جيل كامل مضى أكثره شاعرين بفقدان الأمان الذي كان وجودهم يبعثه فينا.

توفيت لميعة زوجة الأديب جبرا إبراهيم جبرا، بعد مرض دام بضعة أشهر، كان جبرا حزيناً على فقدانها، كلمه رفعة وأعطاني سماعة التلفون، وما إن أبديت أسفي على خسارتها، حتى شعرت بانفعاله، قائلاً لي: «بلقيس لا أستطيع الكلام الآن» وصمت التلفون بيدي، وضعت السماعة، ولكن ظل صوت جبرا الحزين المكبوت يرن في أذني، لقد أصيب جبرا بنوبة خفيفة عندما كلمني ونقل على أثرها إلى المستشفى.

بلقيس والكاتب جبرا إبراهيم جبرا.

Twitter: @ketab_n

و كان آخر حديث لنا معه قبل وفاته بأسابيع، عن المقال الذي نشره في مجلة «الناقد» عن «المشاؤون»، فقد أعجبتني الفكرة وربطها بسقراط. وضحكنا، قال: « أنت عظيمة يا بلقيس، فهنالك امرأة وراء كل رجل عظيم!»، كان جبرا يؤمن بهذه المقولة، ويعتقد أن المرأة لها دور كبير في تحطيم الرجل أو جعله عظيماً. لم يطق العيش وحده بعد أن غابت لميعة عن الوجود وأحس بكآبة تحيطه من كل صوب، عاش عامين بعد وفاتها، وسجّل في كتابه الأخير ذكرياته عنها وعن بغداد في الخمسينيات من القرن الماضي، في كتاب «شارع الأميرات»، وكأنما كتبه ليوّدع أصدقاءه ومعارفه قبل أن يودعوه.

الدكتور خليل الآلوسي ورفعة، تصوير: د.علي كمال

أما الدكتور خليل الآلوسي المريض على فراش الموت يعاني من السرطان الذي نهش أحشاءه ولكن لم تتركه الدعابة الى آخر لحظة من حياته، وتبعته جين زوجة الدكتور علي كمال التي شعرتُ بعبء الثقل الذي تحمله من المتاعب على قسمات وجهها عندما التقيت بها آخر مرة في عمّان في بداية عام ١٩٩٥، و لم يمّر على وفاتها إلا بضعة أشهر وإذا بنا نفقد زوجها، الدكتور علي كمال الذي بفقده خسر العا لم العربي عا لم نفس من الدرجة الأولى.

Twitter: @ketab_n

ثم المحامي رؤوف أمين رؤوف الذي تتزاحم النكتة لتخرج من بين شفتيه كسيل من المداعبات الشائقة المضحكة، كان يعشق الحياة ويقدسها، يبتعد عن المشاكل ويرفضها إن تواجدت أمامه، وكأن القدر استجاب الى ما يؤمن به من فلسفة فقد نام نوماً طويلا و لم يفق، بعد أن قضى آخر ليلة من حياته بين أصدقائه الذين يتمتع بمجالستهم وأحاديثهم. و لم يشفق القدر على زوجته التي عانت العذاب من آلام الظهر لسنتين، عندما قضت نحبها.

ثم جاء الصيف لينبئنا بوفاة الشاعر بلند الحيدري، الذي كان صديق رفعة منذ الطفولة، فكانت مفاجأة لجميع أصدقائه. فقد كان يعاني بلند من مشاكل القلب، ويحتاج إلى عملية منذ أكثر من عامين، لكن هيمن الخوف عليه من إجراء تلك العملية.

الشاعر بلند وبلقيس 1994.

كان بعض الأصدقاء يتندرون معه أحياناً عندما يشكو من قلبه، قائلين له: «عيني شبي قلبك»؟ فترتفع الضحكات لتصبح قهقهات! أقيم بتلك المناسبة حفل تأبيني أشرفت عليه الكاتبة سلوى الجراح،

Twitter: @ketab_n

لتقييم أهمية بلند الشاعر، وشارك به كل من رفعة الجادرجي وفاروق رضاعة ومحمد بحر العلوم، وبشرى برتو.

×××

انتحار حياة وابنتها مها

و كأن القدر لم يكتفِ بفقدان الأعزاء من الأصدقاء، وإذا بصاعقة تهّز كياننا، إذ لم نكن ندري ما تضمره الأيام لنا من مفاجآت! ففي يوم الأحد ١ آب ١٩٩٧، كان عندنا ضيوف للغداء، عندما رنّ التلفون في الصباح الباكر، واستغربت من ذلك لأنه لا يتصل بنا أحد قبل التاسعة صباحاً، و لم أعر أية أهمية لذلك التلفون، وعدت إلى النوم، ولكن لم تغمض عيني، قفزت من الفراش واتجهت إلى المطبخ من غير أن أمر برفعة في المكتبة، وبدأت بتهيئة المواد للشروع في الطبخ، لكن بعد ساعة جاء رفعة إلى المطبخ، وغسل القدور والصحون المتراكمة، واستغربت من ذلك إذ ليس من عادته أن يقوم بذلك إلا عندما ننتهي من الغداء أحياناً، ولكنه يوم الأحد، ومعي الفتاة التي تساعدني في مثل هذه المناسبات!

رنّ التلفون ثانية قفز رفعة نحو التلفون، وصعد إلى غرفته و لم يتكلم أمامي أو يذكر عما تكلم، وهذا سلوك طبيعي بالنسبة لرفعة، إذ اعتاد آلا يذكر أسماء الذين يتحدث معهم عادة إلا إذا سألته.

بدأ الضيوف يصلون، فانشغلت معهم، ولكن رنّ التلفون مرة أخرى، رفعت السماعة، وإذا بالتلفون من بغداد، الكلمات خافتة متلجلجة، صمت التلفون، ليدق بعد لحظات، صرختُ بأعلى صوتي آلو آلو، وإذا برفعة ينتزع السماعة من يدي، ويذهب لغرفته بعيداً عني، ولكن بالرغم من انتزاع التلفون من يدي، لم أشعر بشيء غير طبيعي حولي، فقد كنت مشغولة أنا ومساعدتي في وضع الطعام على المائدة.

Twitter: @ketab_n

انصرف الضيوف بعد الخامسة عصراً، صعدت إلى غرفتي متعبة، قدّم لي رفعة نصف حبة مهدئ، قلت لا احتاج إليها ولكني احتاج إلى الراحة قبل أن يأتي كل من جيم ومريم في الساعة السابعة مساءً، واستغربت عندما لاحظته شرب الماء مع حبة مهدئ!

وصلت شقيقتي مريم برفقة زوجها جيم شو، في الساعة السابعة مساءً، حيث كان رفعة قد اتصل بهما مسبقاً. بدأ رفعة بالحديث، قائلاً بصوت هادئ، متحلياً بضبط النفس، لقد أنهت «حياة» حياتها مع ابنتها مها، ولكن نجت زينب بأعجوبة. اكتشفتُ عندئذ لَمَ كان رفعة يأخذ التلفون ويتكلم في غرفة أخرى، بعيداً عني، فقد كَبَتَ ما كان يعرفه عن المأساة التي حلت بالعائلة طيلة اليوم.

×××

كنت قلقة على حياة، قلقة من رسائلها المتباعدة المتسمة بطابع الكآبة، كانت تتكلم عن روتين الحياة اليومي، وعن مصاعبها في ظل طاغية سد جميع المنافذ المضيئة في حياة الناس، عن الوقت الذي يتسرب من بين أصابعها في الطابور الطويل المصطفة به، لكي تحصل على ما يعينها وابنتيها من القوت اليومي.

كانت حياة تشعر من أنها مراقبة في الكلية والدار، إنه شعور مخيف، أبعدته مرات عديدة عنها. ولكن عندما نظرت من النافذة إلى حديقة دارها، التقت عيناها بعيون اخترقت الجدار، تجمدت بمكانها. عرفت أنها مراقبة كما كان زوجها قبل أن يصاب بجلطة في الدماغ. شعرت حياة أنها محاصرة من جميع الجهات، فطلبت عندئذ إحالتها على التقاعد، رفض العميد طلبها، ثم قدمت طلباً للسفر مع ابنتيها خارج العراق، ورفض طلبها، لأنها تحتاج إلى محرم.

كانت ابنتها مها تحس بنفس إحساس والدتها، تحس بإحباط

Twitter: @ketab_n

كامل. عادت من المقابلة التي اجريت لها عندما قدمت على وظيفة، رُفضت بسبب أسم والدتها، وليس على الكفاءة. فقد أثبتت كفاءتها في امتحان المقابلة، وقبلت من قبل مدير الدائرة لكنها رفضت من قبل الوزير! ووجدت جميع الأبواب موصدة أمامها، فاستغلت غياب والدتها وشقيقتها زينب عن الدار لتنفذ خطتها، ذهبت إلى الحمام وأغلقت الباب عليها وفتحت قنينة الغاز، وانساب رحيق الحياة من بين أطراف بدنها.

عادت حياة مع ابنتها زينب إلى الدار، وأحست برائحة الغاز، وتوقعت ما كانت تفكر به هي، فقد خطرت لها فكرة الانتحار والتخلص من أعباء الحياة من قبل، لكنها فوجئت عندما سبقتها ابنتها مها. كانت مها ملقاة على أرض الحمام.

نظرتْ حياة حولها، مها ممدة أمامها، رفعتْ رأسها ونظرات اليأس تهيمن على ملامح وجهها عندما التقت نظراتها بنظرات ابنتها زينب! ولكن عادتِ ونظرت نظرة ساهمة وكأنها في عالم آخر. ما الذي ستفعله الآن، مها انتحرت، مها جثة هامدة أمامها!

×××

فقدان مها في ريعان صباها

كانت مها طفلة خجولة منزوية منذ السنة الأولى من عمرها، تلعب وحدها بألعابها. ولدت شقيقتها زينب، بعد عيد ميلادها الثاني بشهرين. كان لولادة أختها تأثير واضح على نفسيتها، شعرت بالإهمال من قبل والديها، واتجه الاهتمام بأختها، فمالت لارتداء ملابس الأولاد، كأنه احتجاج صامت على والديها. لم تنتبه حياة أو محمد إلى ما حدث من تغيير في سلوك مها، لاستغراقهما في العمل. فزاد ذلك من انعزالها.

Twitter: @ketab_n

كانت مها طفلة نحيفة، سمراء اللون، ذات شعر أسود قصير، ابتلعت عينيها الواسعتين وجهها الضامر، تلعب بعد عودتها من المدرسة، بدراجتها الصغيرة في الساحة الواسعة أمام دارهم، قاطعة الشارع ذهاباً وإياباً، تنبسط أسارير وجهها البريء عن ضحكة عريضة، مسرعة بدراجتها، عندما تلمح سيارتي البيضاء عن بعد، فأبطئ بسياقة السيارة، لتصل قبلي معلنة وصولي، ثم تعود لتكمل لعبها في الساحة.

لم تكن مها طفلة اجتماعية بعكس أختها زينب التي كانت تحب الناس وتكره العزلة والوحدة، فاستحوذت باهتمام والديها وجدها محمد شرارة. كان والدها جراحاً في مستشفى الطوارئ في الصباح وفي عيادته الخاصة في المساء، يصل الدار متعباً، مرهقاً، فيفرغ أتعابه في كأس من «العرك المستكي» مع ألمازة. أو يصل غالباً، في كثير من الأحيان الدار، وابنتاه غارقتان في نوم عميق، فلم يتمتعن بحنان الأب وعطفه. كما كانت حياة مشغولة بالتدريس، وعند تواجدها في الدار، لم يكن يسمح لها الوقت في صرف جزء كاف من الوقت مع ابنتيها، إذ كان عليها أن تكمل الواجبات الجامعية من تحضير محاضرات وتصليح أوراق الطلبة، بالإضافة إلى كتابة المقالات للصحف والترجمة والتأليف.

و لكن رغم الواجبات الملقاة على كاهلها، ظلت حياة تقضي وقتاً أطول مع أبنتيها من زوجها محمد. وكانت مها اقرب إلى والدتها، وخاصة عندما تمادى والدها بالشرب لكثرة المضايقات والضغط عليه من قبل السلطة في التخلي عن الحزب الشيوعي ونبذ مبادئه، واعتقل وعُذب مرات عديدة بسبب آرائه والتزامه الحزبي.

شعرتْ مها بفقدان العاطفة تجاه والدها، الذي كان يدخل الدار متجهم الوجه، مقطب الحاجبين، يصب غضبه أحياناً على طفلتيه، وأحياناً يحيطهما بالعطف والحنان إلى درجة الإسراف في الدلال.

Twitter: @ketab_n

ورغم طيبته وتفانيه في خدمة الناس، ورفضه استلام أجره من المرضى الفقراء الذين كانوا يترددون على عيادته، أضاع التوازن في تربية ابنتيه، وبدأت مها تهرب إلى غرفتها كلما سمعت مفتاح الباب لكي تتجنب رؤيته. أصبحت غرفتها صومعة آمنة لها، والملاذ الوحيد الذي تقضي فيها معظم وقتها و لم تبلغ بعد السابعة من العمر. صارت الخلوة جزءاً من كيانها حتى أثناء السفر، عندما كانت تسافر بصحبة والدتها إلى لبنان أو إنكلترا. لم تكن مها في البداية طفلة جذابة أو جميلة، بل كان جمالها أقل من الوسط. ويتوهم المارة من الناس بكونها ولد، لشعرها القصير، وارتدائها اغلب الأوقات البنطلون.

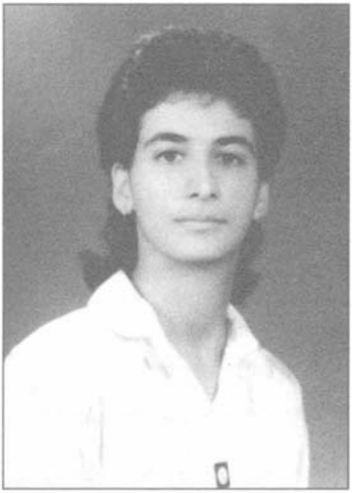

مها أبنة حياة.

وعندما بلغت سن الرشد، تبدلت تقاسيم وجهها تدريجياً، وأصبحت صبية جذابة، بعينيها السوداوين الواسعتين، وأنفها الدقيق الصغير، وقامتها الطويلة النحيفة. أصبحت العيون تحدق بها أينما تذهب، في الشارع والمدرسة والسوق. ولكن لم يؤثر هذا التطور في

Twitter: @ketab_n

شكلها إلى التغيير في سلوكها، فاستمرت في عزلتها. كان لها عدد قليل من الصديقات في المدرسة، و لم تدع أحداً يوماً ما إلى الدار. ظلت والدتها الصديقة الوحيدة لها بعد وفاة والدها المفاجئ عندما بلغت الحادية عشر من العمر.

كنت أزورهم بين يوم وآخر حين أكون في بغداد، نسجتْ مها من غرفتها شرنقة عاشت فيها بين موسيقى البوب pop والقراءة، غطت جدران غرفتها بصور المغنين المشهورين. وانغمرت في سماع تلك الموسيقى.

عندما توفي محمد، والدها، بعد خمسة أيام من إصابته بجلطة في الدماغ، شعرت حياة بالمسؤولية الملقاة على عاتقها، وانقلب الإهمال إلى اعتناء واهتمام دائم بأبنتيها، فقامت بوظيفة ألام والأب للتعويض عما فقدتاه مع غياب والدهما. حاولت أن تحافظ على ابنتيها من شرور المجتمع، واعتقدت أن كل ما تقوم به هو لمصلحتهما. وأصبحت مها مؤيدة لوالدتها في معظم ما تقوله وتفعله، فوالدتها لا تخطئ، ورأيها هو الصحيح دائماً. أدى هذا التعلق بوالدتها، ومحاولة تقليدها في كل شيء، إلى طلب التخلي حتى عن اسم والدها، واستعمال كلمة لقب شرارة بدل سميسم، في رسائلها التي تكتبها لي ولشقيقتي مريم في لندن.

×××

أبعدتْ حياة فكرة الانتحار التي كانت تراودها لمدة من الزمن، فكيف تنهي حياتها وهي التي أعطت الحياة لابنتيها؟ كيف تخنق تلك الحياة. ولكن فكرة الانتحار والتخلص من الحياة ظلت تراودها ليلاً، في الكوابيس التي كانت ترزح تحتها. شممتُ رائحة اليأس في رسائلها المتقطعة المتباعدة. وقلت لا بد أن تخرج من تلك الأزمة كالعنقاء من الرماد.

Twitter: @ketab_n

لكن أحست حياة بوحدة المكان، بالغربة التي تطوقها وتطوق أبنتيها، كيف لها التخلص من هذا الطوق الذي أخذ يضغط عليها كموت بطيء؟ لم تعد ترى ما حولها، حددتِ رؤيتها بين جدران الدار، وفكرت بالتوقف عن الوجود. شعرت أنها تحتضن الموت وتعيشه! لكن تراجعت عن الفكرة ثانية.

حياة.

حاولتْ مرات عديدة أن تتجنب السقوط في الهاوية بعد أن انقطع جسر الأمل واغلقت جميع الأبواب أمامها. حاولت أن تمسك ببصيص من الأمل، ولكن ذابت الكلمات المعسولة الحلوة التي كانت تؤجج طموحها في الحياة، وانقلبت إلى أفكار صامتة في أعماقها.

أصبح الوعي بالوجود، ليلاً دامساً طويلاً بلا نهاية، وانتظرت الفجر ليغمر ضياءه ثانية ويجدد آمالها، ولكن الظلام غمر آخر ومضة من ومضات الضياء في داخل نفسها، عندما شاهدت مها ممدة في الحمام أمامها. خيم اليأس بفكيه ولا أمل من أن ينقذها من أظافره التي غرست بعمق تنهش أحشاءها. تدور في دوامة الإعصار الضاغط بفكيه، وأدركت أن كل شيء قد انتهى، ومها ما زالت ممدة أمامها.

Twitter: @ketab_n

دخلتْ الحمام وأوصدت بابه، وشعرت أنها تتجه نحو نهاية الهاوية، مرت لحظات من الرعب، ارتعشت أوصالها في الفراغ المظلم ومرت لحظة طويلة في ذلك السكون، حينما توقف قلبها عن النبض، وانتهت حياتها.

زينب أبنة حياة 1987.

صدحت أغنية تفاؤل تحت ركام الحزن الذي خيم على الدار. فقد نجت ابنتها زينب من الموت!! لكن الطريق كان طويل وشائك بالنسبة لها، وهي الوحيدة في هذا العالم، عليها أن تجتث المأساة التي خلفت موت والدتها وشقيقتها من أعماقها. عليها أن تعيش بلا أوهام، وأن تنسج أحلاماً جديدة مليئة بالتفاؤل. قررت زينب آلا تخضع لنفس المصير الذي خضعت له والدتها. بالرغم من أنه لم يكن هنالك أحد ليأخذ بيدها ويقودها إلى شاطئ النجاة، بعيداً عن هوة الموت، إلى واحة التفاؤل والحياة، حتى وصلت شقيقتي مريم بعد أيام قليلة من لندن.

×××

Twitter: @ketab_n

وصلت شقيقتي مريم بغداد بعد أن دُفنت جثتي حياة ومها في المقبرة التي دفن بها أخي جهاد منذ خمس سنوات في بغداد. إذ أن موضوع الدفن كان مبحوث فيما بينهن، قبل الإقدام على الانتحار، و لم يكن الدفن في النجف موضوع بحث.

طلب مني رفعة أن اكتب نعي عن الفقيدة حياة. وافقت من دون أن أفكر بما سوف اكتبه، وأنا أمر في هذه الحالة العصيبة، دق جرس التلفون، الأصدقاء يعزونني ويواسونني بهذا المصاب الفريد من نوعه!! فالناس لا يقدمون على الانتحار بالرغم من كل ما يمرون به من مصاعب ونكبات. والانتحار غريب علينا وعلى ثقافتنا وتقاليدنا، وما هز الناس والأصدقاء أن مثل هذا الحادث يحدث في طبقتنا، الطبقة المتعلمة، طبقة المثقفين والمفكرين.

جلستُ معهم أصغي إلى مؤاساتهم لي، خرجت المجموعة الأولى من الأصدقاء، فاتجهت نحو الكمبيوتر، وبدأت الكتابة من دون توقف. أحسست بإعصار من الأفكار الغاضبة التي هيمنت عليّ، بفقدان أخت في أوج نتاجها الفكري وابنة أخت في ريعان صباها. وبعثت النص إلى جريدة الحياة.

شعرت بتعب متواصل، وصداع لم أعهده من قبل. حاولتُ النوم ولكن أحاطتني الكوابيس بثقلها جاثمة على صدري. بدأ الأصدقاء والمعارف في اليوم التالي يتوافدون من الساعة الخامسة مساء. وبدأت الشائعات تنتشر وتنتقل بين الشفاه!

كما توالت الأسئلة، تتكرر، والأجوبة تعاد. صدمتهم الصراحة التي فوجئوا بها في الإجابة عن أسئلتهم الكثيرة المتشابهة في مضمونها ومحتواها، فالمتعارف في مثل هذه الحالة، أن أتجنب كلمة انتحار، وأقول إنها حادثة تسمم من طعام أو ما أشبه ذلك. أو حادث اصطدام

Twitter: @ketab_n

سيارة. كانت ظاهرة غريبة على مجتمع مغلق لا ينطق بالحقيقة، إذ ان الانتحار غير وارد في مجتمعنا. خالفتُ العرف في الصراحة التي لا تواجهها شعوبنا في الشرق الأوسط في مثل هذه الحالات، كما خالفتُ العرف في أسلوب الكتابة عند فقدان عزيز من العائلة.

×××

سافرنا - رفعة وأنا—إلى بيروت، ووجدت رسالة شقيقتي حياة الأخيرة، بانتظاري بعد ثلاثة أشهر من موتها! أمعنتُ النظر فيها، قلبتها بين يدي، قرأتها مرات عديدة، وانقلبت غمغمة الريح إلى صفير، ثم عويل. رسالة من وراء القبر!

يقول الكاتب كلود ستيبان عن الموت:

كل الأجساد المنسية

تريد أن تعرف هل يوجد شيء

تحت الأرض يجمعها، جزء

من مادة أم ليس هنالك سوى العتمة

جامدة مثل

الحجر

ربما الأمل

ليس سوى حزّة في الجسد

شرارة بلا مستقبل

في الذاكرة.

×××

Twitter: @ketab_n

التقينا بالأصدقاء في لبنان، وعادت الأسئلة تتقمص الجو الذي كنتُ أعيشه، أسئلة الأصدقاء، أعيد الجواب، كشريط مسجل، «لا ندري بالضبط ما حدث»! وتحوم نظرات الاستغراب والشك! وتطفو التساؤلات في العيون، تدينني، وكأني أخفي سراً عنهم! لا يودون سماع الحقيقة التي أقولها لهم! وإن كانت زينب موجودة بيننا، فتتجه الأسئلة صوبها، فتجيب عن بعضها وتصمت منفعلة عن البعض الآخر. زينب تريد أن تنسى المأساة التي حلت بها، ولكن يتلذذ الناس بتذكيرها المأساة التي مرت بها وما زالت تعيشها في كل مناسبة!

مررنا بعمان قبل عودتنا إلى لندن، والتقيت بالكاتب عطا عبد الوهاب، سلمته مخطوطة رواية «إذا الأيام أغسقت»، قرأها وأعجب بها، وقال لي إنه مستعد لأن يفاتح «دار المؤسسة العربية للدراسات والنشر» وبعد أن وافقت المؤسسة على طبعها، طلب مني أن أكتب مقدمة ببضع صفحات عن حياة. بدأت بالكتابة وإذا بالأفكار تتداعى وتسحب بعضها البعض كخرز السبحة. وهكذا خرجت المقدمة للوجود بأكثر من ثمانين صفحة. شعرتُ براحة نفسية بعد أن انتهيتُ من كتابتها، واختفت الكوابيس التي كانت تزورني ليلاً، وتقض مضجعي.

صدر الكتاب بعد عام، وحازت المقدمة على الإعجاب ولكن تناقضت الآراء حول الرواية، فقد وجدها البعض قاتمة كئيبة، ووجدها البعض الآخر قصة واقعية عن حياة المؤلفة، والبعض القليل وجدها نوعاً من الأدب الذي لم يطرقه العالم العربي، فهو أدب شبيه بالأدب الروسي خلال عصر ستالين. واعتبرت الرواية بعد عام ٢٠٠٣، من قبل بعض الكتّاب، من بين أحسن عشرة روايات، كتبت خلال السنوات العشر الأخيرة في الأدب في العراق. وكتب عنها كثيراً في الصحف، لارتباطها بالحادثة الأليمة التي أنهت مسيرة كاتبة الرواية.

Twitter: @ketab_n

كان انطلاقي في الكتابة متأخر جداً، ولكني بدأت أهرول لكي ألحق بالركب! شجعتني ردود الفعل عن المقدمة التي كتبتها لرواية «إذا الأيام أغسقت»، بكتابة كتاب ثانٍ عن سجن رفعة، ومعاناتي. عرضت الفكرة على رفعة قبل أن أكتب النص، واقترحتُ أن اكتب الفصول التي تتعلق بي خارج أسوار الزنزانة والسجن، ويكتب هو عن معناته داخل الزنزانة والسجن. واتفقنا على أن يكتب كل منا بمعزل تام عن الآخر، كي لا يؤثر الواحد منا في الآخر. وأقترح رفعة عنوان الكتاب «جدار بين ظلمتين» أعجبني العنوان.

و هكذا بدأتُ في الكتابة عن مأساة عشتها، وامتحان قاس إجتزته. أما رفعة فبدأ في الكتابة عندما كنا في فيلا حالات، بعد أن أكملتُ الكتابة، وعزلَ نفسه شهراً كاملاً، عاش المأساة ثانية، وهيمنت عليه بشكل استطاع بها أن ينقل الجو بكل أمانة وصدق. لم يتحدث معي عما كان يكتبه، ولكن شعرتُ بهالة من الحزن تحوم حوله.

سلمني النص الذي كتبه، بعد شهر كامل، لكي أطلع عليه، وصعقت بما قرأت، بل تسمّرتُ في مكاني، جالسة على الكرسي، وعينايّ تتابعان الكلمات والجمل، تفترسانها بسرعة، حتى انتهيت من الفصل الأول. رسخت أحداث اليوم الأول في ذهني كالوشم، وظلت أصوات حراس الاستخبارات تطن في أذني في الليل، فأقضت مضجعي وأبعدتني عن النوم، مددت يدي إلى قدح ماء وبلعت حبة مهدئ!

لم يحدثني رفعة عما مرّ به من العنف النفسي في زنزانة المخابرات طيلة عقدين، و لم أسأله بدوري عن معاناته. كان يقص أحياناً في جلساتنا مع الأصدقاء بعض القصص المضحكة، ولكنه لم يذكر أمامي ما حدث له في المخابرات. إنها المرة الأولى التي أطلع فيها على الواقع القاسي الذي مرّ به من خلال ما كتبه. أصبحت الكلمات المكتوبة على الورق هي

Twitter: @ketab_n

الواسطة بيني وبينه، وليس الكلام المباشر عن العامين اللذين قضاهما بعيداً عن بيته وعائلته وأصدقائه.

×××

اللقاء بالشاعرة لميعة عباس عمارة

بعد أكثر من ثلاثة عقود التقي ثانية بلميعة، بعد أن انتهت علاقتها بالشاعر بدر شاكر السياب، وتزوجت رجلاً من طائفتها. كان ذلك اللقاء في عام ١٩٧٩ في دار شقيقتي حياة، بعد وفاة والدي. كانت لميعة ما تزال تنعم بنضارة الشباب التي خلعتها الطبيعة عليها رغم مرور هذه المدة من الزمن. وكانت متألمة على وفاة والدي المفاجئ.

دارت عجلة الزمان دورانها السريع عندما التقينا ثانية في بوسطن عام ١٩٩٥، حيث أقيمت لها ندوة شعرية، القت بعض قصائدها الجديدة. وفي العام نفسه زارتنا في دارنا في لندن، بصحبة سعدي الحديثي. كان لقاء ممزوجاً بالحديث عن الماضي وعما انتجته من القصائد الجديدة.

الشاعرة لميعة وبلقيس 1995.

Twitter: @ketab_n

لكن عشية استلامها رواية «إذا الأيام أغسقت» الصادر عام ٢٠٠٠، لشقيقتي حياة، اتصلت بي تلفونياً، وقالت: لقد قرأت المقدمة بإمعان، إنها قطعة أدبية وفنية رائعة، لقد نقلتني، يا بلقيس – إلى تلك الأيام الخوالي، عندما كنت التقي ببدر في داركم، «أتتذكرين كيف كان أخوك الصغير، تقصد (إبراهيم)، يقف خلف الباب يتنصت إلى أحاديثنا؟». قلت: كان إبراهيم شيطاناً.

ثم أخبرتني أنها بعد أن قرأت المقدمة، تركت الكتاب لمدة ما، لكي لا تؤثر على الرواية، وتألمت كثيراً عندما قرأتها. واضافت: لقد تذكرت والدك يا بلقيس، وبكيت عندما قرأت أن قبره أصبح من الدوارس. كما أهنئك على طريقة الكتابة الموضوعية المتسامحة، الخالية من الانتقام، بالرغم مما حل بالعائلة من ظلم وجور وتعد، لقد هزني التسامح الذي اتسمتِ به في كتابتك عن العائلة وعن حياة. أجبتها: حاولتُ النظر إلى الأمور بصورة موضوعية قدر الإمكان، وبمنظار المتفرج البعيد عن الأحداث التي هزتْ العراق والعراقيين، خاصة فيما يتعلق بعائلتنا.

ثم أضافت أنها ستكون في بيروت في شهر تشرين الثاني. وهي المدة التي نكون بها عادة في لبنان أيضاً. وطلبتُ منها أن تزورنا في دارنا في حالات، إذ قلت لها: إنها دار جميلة لدرجة تستحق أن تنظمي بها قصيدة. فالطبيعة جميلة وطراز العمارة جميل، لذلك أرى انها تستحق إحدى قصائدك يا لميعة.

عندما زارتنا لميعة في ذلك العام في تشرين الثاني، بدارنا في حالات، كانت متعبة مرهقة من الربو الذي كانت تعاني منه. تألمتُ كثيراً لحالتها الصحية. وأقيمت عدةَ ندوات على شرفها، شاركتْ في جميعها رغم سوء صحتها.

Twitter: @ketab_n

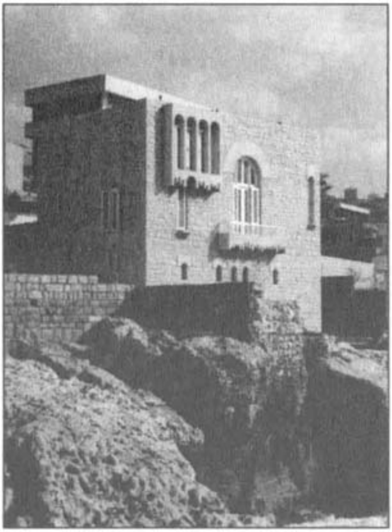

دار حالات.

كانت جالسة أمام منصة في كلية الآداب في حفل شعري، بدأت بإلقاء الشعر بصوت مبحوح متعب، تتنفس بثقل، تتوقف تارة لتستعيد أنفاسها، يقاطعها السعال الذي أنهك رئتيها. حزنتُ عندما نظرتُ إلى وجهها الذي عاث الزمن به، وخبا بريق عينيها الرائعتين اللتين هيمنتا على الحاضرين في تلك الجلسات الشعرية التي عقدت في دارنا منذ أكثر من نصف قرن تقريباً.

×××

الخسارة المالية

لم تتوقف خسارة الأصدقاء بالموت والفقدان، بعد النكبة التي حلت بنا بانتحار شقيقتي حياة وابنتها مها في عام ١٩٩٧، فواجهتنا كارثة تختلف تماماً عما مرّ بنا في السابق. ففي الشهر الخامس من عام ١٩٩٩ خسرنا معظم ما نملكه، وهو حصيلة عمل أربعين عام.

Twitter: @ketab_n

انحدرت أنا من عائلة أبعد ما تكون عن التفكير الاقتصادي، فوالدي لم يحصل في حياته إلا على الراتب الشهري من الوظيفة، أما خلفية رفعة فتختلف تماماً عن خلفيتي، فقد تربى في أحضان عائلة ميسورة، تملك آلاف الفدانات من الأراضي التي ورثها الأبن كامل الجادرجي من والده، لم يعر الجادرجي أهمية لتلك الثروة، ولم يطورها، وإنما اعتمد على الوكلاء الذين أصبحوا بدورهم أغنياء من الأراضي التي كان يملكها. وأصبحت معظمها نتيجة ذلك وهي أراضي زراعية وبساتين مهملة.

عندما عاد رفعة من لندن إلى بغداد، في نهاية عام ١٩٥٢، وجد والده مديناً للبنك الصناعي والبنك الزراعي ومديرية أموال القاصرين. فشرع يعمل لدفع الديون التي تراكمت أثناء غيابه. إذ كان والده من عمداء المعارضة للسياسة التي كانت تنتهجها الحكومة، وبالإضافة إلى إهماله أملاكه، فقد استملكت حكومة نوري السعيد آلاف الفدانات بأسعار زهيدة جداً من أراضيه في مدينة الحلة، فرفض أبو رفعة استلام البدل.

أما رفعة وأنا، فلم نفكر بالطرق الاقتصادية الصحيحة التي يفكر بها معظم الملاكين أو أصحاب المال من الناس، فكلما كنا نحصل على بعض المال، نسافر لمشاهدة بعض الأقطار في العالم. وكانت والدة رفعة تقول لنا دائماً، عند عودتنا من أحدى سفراتنا، أنه باستطاعتنا أن نبني داراً أو دارين بالمبالغ التي نصرفها على السفر.

وعندما تركنا بغداد، وسافرنا إلى الولايات المتحدة ومن ثم استقر بنا المقام في لندن، بعد أن تخلصنا من شقتنا في كيمبرج وشقق كنا نملكها في لندن، انتهجنا اسهل الطرق، فأودعنا المال في البنك،

Twitter: @ketab_n

وكانت نسبة الفائدة عالية في البنوك آنذاك، والإيراد جيد. لكن أثبت لنا الزمن كم كنا مخطئين باعتماد هذا النهج والإسلوب.

كان رفعة يثق بكلام الناس، لكن طيبته هذه أدت به، إلى أن يُستغل مالياً مرات عديدة في حياته، ولكن الاستغلال هذه المرة يفوق جميع المرات التي تعرض فيها للابتزاز. فقد جرى ابتزازه من قبل عصابة عالمية مقرها بين سويسرا واسبانيا.

لم أكن مرتاحة من الشخص الوسيط الذي كان يتردد على دارنا آنذاك، وطلبتُ من رفعة أن يكون حذراً منه، لكنه تجاهل النصيحة ووقعنا في الشِباك التي نصبت لنا. وبين عشية وضحاها وجدنا أن علينا أن نعيد النظر في أسلوب حياتنا. وعلينا أن نخطط ونتخلى عن الكثير من الاشياء التي كانت جزءاً طبيعياً من حياتنا.

كانت البداية صعبة جداً، حاولنا آلا نفكر في الموضوع بل ننسى ما حدث، فكنا نخرج يومياً لمشاهدة مسرحية أو حضور حفلة موسيقية أو العشاء في مطعم، ولكن بعد مدة، عدنا إلى حياتنا الاعتيادية، وواجهنا الواقع بكل صعوباته ومشاكله، فبدأنا نتأقلم في البيئة الجديدة، إذ ليس مثل الإنسان باستطاعته أن يتأقلم ويتعايش مع الواقع الذي يجد نفسه فيه.

كان أول ضحايا المقلب الذي تعرضنا له، العزف عن السفر، غير أننا لم نضحَ بالنشاطات الثقافية، فواصلنا حضور المسرح والحفلات الموسيقية الكلاسيكية والبالية، لكننا خفضنا ميزانية شراء الكتب.

و من جملة القضايا التي أثرت كثيراً علينا، عدم قدرة رفعة تمويل مؤسسة الجادرجي في لندن أو في بيروت اللتين أسسهما عام ١٩٩٩ إذ كان هدف المؤسسة: «دعم وترويج مبادئ العمارة الذكية في الشرق الأوسط، وهي تلك التي تعني بالعلاقات الاجتماعية

Twitter: @ketab_n

السليمة وتشجيع إقامة الصلات بين المعماري الفرد والمجتمع من خلال تشجيع وممارسة الأنشطة بأسلوب يتوافق مع أعمال وأبحاث المحترفين وغير المحترفين والطلبة على اختلاف مستوياتهم».

فاضطر إلى إلغاء مؤسسة لندن، وظلت مؤسسة الجادرجي في بيروت ضعيفة أيضاً، لقلة الموارد المالية. كما أسس في العام نفسه، جائزة الجادرجي لأحسن طالب في العمارة في الجامعات اللبنانية، استمرت الجائزة، كما استمرت حفلة توزيع جائزة الجادرجي كل عام.

×××

تسارعت الأيام في جريانها كسرب طيور مهاجرة، حطت في نهاية المطاف في أرض قاحلة، خالية من لون الحياة. ماتت والدتي التي أكتنز قلبها بالحب، وشعر جميع أفراد العائلة بفقدانها وشح الحنان الذي كانت تطوقنا به. ولكن عندما مات والدي تركنا في هوة واسعة مظلمة خالية من النور الساطع الذي كان ينير درب الحياة الطويل أمامنا. بعد عقد على وفاة والدي، فقدنا أصغرنا، بموت أخي جهاد، و لم يتجاوز الخمسين من عمره، وترك طفلين فقدا حنان الأب وتوجيهه لهما. وتوالت المآسي، وانتحرت أختي حياة وهي في ذروة نشاطها الإبداعي وأبنتها مها وهي بعمر زهرة لم تتفتح بعد و لم تر من الحياة شيئا.

جفت مياه النضارة، وبان التغضن في أسفل وجهي، خطوط خفيفة تختفي أحيانا وتظهر ثانية على وجه متعب، وانقلبت الخطوط الرفيعة تدريجياً إلى أخاديد عميقة بتسارع الأيام وجريانها. أصبح الجلد الناعم البض الطري تحت ملمس يدي، يابساً، جافاً.

أرى بصمة الزمن كلما نظرت إلى وجهي في المرآة وأشعر بثقل

Twitter: @ketab_n

خطواته الوئيدة، أتحسس النهاية التي تنتظرني من خلال وجهي المتعب، عينيَّ الغائرتين الباهتتين الذاويتين من البريق الذي كان يشع كسهام حادة تخترق المدى البعيد، لتقرأ من خلال بريقهما ما يخفيه المستقبل لهما.

×××

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع

الحرب الأمريكية على العراق ٢٠٠٣

عاد اسم العراق ورئيسه ثانية للظهور بين الفينة والفينة على شاشات التلفزيون، بعد محاولة الحادي عشر من أيلول، واختراق طائرتين مبنى التجارة في نيويورك. ففاضت الصحافة العربية والأجنبية والإذاعات ومحطات التلفزيون يعرض أخبار العراق وحاكمه ثانية، كما كانت قبل أكثر من عقد تقريباً.

كان الانقسام واضحاً في العالم، فمن جهة، المعارضة العالمية ضد الحرب من منطلق مفهوم السلام الذي كان سائداً في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، ومن جهة أخرى، الموقف من الولايات المتحدة بجبروتها، وكذلك خشية الأنظمة في البلدان العربية من التغيير خوفها من تياره الجارف الذي سيقترب منها فيقلب الموازين. إضافة إلى الشعوب العربية التي يؤيد بعضها نظام صدام حسين، لجهلها وعدم درايتها وإدراكها بما يقوم من انتهاكات. وجهل هذه الأوساط العربية وعدم معرفتها أو استعدادها للانجرار وراء الخديعة، جعلتها تنظر إليه «كحاكم وحيد» وقف في وجه الولايات المتحدة وإسرائيل، وهذا الوهم للأسف ظل يسود الأوساط المخدوعة من الشعوب العربية.

لأول مرة في حياتي، أجدني إلى جانب المؤيدين لشن الحرب على «النظام العراقي». أنا التي كافحت ضد فكرة الحرب كحل للمشاكل في هذا العالم الذي يغلي بالتناقضات، أجدني مغتبطة بشن الحرب على

Twitter: @ketab_n

النظام. أنا التي آمنت بالسلم لحل مشاكل العالم عن طريق السلم كيف انقلبتُ إلى تأييد الحرب! أنا التي رضعت قيم ومفاهيم وأفكار السلم في دار والدي! كيف تغير الوضع، وجعل منا صدام ننحاز للحرب على بلادنا!

سقط تمثال الطاغية، فخرج الناس من بيوتهم يصرخون كالديكة المهووسة، يتنافسون في رفع أصواتهم فوق بعضهم البعض، يضربونه بالنعل ويسحلونه، ثم يضربونه بأحذيتهم، يتناوبون في الجلوس فوق رأسه وهم يسحلونه في شوارع بغداد، أعيننا مسمرة أمام شاشة التلفاز، وكأن تلك اللحظات تمثل بقية الحياة بطولها. نشهد نهاية عهد وبداية عهد جديد!

لكن لم يمر سوى يوم على فرحتنا التي انتظرناها لعقود طويلة، في التخلص من النظام الجائر الذي كان الشعب يئن برمته تحت وطأة حكم الحديد والنار، وقاسى الذل والظلم والاعتداء على أبسط حقوقه، حتى أطل علينا التاريخ بظله القاسي، يذكرنا بأيام هولاكو في عام ١٢٥٨، يذكرنا بالمجزرة التي عانت منها بغداد، في حرق وتدمير تراثه. ومن سخرية القدر أن تلك الأيام التي كنا ندرسها في كتب التاريخ تطل علينا ثانية تحت أنظار الجيش الأمريكي.

حرق وتدمير الآثار والكتب، فلم ينج المتحف العراقي الذي كان بين أول الضحايا في العهد الجديد! تعاد علينا لقطات نهب المتحف وتدمير مقتنياته أمام أنظارنا في التلفاز. وانقلب الفرح إلى استغراب وصمت في البداية. إذ لم يتوقف النهب والتدمير عند التحف الأثرية بل طالت قصور صدام، تحت أعين الجيش المنتصر، الذي غض النظر وتجاهل ما يحدث. وأطلق على تلك العملية بين المزح والضحك "علي بابا"!

Twitter: @ketab_n

كنت أتوقع أن النهب والتدمير سينتهي بنهب القصور، لأنها كانت رمزاً للنظام الغاشم الذي حكم البلاد، ولكن عندما استمر الحرق والتدمير لأيام فطال المكتبات المهمة في العراق، وشمل المكتبة الوطنية وجامعة بغداد والأوقاف، والمحاكم والوزارات وبعض الأبنية الحكومية، فأصبح كما لو كان تدميراً منظماً وليس عفوياً واندفاعاً من قبل البسطاء، الذين كانوا وراء الغنيمة والكسب، شعرتُ بألم وحزن دفين، فقد فقدنا تاريخ العراق ثانية من خلال تمزيق وحرق معظم الوثائق والكتب الأثرية. و لم تسلم حتى عمارة البرق والبريد والاتصالات، التي صممها رفعة في السبعينيات، فقد قصفها الجيش الأمريكي للمرة الثانية لإيقاف البث التلفزيوني.

خرج العراق من نظام الصمت والرعب، نظام صدام حسين، بلداً مثخناً بالجراح، لم يبدأ بالتنفس واسترجاع عافيته، حتى بدأت حفلات التحريض ومدح الإرهاب والإشادة به على أنه المقاومة الحقيقية، والتشجيع على إشاعة روح الكراهية والتفرقة بين أهله.

أضحى الحاكم الأمريكي هو الذي يسير أمور البلد، فقد بعث البيت الأبيض إلى العراق كارنر Garner، وهو ضابط متقاعد في الجيش الأمريكي، كان سابقاً يمثل الإدارة الأمريكية في كردستان في تسعينيات القرن الماضي. كانت إجراءاته مناسبة وأقرب إلى الواقع، لأنه كان يعرف العراق.

ثم تفاءلنا باستلام مقاليد الحكم من قبل المدني، بول بريمر. وبدأ في تكوين مجلس حكم لإدارة العراق، فشكل مجلس الحكم من خمس وعشرين شخصاً. ولكن الخطأ الكبير الذي اقترفه بريمر– لا أدري إن كان عن جهل أو قصد، في اعتماد المحاصصة الطائفية. وهذا ما قاده لتكريس المحاصصة، وليس معايير الكفاءة في اختيار أعضاء المجلس

Twitter: @ketab_n

لإدارة دفة الأمور. وصار لكل طائفة وعرق «كوتة– حصة». وزاد الأمر سوءاً، قراراته بحل الجيش العراقي والقوات المسلحة، بما في ذلك الشرطة، دون أن يتخذ تدابير بديلة فعالة لسد الفرغ الخطير في أنحاء البلاد.

حاول نصير، شقيق رفعة، مع بعض أعضاء مجلس الحكم إسداء النصائح له، لكنه لم يكن يصغي إلى نصيحة أحد. وبدا كما لو أنه معني بمكافحة الإرهاب، وهو السبب في اختياره من قبل البيت الأبيض، رغم جهله بطبيعة العراق وتقاليده وطقوسه وعادات العراقيين، ولا معرفة له بتضاريس البلاد السياسية وتركيبتها الاجتماعية.

حاولنا رفعة وأنا، أن نزور العراق بعد مرور شهرين على سقوط النظام السابق، ولكن نصحنا نصير، بالتريث والانتظار حتى تتحسن الأمور، ويسود الأمن في البلاد. لكن الأمور أخذت تسوء من سيء إلى أسوء، وبدأت الاغتيالات، وخطف الناس على الهوية الطائفية! وكلما أزداد العنف توسعت عمليات الجيش الأمريكي في دهم البيوت ليلاً وكسر أبوابها، وإخراج أطفالها ونسائها، قبل إلقاء القبض على المشتبه بهم. ولهذا كله غضضنا النظر عن زيارة العراق، واصلاح دارنا، بعد أن تركناها أكثر من عقدين ونصف من الزمن.

مرت الأيام وكل يوم يمر، يضاف أسم أو أكثر إلى من يُلقى القبض عليهم من قائمة «الكوتشينة» المؤلفة من خمسة وخمسين أسماً من قادة حزب البعث ونظامه الحاكم، حتى تم إلقاء القبض على صدام في تشرين الأول من عام ٢٠٠٣، في الحفرة الشهيرة، وبالقرب من مسقط رأسه في مدينة تكريت.

استطاع رجال الدين أن يملأوا الفراغ وأحكمت المؤسسات الدينية بسط هيمنها. فسّيرت التظاهرات في الشوارع، وخرجت

Twitter: @ketab_n

حشود الناس بقيادتهم، رافعين صور السيستاني والصدر والحكيم، الشوارع تهدر بالهتافات، وتنادي «صدام حكمك إعدام». شعب لا يستطيع أن يخرج من بوتقة القتل والإعدام. كل ما يتمناه هؤلاء هو رأس صدام! يعكس التخريب الذي تعرضت له ألبنى التحتية للمجتمع العراقي خلال العقود التي تسلط فيها نظام على مقاليد الحكم، وتجريد العراقيين إرادة الفعل والوعي.

×××

بدأ أصدقاؤنا في تلك المدة، يتساقطون بسرعة تساقط أوراق الخريف، ففي بداية عام ٢٠٠٤ توفي الدكتور عبد الرحمن منيف. ودع عبد الرحمن منيف الحياة يوم الخميس ٢٢-١-٢٠٠٤، كانت مفاجئة لنا، وخسرنا بوداعه مفكراً وروائياً من الطراز الأول، أغنى ورفد الأدب العربي لأربعة عقود بغزارة إنتاجه. شعرت بفراغ كبير وحزن عميق. فأنا أحزن كلما نفقد مفكراً مهماً، إذ نحن بأمس الحاجة لأمثال كتاب ومفكرين بمستوى عبد الرحمن منيف، خاصة عندما نلتفت حولنا في العالم العربي ولا نرى إلا غمامة الطائفية السوداء والإسلاميين الأصوليين تلفنا وتحاول أن تسيطر على أجوائنا!

تملكني إحساس غريب، فأنا أفكر بالحياة دائماً، ولا أفكر بالموت، وكأن الموت بعيد عني ليس بإمكانه أن يقبض بفكيه عليّ، كما قبض بفكيه على عدد من أصدقائنا المقربين. كان هذا العام عاماً مليئاً بالأحزان العامة والخاصة. نلتقي بمن تبقى لنا من الأصدقاء في المآتم التي أقيمت للذين فقدناهم هذا العام. فقد تناقص عدد أصدقائنا بسرعة، وأصبحت أحس بالغربة!

Twitter: @ketab_n

توفيت دلال المفتي[١٣٩] زوجة الشاعر بلند الحيدري، بعد مرض أصابها في الرئتين، فنخر السرطان جسدها ببطء، كنا نراها تذوب أمام أعيننا. و لم يمض إلا شهرين حتى فوجئنا بوفاة الفنانة نها الراضي[١٤٠] التي أصيبت بسرطان الدم الخبيث و لم يمهلها حتى عاماً واحداً.

الفنانة نها الراضي ورفعة.

١٣٩- دلال المفتي: ١٩٣١-٢٠٠٤، تخرجت من الجامعة الأمريكية في بيروت في الأدب الإنكليزي، تزوجت الشاعر بلند الحيدري ١٩٥٣، انظمت إلى رابطة المرأة ١٩٥٨، وكانت ناشطة في نقابة المعلمين. فاعتقلت في عام ١٩٦٣ من قبل الحرس القومي وتعرضت مع زوجها للإهانة. وبعد إطلاق سراحها غادرت العراق للعيش في لبنان. عاشت في لندن منذ عام ١٩٧٨، انتخبت نائبة لرئيس اتحاد الديموقراطيين العراقيين ورئيسة لجمعية الفنانين العراقيين في بريطانيا. وأسست مع يوسف التامر غاليري «آرك» عام ١٩٩٧. مارست عمل السيراميك ولها أعمال كثيرة، لكنها لم تقم معرضاً خاصاً بها إلا في عام ١٩٨٩.

١٤٠- نها الراضي: ١٩٤١-٢٠٠٤، فنانة وخزافة، درست السيراميك في مدرسة شيلسي للفخاريات ١٩٥٨، وأكملت دراستها في الجامعة الأمريكية في بيروت ١٩٦١-١٩٦٣. عرضت أعمالها في لندن وبرلين وفي المعارض التي كانت تقام في بغداد. ألفت كتابها باللغة الإنكليزية بعنوان «يوميات بغداد» ونشرتها في البداية كمقالات في جريدة الكارديان أثناء الحرب ١٩٩١.

Twitter: @ketab_n

بين معمعة القتل والموت وفقدان الأصدقاء والأحباء، حاولنا أن نخلق عالمنا الخاص، عالمنا المتواضع الخالي من الضجيج، عالم متناسق بعيد عن فوضى الخارج. رفعة في سباق دائم مع الزمن، يحاول أن ينجز ما بدأ به من الكتب التي أخذت تزداد ولكن كل واحد منها بانتظار إكماله.

شاركنا في الإنتخابات لأول مرة منذ أن أجبرنا صدام حسين على الانتخاب عام ١٩٨٠. هللت لها الصحافة والفضائيات في العالم، وشوهد صف الناخبين والناخبات في جميع أنحاء العالم، فلم تجري دعاية انتخابية في بلد من العالم الثالث كما نظمت لها حملات إعلامية وانتخابية في العراق آنذاك.

و تشكلت الحكومة بعد ثلاثة أشهر من إجراء الانتخابات على أساس نتائجها، وبدأ التصدع في بنية المحاصصة الطائفية والعرقية. وأصبح قتل الأبرياء بالأحزمة الناسفة والسيارات المفخخة، تجارة مربحة. كما أصبح القتل طقساً من طقوس العيش.

كان القتل في عهد صدام الذي دام لثلاثة عقود ونصف، يتم داخل السجن، فانتقل القتل إلى خارج السجن، بل أصبح العراق سجناً كبيراً تجري فيه على المكشوف عمليات القتل والذبح على الهويات الفرعية الطائفية الإثنية،، وارتدى بعض القتلة جلباب الإسلام ليعيثوا في العراق قتلاً وتدميراً ونهباً وسلباً. في الوقت الذي أخذ العالم المتقدم يتجاوز هوياته الفرعية، ويميل نحو التوحد والعيش المشترك، عدنا نحن إلى طائفية القرون الوسطى المتخلفة.

و ظهرت على شاشات الفضائيات العربية ظاهرة «الملثمين»، بتنوع لافتاتها ومراجعها، ملثمون مسخت إنسانيهم وأجريت لهم عملية غسيل الدماغ، وتجردت عقولهم من إي نزعة عقلانية،

Twitter: @ketab_n

فحلت شهوة القتل وتفجير السيارات المفخخة، تحت تخدير غسيل دماغ مُخدر، والوهم بأن ذلك هو الطريق إلى الجنة الموعودة. فحدود العراق مفتوحة على مصاريعها، أمام تسلل الإرهابيين والتكفيريين، والمفخخات وأدوات الإبادة والتصفية الجسدية. تنافست الفضائيات على حمل رسائل الإرهاب والتدمير، بإظهار أبشع الصور المريعة الفجائعية في بيوتنا.

هذه كانت وتيرة الأيام التي مرت على العراق، حيث يتلبس الرعب حتى الطيور، ويمنعها من الطيران في سمائه المسمومة بالقتل والانفجار والاغتيال. أصبحتُ أتساءل كل يوم يمر علينا، هل فقد العراق عقله ووعيه؟ وهل تجرد من إنسانيته وضل الطريق، بعد أن غرق في بحر من الظلام، بحر القتل والدماء والفوضى والارتباك؟ وهل باستطاعته الخروج من وحل الطائفية التي يسبح فيها الآن؟

×××

فكرة الكتابة عن والدي

في هذا الوضع المتدهور الذي كان يعيشه أهل العراق، قررت ذات يوم أن أكتب عن والدي، فالتفتُ إلى رفعة وقلت له، أود أن أؤلف كتاباً عما انجزه والدي وما قدمه للعراق، لكن عليّ أن اسافر إلى بغداد. كان هذا في منتصف شهر تشرين الأول، قال رفعة: لِمَ لا تسافرين؟ رغم الفوضى التي كان يمر بها العراق. قلت: إذا سأقطع تذكرة عندما نصل بيروت.

وصلت بغداد في منتصف شهر تشرين الثاني ٢٠٠٧، بعد غياب ربع قرن تقريباً. كانت شقيقتي حياة قد جمعت مقالات والدي من الصحف التي نشرَ فيها معظم مقالاته وقصائده. بدأ والدي النشر في الصحف في نهاية عقد العشرينيات واستمر حتى وفاته نهاية عقد

Twitter: @ketab_n

السبعينيات، أي مدة نصف قرن من الكتابة والإنتاج. كانت شقيقتي حياة مواظبة في جمع مقالاته وقصائده المتفرقة في المكتبة الوطنية، حيث دامت عملية الجمع عامين متواصلين. لكن حياة لم تشرع بالكتابة، فقد انهت حياتها قبل أن تكتب سطراً واحداً عن العمل الذي قضت وقتاً طويلاً في الاعداد له، فقررت أن أتابع ما بدأته وأنجز المهمة.

قضيت اسبوعين في بغداد، كنت أسهر للساعة الواحدة بعد منتصف الليل، أكتب وانقل المقالات والقصائد التي احتاج إليها في الكومبيوتر[١٤١]. كان موتور الكهرباء يتوقف في الساعة الثانية عشرة أو قبلها أحياناً، فأضطر للكتابة على ضوء البطارية.

لم أخرج من الدار، والشيء الوحيد الذي شاهدته هو الطريق من مطار بغداد إلى الدار في شارع طه، الذي تكرر مرتين، وذلك لإلغاء موعد الطائرة[١٤٢]. وتقسيم الطرق إلى السريعة الخاصة بالامريكيين و«النخبة» من الطبقة الحاكمة الجديدة. وشاهدت في الوقت عينه ما وصل إليه العراق من التخلف في جميع المجالات.

كنت على علم بما مرّ به العراق من قحط وتقنين في جميع المواد الأساسية التي تشكل الحد الأدنى مما يحتاج إليه الفرد العادي للعيش، لكني لم أتوقع أن يبلغ التردي والانهيار في القيم الاجتماعية ما بلغه خلال سنين الحصار. وزاد في الانهيار، ما أدى إليه الاحتلال الأمريكي بين عشية وضحاها في تغيير مفاهيم وقيم المجتمع، وفرض مفاهيم جديدة

١٤١- صدر الكتاب بعد عامين بعنوان: محمد شرارة من الايمان إلى حرية الفكر، دار المدى ٢٠٠٩، بـ ٤٦٠ صفحة.

١٤٢- كتبت مقالاً مطولاً عن تجربتي، وعن المتاعب التي تعرضت لها خلال عودتي من بغداد إلى بيروت، بعنوان: «زيارتي لبغداد بعد ربع قرن»، ونشر في جريدة النهار في ٢٠٠٧/١٢/١٣.

Twitter: @ketab_n

لا تتماشى مع مفاهيم بلد تقليدي، متخلف. فضاعت الأخلاق وانتشر الفساد والنهب والرشوة، وأصبح المال هو الحاكم وسيد المجتمع.

×××

بعد أن انهيت كتاب والدي، عدت إلى الاهتمام بموضوع يتناول تاريخ الطعام من الناحية الاجتماعية والإنثروبولوجية. تبلور هذا الموضوع عندي عندما كنت أعيش في مدينة كيمبرج، وأطلعت على مراجع وكتب تعالج هذا الموضوع من كل جوانبه. فجمعت معظم المعلومات والمراجع المتعلقة والخاصة به. وأصبحت مواظبة على ارتياد مكتبة جامعة هارفرد لمدة ثلاث سنوات، ثم سافرنا إلى لندن، و لم استطع أن اكمل ما بدأت به بعدما اصبت بأوجاع الظهر، وتوارى الموضوع ليصبح منسياً إلى حين. لكني واصلت القراءة وتتبع الموضوعات المتعلقة بالسوسيولوجي والأنثروبولوجي وتاريخ الطعام.

نظرت ذات يوم إلى محتويات المكتبة في غرفتي، وحز في نفسي أني قمت بهذا الجهد و لم أباشر الكتابة لإنجاز الكتاب الذي كان من المفروض أن انتهي منه خلال عقد التسعينيات. فقررت أن أشرع بالكتابة بعد أن صدر كتاب والدي.

وبدأت بجد في القراءة عن الإنسان العاقل، وتطور دماغه، وكيف وسع التنظيم الإجتماعي في مجتمع الصيد. نبهتني كتابة هذا الفصل،الى ضرورة وضع خطة كاملة لفصول الكتاب، من حيث التطور التاريخي والإجتماعي، لكي يشمل تاريخ حضارات العا لم من خلال حرفة تهيئة الطعام وطقوسه.

كانت البداية مع حضارة وادي الرافدين، فاستغربت من التطور الذي حدث منذ آلاف السنين وكيف ارتبط الطعام بطقوس الأحياء والموتى في معظم الحضارت القديمة. وتجلى ذلك بوضوح في حضارة

Twitter: @ketab_n

وادي الرافدين، ووادي النيل في مصر، والهند والصين وبيرو في أمريكا الجنوبية.

ووجدت أن الطعام وطقوسه قد تطورت مع تطور الحضارات فقد كانت النظرة لحرفة الطعام وطبخه عند الفلاسفة الإغريق، سقراط وأفلاطون وأرسطو نظرة دونية، وأشهرها مقولة سقراط: «الرجال الدنيئون يعيشون لكي يأكلوا ويشربوا، أما الرجال الصالحون فيأكلون ويشربون لكي يعيشوا». وبذلك احال الطعام كما لو كانت غريزة بحتة بعيدة عن المتعة واللذة.

أثرت هذه النظرة الدونية على أوربا، واعتبر الطباخ مجرد مهني لا يمت للفن بصلة والطبخ ليس بمهنة مهمة. استمرت هذه النظرة تعاني منها الحضارة الأوربية حتى عصر النهضة Renaissance الذي بدأ في إيطاليا، ثم انتقل إلى فرنسا. وتغيرت النظرة تدريجياً في فرنسا وأصبح الطبخ أولاً حرفة محترمة، ثم فناً، منذ القرن التاسع عشر.

أما في إنكلترا فقد استمرت النظرة البيورتانية إلى الطعام، واعتبر الحديث عن الطعام خلل اجتماعي. واستمرت هذه النظرة حتى بعد الحرب العالمية الثانية. وأول من كسر الطوق في بداية الخمسينيات من القرن الماضي كاتبة الطعام إليزابث ديفيد التي كتبت عن الطعام في إيطاليا وفرنسا، فوسعت أفق الشعب البريطاني في مجال الطبخ كحرفة.

و نجد حتى الآن في إنكلترا بعض نقاد الفن، ممن لا يعتبر الطعام فناً أو الطباخ فنان، ويبدو هذا واضحاً في المقال الذي كتبه فلدامار يانوشيزك Waldemar Januszczak في جريدة الصنداي تايمز Sunday Times، حينما هاجم الطاهي الأسباني فيران أندرية Ferran Andri[١٤٣]، عندما

١٤٣- فيران أندرية Ferran Andria، مواليد ١٩٦٢، عمل في عام ١٩٨٠ عاملاً لغسل الصحون في مطبخ المطعم، ودربه أحد الطباخين على الطبخ، وفي عمر الثاني

Twitter: @ketab_n

أقيم له معرض بعنوان: «الطعام فن» في لندن عام ٢٠١٣، واعتبر عنوان المعرض ترويجاً لأمبراطورية «مطاعم ومدرسة فيران أندرية».

وسخر من نقاد الفن، الذين رحبوا بالمعرض واعتبروا الطعام فناً. وأبدى اسفه عن الإنحطاط للقيم الفنية، حيث نجح الطباخ اندرية في إغراء البعض من المفكرين وكتاب الفن، في أن ينظروا للطعام بصورة جدية ويعتبروا الطعام فناً. والأجهل أن الكاتب/الناقد الذي لم يدرك أن تطور تحضير الطعام، كان من بين الفعاليات الإبداعية، حيث بدأت تظهر الفنون عند الإنسان وهي القدرة على الإبتكار.

لهذا عندما ألفتُ كتاب «الطباخ - دوره في حضارة الإنسان» وطبع منذ عام، وجدتُ أن المكتبة العربية تفتقر لمثل هذا النوع من الكتب، كما إن النظرة إلى الطعام في العالم العربي ما زالت نظرة ذكورية متخلفة، بالرغم من مناهج التلفزيون المليئة بالطبخ والطباخين في العالم العربي. ولم ينتبه المسؤولون عن مناهج الطبخ في التلفزيون إلى بحث تاريخ الطعام والطبخ، والمراحل التي مرّ بها من الناحيتين الأنثروبولوجية والإجتماعية.

×××

جائزة الجادرجي التي تأسست ١٩٩٩

أصبح لجائزة الجادرجي لطلبة العمارة في لبنان أهمية وحضور، وهي اليوم في عامها الرابع عشر. فاتصلوا برفعة من بيروت، وبعثوا

والعشرين أصبح أحد طباخي المطعم، وبعد ١٨ شهراً، أصبح رئيس الطباخين El Bulli. ثم بعد مرور عقد اشترى المطعم. ويعتبر من أهم الطهاة في العالم. أهم ما يمتاز به فيران أندرية هو Molecular gastronomy حيث يعيد الطبخ إلى جزئياته الفيزيائية والكيميائية، مع المحافظة على جوهر الطبخة. وبالنسبة له الطعام يحتوي على ثلاثة عناصر رئيسة: العنصر الأجتماعي والتقني والفني.

Twitter: @ketab_n

له البوستر poster، الخاص بالجائزة، فالتفتْ نحوي قائلاً: بلقيس أرغب في أن أذهب بصورة مفاجئة لحضور تسليم الجائزة. رفضتُ في البداية طلبه، خوفاً ربما من الامراض «المعدية» التي يتعرض لها في الطائرة، بعد أن أصبحت مناعته ضعيفة جداً، إثر النوبة التي أصيب بها. ولكن اضطررت تحت ضغطه على الذهاب، والاتصال بطبيبه المختص فوافق على السفر. سافرنا بالطائرة واستعمل قناعاً غطى انفه وفمه. وصلنا بيروت ليلاً، و لم يعلم بوصولنا أحد. كما اتصلنا بشقيقه نصير، الذي كان في عمان، فوافق أن يحضر أيضاً.

في اليوم الثاني لم نتصل بأحد، حتى بأقرب الناس لنا. واتجهنا في المساء نحو بناية اليونسكو، وصلنا قبل عشرة دقائق من بدء الاحتفال. كانت «رنا دبيسي» إحدى اعضاء جمعية الجادرجي وعريفة الحفل واقفة في باب اليونسكو. فتحت عينيها الواسعتين مستغربة، عندما فوجئت برفعة يتجه نحوها. ثم اتجه المعماريون للترحيب بقدومه، و لم يصدقوا أنه سيشاركهم في الاحتفال.

و بدأ القاء الكلمات التي أضيف لها الترحيب بزيارة رفعة المفاجئة. شعرتُ أنه أحس براحة نفسية، وسررت أن يكون بين أصدقائه من المعماريين. لكنه أصبح يفكر إنها الرحلة الأخيرة لبيروت، رحلة توديع أصدقائه.

شعرت بألم يسري في أعماقي، عندما أعاد ثانية أمامي: إنها آخر سفرة لي لبيروت، وأجبته: أنت تنظر للأمور نظرة إيجابية، فلمَ تقطع عليك الطريق يا رفعة؟ وأتمنى آلا تكون آخر سفرة لنا إلى بيروت. قضينا اسبوعين فيها والتقينا بمعظم الأصدقاء والمعماريين.

عدنا إلى لندن، رفعة يصارع الزمن، فهو منكب على إكمال كتابه

Twitter: @ketab_n

الأخير، ليقدمه إلى الناشر، بالرغم من التعب الفكري الذي يهيمن عليه. لكنه لم يحل دون استمراره في القراءة والكتابة، فالقراءة والكتابة هما الحياة في نظره، والتوقف عنهما هو التوقف عن الحياة.

سلّم رفعة الكتاب إلى دار النشر، صدر الكتاب بعنوان: «دور المعمار في حضارة الإنسان»، وبذلك شعر بأن عبئاً قد أزيح عن كاهليه.

×××

Twitter: @ketab_n

الملاحق

-١-

زيارة جبال الهملايا والقاعدة التي تنطلق منها البعثات إلى قمة أفريست

في نهاية عام ١٩٧٥، سافرنا إلى الهند، إذ كانت سعاد الراضي تحدثنا عن تجربتها في الهند عندما كان زوجها سفير العراق في الهند. وكانت علاقتها طيبة برئيسة الوزراء أنديرا غاندي. وكنا نود أن نزور الآثار في شمال وجنوب الهند، فهما حضارتان مختلفتان تماماً. فقررنا زيارة شمال الهند أولاً، ثم زيارة جنوب الهند في رحلة ثانية.

وصلنا نيودلهي، وسافرنا لزيارة منطقة راجستان والمناطق المحيطة بها. كنا على علاقة جيدة بالسفير الهندي في بغداد، وعندما جاء المسؤول عن المتحف الحديث في نيودلهي إلى بغداد، تعرفنا عليه، وأصر أن نزوره في نيودلهي. فاتصلنا به، وزرنا المتحف الفن الحديث، وفي المساء دعانا على العشاء في داره. كان الطعام نباتياً، لكن برزت مهارة الطباخ من خلال الطعام الذي قدم لنا. أثناء الحديث عن زياراتنا للمناطق الأثرية، علمت زوجته أننا سنزور بمباي/ممباي، فأعطتنا بطاقة بعنوان أخيها لكي نتصل به تلفونياً، فدعانا للعشاء عندما وصلنا ممباي.

تعتبر ممباي من أهم المدن في الهند بعد العاصمة نيودلهي. لكني استغربت من الفقر المدقع مقابل الغنى الفاحش، الذي لا تشعر به في

Twitter: @ketab_n

العاصمة نيودلهي، لكنك تحس به في ممباي. هذا التناقض والفجوة الواسعة بين الناس، كانت وما زالت موجودة في عهد أنديرا غاندي، رئيسة وزراء الهند آنذاك.

أقمنا في فندق تاج محل، من الطراز الكولونيالي البريطاني، انتظرنا في مدخل الفندق في المساء، وإذ بسيارة مرسيدس ضخمة، ذات زجاج أسود تقف أمام الفندق. بدت الدهشة على وجهينا، سيارة مرسيدس تتسع لسبعة ركاب تتهادى أمام أعيننا، لم نصدق ذلك، بعد أن ملت أعيننا من مشاهدة موديل واحد من سيارات الفيات fiat، هو موديل الخمسينيات!! حتى إن سيارة السفير الهندي الذي كان في العراق زارنا بسيارته الفيات الصغيرة الحجم.

وصلنا الدار، وإذا به ليس بدار أو فيلا، وإنما عمارة مكونة من ١٤ طابقاً، يؤلف متحف العائلة الخاص الطوابق الخمسة الأولى، الذي يحتوي على أنواع من الأسلحة القديمة والأحجار الثمينة والمعابد المحفورة من العاج. أما الطابق السادس والسابع فخصص لسكن العائلة، وبقية الطوابق فهي المكاتب التي تعود لشركاته، وخصص الطابق الرابع عشر لمسبح العائلة.

علمنا إنها عائلة تاتا Tata. التي هي من أغنى العائلات في الهند، حيث يملكون أكثر من سبعين شركة آنذاك، من شركات السيارات إلى معامل الفولاذ.

أقيم العشاء في الطابق الخامس، المخصص في المتحف لأحجار الجيد Jade، بأنواعه وألوانه، المنحوتة على شكل تماثيل مختلفة الحجم. كانت النساء تتحلى بالأقراط والأساور والقلائد التي تحلي صدورهن وأيديهن، وكأن هنالك منافسة خفية بينهن، ليعرضن أفخر المجوهرات، ولكن بزتهن صاحبة الحفل، زوجة تاتا، فقد كانت

Twitter: @ketab_n

المجوهرات التي تحلي صدرها ومعصمها لا مثيل لها إلا في المتاحف العالمية.

عدنا إلى نيودلهي وكانت في انتظارنا بطاقتان لحضور مهرجان الموسيقى الهندية الذي استمر أربعة أيام. ذهبنا إلى القاعة، التي كانت مليئة بالحضور، وكان الطلبة جالسين على خشبة المسرح، يحيطون بالموسيقيين الجالسين في الوسط. وإذا بنا نجلس في أحسن مقعدين في وسط الصف الثاني. علمنا بعد ذلك إن إحدى النساء التي تعمل مع رئيسة الوزراء أنديرا غاندي **Indira Gandhi**، بعثت لنا البطاقات، فقد التقت بنا في إحدى المناسبات وجرى الحديث عن الموسيقى الهندية. فتخلت عن حضور المهرجان وبعثت بطاقتها لنا.

كانت هذه فرصة مهمة لنا لمشاهدة حفلات الموسيقى الهندية الكلاسيكية، فقد اشترك في المهرجان أهم عازفي الهند. من بينهم علي أكبر خان[١٤٤] أهم عازفي السيتار، الذي لم يعزف في الهند منذ عشرين عاماً. وكان العزف يبدأ في الساعة السابعة مساء ولا ينتهي قبل الثانية صباحاً. أما اليوم الرابع والأخير، فقد بدأ العزف من الساعة السابعة مساء واستمر حتى السابعة صباحاً، أي اثنى عشرة ساعة. كان آخر من عزف علي أكبر خان، الذي بدأ العزف في الرابعة واستمر حتى السابعة صباحاً. فظل الجميع في اماكنهم حتى انتهى المهرجان.

١٤٤- علي أكبر خان: ١٩٢٢- ٢٠٠٩، من أهم موسيقيي الهند، تعلم العزف على الساروود والسيتار وحتى الطبلة من والده، وكان يتدرب لساعات طويلة على العزف. كان له دور مهم في انتشار الموسيقى الهندية في الغرب، إذ كان يعزف مع رافي شانكر أيضاً. قال عن تدريبه: «إذا تدربتَ لمدة عشر سنوات، ربما تحس أنك ترضي نفسك، ولكن بعد عشرين عاماً ربما تصبح مؤدياً جيداً وترضي المشاهدين، وبعد ثلاثين عاماً، ربما ترضي حتى استاذك، لكن عليك أن تتدرب سنين طويلة أخرى لكي تصبح فناناً حقيقياً، عندئذ ربما ترضي حتى الله.»

Twitter: @ketab_n

كانت من المهرجانات الممتعة جداً، كما كانت درساً مهماً لنا، في استيعاب هذا النوع من الموسيقى التي كانت غريبة عن أجوائنا. وتبرع بعض الحاضرين الذين كانوا في الحفل، في مرافقتنا لاختيار مجموعة من الأسطوانات للموسيقى الهندية لكي يكون بامكاننا سماعها بصورة جدية في بغداد.

ثم سافرنا إلى مدينة بنارس/Varanasi، المرتبط اسمها بنهر الكنج، وهي من المدن المقدسة والمدينة الروحية بالنسبة للهنود، حيث يحرق الموتى ويرمى الرماد في نهر الكنج. وتعتبر من أقدم المدن المسكونة في العالم. ومن المدن المفضلة للإله شيفا.

خرجنا من الفندق في الساعة الخامسة صباحاً واخذنا قارباً في نهر الكنج مع دليل، لكي نستطيع مشاهدة طقوس حرق الموتى، ولكي يكون باستطاعة رفعة أن يصور ما يجري من طقوس. وبدأ رفعة بالتصوير من الساعة الخامسة صباحاً حتى الساعة الثامنة. كان بالصدفة الدليل الذي رافقنا هو الدليل نفسه الذي رافق اللورد سنودون/Lord Snowdon، زوج الأميرة ماركريت، شقيقة ملكة بريطانيا عندما زار مدينة بنارس. وقص علينا أن لورد سنودون استعمل ١٣ فلماً خلال أربع ساعات من التصوير، ورفعة هو الشخص الثاني الذي استعمل عشرة أفلام خلال ثلاث ساعات.

Twitter: @ketab_n

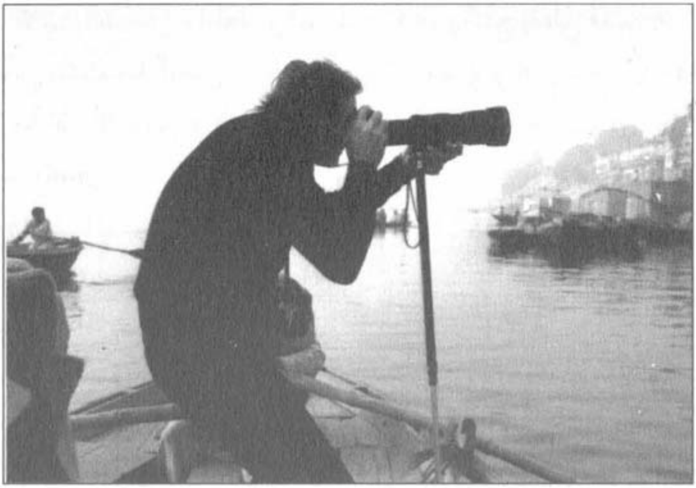

رفعة يصور طقوس الموتى في نهر الكنج، تصوير: بلقيس شرارة.

عدنا إلى العاصمة نيودلهي، وسافرنا بالطائرة إلى نيبال Nepal، العاصمة جميلة، طابع العمارة يختلف عن الهند، فالنيباليون بوذيون، ومعابدهم تختلف تماماً عن المعابد الهندية. كانت زيارتنا للنيبال بالدرجة الأولى، لزيارة جبال هملايا، التي تطل منها قمة أفرست.

فاستقلينا هليكوبتر، كنا أربعة أشخاص والطيار. وصلنا إلى القاعدة التي ترتفع ١٥ ألف قدم عن سطح البحر، حيث لا يوجد غير معبد بوذي صغير، وفندق يشرف على قمم جبال الهملايا، أطلق عليه فندق هيلاري(١٤٥)، وهو أول رجل تسلق قمة أفرست عام ١٩٥٣ .

١٤٥-إدموند هيلاري:Sir Edmund Percival Hillary ، ولد في نيوزيلند ١٩١٩-٢٠٠٨، كانت هوايته تسلق الجبال، وفي ١٩٥٣ كان مع البعثة البريطانية بقيادة جون هانت John Hunt، وهو أول من وصل إلى قمة أفرست مع الشربا النيبالي تنزنك نوركي، وأطلقت عليه جريدة التايمس اللندنية، من أنه من بين المئة شخص الذين اثروا في القرن العشرين. كرس حياته للقيام بالأعمال الخيرية، وأقام مؤسسة تجمع التبرعات لمساعدة الشربا في النيبال، الذين يرافقون المتسلقين في رحلتهم.

Twitter: @ketab_n

كانت الشمس ساطعة، والسماء صافية، والثلج يغطي قمم الجبال، ولكن طلب منا الدليل أن نقف تحت الشمس، وحذرنا من آلا نقف في مكان بلا شمس، لأن درجة الحرارة تنخفض حالاً إلى ١٦ درجة تحت الصفر.

بلقيس ورفعة، قمة أفرست 1975.

كان معنا في الطائرة طبيب أمريكي يعمل في منظمة الصحة العالمية في باريس. وعندما عرف أننا من العراق، أخذ يسألنا عن بعض الأطباء العراقيين، منهم الطبيبان غانم عقراوي وأخوه يوسف عقراوي. دخلنا الفندق لنشرب الشاي، وإذا بشاب بريطاني متخصص بالجغرافية، قضى عاماً كاملاً في دراسة جبال كردستان التي تقع بين حدود إيران والعراق. ألتفتُ إلى رفعة وقلت له: ما أصغر العالم، نحن في قاعدة قمة أفرست، نرتفع ١٥ ألف قدم عن سطح الأرض ونتكلم عن جغرافية العراق، وعن أطباء عراقيين لنا معرفة بهم!!.

×××

Twitter: @ketab_n

-٢-

السفر إلى اليمن واغتيال رئيس الجمهورية إبراهيم الحمدي

كنا نسافر كثيراً لمشاهدة البلدان في مختلف أرجاء العالم، ولم تقتصر زياراتنا على البلدان الأوربية وإنما شملت البلدان في القارات الأخرى. لكني سأذكر الأحداث غير المتوقعة التي حدثت أثناء زيارتنا لتلك البلدان. ففي عام ١٩٧٧ سافرنا إلى اليمن وهي المرة الأولى التي نزور هذا البلد. كانت اليمن متخلفة جداً من جميع النواحي، خاصة من الناحية الاجتماعية، فلم اشاهد امرأة في الشارع أثناء زيارتنا واقامتنا في صنعاء، وإنما كن يقبعن خلف الجدران في دورهن، كما لم يكن آنذاك فندق محترم يمكن الإقامة فيه. لهذا أقمنا في دار سلمى الراضي(١٤٦) التي كانت مسؤولة عن ترميم المدرسة الأميرية.

كان المهندسون المصريون مهيمنين على التصميم والبناء في اليمن آنذاك. لكن لم يكن عندهم الحس المعماري الكافي، لكي يحافظوا على العمارة القديمة أو يحاولوا أن يطوروا التراث اليمني المعماري.

١٤٦- سلمى الراضي: ١٩٣٩-٢٠١٠، درست الآثار في جامعة كيمبرج، وحصلت على الماجستير من جامعة كولمبيا، والدكتوراه من جامعة روتردام في هولندة. كما كرست حياتها في ترميم المدرسة الأميرية، وهي مدرسة وجامع وقصر، التي اسسها الظافر عامر بن عبدالوهاب، ملك الدولة الطاهرية. قضت سلمى ٢٢ سنة من حياتها في ترميمها. كرمها الرئيس اليمني كونها صاحبة المشروع بمنحها ميدالية الثقافة. كما نالت جائزة الأغا خان العالمية في الحفاظ على الإرث المعماري، عام ٢٠٠٥، عن ترميم المدرسة الأميرية.

Twitter: @ketab_n

مع ان اليمن كانت غنية جداً بالتراث المعماري. من هنا اعتبرت اليونسكو العاصمة صنعاء مدينة تراثية للمحافظة عليها.

قضينا اسبوعين في اليمن، زرنا المدن المهمة ورافقتنا سعاد الراضي، والدة سلمى، واستاذ امريكي، كان قد كتب كتاباً عن اليمن، لكنه كان يحتاج إلى مقابلة إبراهيم الحمدي رئيس الجمهورية لكي يكمل الكتاب. فقضى المدة بصحبتنا، حتى يحين موعد مقابلته الرئيس.

لم تكن الطرق مبلطة بين القرى والمدن، والطريق الوحيد المبلط كان بين صنعاء ومدينة تَعز. وفي بعضها لم يكن هنالك طرق للسيارات، وإنما الواسطة الوحيدة للنقل هي الحمير أو البغال.

و استغربتُ كثيراً من اهتمام اليونسكو بحي «الكاع» حسبما يطلق عليه اليمنيون وهو حي اليهود، الذي هُجِر عندما رحل يهود اليمن إلى إسرائيل. فالحي مبني من الطين، والبيوت تتألف من طابقين بينما البناء المعتاد بالحجر، ومؤلف من ستة طوابق أو أكثر، حتى إن المهتمين في مقر هيئة الأمم المتحدة بتراث اليمن كانوا يسكنون في هذا الحي. لكنني وجدته حياً عادياً لا أهمية له من الناحية المعمارية. وأهميته الوحيدة أن اليهود كانوا يقطنون فيه. ويهود اليمن هم من أقدم يهود العالم بعد يهود العراق.

كانت الحياة تتوقف نسبياً قبل الثانية عشر ظهراً، فالجميع يتجه لشراء «القات»[١٤٧]، وتبدأ جلسات القات بعد تناول الغداء، فتتعطل

١٤٧- القات: Catha edulis، هي شجيرة بطيئة النمو، تنمو في شرق إفريقيا وغرب شبه الجزيرة العربية (اليمن). تحتوي نبتة القات على مادة المينوامين ويدعى الكاثينون وهو منشط، ومسبب لإنعدام الشهية. ويسبب حالة من النشاط الزائد، حيث صنفته منظمة الصحة العالمية كعقار ضار. ومن الممكن أن يسبب حالة من

Twitter: @ketab_n

الحياة وتفرغ الشوارع من المارة، والجميع في بيوتهم، يجتمعون في غرفة خاصة، يمضغون بها القات. إنه شعب يحاول أن يعمل بأقل ما يمكن من الوقت في النهار، لكي تتاح له الفرصة لمضغ القات. كانت هذه الظاهرة غريبة علينا.

خصصنا آخر خمسة أيام لزيارة سد مأرب والآثار الحميرية. سافرنا بالطائرة صباحاً، وأقمنا في فندق/نزل، في مدينة «حصون» القريبة من سد مأرب. استغربنا ونحن نتجه إلى الفندق أن الطريق مبلط، وإذ بعلب الكوكولا التي يرميها المارة في الشارع وتمر فوقها السيارات، هذه اعطت الانطباع ان الشارع مبلط، وهو في الحقيقة مبلط بعلب الكوكولا. كما تجد في شوارع مدن اليمن آنذاك، أكياس البلاستيك التي تتطاير في الشوارع والأزقة عندما تهب الريح. فلا يوجد نظام لتنظيف المدن. واكياس البلاستيك وعلب الكوكاكولا هي من المظاهر الغربية التي دخلت سوق اليمن مؤخراً، ولم يجدوا حلاً لتلك الظاهرة بعد.

زرنا سد مأرب، وبعد أن شرح لنا الدليل تاريخ السد وحضارة سبأ، عدنا إلى الفندق ليلاً، وفي اليوم التالي بدل من أن نزور الآثار الحميرية، وإذا بالسائق، يقول لنا لقد قتل إبراهيم الحمدي[148] رئيس

الإدمان، لكنه أقل من الكحول والتبغ وممنوع استعماله في أغلب دول العالم. ويرجع تاريخ مضغ القات في اليمن إلى القرن الثامن عشر. وهو منتشر بصورة خاصة بين الفقراء.

١٤٨- إبراهيم الحمدي: ١٩٤٣-١٩٧٧، قام الحمدي بانقلاب على الأرياني ١٩٧٤، وهو الرئيس المدني الوحيد الذي حكم اليمن. بدأ الحمدي بالتقليل من دور القبائل في الجيش والدولة وألغى وزارة شؤون القبائل بإعتبارها تعيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وتحولت إلى إدارة خاصة تحت مسمى "الإدارة المحلية" تقدم الاستشارة. وقام بتجميد العمل بالدستور وحل مجلس الشورى، وفي ٢٧

Twitter: @ketab_n

الجمهورية، وربما ستقلع آخر طائرة تعود لمطار صنعاء. فوضعنا بسرعة الحقائب في السيارة واتجهنا نحو المطار.

كان الطريق رملياً، غير مبلط، متعرجاً، تعلوه التلال الصغيرة، يحاول السائق بأقصى سرعته أن يصل المطار. وعندما كنا نصارع التلال والوديان الرملية بسيارة البيكب، أطلت الطائرة فوق رؤوسنا، فأصبحنا نطارد الزمن، محاولين الوصول قبل أن تحط وتقلع الطائرة. لأنها كانت آخر طائرة متجهة إلى صنعاء ذلك اليوم. وصلنا عندما كان يحاول المضّيف أن يرفع سُلم الطائرة. فتوقف وانتظرنا، واستطعنا أن نعود بآخر طائرة من سد مأرب إلى مطار صنعاء. فلم نكن ندري ما الذي سيحدث إن ثارت القبائل في شمال اليمن التي لم تكن موالية للحكومة، فربما نعجز عن العودة إلى صنعاء.

وصلنا مطار صنعاء، كان المطار يعج بالمسافرين من السياح، الجميع لا يدري ما الذي سيحدث بعد اغتيال رئيس الجمهورية وأخيه. لكن بالرغم من ذلك كان التفتيش دقيقاً، واستغربت عندما بدأ المسؤول في المطار يتلمس حقيبتي، ويسألني عن رأيي بسد مأرب. فقد كان التفتيش دقيقاً عن الآثار في مطار صنعاء. لأن قطع كثيرة من الحجر كانت منتشرة في أرض سد مأرب ومن الممكن وضعها في حقيبة الملابس.

يوليو ١٩٧٥، الذي أطلق عليه "يوم الجيش" أصدر قرارات بإبعاد العديد من شيوخ القبائل من قيادة المؤسسة العسكرية وأجرى إعادة تنظيم واسعة للقوات المسلحة، فأستبدل العديد من القادة العسكريين خاصة ممن يحملون صفة "شيخ قبلي"، بقادة موالين لتوجه الحركة التصحيحية التي يقودها. وقام بتعيين الغمشي مشيراً في القوات المسلحة، فقام بدوره بالإنقلاب على الحمدي، وعين علي عبدالله صالح حاكماً عسكرياً على تعز.

Twitter: @ketab_n

قضينا الأيام الأخيرة حبيسي الدار، بعد إعلان منع التجول. واسقط بيد صديقنا الأمريكي الذي كان في انتظار مقابلة الحمدي لينهي كتابه، فسافر إلى نيويورك من غير مقابلة رئيس الجمهورية.

×××

Twitter: @ketab_n

-٣-

السفر إلى اليابان/ الموقف من المرأة

سافرنا في ربيع ١٩٧٨ إلى اليابان، وقضينا شهراً كاملاً. وطلب رفعة من أحد أصدقائه، من المعماريين اليابانيين، أن يحجز لنا في فندق ياباني، لأنه يرغب في أن يعيش على الطريقة اليابانية وليس في الفنادق الاعتيادية على الطريقة الأوربية.

وصلنا طوكيو وأقمنا في فندق الإمبريل Imperial، وهو الفندق الذي صمم بعض أجنحته، المعمار الأمريكي فرنك لود رايت Frank Loyed Wright. وقد تضعضعت اسسه في الزلزال الذي أصاب طوكيو عام ١٩٢٣، لذلك هدم ١٩٦٧، وأعيد بناؤه بتصميم اعتيادي مؤلف من عدة طوابق، لا يختلف عن أي فندق في أوربا أو أمريكا.

سافرنا بعدها إلى كيوتو عاصمة اليابان القديمة. المدينة جميلة جداً، بشوارعها القديمة وبيوتها وحدائقها التي تختلف عما نحن معتادون عليه. فالحدائق منمنمات لما هو موجود في الغرب.

و أقمنا في أفخر فندق ياباني[١٤٩] في المدينة. خصصت لنا فيه غرفة

١٤٩- علمنا بعد ذلك أن هذا الفندق مخصص للوفود المهمة، تقيم فيه عند زيارتها مدينة كيوتو. ومن الصعب الحجز فيه من غير موافقة وزارة الخارجية. وهو من أغلى الفنادق في اليابان. قلت لرفعة: أنام على وسادة كالصخرة، وندفع هذا المبلغ الباهض!، ثم أعامل كفرد من المرتبة الثانية!.

Twitter: @ketab_n

كبيرة مطلة نوافذها الواسعة على حدائق باشجار الكرز Cherry، بالوانها الوردية والبيضاء. الموسم، كان ربيعاً.

بلقيس في الغرفة اليابانية في كيوتو 1978.

قدمت إدارة الفندق لنا كيمونو Kimon قطنية، وهي الملابس اليابانية، فخلعنا ملابسنا وعلقناها، إذ لا وجود لخزانة، الغرفة فارغة من الأثاث، باستثناء مرآة طويلة متحركة.

ثم انتقلنا إلى غرفة الطعام، تتصدرها طاولة خشبية بكرسيين من غير أرجل. جاءت إمرأتان (جيشتان) وأجلستا رفعة على الكرسي الذي يتصدر الغرفة، وجلستُ مقابله، قرب الباب. وما جذب انتباهي أن الاهتمام منصب على رفعة فقط، وشعرت بالإهمال التام، وكأن لا وجود لي.

جلب الطعام، بصحون صغيرة، كل واحد منها قطعة فنية رائعة، وبدأت إحدى «الجيشات geisha» بإطعام رفعة، واستمرت في

Twitter: @ketab_n

التحدث معه، عن كل أكلة والمواد التي تتكون منها، وتشرح له الطريقة التي يجب أن يتناول بها هذا النوع من الطعام. وأنا أتطلع بعيني، غير مصدقة ما يجري أمامي، وكأنني أعيش قصة خيالية من قصص القرون الوسطى.

أول مشكلة جابهتها في مثل هذه الفنادق تناول الطعام بالعيدان الخشبية chopstick، فاضطررت في أول يومين الأكل باليد لعدم وجود شوك وملاعق، حتى تغلبت على هذه الظاهرة الجديدة، وفي نهاية السفرة، اصبحت من الخبيرات في استعمال العيدان كما يستعملها اليابانيون أنفسهم.

بعد أن انتهينا من العشاء الذي كان مكوناً من ١٢ كورسا، ونحن نجلس على الارض، بدأ كل منا في قراءة كتاب عن الأدب الياباني، في المسرح أو الرواية.

في العاشرة ليلاً، عادت «الجيشتان» وفرشتا فراشين على الأرض مع وسادتين ولحافين، وأغلقتا الستائر وخرجتا من الغرفة. حاولت النوم، لكن النوم جفاني، اتقلب من جهة لأخرى، الوسادة قاسية كالصخرة تحت رقبتي، دفعتها، وحاولت أن أنام من غير وسادة، فلم اشعر بالراحة، فجلبت بعض الملابس وكورتها بدل الوسادة، واستطعت أن اغمض عينيّ.

التجربة التي مرّت عليّ في اليابان تعود إلى المجتمع الذكوري في العصر الزراعي، حينما خسرت المرأة دورها وأصبح الرجل هو المهيمن على أدوات الإنتاج الزراعي الذي أدى إلى إنتاج الفائض والملكية، واصبحت المرأة منذ ذلك العصر تعامل كالرقيق تباع وتشترى. فهي لمتعة الرجل والمحافظة على إدامة نسله. فـ»الجيشة» في اليابان هي لخدمة الرجل وسد حاجته وإمتاعه، بالضبط كما كان دور

Twitter: @ketab_n

الجواري في القصور العباسية أو السلطنة العثمانية. فالأهمية في هذا البلد للرجل، ووجود المرأة هي لخدمته.

لفت انتباهي عندما زرنا مقبرة السموراي samurai، وهي مقبرة المحاربين التي تعود إلى القرن السادس عشر، عدد الباصات المحملة بالنساء، وعندما سألت المترجم، أجابني: إن الرجال الذين يعملون في الشركات، يدعون في عطلة الأسبوع إلى الإقامة في نوادي الشركات أو لعب الكولف gulf، ويعتبر هذا نوعاً من الترفيع في الوظيفة، فلا يمكن للموظف أن يعتذر، لكي يقضي عطلة الأسبوع مع عائلته. أدت هذه الحالة، إلى أن تبقى النساء وحدهن، وحلاً لهذه المشكلة تجتمع النساء على شرب القهوة أو السفر الجماعي في زيارة أماكن أثرية أو دينية في اليابان. لقد دخلت المرأة معترك الحياة بعد الحرب العالمية الثانية تدريجياً، ونشأ جيل جديد الآن، تشارك فيها المرأة في الغالب الفعاليات الخاصة بالمجتمع، بما في ذلك السياسة.

و عندما عدنا إلى طوكيو تنفست الصعداء، عدنا إلى الحضارة الغربية، فأقمنا في فندق غربي الطراز وهو Hotel Okra، المؤلف من عدة طوابق وسط المدينة[١٥٠]. و شعرت أن لي قيمة اتمتع بها.

×××

١٥٠ – كانت تلك الرحلة التي قضينا شهراً كاملاً، من أغلى الرحلات التي قمنا بها، فقد كان باستطاعتنا أن نشتري داراً (كما تقول أم رفعة) بالمبلغ الذي دفعناه. لكننا عشنا حياة النخبة في اليابان!

Twitter: @ketab_n

-٤-

الرحلة إلى افغانستان وباكستان

وهو العام نفسه ١٩٧٨، الذي سافرنا به إلى أفغانستان وباكستان. كنا خليطاً من السياح الأمريكيين والإنكليز والدنماركيين الذين تهمهم الآثار. فالرحلة كانت آثارية، وكان بصحبتنا استاذ اللغة العربية في جامعة كلاسكو، المتخصص في النقوش الإسلامية في تلك المنطقة. كان يلقى علينا محاضرة مساء عما سنشاهده في اليوم التالي.

كانت الأوضاع السياسية غير مستقرة، فلم نستطع زيارة قندهار، فقد بدأت المناوشات بين العشائر والحكومة آنذاك. كما كانت التظاهرات تغطي شوارع مدينة كابل بالطلبة وحشود من الناس حاملين الإعلام واللافتات المؤيدة للحكومة. كانت الحكومة يسارية، ومسندة من قبل الإتحاد السوفيتي[١٥١]. وكان منع التجول في الليل دائماً في المدينة، فتفرغ الشوارع ويهيمن عليها صمت مطبق، لا نسمع إلا سيارات الجيش المتنقلة في عتمة الظلام.

كما كان عدد كبير من السياح الشباب الذين أطلق عليهم في أوربا الهيبيز Hippies، متواجدين في كابل والمدن الأخرى، لأن المروانة والحشيش متوفران بكثرة، وتباع في الأسواق ومن ممكن الحصول عليها بأسعار بخسة.

١٥١- احتل الاتحاد السوفيتي أفغانستان في نهاية عام١٩٧٩، أي بعد عام على زيارتنا.

Twitter: @ketab_n

تركنا العاصمة كابل لزيارة الأماكن الأخرى، الحياة هادئة رتيبة، وكأن البلد مقسوم إلى قسمين لا علاقة لأحدهما بالآخر. كان أهم ما يجدر ذكره في هذه الزيارة هو قضاء ثلاثة أيام في باميان bamiyan. لم يكن هنالك فندق لنقيم به، فنصبت لنا خيام تحتوي على أسباب الراحة التي يحتاج إليها السائح. وفي اليوم الثاني زرنا التمثالين المحفورين في الجبل من القرن السادس. صعدتُ خلف الجبل، حتى وصلنا إلى أعلى قسم وهو الرأس، وهنا شاهدنا ضخامة التمثالين.

كان التمثال الكبير بارتفاع ٥٣ متر والصغير بارتفاع ٣٥ متر. يمثل التمثالان فن قندهار، وقد ازدهرت تلك المنطقة لأنها كانت تقع على طريق الحرير التجاري، وهو طريق القوافل الذي يربط الصين بالعالم الغربي. وكانت في المنطقة مجموعة من المعابد البوذية، أصبحت مركزاً للطقوس الدينية، والفلسفة والفن. وكان يعيش الرهبان في تلك المعابد اشبه بعيشة الرهبان في الأديرة في أوربا. ظلت باميان مركز البوذية من القرن الثاني حتى السابع الميلادي، عندما استولى المسلمون عليها في القرن التاسع(١٥٢). كما هي التماثيل التي نسفها «الطالبان» باسم الإسلام.

×××

١٥٢- كم تألمنا رفعة وأنا، عندما شاهدنا «الطليبان» يفجرون التمثالين بالديناميت، وقضوا بذلك على ما تمثلانها من حضارة ممتدة في التاريخ.

Twitter: @ketab_n

-٥-

الرحلة إلى صحراء الجزائر

قام بتنظيم الرحلة إلى صحراء الجزائر المعمار الأسباني ريكاردو بوفيل[١٥٣] Ricardo Bofill.

فقد دعانا إلى برشلونة والإقامة في داره لبضعة أيام، وهو مكون من عدد من السايلوات، التي كانت تستعمل لخزن الحنطة والشعير، اخذها بوفيل بدل أجوره. حوّل بعضها إلى مكتب ولعقد الاجتماعات، والبعض الآخر، للسكن والضيوف.

كان بوفيل يحدثنا عن سفره للصحراء الجزائرية، وعن صمت الصحراء وجمالها، فقررنا، رفعة وأنا، أن نرافقه في رحلته. كان عددنا عشرة أشخاص، معظمهم من الذين يعملون معه في المكتب.

قضينا ليلة في عاصمة الجزائر وطرنا في اليوم الثاني لمدة أربعة ساعات حتى وصلنا مدينة تمنراست، التي تبعد عن العاصمة ما يقرب ألفي كيلومتر. وهي عاصمة الهقار، موطن اسطورة الطوارق.

١٥٣- ريكاردو بوفيل: ولد ١٩٣٩ في بارشلونة، من عائلة متوسطة، كان والده مقاولاً، وأيد الجمهوريين ضد فرانكو. درس بوفيل في بارشلونة، وأصبح شيوعياً واضطر أن يكمل دراسته في سويسرا. اصبح مسؤلاً عن مؤسسة العائلة في عام ١٩٦٣. وضم مجموعة من الشباب الموهوبين، من المهندسين المدنيين والمعماريين ومخططي المدن وكتّاب وفلاسفة. وحول Walden 7 المؤلف من ثماني سايلوات إلى مكتب ومكان اجتماع ومكتبة ومحل سكن له، وأحاطه بالحدائق في وسط المنطقة الصناعية في بارشلونة. له مشاريع في أكثر من خمسين دولة في أنحاء العالم، وحصل على عدد من الجوائز.

Twitter: @ketab_n

كان في انتظارنا أربعة سيارات (بيكب) قادرة على السير في الصحراء الوعرة. أحداها للموئن مع طباخ، والثلاثة الأخرى لنا. بدأنا الرحلة، المناظر في البداية كانت رتيبة مملة، كل شيء هادئ، لا نرى إلا اللون الأصفر، فالتراب أصفر، لكنه يختلف عن الصحراء التي بين العراق وسوريا، فهو حبات خشنة وليست ناعمة كالتي تعودنا عليها. الصحراء شاسعة، جميلة، لا نهاية لها، تتغير مناظرها بارتفاع الجبال الرملية، والكهوف التي تتخللها.

سقنا حتى المساء، فوصلنا جبال رملية تتخللها كهوف ضخمة. تناولنا العشاء بجانبها، ثم اقتطع كل منا جانباً خلف الكهف، وسلمني السائق "دولكة" صغيرة بحجم قدح البيرة الكبير، وفتح جلد ماعز، وملأها بالماء الذي عليّ ان استعمله في غسل كامل جسدي، أي بكلمة أخرى (الحمام). لم أمر بمثل هذه التجربة من قبل، فنحن معتادون على فتح حنفية الماء أو الدوش، ويظل الماء يجري أثناء غسل البدن، لكن انقذني رفعة بتعليماته، إذ مرّ بتقنين الماء عندما عاش في إنكلترا عام ١٩٤٦ بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، واستمر الاقتصاد بالماء لمدة سنة بعد أن وصل لندن.

فغمس السفنجة بالماء ودلكها بالصابون، وبدأ ينظف جسده، ثم عصرها، ووضعها بالماء النظيف وبدأ ينظف الصابون، ويعصرها ثانية ويغمسها "بالدولكة" حتى نظف بدنه، ثم لفه بمنشفة، ولبس بيجامته.

راقبتُ رفعة عن كثب وطبقت الخطوات نفسها، وغسلت بدني، وهي المرة الأولى التي أحس بها بمدى أهمية الماء. استمرت هذه العملية اسبوعاً، وبمرور الأيام تعودتُ على هذا النوع من الحمام اثناء السفرة، وشعرت كيف يتأقلم الإنسان بسرعة في الواقع الذي يجد نفسه فيه. وعند عودتنا إلى تمنراست، شعرت بالنعمة التي حرمنا منها،

Twitter: @ketab_n

واحسست بنوع من البذخ عندما وقفت في حمام غرفة الفندق تحت "الدوش"، قبل أن نستقل الطائرة.

زرنا بعض الكهوف المنتشرة في الصحراء، التي تعود إلى ما قبل التاريخ. وكان عند السواق نوع من الحدس عندما يشاهدون ضوءاً من بعيد في الليل، فباستطاعتهم أن يقدروا المسافة التي تبعد عنا من خلال قوة الضوء، إن كان ساعة أو ساعتين. كنت اندهش من تلك الدقة. فقد شاهدنا مرة أضواء سيارات بعيدة، وقال السائق، هذه سيارات تبعد عنا ساعتين، وبالفعل كان عدد من الألمان الذين يقومون برحلة شبيهة بما كنا نقوم بها. وصلوا بعد ساعتين وقضوا معنا ساعة واستمروا في رحلتهم.

كان بوفيل ورفعة يجلسان بعد العشاء ويدور الحديث بينهما عن العمارة. كان بوفيل مهتم جداً، عندما كان رفعة يبحث فيما توصل له من الناحية النظرية في العمارة.

عدنا، بعدها إلى بوسطن، إلى عالم مختلف تماماً، فتغيرت الطبيعة، وتلونت الأشجار في الخريف بألوان مختلفة، يتشح بعضها بالأحمر والأصفر والبني، ويصبح اللون الأخضر الطبيعي نادراً أحياناً في بعض الغابات في ولاية ماساشوست. لكن عندما كنا في الصحراء، فالفرد يحس بجمال الطبيعة من حيث سعة وعظمة هذا الكون، وصغر الإنسان فيه.

Twitter: @ketab_n

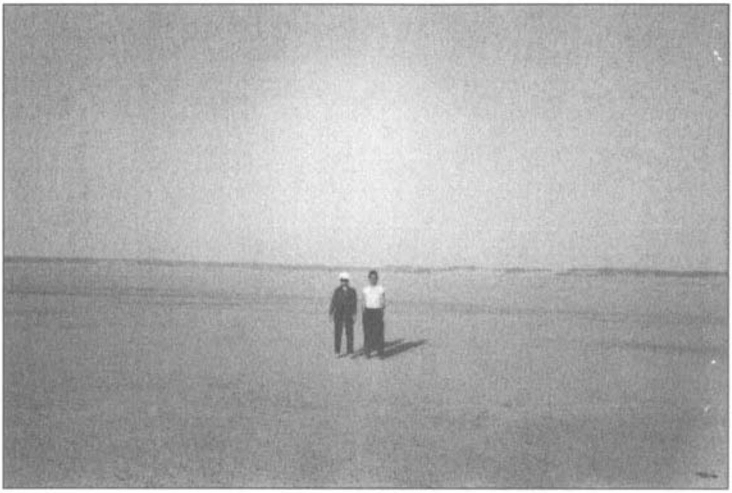

المعمار بوفيل وبلقيس في صحراء الجزائر 1983.

×××

Twitter: @ketab_n

تجولت الذكريات في رأسي، ووجدت نفسي محملة بحقائب من الذكريات، ذكريات المتعة والفرح، ذكريات المعاناة، وذكريات الألم والغبن، وليس هنالك تشّخص إلا في تلك الذكريات. إنها ذكريات تحوم وتقبع في تلافيف دماغ كل منا، وتجعلنا نختلف عن الآخر، فليس هنالك ذكريات نحملها تشبه ذكريات الآخر. إنها حقائب ذات ألوان مختلفة بألوان مزاج وتجربة أصحابها.

وحقيبة المسافر تختلف عن حقيبة الذكريات، لأن في الاولى أشياء ملموسة تسافر معه، لكن حقيبة الذكريات غير ملموسة، تذوب وتختفي مع الزمن بانتهاء حياة الإنسان. وهذه المذكرات هي إحدى هذه الحقائب التي رافقتني وعاشت قابعة في الذاكرة، لأن بعضها قد انمحى. ووجدت أن كتابتها قد اعانتني وأعادتني إلى تقبل الواقع والعيش في الحاضر ثانية.

بلقيس شرارة

ISBN 978-2-843090-20-2

9 782843 090202